سلسلة التراث العَلَوي

١٠

شرح كتاب التنبيه

تأليف

حسن بن حمزة الشيرازي

تحقيق وتقديم

أبو موسى والشيخ موسى

دار لأجل المعرفة

ديار عقل - لبنان

شرح كتاب التنبيه

هويّة الكتاب

سم الكتاب : شرح كتاب التنبيه

سم السلسلة : «التراث العلوي»، رقم ١٠

قديم وتحقيق : أبو موسى الشيخ موسى

باسه وصفحاته : (١٧ × ٢٤ سم)، ٢٧٢ ص.

ار النشر : دار لأجل المعرفة، ديار عقل – لبنان

طبعة الأولى : سنة ٢٠١٠

سلسلة التراث العَلَويّ

١٠

شرح كتاب التنبيه

تأليف

حسن بن حمزة الشيرازي

تحقيق وتقديم

أبو موسى والشيخ موسى

دار لأجل المعرفة

صدر من سلسلة

«التراث العلويّ»

١. رسائل الحكمة العلويّة (١)

٢. رسائل الحكمة العلويّة (٢)

٣. رسائل الحكمة العلويّة (٣)

٤. مجموعة الحرّانيّين، المؤلّفات الخاصّة (١)

٥. مجموعة الحرّانيّين، المؤلّفات العامّة (٢)

٦. المجموعة المفضّليّة

٧. الهداية الكبرى

٨. مجموعة الأحاديث العلويّة

٩. كتب العلويّين المقدّسة

١٠. شرح كتاب التنبيه

تقديم

قلّت المعلومات التي وصلتنا عن حسن بن حمزة الشيرازي، وهو أحد أهم الغلاة النصيريّين الذين حاولوا التوفيق بين فلسفة ابن عربي وبين تيارات الغلوّ وبالأخص تيار النصيريين حيث قتل حسن بن حمزة الصوفي البلانسي بسبب انتمائه اليه في دمشق.

ولد الشيرازي سنة ٦٦٠ هـ في بلدة بلنسية بالأندلس، وكان أجداده من شيراز. وبعد منتصف القرن الثامن الهجري هاجر الى القاهرة، ومنها جاء الى دمشق. هذا ما اشار اليه في مقدمته "وجعلتها هدية مني الى اصدقائنا الحاضرين في الديار المصرية والساكنين في الأقاليم الشرقية والغربية أحاطهم الله برعايته".

كانت دمشق حين وصول الشيرازي اليها سنة "٦٨٣" للهجرة، تزخر باضطرابات سياسية واجتماعية على اثر نزوح التتر والفرنجة عن بلاد الشام. وكان الصراع المذهبي على أشدّه بين القضاة والفقهاء، وقد لعب الحنابلة دوراً هاماً في هذا الصراع، وكان المنظّر لهم أحمد بن تيمية (٦٦١-٧٢٨).

جاء الشيرازي الى دمشق، وكان ابن تيمية في السجن، وترجم له ابن كثير تحت عنوان "قال الرافضي الخبيث"، قال فيه: " وظهر الشيرازي في الجامع الأموي، وكان ممن يقرأ بمدرسة ابي عمر يلبغا الواقعة في سفح جبل قاسيون، وقد سجنه المحتسب أربعين يوماً، فلم ينفع ذلك. وأثناء السجن حرر رسالة في عقيدته، فأظهر مذهبه في الغلو واتهم بالرفض. فرفع أمره الى القاضي المالكي جمال الدين المسلاتي، وأحضر الضراب فأول ضربة قال: لا اله الا الله وعلي ولي الله........ ضربت عنقه يوم الخميس في ١٧ ربيع الأول عام ٧٦٦ هـ، - ١٣٦٥ م وأحرقت العامة جثته كما جاء في البداية والنهاية ج١٤ ص ١٢٤.

جمع الشيرازي بين فلسفة النصيريين ووفق بينها وبين طريقة شيخه ابن العربي، وقد شرح أهم كتبه على يد علامة العصر الشيخ أحمد محمد حيدر.

ثمة رسالتان أخريان للعالم المحقق المدقّق "حسن بن حمزَة الشيرازي" الصّوفيْ البلانسيْ. وقد عثر عليهما الدكتور "صالح عضيمَة" في باريسْ بالمكتَبة الفرنسيَّة بتاريخ ١٩٨٦/٧/٦.

تاريخُ هذا المؤلِّفِ لم يُعرفْ بعد لدينا، ولا نشكُّ أنّ له تاريخاً حافلاً بين أعلام الشيعة لأنه فارسي ولأنّ كوكباً كهذا لا يُستَرُ ضوؤه لا بل شمساً كهذه لا يَخفى شُعاعُها، سيقيِّضُ الله له باحثين يظفرون بهِ غير أنه يعرفُ من مؤلفه هذا أنه من الكُمَّالِ أرباب الكشف والمشاهدةِ وأنه يُكثر من قراءة ابن العربي الصوفي الشهير ويتأثرُ به ويعرفُ الفارضَ معرفةً تامةً. مولده شيرازُ مهدُ التشيع ومنبتُ الغلوِّ، وزمانهُ بعد الفارض والمكزون وابن العربي لأن الفارض والمكزون متعاصران بين أواخر القرن السادس وأوائل السابع، وأجزمُ أنَّ لهُ مؤلفاتٍ غيرَ هذا الكتاب وقد ذكر أنه ألف كتاباً، واعتمادُهُ على نفسه، وعلمُهُ بأحقيةِ مذهبه يفوتان حدّ التصور، وحُكمُهُ على السلوك قاسٍ مُرٌّ شديدُ اللهجة شائكُ المرمى. وقد ذَكَرَ أنَّهُ ألّفهُ خصيصاً لإخوانه الساكنين في الديار المصرية والحاضرين في الأقاليم الشرقية لتعذُّر الاجتماع معهم وكأنهُ كان قد شاخ.

والشيخ أحمد محمد حيدر شارح كتبه ولد في قرية حلة عارا -بيت ياشوط- من منطقة جبلة في محافظة اللاذقية عام ١٣٠٨ هـ الموافق ١٨٨٨ م.

نشأ وترعرع في بيت تقى وعلم فورث عن والده -رحمه الله- الورع والتقى وعلو الهمة وشيئاً من ثروة حاول في البداية تنميتها ثم المحافظة عليها، فلم يوفق، فكان ذلك عنده أعظم التوفيق اذ بدأت كفة ميله الى العلم ترجح. فدرس التركية في صباه حتى أجادها، كما أجاد العربية، نحوها وصرفها من خلال الكتب التي كانت شائعة في عصره، كالأجرومية وغيرها، وقد ولع العلامة الجليل في فجر حياته بالأدب اي ولع، فقرأ روائعه ودرس سير أعلامه، وبفضل ذكائه الثاقب وحافظته القوية فقد تمكن من حفظ الكثير من عيون الشعر وبديع الخطب وبخاصة خطب نهج البلاغة. كما وعى أخبار الأعلام من رواد الأدب العربي والعالمي، اذ لم يعزل نفسه عن الأدب العالمي فقراه مترجما، لكن ولعه بالأدب لم يقلل من رغبته في الفهم والعرفان، ولم يخفف من شوقه الى البحث والتحري، ففي كل كتاب يقرؤه ومع كل عالم يلتقيه كان يتطلع الى معنى وراء الكلمات يشبع لهفته ويروي ظمأه الى المعرفة، وهكذا انجذب الشيخ رويداً

رويداً الى ميدان العلوم الالهية رغبة في معرفة بواطنها ووصولا الى فهم خفايا الأسرار، حتى غدا في طليعة العارفين الالهيين، وشهد له بالتقدم كل من عاصره أو قرأ له.

وقد كان من عادة العائلات الرفيعة أن يكون كتاب التنبيه من اوائل الكتب التي تعلّم للمتفقه العلوي، وهذا ما حدا بالعلامة الشيخ سليمان الأحمد الى حفظه عن ظهر قلب، كما فعل هذا أيضاً خليفته العلامة الشيخ أحمد حيدر، وقد تحمس فيما بعد لشرح كتاب التنبيه فلاقى معارضة كبيرةً من دعاةً الاباحية في عصره، لم تمنعه هذه المعارضة من قيامه بهذا العمل.

حتى ان احد اكبر دعاة الاباحية في عصره وهو عبد الهادي حيدر قد طلب منه عدم القيام بهذا العمل مما ادى الى عداوة بين الاثنين باقية حتى الساعة بين ابناء الفريقين.

ويقول العلامة الشيخ احمد حيدر في مقدمة شرحه:" فلهذه المزاعم الباطلةِ والآراءِ الفاسدةِ تراهُ يوردُ عليك العويص من آرائهم وعميق مراميهم فيشرحُهُ لك شرحاً وافيا يبرد القلبَ ويثلج الصدرَ ويفتحُ أمام العالِمِ الموحِّد وحتى البسيط آفاقاً من الرتب الإيمانية وأجواءً من المراتبِ الإحسانيةِ بها...."

ولا نعلم إن كان الشيرازي قد دخل الغلو بعد دخوله الى التصوف أم أنه رجع من الغلو الى التصوف، شأنه شأن نخبة من المفكرين القدامى الذين يرون أنّ هذه الشروط التي وضعها الشيرازي كالصّدق والصبر والمروءة والحياء وحسن الخلق والتواضع، لا تشبه أبداً مجتمعاً كمجتمع العلويين الحاضر، حيث لا يعتبر الزواج ضرورة ملحة لا بد منها ولكنه عندهم حاجة جماعية، يطالبون فيها بتحقيق مبدأ "شيوعية النساء" وعدم التقيد بزوجة واحدة فقط، طالما ان أفلاطون قد نادى بذلك[١].

ولهذا فقد عدل العلويون عن الخوض في التصوف، وقد قاوم الكثير منهم مبادئه وأفكاره بعد أن روّجوا له لبرهة من الزمن، لأن التصوف يدعو الى العفة، في مجتمع لا يعتقد سوى بمبدأ محورية دور الرجل الذي يحيط به عدد من النساء الحرائر،

---

[١] "تعدد الزوجات في مشاكل المرأة بعد الزواج" تأليف الكاتبة سميحة الخير ص ٢٠.

بالاضافة الى عدد من السراري، يتزوج الرجل بمن يشاء منهن، ويمتلك من يشاء، ويدخل تحت سلطانه من يشاء، فالمرأة عنده عبدة وأمة يهديها لمن يشاء.

لذا يسعى العلوي منذ طفولته الى أن يتعلم"المعرفة" وهي معرفة أن لا جنة ولا نار و لا حساب ولا عقاب. وأنه متى أدرك أن علياً هو "القمر" صار روحانياً يمكنه أن يعاشر زوجة تلميذه، ويجعل من زوجته متاعاً رخيصاً يمكنه بسهولة التخلي عنه.

ابو موسى الحريري

والشيخ موسى

mosahariri@hotmail.com

كِتَابُ فَرَائِدُ الفَوَائِدُ العِلْوِيَّةُ فِي قَوَاعِدِ العَقَائِدِ العَلَوِيَّةِ

ديباجة الكتاب

يقول الفقيرُ، من الفقيرِ، إلى الفقيرِ[1]، حسن ابن حَمزة بن محمد الشـــيرازي الصوفي البلانسي جَمع الله له بين مشاهدة[2] العيّن[3] ومكاشفة[4] الكوّن:

المعنــــى: يقول: فإذا علمت كما تقدم أن الفقر هو الفناءُ، والفقرَ إذا تم هو الله، علمت أن معناه يقول الفقير لله سبحانه الفاني في ذات الله سبحانه المتكلمُ بــذات الله سبحانه، أهدي كتابي للطالب المسترشد الى الله. أو يكون معناه يقول الفقير الفـــاني في الله الآخذ عن الفقير الفاني في الله أهدي كتابي للطالب المسترشد الى الله. أو هو نفس ما قاله الجيلي في آخر كتابه المسمى بالكهف والرقيم مستعيناً بالله ناظر الى الله آخذ بالله عن الله، وقد سألت عنه السيد محمد جواد التبريزي فكان خلاصةُ جوابه أن

---

[1] الفقير ضد الغني وقدرُ الفقر أن يكون عند الفقير ما يكفي عيالهُ. وعند الصوفيين الفقير الصادقُ لا يَملكُ ولا يُملكُ، وأساسِ التصوف الفقر وبه قوامهُ، وقال بعضهم:«نهاية الفقر بداية التصـــوف لأن التصوف اسم جامعٌ لكل خلقٍ سني والخروج عن كل خلقٍ دني»، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقـــق بشيئٍ مما أشار إليه القوم والتحققُ بالفقر أن يكون عند السالك أحلى من العسل والمال عنده أمرُ من الحنظل فحينئذٍ تترادف عليه المواهبُ وتتسع له المعارف حتى يكون أغنى الأغنياء:

متى عصــفت ريــحُ امــرئٍ قصــفت أخــا غِنــاءٍ ولـــو بـــالفقر هبّـــت لأربـــت
وأغنــــى يمــــينٍ باليســـار جزاؤهـــا مُدى القطع ما للوصــن فــي الحُــبِّ مُــدَتِ

[2] المشاهدة:هي الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة والمشاهداتُ هي المحسوسات وقد تُجعلُ أعمَّ أو أخص منها.

[3] العين: ذات الشيء نفسه.

[4] المكاشفة من كاشفهُ بما في نفسه أظهرهُ وأطلعه عليه. وقد شرح قدّسهُ الله هاتين الرتبتين المكاشفة والمشاهدة في القاعدة الرابعة بأن المكاشفة ظهور الأشياء في القلب قبل وقوعها في القلب وهي أتمُّ من الفراسة وهي دائمة، والمشاهدة عبارة عن نور يستضيءُ به السرُّ فينفى عن الأكوان ويَغرقَ في بحار الحال والوجود. وقد قالوا للسالك أربعة أسفارَ:

السفر **الأول** السيرُ من حدود النفس الى حدود القلب وهو سيرُهُ في الإسلام وعلى غيــر الطريــق ويسمونه السفر من الخلق الى الحق.

والثاني سفره من حدود القلب الى الله وهو سيره في الإيمان وعلى طريق وبدلالة الشــيخ المرشــد ويسمونه السفر من الحق في الحق الى الحق.

والثالث: سيره بعد الفناء في المراتب الإلهية من غير ذاتٍ وشعورٍ. ويسمونه السفر من الحق فـــي الخلق.

والرابع: سيره بعد صحوه وبقاؤه في الله ويسمونه السفر بالحق في الخلق فحينئذٍ يكون فني في الله ولم يبق له وجودٌ وحصل على رتبة الفقر والفقر. إذا تمَّ هو الله.

وهذا الشرحُ كما تراه بعيدٌ كل البعد عن الإنسان ممكنٌ ويأخذ عن ممكنٍ مثله؛ مرامي الصوفيين.

الحمد لله العليِّ الأحد[1] القديم[2] المعنى[3] الصمد[4]، الكريْم القويّ القادر الفرد الحكيم الذي أنعم على عبيده بظهوره بذاته ووجوده، وثبّتهم على توحيده، وأهلَّه[5] أسمه بالظهور لخلقه كخلقه من غير تَمثيل[6]، فظهر كإسمه من غير ظهير[7] ولا عديل[8]، فكان ظهوره بالصورة المرئية للجنس[9] إسماً بشرياً، وفي بطونه[10] للعقل نوراً شعشعانياً[11] صمدانياً ومعنىً كلياً[12].

فسبحانه من عظيم أحتجب عن عيون خلقه بشدّة حركة ظهوره وكمال إشراق نوره ودلّهم على معرفته بكمال حضوره رحمةً بالمؤمنين وفضلاً ونقمةً على الكافرين وعدلاً.

المعنى: يقول : إن الله سبحانه أنعم على عبيده بظهوره ليثبتوه فيعرفوه فأظهر اسمه السيد محمداً للبشر كالبشر من غير أن يتمثل بهم وظهر سبحانه كاسمه من غير أن يحتاج الى معينٍ يظاهره ولا مثيل يضاهيه، فكان ظهوره للجنس البشري مجانساً بشرياً وفي بطونه نوراً مستطيلاً شاملاً، احتجب عن خلقه بشدة

---

[1] الأحد والواحد من صفات الله الحسنى والفرق بينهما أن الأحد بُنيَ لنفي ما يذكر معه من العدد تقول ما جاءني أحد. والواحد اسم بني لمفتتح العدد تقول جاءني واحدٌ من الناس ولا تقول جاءني أحدٌ فالواحد منفردٌ عن الذات بعدم المعنى والنظير، والأحد منفرد بالمعنى وسيمر للفظ الأحد زيادة تعريف عند إثباته وجود الحق سبحانه من طريق الوجود.

[2] القديم خلاف المحدَثِ جمعُهُ قدامى وقدماء وقدائم وأصله في اللغة السابق فيقال الله تعالى قديم بمعنى أنه سابق الموجودات كلها.

[3] معنى الشيء ومعناته ومعناه وفحواه ومقتضاه ومضمونه كله هو ما يدل عليه اللفظ وقد يطلق على ما يقابل اللفظ وهو ما لا يدرك بإحدى الحواس الظاهرة.

[4] الصمد محركةً السيد المطاع الذي لا يُقضى دونه أمر وهو من صفاته تعالى والدائم الباقي بعد فناء خلقه والمصمت الذي لا جوف له.

[5] أهّلَهُ للأمر تأهيلاً رآه أهلاً ومستحقاً وجعله أهلاً لذلك.

[6] التمثيل التشبيهُ بالشيء وجعله مثله.

[7] الظهير المعين تقول اللهم كن لي ظهيراً.

[8] العديل المثيل والنظير.

[9] الجنس بالكسر الضربُ من كل شيءٍ جمعُهُ أجناس وجنوس. وعند المنطقيين هو أعم من النوع، فالحيوان جنس والأنسان نوعٌ لأنه أخص من قولنا حيوانٌ وإنْ كان جنساً بالنسبة الى ما تحته.

[10] البطون مصدرُ بطن أي خفي.

[11] الشعشعاني: المنتشر.

[12] الكلي: نسبة الى الكل والكلُ هو جامع الأجزاء أي لأنه كلُ المعاني كما يقال العقل الكلي.

الظهور وكمال إشراق النور (ومن شدة الظهور الخفاء) فحجابُ القهرية ورداء العزة والكبرياء هو الذي منع الأبصار من رؤية نوره الأصلي الجبروتي ولا طاقة للعبد الضعيف برؤية نور الحقِّ إلا بواسطة الأكوان الكثيفة وقد نشر عليها الأردية المعنوية:

لقد ظهرت فما تَخفَى على أحدٍ إلا على أكمةٍ لا يبصِرُ القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً وكيف يُعرفُ من بالعزة استترا

فكان هذا الاحتجاب وكمال حضوره بذاته للبشر رحمةً للمؤمنين شاهدوه فعرفوه بالمعاجز والقدر، ونقمةً على الكافرين جحدوه وأنكروه بوقوفهم عند الأشكال والصور:

سَفرتِ فاحتجبت عَنكِ العيونُ ففي حَجب العيون كمالُ اللطفِ أبداكِ
وما اختفى الصبحُ عني يا منى أملي لكنما السُقمُ عن عينيَّ أخفاكِ

ظهر لهم فيما ظهر فلم يكن لظهورٍ ظهر به شبيهٌ ولا نِدّ[١] وبطن فيما بطن فلم يكن له نظيرٌ ولا ضدّ[٢] والصلاة[٣] على نوره المُتصل به من غير انفصال وسرّه الساري في الكلّ[٤] من غير اتصال وبدنه البادي في الكلِّ من غير انفعال[٥] وعلى بابه الكريم والواصلين إليه من الأبواب والأيتام وأهل المراتب العلويّة الكرام وعلى خلفائه المُبرّئين من طلب الحطام المُنزّهين عن السلوك في الأرحام وعلى ورثة السادة الطاهرين البالغين في توحيده أتمّ السلام:

---

[١] النِدُّ بالكسر المثل ولا يكون إلا مخالفاً جمعه أندادٌ وندودٌ، يقال له ما له ندّ أي نظير هي نِدُّ فلانةَ ولا يقال ند فلان.
[٢] الضِدُّ المخالِفُ والعدو والمثل يقال هو ضده أي مثله ومخالفه جمعه أضداد والمراد هنا المثل.
[٣] الصلاة لغة الدعاء وهو أصل معانيها والرحمة والاستغناء وحسن الثناء من الله عز وجل.
[٤] الكل اسم موضوع لاستغراق أفراده المتعددة أو لعموم أجزاء الواحد وتفيد التكرار بدخول ما الظرفية عليها.
[٥] الانفعال مصدر انفعل مطاوع فعل تقول فعلت الشيء فانفعل مثل كسرت الزجاج فانكسر.

المعنـــى: يقول: ظهر الله بذاته للعالم ولا من شبية لما أظهر من قدرٍ وعلـمٍ بالمغيبات وبطن فلم يكن لبطونه نظير في عالم المجردات. فالصلاة على اسمه السيد محمد المتصل به غير مفصولٍ عنه (إن وصلت اتصلت وإن فصلت انفصلت) فهـو سره الساري في المكونات من غير اتصال بها ولا امتزاجٍ بل مدَدُها منه وصدورها عنه وقيامها به فهو(ص) أول بدء أبتدأه سبحانه من نور ذاته اختراعاً، البادي فعلـه في كل ما صنع من غير أن يكون منفعلاً، بل هو الفاعل لجميـع المفعـولات قـال الأمير الخطير:

(مبتدا كون الورى لهُ خبر) وقال الشيخ(وأول بدئه البادي) وفي مناظرة الشيخ يوسف الرداد التفضيل العجيب للفاعل والفعل والانفعال. والصلاة على باب الاسـم العظيم وعلى المراتب العلوية (العالم الكبير) وعلى خلفاء العالم الكبير المبرئين من طلب الحُطام وهم العالم الصغير، وعلى ورثتهم في تلك الخلافـة(المـؤمنين) أتـم السلام. وهنا تنزيه العالم الصغير كما في كل كتب المحققين كأبي سعيد وجلال الدين وغيرهما.

وبعد فهذه رسالة دالّةُ وعُجالةُ[1] مختصرةٌ تشتمل[2] على أثبات وجود المعنى القديم الذي هو مفيض الخير والجود بالوجود على كلّ قابلٍ له أزلاً[3] وأبـداً[4] مـع وحدته وظهوره بذاته لخلقه كخلقه من طريق الاستدلال عليه بالوجود[5] كمـا هـو

---

[1] العجالة بالضم ما يتعجله الراكب من شيءٍ وما يتعجل للضيف من طعامٍ، وما تزوده الراكب مما لا يتبعه أكله ومنه المثل(التمر عجالة الراكب) يضرب في الحث على الرضا بيسير الحاجة.

[2] أشمل على الأمر أحاط به.

[3] الأزل بالتحريك القدم الذي ليس له ابتداءً واستمرار الوجود في أزمنةٍ متعددةٍ غير متناهيـةٍ فـي جانب الماضي.

[4] الأبد استمرار الوجود في المآل.

[5] الوجود ما به قيام الموجودات، والوجود بذاته حقيقة واحدة غير مكتسبة التحقُّق تظهر هذه الحقيقة في أنواع الموجودات من أعلاها الى أسفلها متفاوتة بشـدة الظهـور وضـعفه بحسـب مراتـب الموجودات متكثرةٍ بعددها. فالموجودات تنزلات مراتب الوجودِ بفيض النور بحسب سلسلة التكوين فقط وليست متحققة بنفسها بل تتحقق بحقيقة الوجد فهي معلولة والوجودِ علتها وبين المعلول والعلةِ سببٌ يسمى المعلولية والأشياء الموجودة ليس لها تصرف بأنفسها مطلقاً لأنها من حيث ليست شيئا يتعلق بالوجود والعدم فهي إذن بأنفسها ليست موجودة ومداركنا الحيوانيـة لا تـدرك إلا مفـردات الموجودات لا تنفذ الى إدراك السر الساري مراتب الوجود من النور المجرد الـى البسـيط الـى المحسوس هو بحسب تنزل أسماء الله وصفاته، فالمكونات فعلهُ وما ظهر صفاته، فبسيط الحقيقة كل الأشياء وليست بشيء من الأشياء(وسيأتيك زيادة تفضيل لهذه المعاني) وذلك أن الحقيقة لا تـدخل تحت شرط بل هو مقطوع النظر عن الشرط يعني أن حضرة الحق سبحانه لا يدخل تحت قيدٍ مـا من حصرٍ وتشبيهٍ وغيرهما ومع ذلك لا ينافي بوجوده الموجود الداخل تحت قيدٍ ما بقطع النظر عن

دأب المحقِّين[١] من أهل الشهود[٢] ومن طريق النظر في الحركة والسكون كما هو دأبُ المتكلمين[٣] من أهل الحدود[٤]..

المعنى: يقول : إن تأليفه هذا رسالة دالةٌ وكلمةٌ متعجلةٌ تحيط بإثبات وجود المعنى القديم الذي أفاض الخير والجود بإفاضة الوجود على كلِّ قابلٍ للخير من هذه الموجودات في إزالة الماضي الذي لا أول له باستمرار إفاضة الخير في أزمنة غير متناهية الى أبدٍ غير متناه يثبت أولاً الوجود من طريق المحققين المكاشفين الذين لا يحجبهم عن النظر إليه جبلٌ منيفٌ ولا حجابٌ كثيفٌ وثانياً من طريق النظر بالحركة والسكون شأن أصحاب علم الكلام من أهل الحدود الذين وقفوا عند حدود المكونات مستدلين بها على موجدٍ أوجدها دون النفوذ الى معرفة بواطنها الذي هو تجليات الله سبحانه في أسمائه وصفاته وأفعاله كما لأصحاب المشاهدة والمكاشفة:

هذه الشمس قابلتنا بنورٍ ولشمس اليقين أبهر نورا
فرأينا بهذه النور لكنا بهاتيك قد رأينا المنبرا

القيد ومتى قطعنا النظر عن القيد لا يبقى إلا الوجود المطلق فحينئذٍ يدخل في عدم المنافاة مع المقيد: قال الشاعر:

وما الخلق في التمثيل إلا كثلجةٍ وأنت لها الماء الذي هو نابعُ
فما الثلج في تحقيقنا غير مائهِ وغير ان في حكم نفته الشرائعُ
ولكن بذوب الثلج يرفع حكمهُ ويوضع حكم الماء والأمر واقعُ

وما ورد في الأخبار والآيات في بيان الاتحاد مع بقاء المعايرة بين الوجود المطلق والموجودات المقيدة مثل قوله سبحانه
(أينما توليتم فثم وجه الله، هو بكل شيء محيط) وقول المعصوم (داخل في الأشياء لا بالممازجة) مما يدل على الاتحاد والمغايرة أجوزُ من قولهم بسيط الحقيقة كل الأشياء، وفي الأصيفر تفضيل الوجود وأنه وحدة لا تتجزأ والتجزؤ فيه اعتباري فقط.

[١] حقق القول أو الظن صدقة والشيء أكده وأثبته.

[٢] الشهود جمع شاهدٍ وهو معاين الشيء وحاضره والمطلّع عليه، وعند الصوفيين هم أهل الكشف الذين يرون الله في كل شيءٍ.

[٣] المتكلمون أصحاب علم الكلام وهم أهل الأصول فمن تكلم بالمعرفة والتوحيد كان أصولياً، ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعيا والأصول هي موضوع علم الكلام والفروع موضوع علم الفقه.

[٤] الحدودُ جمع حدِ الفصل بين الشيئين ومنتهى كل شيءٍ لأنه يردُهُ ويمنعه عن التمادي، وأهل الحدود عند الصوفية هم الذين وقفوا عند ظواهر الأشياء محتجبين تحت الملك الذي هو عالم الشهادة فإدراكاتهم مقصورة على المحسوسات فإن المدرك في إدراكهِ لا بد أن يكون من جنس المدرك بل متحداً معه؛ فالدرك إذا كان مُلكيا أي بشرياً كان إدراكه ملكيا فقط، فالأرواح بالنسبة إليه غيبٌ لا يُرى وهكذا كلما ارتقى السالك رُتبة يكون ما بعدها غيبا بالنسبة إليه بخلاف أهل الشهود والمكاشفة.

وسميتها:بفرائد[1] الفوائد[2] العلويّة[3] في قواعد[4] العقائد الغلويّة[5] ورتبتها على مقدمتين وأربع قواعد وخاتمة وهي عدّة كاملة للطالبين في أصول الدّين غنيّة وافية بمقاصد السالكين من مقام علم اليقين[6] إلى حقّ اليقين[7] إلى عين اليقين[8] لتكون تبصرة للضعفاء من المؤمنين المصدّقين للرواة المسلمين لما نقلته عن الأئمة الطاهرين المستسلمين لإحكامهم في الدّين بعلم اليقين وتذكرة للمستبصرين الذين طلبوا تحقيق أخبار الرواة مع تصديقهم لها بحق اليقين وتكملةً ورحمةً ونوراً وهدىً وبشرى للبالغين الذين شاهدوا الحقّ بعين اليقين.

المعنى: يقول: إنه سمى هذه العجالة بفرائد الفوائد العلوية في قواعد العقائد الغلوية ويا له من اسمٍ. ومقدّمتاها وقواعدها الأربعة وخاتمتها تبصرةً للضعفاء المستسلمين لأحكام الأئمة المعصومين والذين درجتهم في السلوك علم اليقين وتذكرةً للعلماء الذين بلغوا عين اليقين وتكملةٌ ونورٌ وهدىً للمشاهدين الذين رتبتهم حقّ اليقين.

---

[1] الفرائدُ جمعُ فريدةِ الجوهرةَ النفسية.
[2] الفوائدُ جمع فائدةٍ تحصل للإنسان من علمٍ أو مالٍ وهي أسمٌ من فادت إليه فائدة.
[3] العُلويةَ نسبةً الى العُلو كنايةعن الفيوضاتُ الإلهيةُ.
[4] قواعدُ البيتِ أساسه الواحدة قاعدة وأركان البيت وزواياه الأربع.
[5] الغلويةِ نسبةً الى الغلو وأنت تعلمه.
[6] اليقين إزاحةَ الرّيَب وتحقيق الأمر. يُقال أنا على يقينٍ من ذلك الأمر، واليقين أيضاً العلمُ الحاصل من نظرٍ واستدلال ولذلك لا يُسمى علمُ الله يقيناً بل يُسمىَ علمِ اليقين وعلما يقينا.
[7] حقّ اليقين خالصُهُ وواضحهُ وهو من إضافةَ البعض الى كلهِ لا من إضافة الشيء الى نفسه لأن الحقّ غير اليقين.
[8] عين اليقين ذاته وحقيقته، وعند الصوفيين علم اليقين لأهل الدليل والبرهان وعين اليقين ذاته لأهل الشهود والعيان.
وحقّ اليقين لأهل الكشف والبيان مثال ذلك سَمِعَ بمكةَ ولم يرها فهذا عنده علم اليقين فإذا استشرف عليها ورآها ولم يدخلها فهو عين اليقين فإذا دخلها وتمكن فيها فهو اليقين، وكذلك طالبُ الحق إذا كان باقيا من وراء الحجاب فانيا في الأعمال فهو في علم اليقين فإذا استشرف على الفناء في الذات فهو في عين اليقين فإذا رسخ وتمكن فهو في وحقّ اليقين، وهذه المراتب تجليات الله سبحانه للسالك بقدر درجهم غير أنه جميع ما رأيت من ذكر مراتب اليقين لم أرَ منهم من قدّمَ حقّ اليقين على عين اليقين إلا هو قدسه الله حتى الأمير فرتبناها بالشرح كما ترى:علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين لعلمنا أن عين اليقين دون حقّ اليقين رتبةَ، غير أنه تحقّق لدينا ما قاله علامتنا الجليل قدسه الله في شرحه ديوان المكزون إنما قدّم صاحب التنبيه حقّ اليقين على عين اليقين لأمر ما.

وجعلتها هديّةً منّي إلى أصدقائنا الحاضرين[١] في الديار المصريّة والساكنين في الأقاليم[٢] الشرقيّة والغربية أحاطهم الله برعايته وأعانهم على الرجوع إلى طاعته حيث كانوا وأين ما يكونوا من الأقاليم والبلدان فلعلّ الحائد عن الطريق يرجع والغافل يتدارك ويسمع ومن به سنة[٣] الغفلة يتيقظ فلا يهجع[٤] كما أمر الله تعالى في كتابه العزيز (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات٥٥) ولمّا أحصِرتُ عن الترحال[٥] وتعذّر[٦] عليَّ الاجتماع بالإخوان في الحال ألّفت هذه الرسالة ليقف عليها أعيان المؤمنين وسادات الموحّدين وكبراء المحقّقين وقوفاً شافياً ويتدبروها تدبّراً كافياً فإن وجدوها لدائهم شافية ولما أشتكل عليهم في أصول الدّين كافية حمدوا الله على ما أولاهم من الفهم الثاقب[٧] والرأي الصائب في كشف مابهم من غمّة والرجوع إلى أعلى المراتب في المعرفة بعلوّ الهمّة فإن لم تصادف قبولاً لسوء الحظّ احتراما ولا تبجيلاً أعادوها إلى مؤلفها فما عليهم عارها ولا علق بهم غبارها[٨] فمؤلفها أولى بستر ها وأحرى بتجرّع مرّها وهذا أليق بذوي المكارم وأجدر بالعاقل اللبيب العالم فان العقول تتفاوت والأغراض تتباين ولكلّ مقام مقال ولكلّ عملٍ رجال وفي تفاوت الإفهام حكمةٌ ألهيه وأسرارٌ ربّانيّة كما قال الله تعالى (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (يوسف٧٦)

المعنى:يقول أحسن الله فهمنا ما يقول لما تعذر عليه الاجتماع بإخوانٍ لبعد المزار(وكأنه كان قد شاخ) ألّفَ هذه الرسالة التي ليس لها شبية في كتب الموحدين على ما أرى ليقف عليها أعيان المؤمنين وكبراء المحققين فإن وجدوها دواءً لأدوائهم حمدوا الله على ما أولاهم من نعمةِ فهمها (وهذا اتكال منه على جليل معارفه ومكاشفاته) وإلا أعادوها لمؤلفها فهو أحرى منهم بتجرع مُرّها وأولى بستر

---

[١] الحاضرين جمع حاضر من أقام بالحضر خلاف البادية.

[٢] الأقاليم جمع أقليم وهوَ الرستاق بلغة الجرامقة (قوم من العجم كانوا بالموصل في عهد الإسلام) هو السواد والناحية والقرى وغري رزداق ويقسمون به المملكة كما تقسم بالكور (جمع كورة الصقع) والطاسيج جمع طسوج الناحية.

[٣] السِّنة والوسنة ثقلة النوم.

[٤] هجع: نام وقيل الهجوع مطلق النوم.

[٥] حُصر عن الترحّل امتنع منه إذ لم يقدر عليه.

[٦] تعذر: تعسر.

[٧] الثاقب المتوقد أو الذي وُصف بشهرته وارتفاعه.

[٨] الغبار كغرابٍ ما دقّ من التراب.

قبحها والعقول تتفاوت بالمعارف والأعراض تختلف لدى المستهدفين وبهذا التفاوت حكمةٌ إلهية وهي فتح باب الجدِّ والاجتهاد لنيل درجات العلــوم الإلهيــة والأســرار الربانية، وليُعلَمَ فضل العالم على المتعلم والطالب على المجتهد على من دونه، وهذا سرٌمن أسرار التكليف ووجوبه هدانا الله.

وقال (ﷻ) (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (المجادلة١١)

فبان[1] لكم وجه الحكمة[2]. في العقول وسبب تفاوت القبول لما يرد عليها من سماع المنقول بقدر صفاء المرايا لأن القلوب مرايا بعضها أصفا من بعض فتقبــل الإشراق الإلهي وتستنير معارفها بالفيض[3]. الربّاني فلهذا لايستوي اثنان في درجة من العلم. والأيمان[4]، والعمل والإحسان[5] والكشف والعيان[6] والبيــان[7] والبرهــان[8]

---

[1] خصص الله الذين آمنوا برفع الدرجات لأن غير المؤمنين لا درجة لهم، ولأن أجر العمل مشروطٌ بالإيمان، وخصص العلماء من بينهم بالذكر لشرفهم وعلو درجاتهم بالنسبة للمؤمنين فإن فضل العالم على سائر الناس كفضل النبي على سائر الخلق، أو كفضل القمر ليلة البدر على ســائر الكواكــب، ويوزن دم الشهداء مع مداد العلماء فيرجحُ مدادُ العلماء.

[2] الحكمة: العلم بحقائق الأشياء وعبارة من أفضل الأشياء، وسيأتيك تحقيق واسع عنها.

[3] الفيض مصدر فاض كثُرَ وسال ومنه فيضان النيل والمراد هنا فيض الأنوار الربانية، وســتعرفها مما يمر بك إن شاء الله.

[4] الإيمان مصدر آمن به صدّقهُ ووثق به والرجل اطمأن فهو آمن وضد الكفر وعند الصوفية هــو قبول الدعوة الباطنة إما يكون صاحبه في مقام الصدر غير خارج منه الى نواحي القلب، وهــذا لا يخلو من اضطراب في بعض الأحيان ولا يخلو من صرف النفس عن جهتها الإلهية الــى جهتهــا البشرية وإذا خرج من حدود الصدر الذي هو محل الإسلام الى حدود القلب الذي هو محل الإيمان صار خارجا من الأرتياب ومن الاعوجاج الذي هو تدخل أعراض النفس في الأعمال الإلهية وقبول الأحكام القالبية والأعمال الشرعية إن كانت موافقةً لما في القلب كانت إسلاما وإن لم تكن موافقة لم تكن إسلاما ولذا قال سبحانه (قالوا أسلمنا). ولم يقل ولكن أسلمتم ولما يَدخل الإيمان فــي قلــوبكم بسبب البيعة الباطنة الإيمانية، وما لم يدخل في قلب الإنسان بذرُ الإيمان لم يصدق عليه أنه مــؤمن وفي قوله سبحانه(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَــيْكُمْ أَنْ هَــدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ) (الحجرات: من الآية١٧) تصريح بأن المسمى بالإسلام غير الإيمان بل هو مقدمة للأيمان وفي الأخبار تصريح بذلك فالثواب على الإيمان فقط، والإسلام لا يفيد إلا حفــظ الــدماء وجــواز المناكحة وصحة التوارث. والإيمان بمعناه الشرعي يناسب كلاً من معانيه اللغوية.

[5] الإحسان مصدر أحسن أتى بالشيء الحسن وضد أساء وأحسن الشيء علمه وعند الصوفية نــور البصيرة الذي يقود السالك للمشاهدة.

[6] الكشف والعيان عند الصوفية هو الكشف عن الأبصار والبصائر، وأهلها يرون الله عياناً، وسيأتي عند ذكره الرتب الثلاث:الفراسة والمشاهدة والمكاشفة زيادة تفضيل لها.

[7] البيان الفصاحة وإظهار المقصود بأبلغ لفظ والكشف والظهور.

[8] البرهان بالضم الحجة الفاصلة البينة، وربما كان المراد به السكينة التي على الأنبياء والمــؤمنين وهي تجلي المرشد على صدر السالك وهي الأسم الأعظم الذي يفر منه الشيطان.

لقوله تعالى حكاية عن الْملأ الأعلى (وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) (الصافات١٦٤) فإذا كان هذا حال عالم الغيب وَالْملكوت[١] وهو عالم الأنوار فكيف لا يطَّرد هذا في عالم الشهادة[٢] وَالْملك وهو عالم الْمزاج أعني الإنسان فإن الله أبدعه من النور[٣] والظلَمة[٤] وهو مجموع العالمين[٥] وهو الصراط بين الجنَّة والنار وبين عالم النور وهو العقل وبين عالم الظلَمة وهو الحسّ[٦] وهو برزخ[٧] بين الوجوب[٨] والإمكان[٩] وقد قال الله تعالى في حقّ من غلبت على مزاجه الظلمة (وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) (الإسراء٨٥) والعلم هو نتيجة[١٠] العقل.

فكذالك خاطب الحقّ سبحانه وتعالى أهل العلم ونعتهم[١١] بذوي الألباب. فقال (يُؤتِي الْحِكْمَةَ[١٢] مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)[١](البقرة٢٦٩)

---

[١] الملكوت: العز والسلطان والمُلك العظيم وهو فعلوت من الملك كالرهبوت من الرهبة، وعند الصوفيين عوالم الأنوار كما ذكر قدسه الله وسيأتي شرحٌ مفصل له.

[٢] عالم الشهادة عالم الأكوان الظاهرة الحسية بمقابلة عالم الغيب.

[٣] النور عامل طبيعي يعين على الإبصار وهو عبارة عن تموجاتٍ كهربائية.

[٤] الظلمة ذهاب النور وبعبارة أخرى هي عدم الضوء عنا من شأنه أن يكون مضيئاً جمعُها ظلم وظلمات وربما كنيَ بالظلمة عن الضلالة وبالنور عن الهدى، وسيأتي عن النور والظلمة تعريف وافٍ إن شاء الله.

[٥] العالمان عالم النور والظلمة.

[٦] الحس المراد به عالم المحسوسات والحس المشترك عند الحكماء هو الذي ترتسم به صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الظاهرة وهي المشاعر الخمسة: السمع والبصر والشم والطعم واللمس.

[٧] البرزخ هو الحاجز ما بين شيئين ومن يوم يموت الإنسان الى يوم يبعث حياً، وبرازخ الإيمان ما بين الشك واليقين، والمراد الحد ما بين عالم النور وعالم الظلمة وهذا البرزخ هو عالم الأنسان:
ولي برزخ ما بين بحري صبابتي ودونهما للعاشقين برازخ.

[٨] الوجوب بالضم الثبوت وضرورة اقتضاء الذات عينها وضدُّ الإمكان.

[٩] الإمكان ضد الوجوب وهو ما يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون. والمراد بالوجوب والإمكان عالم النور وعالم الظلمة والإنسان برزخ بينهما. وسيأتي عن الوجوب والإمكان شروح مستفيضة.

[١٠] النتيجة الولد، ومن المجاز هذه المقدمة لا تنتج نتيجة صادقة، وهذه نتيجة من نتائج كرمك.

[١١] النعت وصف ما كان ثابتاً من خلقٍ وخلقٍ والصفة إنما هي في الحال المنتقلة.

[١٢] الحكمة العلم بحقائق الأشياء وعبارة عن أفضل الأشياء بأفضل العلوم وهي إدراك دقائق المصنوع الإلهي وغاياته المترتبة عليه وهي الحكمة النظرية والقدرة على صنع مصنوع مشتمل على دقائق الصنع والغايات المترتبة عليه الى غاية هي أشرف الغايات بالنسبة الى مقام الصانعَ وهي الحكمة العملية. وتطلق الحكمة على كل واحدٍ منهما وعلى المجموع، ولما كان إدراك الدقائق المودعة في المصنوعات وأعمال الدقائق المقصود لها خاصيّن بالله، فالحكيم على الإطلاق هو الله تعالى، وسائر الناس حكماءُ بقدر إدراكهم وقدرتهم على الصنع، وتلك الحكمة أي إدراك دقائق المصنوع الإلهي والغايات المترتبة عليه، والقدرة على صنع مصنوعٍ مشتملٍ على غاياتٍ منتهيةٍ

المعنى: يقول : إن قلوب الناس مرايا لقبول التجلي الإلهي والمرايا بعضها أصفى من بعضٍ، وبقدر الصفاء يكون الإشراق من التجليات الإلهية وفيوضات الأنوار القدسية، فلهذا لا يستوي أثنان في درجات السلوك من أولها الذي هو الإيمان الى آخرها الذي هو الفناء ببقاء وهذا مطّردٌ في عالم النور فكيف لا يطردُ في عالم البشر وبذلك رفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات، والإنسان أبدِع برزخاً بين النور والظلمة، وصراطاً بين الجنة والنار يؤدي الى هذه وحداً بين الوجوب الذي هو عالم النور وبين الإمكان وهو عالم الظلمة فمن غلب عليه العلم فقد أوتي الحكمة متدرجاً بمراتبها ومعانيها ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً رزقنا الله.

فإذا كان الواقف على هذه الرسالة لاحظٌ[٢] له في فهمها ونبذها ورآء ظهره كان معذوراً إذ لم يُحط بشيءٍ من فهمها وعلمها كما قال الله تعالى (بلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُه[٣] (يونس٣٩)

وقال الله تعالى (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) (الاحقاف: من الآية١١) ونقول في عدم فهمه لها ماقاله الله تعالى لرسوله (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ[٤] مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) (يونس٤١)

الى غايةٍ هي أشرف الغايات لا يُمكنُ حصولها إلا بعد فتح باب القلب بالولاية لأنه ما لم يُفتح باب القلب بالولايةِ فتنفتحُ عينُ القلب بها لم يكن الإدراك إلا بعين الخيال والخيال محطئٌ في إدراكه وغير متجاوز في إدراكه عن الغايات الدنيوية، وإذا فتح باب القلب بالولاية يُدرك الإنسان أولا دقائق الصنع المودعة في نفسه وعالمه الصغير (أي قوى نفسه وأجزاء جسمه الذي هو نسخة عن المكونات جميعها) ويدرك حيل الشيطان في إغوائه ولطائف الملك في تصرفه ويقدر على دفع حيل الشيطان وتقوية تصرف الملك وإذا استقام في ذلك وخلصَ من تصرفِ الشيطان تمكن من إدراك دقائق الصنع في العالم الكبير والغايات المترتبة على مصنوعاته تعالى ويقدر على التصرف فيها بقدر قوته قليلا وكثيرا. فيجوز تفسير الحكمة بكل من اجتناب الكبائر وبالكتابِ وبالثبات عند أوائل الأمور والوقوف عند عواقبها، والفقه في الدين. وَقد فسِّرَت بالتشبُه بالإله علماً وعملاً وهي غاية خلق الإنسان بل خلق العالم.

[١] الألباب جمع لب ما زكا من العقل وخلص كل شيءٍ وكل لُبٌ عقل ولا ينعكس والإنسان بتمام عباداته وعظيم طاعاته ما لم ينعقد قلبه بالولاية كان كشجرة اللوز والفستق لم يكن لثمرها لبٌ؛ فلا يُبصر من دقائق المصنوع شيئا ولا من دقائق حيل الشيطان،وإذا انعقد قلبه بالولاية صارت أثمار أعماله ذوات ألباب وأبصر من الدقائق والحيل بقدر ما عنده من الولاية فما لم ينعقد قلبه بالولاية لا يتذكر بذلك وإذا انعقد تذكر.

[٢] الحال كيفية الإنسان وما هو عليه من خير وشر يُذكرُ ويؤنث.

[٣] التأويل ما يؤول إليه الشيء، والفرق ما بين التأويل والتفسير أن التفسير كشف المراد من اللفظ والتأويل رد أحد المحتملين الى ما يوافق اللفظ وتأويل القرآن عن إرجاع ألفاظه الى حقائقها الثابتة في المراتب النورية. وسيأتي بيان واسعٌ عن ذلك.

[٤] بريءٌ من العيب والدنس وغيرهما سلم.

فمؤلفها أولى بستر عُوارها[١] واحتمال المكروه من شنارها[٢] وما أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريدُ إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله العلي العظيم. عليه توكلتُ وإليه أنيب. زيادة

المعنى: عذَر رفع الله درجته من نبذ رسالته وراء ظهره إذ لا حال له في فهمها بتقريع حضرة الحق الذين كذبوا نبيه برسالته بقوله سبحانه(وإذْ لمْ يهْتدُوا بهِ فَسيقُولُونَ هَذَا إفكٌ قَديمٌ) (الاحقاف: من الآية١١) (أنْتمْ بَريئُون ممَّا أعْملُ وأنَا بريءٌ ممَّا تعْملُون) (يونس: من الآية٤١) فكأنه يقول لذلك المعذور لا عذر لك يجب أن تتعلم فتعلم ثم يقول له متهكماً به رُدَّ رسالتي عليَّ فأنا أولى بستر عيوبها التي زعمت وأحرى باحتمال مكروه شناعتها التي رأيت ولكنني لا أدعو لشيءٍ وأخالف من دعوته الى غيره إن أُريدُ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

فلنبتدىء بفهرس هذه الرسالة:

المقدَمة الأولى[٣]: فهي لبيان تذكرة نافعة وموعظة حسنة جامعة واردة عن الأئمة الأطهار في الحثّ[٤] والتَحضيض لإخواننا المؤمنين الأبرار على رياضة[٥] النفس وقمع[٦] الطبع والمحافظة على ظواهر الشرع التي هي عبارة عن التقيَة والتقوى[٧] والورع[٨] وكتمان الأيمان[١] إلى يوم الأذان[٢] بالإعلان[٣] ورفع التقيَة والكتمان وحقوق الأخوان.

---

[١] العوار مثلثةً الخرقُ في الثواب والشق والعيب.
[٢] الشنار بالفتح أقبح العيوب والشين المشهورة شناعته والعار الفاضح.
[٣] المقدمة:فصل يعقد في أول الكتاب وتقدم.
[٤] حثه:أعجله في اتصال وعلى الشيء حضه عليه وله وإليه ندبه وقريب منه الحض.
[٥] الرياضة: التذليل. وعند الرهبان خلوة أيام للعبادة. وعند أرباب السحر خلوة يتركون بها الترفه والتنعم في المعيشة ويستدعون بها الأبالسة بالقراءة والتبخير يزعمون أنهم يستخدمونهم بذلك فينتصبون لقضاء حوائجهم. وعند الصوفيين هي ما يفرضه الشيخ المرشد على السالك من أوراد وقلة نوم وأكل مما يراه مناسبا له.
[٦] القمع الردعُ والتذليل والقهر.
[٧] التقوى: ترك الشبهات، واسمٌ من الاتقاء وحق التقوى ألا يبقى من المتقي عينٌ ولا أثرٌ بطيٌ جميع مراتب التقوى عن ذاته وعن تقواه في جنب ذات الله. ومراتب التقوى كثيرة بحسب البشرية غيره بحسب الصدر والقلب والروح، وهكذا.
[٨] الورع:التقوى. وقيل ترك المحظورات.

الْمقدَمة الثَانية: فهي لبيان سرّ حَصرِ هذه القواعد الأربعة في عدد الاربعة ناقصة[٤] من سائر الأعداد لا اقل ولا أكثر:

القاعدة الأولى: فهي لبيان معرفة إثبات وجود الْمعنى القديم وظهوره بذاته ووجوده لخلقه كخلقه. وفيها سبعة تنبيهات[٥].

القاعدة الثَانية: فهي لبيان إثبات وجوب[٦] الْمعرفة لله تعالى على الإنسان البالغ العاقل الرشيد وفيها ثلاث تنبيهات.

---

[١] الإيمان: التصديق والانقياد والوثوق والطاعة، وله عند الصوفيين أقسام بحسب توجههم الى الله. فللسالك الى الله إيمان بالله في مقام الوحدة التي هي مرتبة الجمع والتوجه إليه عن مقام الكثرة وهي تعدد المظاهر في مراتب الوجود، وإيمانٌ في مقام الكثرة والتوجه إليها بالله وفي هذا المقام له نحو تصرفٍ في الكثرة بخيرٍ أو شر بحسب الاتجاه؛ قال تعالى (يُؤمِنُ باللهِ وَيُؤمِنُ للمُؤمِنِينَ) (التوبة: من الآية٦١) فقوله يؤمنُ بالله إشارة الى الإيمان بالوحدة والجمع. وقوله يؤمن للمؤمنين إشارة الى الإيمان بالكثرة الذي هو تعدد الموجودات بحسب تعينات الوجود لأن المفاعيل كلها لله وهي خير محضٌ ولكنها بحسب القوابل تصير ببعضٍ خيراً وببعضٍ شرا والكتمان فرضٌ في كل الشرائع وعن كل الحكماء:

فصُنت صباباتي بها عن أقاربي — وأخفيت أمراضي بها عن أطبتي
وما بُحت بالمستور تحت خمارها — الى مائل في الحُبّ عن نهج ملتي

[٢] الأذان الإعلام.

[٣] الإعلان مصدر اعلن زيدٌ الأمر اظهره وبالعداوة وجاهر بها.

[٤] الاربعة لها عندهم سرٌ عظيم يحوي جميع الأسراركما تحوي هي جميع العدد. فقد اختلف الفلاسفة في الواحد أهو من العدد ام هو مبدأ العدد فإن الأثنين واحدٌ مكررٌ أول تكرير وكذلك الثلاثة والأربعة ويراد به ما يحصل منه العدد أي هو علتهُ ولا يتركب منه لأن العدد غير المعدود. وقد تلازم الوحدة جميع الأعداد على أن العدد تركب منها بل كل موجودٌ في جنسه ونوعه واحدٌ وفي العدد كذلك؛ فإن الثلاثة في انها ثلاثةٌ واحدةٌ فالوحدة بالمعنى الأول داخلةٌ في العدد وبالمعنى الثاني علة العدد. وليس من الأقسام الثلاثة قسمٌ يطلق على الباري تعالى معناه فهو واحدٌ لا كالآحاد أي هذه الوحدات والكثرات منه وجدت ويستحيل عليه الانقسام بوجهٍ من وجوه القسمة، فكل البسائط العامة الكلية في العدد واحدٍ واثنين وثلاثةٍ واربعةٍ وهي الكمال وما زاد عليها فمركبات ولا حصر لها فلذلك لا تنحصر الأبواب الأخرُ في عددٍ معلومٍ بل تتناهى بما ينتهي به الحساب ثم تركيب العدد على المعدود، وتقديرُ البسيط على المركب. فالاربعة كما رأيت هي كل العدد. ولذا بنى المؤلف كتابه على أربع قواعد لما في الأربعة من الأسرار مطابقا لقواعد البيت الشعيبي الذي هو مطابق للبيت المحجوج، وستعلم أن صفات الله أربع وتنزلات الوجود اربعٌ فاربعٌ الى الأركان الأربع، وأن المبايعين أربعة وقد ذكر الشيخ يوسف الرداد الوحدة وملازمتها للعدد والأربعة بانها كل العدد فكان تعليقه بليغا.

[٥] التنبيهات جمع تنبيه الإيقاظ والإعلام والتوقيف على الشيء والى الشيء.

[٦] الوجوب: اللزوم والثبوت.

القاعدة الثالثة: فهي لبيان معرفة الإنسان نفسه ووجوبها عليه. إذ بمعرفتها يعرف ربه. وفيها تنبيهان.

القاعدة الرابعة: فهي لبيان حقيقة الإيمان[1] ومراتبه[2] وصـورته[3] وروحـه[4] ومقاماته[5] ودرجاته[6] وما يجب على الْمؤمنين من حقوق بعضـهم بعضاً وفيهـا خمسة تنبيهاتٍ.

وأمّا الخاتمة: فهي لبيان شروط الإيمان وحقوق الإخـوان فنقـول وبـالله التوفيق ومنه يُستفاد التحقيق:

المعنى: فصَّلَ قدسه الله ونفعنا بعلمه ومعرفته القواعد الأربع التي ألف الكتاب لأجلها وهي كل ما يلزم المتدين من معرفة الله تعالى ولما كانـت هـذه المراتـب الإيمانية هي الغاية من القاعدة الرابعة لا بل هي الغاية من الكتاب كُلِّهِ، أرجأنا الكلام عليها حتى نصل الى ذكره إياها فنوفيها حينئذٍ شيئاً من حقها إن شاء الله.

المبايعة

إعلموا أخواني الْمؤمنين وفّقكم الله لمرضاته إنّ الْمبايَعين أربعة: الرّسـل. والأئمة. والعلماء. والسلاطين. وَالْمبايع في هؤلاء الأربع على الحقيقة واحد وهو الله تعالى لقوله لنبيّه (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ..... الآية) (الفـتح١٠) وهؤلاء الأربعة شهود الله تعالى على بيعة[7] هؤلاء الأتباع.

---

[1] حقيقة الشيء غايته وأصله المشتمل عليه.
[2] المراتب جمع مرتبةِ المنزلة، والمنزلة الرفيعة.
[3] الصورة بالضم شكل الشيء وتمثالهِ والصفة والنوع.
[4] الروح بالضم ما به حياة الأنفس يُذكرُ ويؤنث.
[5] المقامات جمع مقام، وهي السيادة.
[6] الدرجات جمع درجةِ المرقاة والطبقة من المراتب.
[7] البيعة التولية وعقدُها والصفقة على إيجاب البيع والطاعة والمبايعة. إن النفوس البشـرية خُلِقـت متعلقة بما بدت منه وهذا التعلق جزء جوهر ذاتها وهومميز لها عن الجواهر النورانية الصرفة وبه منشأ شوقها الى مبدئها فإن ساعدها التوفيق وتعلقت اختيارا بمظاهر الأنبيـاء والأوصـياء فـازت بالحياة الأبدية، وإن خذلها الله وتعلقت بالشيطان ومظاهره هلكت، ولما كانت في بدو الأمر لا تدرك إلا ما اقتضته القوى الحيوانية والشيطانية ولا تتيسر لها المدارك العقلانية إلا بواسطة أمر الله تعالى بالتعلق بمظاهر العقول من الأنبياءِ وخلفائهم، ولتطابق العوالم، عالم ظل وتوافق المراتـب مرتبـة بشكل مرتبة، ولزوم سريان حكم كل عالٍ في الداني؛أمرهم الله بالبيعة بعقد يدي المتعلق والمتعلـق به، وتعلق سمع كل بلسان الآخر وصَوته ليكون التعلق النفساني موافقا للتعلق الجسماني، وتلك سُنة

وعلى هؤلاء المبايعين الأربعة شروط تجمعها المبايعة لهم فيما أمروا به

فأما الأئمّة والرسل فلا يمرّون بمعصية أصلاً لأنهم معصومون منها[1].

وكذلك العلماء (المشايخ) فمحفوظون.

وأما السّلاطين فمن لحق منهم بالعلماء (المشايخ) كان محفوظاً وإلاّ كان مخذولاً[2] ومع هذا فلا يطاع في معصية.

والفرق بين المعصوم والمحفوظ: إنّ المعصوم هو الذي لا ينوي الشرّ[3] ولا يصدر عنه.

والمحفوظ: هو الذي ينوي الشرّ ولا ييسّر الله له فعله والمتّبعين له كذلك والبيعة لازمة حتى يلقوا الله تعالى[4] ومن نكث من هؤلاء الأتباع فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وهو كمن قال تعالى فيهم (أولَئكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (آل عمران٧٧) هذا حظّه في الآخرة وأمّا حظّه في الدنيا والبرزخ فالنسوخيّة والمسوخيّة[5] والوسوخيّة والفسوخيّة والرسوخيّة حتى يلج الجمل في سمّ[6] الخياط.

المعنى: يقول : إن المبايعين أربعةٌ والمبايع على الحقيقة الله سبحانه، لأن الداعي الى البيعة إذا خرج عن أنانيته وبقي بأنانية الله كان الداعي هو الله، فالدعوة كانت من الله بلسان الداعي لأن حقيقة الوجوب هي الظاهرة في كل مظاهر الأشياء،

جارية من لَدُنْ آدم الى ظهور محمد(ص) بحيث كان أهل كلّ دين لا يَعدّونَ منه إلا من بايع صاحبهِ أو بايع مع من ينصبُهُ لأخذ البيعة من الناس. ولشرف تلك البيعةَ والبخل بها كانت تختفي في كل دين بعد رحلة صاحبهِ، وذلك قوله تعالى(وبئرٍ معطلةٍ وقصرٍ مشيد) البئر المعطلة إشارة الى التحقق بالدّين بالبيعة، والقصر المشيدُ إشارة الى صورة الدين الشرعية المأخوذة على طريق الملة والرسم، إذا تقرر ذلك عُلِمَ أن تلك البيعة للمظاهر البشرية لعدم إمكان الوصول الى الله إلا بواسطة المظاهر، كانت بيعة لله لأن المظاهر وجودهم وجود الله، وفعلهم فعل الله قال الله تعالى(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله)

[1] المعصومين الذين حفظهم الله من فعل المكروه ووقاهم، وشرحُهُ للعصمة جليلٌ جميل.

[2] المخذول من لم يعصمه الله.

[3] الشرُّ بالفتح ويُضمُّ اسم جامعٌ لجميع الرزائل.

[4] نكثُ العهد نقضُهُ ونبذه.

[5] المسخيةِ والوسخِيةِ(الخ) لم أجد من ذكرها في كتب اللغة، إلا المسخية، فإنها اسم من مسخ الشيء يمسخه مسخا حولّ صورته الى صورة قبيحة، ومنه يقال مسخه الله قرداً فهو مسخ ومسيخ والذي أتى من ذكر في كتب المتكلمين كالشهر ستاني وغيره به خلط كثير.

[6] السمّ مثلثة ثقبُ الإبرة.

وهي الغائبة عن كل الأشياء فهي باعتبار الغيب ومرتبة الوجوب خالق الكل ومُظهرها وباعتبار مقام الظهور عينُ الكل حقاً وحقائقها، وليس بذلك إشعار بوحدة الوجود المؤدية الى الإلحاد والإباحة، وهؤلاء الأربعة المبايعين وعليهم شروطٌ تجمعها بيعتهم يأتمرون بما يأمرون وينهون عما ينهون عنه ويعطون الأسرار الإلهية بحسب القابلية والاستعداد، فمن نكث من المبايعين فحسبه جهنم وكروره في المسوخية من جلها الى دِقِها حتى يقطع السلسلة فحينئذٍ يرجع الى البشرية فتُعرضُ عليه الدعوة فيكفر فيَكرُّ راجعاً الى أول السلسلة فكأنه رجع ليرجع.

حُكيَ إنَّ بعض تلامذة أبي يزيد البسطامي الذي كان سقّا الإمام جعفر الصادق منه السلام خالف أمره فقال لأصحابه: دعوا من سقط من عين الله فروي بعد ذلك مع الْمخنّثين[1] وسرق فقُطِعَتْ يده.

فهذا لمن نكث أين هو ممن وفى ببيعته مثل تلميذ أبي سليمان الداراني قال له ألقي نفسك في التنور فألقى نفسه فعادت عليه برداً وسلاماً هذه نتيجة الوفاء فالسعيد من وعظَ بغيره والشقي من وعظ بنفسه وما وعظ الله أحداً بنفسه حتّى وعظه بغيره من لطفه.

فانظروا يا أخواني من أي عبيد تكونون السباق السباق في حلبة[2] الرجال الرهان لا يغرّنكم من خالف الأمر فجوزي بإحسان العوارف[3] المعارف ووقف في أحسن الْمواقف وتجلّت له الْمشاهد فهذا كلّه مكرٌ به واستدراج[4] من حيث لا يعلم فإذا أحتجَ من خالف بنفسه نقول له شعراً:

---

[1] المخنث:المسترخي واللّيّنُ الكلام ورجلٌ من ذوي المجون والخلاعة يضرب به المثل في التخنيث.

[2] الحلبة بفتحٍ فسكون الدفعة من الخيل في الرهان خاصة.

[3] المعارف جمعُ معْرفةٍ بكسر الراء، إدراك الأمر على ما هو عليه، وفي نسخةٍ: في أحسنِ العوارف ولعلها أصوب.

[4] الاستدراج: الاستصعاد والاستنزال درجةً درجةً والمراد هنا به الاستنزال عن الصادق إذا أراد الله بعبدٍ خيرا وأذنب ذنباً أتبعه بنقمةٍ ويذكره الاستغفار وإذا أراد بعبدٍ شرا فأذنب ذنباً اتبعه بنعمةٍ لينسيه الاستغفار ويتمادى بها، والإنسان واقعٌ بين عالم الجنة والشياطين وبين عالم الملائكة وقابل لتصرف الجهتين فيه، وقوله(ع) لكل إنسان شيطانٌ يغويه وملكٌ يزجره يشير الى ذلك، فإذا بلغ الإنسان مبلغ الرجال وحصل له العقل الذي هو مناط التكليف والتدبير وقع في تصرف الملك والشيطان، وأسباب غلبة كل منهما عليه دون الآخر كثيرةً مثل اختلاف الاستعداد بالذات وتخيل المتخيلات واختلاف الأغذية ومجالسة الأخيار والأشرار وأعمال الأبرار والفجار وغير ذلك وقد يتصرف الشيطان في أغلب الناس بلا شعورٍ منهم به مع بقاء العقل الذي هو مناط تدبيرهم، وكونه

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفرسٌ تحتك أم حمارُ

نعوذ بالله من مرض الغرور[١] وهو سكون النفس إلى غير الحقّ ومنشأه الجهل الْمركّب[٢] وهو عدم العلم بالحقّ مع اعتقاد نقيضه إذا الجاهل إذا كان عالماً بأنّه جاهل فهو مريض يعرف مرضه خليق بطلب الْمعالجة وحصول البرء وهذا هو الجهل البسيط وأمّا الجاهل الذي يعتقد إنّه عالم فهو الأحمق الْمغرور الذي أعيى الأنبياء والرسل والأوصياء والأئمّة والأولياء والعلماء والحكماء وعجزوا عن معرفة علاجه حتى قال السيد الْمسيح (ص): كلّ داءٍ داويته إلاّ الحمق. فإنه أعياني وهو داءٌ عضال لا يقبل العلاج إلاّ نادراً وهي ورطة[٣] هلك فيها الأكثرون وسلم منها الأقلّون، إذ كلّ واحد يعتقد أنّ الذي هو عليه من الْمذهب والعلم والعمل والخُلقُ[٤] هو الحقّ[٥] وما سواه هو الباطل[٦] وقد قيل إنّ الناس راضون عن الله بما أعطاهم من الحسن والعقل.

وعن هذا كان أبو جهلٍ يدعو يوم بدر ويقول: اللهم أنصر أولانا بالحقّ.

خادماً للشيطان، وقد يغلب على بعض بحيث يذهب العقل منه ويبقى الشعور له ويغشى عليه، وقد يظهر عليه في حالتِه هذه صورة الجنّ أو لا تظهر، وقد ينطق عن المغيباتِ شاعراً أو غير شاعر وقد تقع منه مناسبةٍ بينه وبين عالم الأرواح الخبيثة ويشاهد صور عالم الطبع فيه من غير زوال عقله فيخبر عن المغيبات أو يظهر عليه بعض الشياطين فيخبره بخبر السماء، فيحسبه من عالم الأرواح الطيبة. عن الباقر(ع) أنه ليس من يومٍ وليلةٍ إلا جميع الجن والشياطين يزورون أئمة الضلالة، ويزور إمام الهدى عددهم من الملائكة.

[١] الغرور: سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع من شُبهةٍ وخدعةٍ. وسيأتي بمعناه العرفي.

[٢] الجهل المركب ما لايشعر صاحبه به فيعد نفسه حكيماً، وعلى ذلك يكون مركباً من جهله بالأمر. وجهله بنفسه، ومنه قول الشاعر:

قال حمارُ الطبيبِ موسى لو أنصفوني لكنتُ أركبْ
لأنني جاهلٌ بسيطٌ وصاحبي جاهلٌ مُركبْ

[٣] الورطة: كلُّ أمرٍ شاقٍ يعسر الخلوص منه.

[٤] الخلق والخلق بضمتين وبالتخيف: السجية والطبع والمروءة والدين والعادة، ومنه: إنْ هو إلا خلق الأولين.

[٥] الحق من أسمائه تعالى وهو الموجود حقيقةً والمتحقق وجودهُ وإلاهيته، والقول والفعل الواقع بحسب ما يجب في الوقت الذي يجب، وضدّ الباطل.

[٦] الباطل ضد الحق وهو ما لا ثبات له عند الفحص.

المعنى: يقول ضارباً مثلاً بِمَنْ وفى ببيعته فعادي عليه برداً وسلاماً. ومن نكث بها فسقط من عين الله، فانظروا من أي عبيدٍ تكونون، أمِمَنْ وفى فسعد أم ممن نكث فشقى. السباق السباق الى طاعة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه، ولا تغتروا بمن خالف أمر دعاة الله فتجلت له المشاهد الغيبية فأخبر عنها كمن رآها عياناً فهذا مكرٌ به واستدراج؛نعوذ بالله من الغرور بالجهل المركب. فالجاهل الذي يعلم أنه جاهلٌ مريضٌ إذا عولج خليقٌ بالشفاء، وأما الجاهل المغرور الذي يزعم أنه عالمٌ فهو الأحمق الذي عجز الكل عن مداواته، وكل من ذوي الملل والنحل يزعم أن الذي هو عليه هو الحق وما عداه الباطل، وناهيك بدعاء أبي جهلٍ وقد كانت الدعوة بمعاجزها وبيناتها بأيامه، فأنها أعدل شاهدٍ على ما ذكر، وكل ضلالةٍ رآها متبعوها حقيقةً أحق أن تُتبع، وإلا فما وجه تكذيب الله سبحانه في مظاهره مع مؤهلات الإقرار والإذعان، وما وجه تنوع العبادات والمتعبدات، إنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. ولكن لو سمع إخوان عصرنا القائلين بأن إبليس عنصرٌ، وليس الأول هو قابيل بل قابيل شخصٌ ذهب للعذاب والتنكيل، والأول غيره، ولو سمعوا أن للأبالسة إطلاعاً على المغيبات، ومعرفةً بالآتيات لجن جنونهم لأن الذي جرهم الى أن قالوا ظنهم أن الأبالسة بشرٌ، ويرونهم منعمين دائماً مع خلافهم لدعوة الحق في كل مظهرٍ فيجب أن يكون كما زعموا. والحقيقة على ما اتضح من كلام الموالي والمؤلف وغيره من محققي الفلاسفة أنهم غير بشرٍ ولا يأكلون ولا يشربون ولهم اطلاعٌ على المغيبات ومعرفةٌ بالآتيات وعذابهم روحاني لا جسمانيٌ (في حجة العارف) فمن جملة قدرة الضد على التصرف ظهوره في كل قبةٍ بمراتب ودرجٍ، واستطاعته التي كانت معه باقيةٌ لم يسلبه الله إياها... الخ، وفي غيرها أمثال ذلك كثير وليس بالمقام توسعٍ، وقد نبه بهذا على ضلالة المتصوفة الظاهرة وإن تجلت لهم المشاهدُ، ووقفوا في أحسن المواقف. هدانا الله.

وربّما يرى الْمتمادي[١] في الباطل الْمغترّ بنعيم الدنيا وزهراتها وشهواتها ولذّاتها أن يموت له عدوّ فيقول هذا من كرامتي على الله تعالى أهلك أعدائي ولا يزيدني إلا نعمة على نعمة وصحّة على صحّة أولا يعلم هذا الْمسكين الجاهل

---

[١] اسم فاعلٍ من تمادى في غيه دام على فعله لاجاً فيه.

الأحمق الْمغرور إنّ الله إذا أحبّ عبداً زوى[١] عنه الدنيا وأيضاً يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ ولا يعطي الآخرة إلاّ لمن أحبّ وعلامة ذلك أعني الفرق بين من يحبّ ومن لا يحبّ إنّه إذا أنعم على عبدٍ بنعمةٍ[٢] فازداد شكراً[٣] على شكر ووجلاً[٤] على وجل فهو من الْمحبوبين وإذا أعطي عبداً نعمةٍ فازداد معصيةٍ[٥] على معصية وطغياناً على طغيانٍ[٦].

فهو من الْممقوتين[٧] وإنّ ذلك إمهالٌ لا إهمال[٨] فإن الله يملي[٩] للظالم فإذا أخذه فلم يفلته (فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ[١٠] اللّهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (الأعراف٩٩) وإنما

---

[١] زوى الشيء عن فلانٍ نحاه عنه وعن كذا عدله وصرفه عنه.

[٢] النعمة بالكسر المنةَ والصنيعة واليدُ البيضاءُ وما أنعم الله عليك من رزقٍ ومالٍ غيره، والمسرة ونعمةَ الله هي ما أعطاه الله العبد مما لا يتمنى غيره أن يعطيه إياه. جمعها نعمٌ وأنعم والأنسان بما هو إنسان عبارة عن تلك اللطيفة السيارة الإنسانية المتحدة في كل مرتبة من مراتب التكوين وهي مع كلِ مرتبةٍ بوجهٍ والمغايرة لها بحسب الذات والآثار بوجه وتلك اللطيفة هي المدد الإلهي وهي الحبل بين الله الناس، ومرتبة من المراتب محدودة بحدودٍ خاصةٍ بخلاف تلك اللطيفة، فكل ما ينفع الإنسان بسيره الى الله إن كان ذلك النافع ابتلاءً وامتحاناً أو نعماً وإحساناً كلهُ نعمٌ مِن الله، فتصبح الأنفس وإنذار الأولياء نِعمٌ كما أن الإبتلاء وزجر الأشقياءِ نعمٌ ولذا قال سبحانه (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) (سورة آل عمران: ١٨٦) بطريق التوكيد، فكل ما أعان الإنسان بحسب التكوين أو بحسب التكليف على السير الى مقامه الذي هو الولايةِ المطلقة التي لا حد لها كان نعمةً، وإذا وصل الإنسان الى ذلك تمت النعمة عليه بل صار بنفسه نعمةً تامةً على نفسه، فإن الولاية هي النعمة لا غير الولاية.

[٣] الشكرُ عرفانُ الإحسان ونشره، قيل (الشكر لا يكون إلا عن يد والحمد لله يكون عن يد وغير يد، والشكر مقابل النعمة بالقول والفعل والنية فيثني على المنعم بلسانه، ويذيب نفسه بطاعته).

[٤] الوجل: الخوف من وجل يوجل وياجل بقلب الواو ألفا ويجل بقلبها ياء بكسر أوله وجلاً وموجلاً وفي الحديث وعظنا موعظة وجلت منها القلوب.

[٥] المعصية مصدر عصاه يعصيه عصيا ومعصيةً خرج عن طاعته (يائي) وعانده وخالف أمره فهو عاص وتطلق على الزلة مجازا.

[٦] الطغيان مصدر وهو تجاوزُ الحدّ بالعصيان والطغوانُ أيضاً تجاوز الحدّ والقدر واوي.

[٧] المقوت اسمٌ من مقتهُ، أبغضه أشدّ البغض عن أمر قبيح.

[٨] الإهمال مصدر اهمله تركه ولم يستعمله عمدا ونسيانا

[٩] يُملي مضارع أملى الله للظالم، والظالم أمهله وطول له.

[١٠] المكر من مكر به يمكر مكرا خدعه والله فلاناً جازاه على المكر، وقيل: المكر صرف الإنسان عن قصده بحيلة إن كان قصدَ فيها الشرُ كان مذموماً، وعذاب الله سبحانه إن كان من غير تقدم أمارات فهو الباس بغتةً حين النوم أو حين اللعب، وإن كان مع تقدم أمارات فهو المسمى بالاستدراج، والمكر بشباهته بمكر المخلوق، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، بنقص عقولهم التي هي بضاعتهم فإن العاقل حين تجدّد النعمة يحتمل النقمة بالنعمة فيخاف عاقبتها بخلاف الجاهل فإن نظرهُ الى صورة النعمة، لا الى احتمال اندراج النقمة فيها.

الاستدراج أكثره إنّما يكون بالآيات البينّات وقوله(سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) (الأعراف١٨٢) كأنّه أشار إلى ذلك.

المعنى: يقول : ربما يرى المغرور أنه يموت له عدوٌّ، فيظن أن موته كرامةٌ من الله خصه بها، أو لا يعلم هذا المغرور، أن الدنيا ليست بذات قيمة في عين الله، فإنه يعطيها لحبيبه المؤمن كما يعطيها لبغيضه الكافر ولا يعطي الآخرة إلا لحبيبه المؤمن لأنها شيءٌ له قيمةٌ عنده، وربما زوى الدنيا عن عبده المؤمن رحمةً به، والفرق بين العبدين أن من إزداد شكره ووجله كلما ازدادت النعمة لديه فذاك هوالعبد الممقوت، وازدياد النعمة عليه من الله سبحانه إمهالٌ لا إهمالٌ، فإن الله يمهل الظالم فإذا أخذه لم يُفلته والاستدراج الذي هو أخذ الظالم بأعماله، إنما يكون أكثره بعد امارات من الله وعلامات تدل على البطش، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. قال أمير المؤمنين:

(كم من مستدرج بالإحسان إليه وغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له إعاذنا الله).

وبالجملة من أعتزّ[١] بغير الله فهو ممقوتٌ نازلٌ في حقّه قوله تعالى (وغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) (الحديد١٤) فدعوا عنكم أيها الأخوان التفصيل[٢] والاستيعاب[٣] والأصناف[٤] وخذوا إليكم وإلى فهمكم وفكّروا إنّ من أعتزّ بشيء ممّا سوى الله تعالى كائناً ما كان فهو محجوبٌ[٥] مغرور[٦] صدّ عن الدخول في حصن الأيمان

---

[١] اعتز بزيد عدَّ نفسه عزيزاً عليه.

[٢] التفصيل: التبيين ضد الإجمال.

[٣] الاستيعاب مصدر استوعبه أخذه أجمع واستأصله، وزيدٌ الحديث تلقاه واستوفاه.

[٤] الأصناف جمع صنف بالكسر الصفة، يقال صنفه كذا جمعه أصناف وصنوف، وهذه الجملة في نسخة أخرى (والتقصير والاغتياب والاعتساف) وما بالمتن هو الأصح.

[٥] محجوب ممنوع من الدخول.

[٦] مغرور مفعول من غرَّ غروراً، والغرور الأباطيل وسكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل الطبع عن شبهة وخدعة وبفح الغين الشيطان كما في قوله تعالى (وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) (الآية ١٤ من سورة الحديد) والغرور منبع كل هلكة وأمُّ كل شقاوة. قال سبحانه (فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) (الآية ٣٣ من سورة لقمان) وقال سبحانه (وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ) (الآية ١٤ من سورة الحديد) وقال (ص) (حبذا نوم الأكياس وفطرُهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى أفضل من ملء الأرض من المغترين)، وقال الصادق (ع) (المغرور في الدنيا مسكينٌ وفي الآخرة مغبونٌ لأنه باع الأفضل بالأدنى)، وطوائف المغترين سبعة:

١: الكافرون وغرورهم بقولهم الدنيا نقدٌ والآخرة السيئة.

وإذا أنكشف لـــه وعلـــم إنّ
وأحصر عن الوصول إلى جنان جناب[1] حضرة الرحمن
غير الله هالكٌ فانٍ بل عدمٌ محض كما قال لبيد في بعض شـــعره: (ألا كـــلّ شـــيء
ماخلا الله باطل)
أي عدم وصدّقه الرسول فقال أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيـــد (ألا كـــلّ
شيء ماخلا[2] الله باطل[3] علم إن الاعتزاز بما سوى الله كائناً ما كان خسرانٌ محض
وعند ذلك يتحسر ويتنفس الصعداء[4] (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ)[5] عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ[6] عَلَى عُرُوشِهَا[7] وَيَقُولُ: (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ[8] بِرَبِّي أَحَداً) (الكهف٤٢)

العفو.
٢: العصاة من المؤمنين بقعودهم عن العمل واتكالهم على العفو.
٣:علماء الفنون جميعها ما عدا العلم الإلهي أيا كان العمل والعلم.
٤: الوعاظ الذين يعظون بما لا يتعظون به.
٥: أهل العبادات وغرورهم بطقوسها.
٦: المتصوفة وغرورهم أكثر من أن يحصى.
٧: الأغنياء يبذلون من أموالهم للسمعة والشهرة.

[1] الجناب: الناحية والفناء، وما قرُبَ من محلة القوم جمعه أجنبة يقال أخصب جناب القوم أي حولهم وفي نسخة(جناب حظيرة الرحمن) وحظيرة القدس الجنة.

[2] خلا من أدوات الأستثناء إذا جعلتها فعلاً نصبتَ المستثنى بعدها وإن جعلتها حرفاً جرّتهُ ولكـــن إذا سُبقَت بـــ ما المصدرية تعين أنها فعل ونصبَ المستثنى حتماً فيقال: جاء القوم خلا زيداً وخلا زيد وما خلا زيداً.

[3] الباطل ضد الحق وسُمي به إبليس،

[4] الصعداء كالبرجاء تنفسٌ ممدودٌ الى فوق طويلٌ التوجع.

[5] يقال أصبح يقلبُ كفيه أي يتندمُ.

[6] خاوية: خالية.

[7] عروش الكرم رفع دواليه على الخشب.

[8] أشرك بالله جعل له شريكا.

وللإشراك مراتب عديدة.

الأولى:الإشراك بالله في وجوب وجوده كإشراك الثنوية القائلين بأن العالم مبدأين قديمين (يزدان) (وأهريمن) أو النور والظلمة.

الثانية: الإشراك في الآلهة كإشراك بعض الثنوية القائل بأن القديم والواجب الوجود واحدٌ والظلمةَ أهريمن) مخلو منه ولكن له الإلهية في العالم وأنَّ الشرور إلهامها منه لا من الله.

الثالثة:الإشراك في العبادة كإشراك أعظم الصابئين وأكثر الوثنيين والعجليين وغيرهم ممن يعبد غير الله من مخلوقاته تقربا بها الى الله.

الرابعة: الإشراك في الوجود كإشراك معظم الناس إلا من شذ الذين لا يرون في الوجود إلا الموجودات المتكثرة المتقابلة كل مع الآخر والكل مع الله.

الخامسة:الإشراك في الطاعة كإشراك من أشرك في طاعة الأنبياء والأولياء وخلفائهما طاعة غيرهم من أعدائهم ومن علماء السوء والسلاطين والأمراء والحكام.

السادسة:الإشراك في الولاية. وكل هؤلاء غير الثلاثة الأول وغير المعنى الأخير لا يُعدُّ كفراً، وأشدُّ الإشراك أن تشرك مع ولي الأمر أو نبيّ المقت في البيعة الخاصة أو العامة.

ويقولُ (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ[١] فُلَاناً خَلِيلاً) (الفرقان٢٨)

(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ[٢] الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم موْبِقاً[٣]) (الكهف٥٢)

المعنى: يقول : من اعتز بشيء من الأشياء سوى عزه الله الحق فهو مغرورٌ، فلنترك تفضيل مراتب الناس وغرورهم (والذين عناهم من المغرورين هم الذين ذكرنا) فإن المعتز بغير الله محجوبٌ عن الله ولا يدخل حصن الإيمان وممنوعٌ من الدخول لجنة الرحمن فإذا كشف له عندالحساب وعلم أن كل شيء فان ما سوى الله عز وجل علم أنه كان الموصوف بهذه الآيات المذكورة وسيأتيك بيانٌ واسعٌ عن أن المعتز حتى بالعلم والعمل وما أشبه كان ما اعتز به حجاباً بينَهُ وبين الله .

المقرمة (التزكرة والموعظة) أنواع الإشراك.

فبالجملة ما أحدثه الْمتقمصون[٤] بثوب الأيمان الْمتشبهون بأهل العرفان ليس يليق إلاّ بالْملاحدة[٥] الْمنخلعين[٦] عن ربقة[٧] الدّين بالكليّة بل أستغفر الله وأتوب أليه من تسميتي أيّاهم بِالْمتشبّهة بالْمؤمنين العارفين إذ لو كانوا متشبهين بهم لكانت سيرتهم سيرة الْمؤمنين العارفين لا سيرة الْملاحدة الجاحدين ولكانت أمورهم جملةً وتفصيلاً تشبه أمور الْمؤمنين العارفين لا أمور من يعتقد اليوم غدا ولا الْمرجع

---

[١] فلانٌ مُنونٌ بدون الألف واللام يُكنى به عن العلم العاقل المذكر. وفي بيان السعادة، إن كان المنظور من الآية الكريمة التعريض بالأمة فالمراد بقوله فلانا: الثاني أو الأول. وإن كان المنظور مطلق الظلم فالمراد بقوله: فلانا مطلق رؤساء الضلالة.

[٢] الشركاء ههنا أعم من الشركاء في الوجوب والإلهة والعبودية والطاعة والولاية والوجود.

[٣] الموبق: كموعد، المجلس والمهلك والموعد، وواد يزعمون أنه في جهنم أي جعل بين المشركين والشركاء واديا لا يصل بعضهم إلى بعض أو: جعلنا وصلهم في الدنيا هلاكهم في الآخرة. كما قيل أن (بين) بمعنى الوصل.

[٤] المتقمصون أسم فاعل من تقمص مطاوع قمصه قميصاً فتقمصه ويقال مجازاً تقمص لباس العزّ، وتقمص الإمارة والولاية.

[٥] الملاحدة جمع ملحدة، قومٌ من الكفرة يسمون بالدهريين.

[٦] المنخلعون جمع منخلع فاعل من انخلع انتزع من مكانه، ومن ماله عُرّي منه كله كما يعرى الإنسان من ثوبه، والعضو زال من موضعه.

[٧] الربق بالكسر حبل فيه عدة عرى يُشدُ به اليهم كل عروة منه ربقة.

إلى الله أبدا وأنهم يجمعون ليومٍ لاريب فيه أعني يوم الجمع[1] والفصل[2] يوم تبلى[3] السرائر[4].

المعنى: ومن يعني ضاعف الله حسناته بهذه اللهجة القاسية والتفريـغ المُـرّ سوى هؤلاء المغرورين بأعمالهم، فغُرّبهم سواهم فأكلوا بدينهم دنياهم وحطموا بهـا أخراهم، وليس على الأمة بأضر من هؤلاء المتأكلين فـي الـدين الجـانحين عـن الصراط المستقيم المتظاهرين بالزهد والتقوى يغتربهم الضعفاء وهم عثرةٌ في طريق الأتقياء.

فبالله يا أخواني أنصفوني بالكلام وأعينوني بالإفهام[5] أليس منهجنا واضـح ورائدنا ناصح وداعينا إلى الله بالفلاح[6] صالح، فـإلى متـى هـذه السـنة وأنـتم منتبهون، وحتّام هذه الغفلة وأنتم منتظرون، وعلامَ هذه السكرة وأنـتم صـاحون، ولم هذه الغيبة وانتم حاضرون، ولم هذه الطمأنينة[7] وانتم مطلوبـون، ولـم هـذه الإقامة وانتم راحلون، أما آن لأهل الرقدة أن يستيقظوا، أما حان[8] لأبناء الغفلة أن يتيقّظوا، أما أزف لأهل العقول أن يتفكّروا، أما دلف لأهل التجارب أن يعتبروا[9] الم تسمعوا قول الله (ص) (أَلَمْ يَأنِ)[10] لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ[11] قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَـا

---

[1] يوم الجمع: يوم القيامة.
[2] الفصل: القضاء بين الحق والباطل، قولٌ فصلٌ أي حقّ. ويوم الفصل يوم القيامة أيضاً.
[3] تبلى: تختبر.
[4] السرائر جمع سريرة هل هي خالصةً أم مغشوشة، والمراد بالسرائر إما الأعمال القالبيـة فإنهـا سرائر من حيث الخلوص والشوب ومن حيث المبادئ والغايات أو الفعليات الحاصلة للنفس منها أو النيات أو كامنات النفوس التي لا يعلمها أصحاب النفوس.
[5] الإفهام بالكسر مصدر أفهم إفهاما وبالفتح جمع فهم.
[6] الإفلاح مصدر أفلح وهو الفوز والظفر بالطلب ومنه قد أفلح من تزكى. وفي نسخة الفلاح وهـو الفوز والنجاة.
[7] الطمأنينة مصدر اطمأن لكذا أي سكن وامن له واسمٌ من الاطمئنان وتوطينٌ وتسـكينٌ يحصـلان للنفس.
[8] أزف: قَرُبَ.
[9] اعتبر اختبره ونظر فيه وردّه الى نظيره فحكم عليه بحكمه، وفلاناً اعتدّ وبالشيء تعجب واتّعظ.
[10] يأني مضارع اني يأني أنياً فهو أنيّ حان وادرك.
[11] خشع له يخشع خشوعا خضع له وذل وببصره غضّه والأصوات للـرحمن سـكنت وخضـعت والخشوع والخضوع والتواضع براي الصوفية ألفاظ متقاربة المعنى متفاوتة الرتبة فـإن الخشـوع حالة تحصل من الاستشعار بعظمة المتخشع له مع صحبته والألتذاذ بوصال ما منه ممزوجـا بـألم الفراق، والخضوع هو تلك الحالة إلا ان الخضوع أكثر منه في الخشوع والمحبة أخفى بالنسبة الى الخضوع، والإنسان كلما ازداد انقياده لولي أمره وخشوعه والتذاذه بوصاله وكلمـا ازداد خشـوعه تلذذ بصلاته حتى تكون الصلاة قرة عينه قال (ص) (الصلاة قرة عيني).

نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَـدُ[1] فَقَسَـتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد١٦) أليس هذا الخطاب إلينا والعتب علينا. فلم لانتعظ بفهم الكلام ونتيقظ للتوبيخ وَالْملام، وحتّام لا نتناها عن الْمنـاهي ونقابـل الأوامر بالقبول ونتحقق لما هي فنحن معاشر الْمؤمنين أحقّ بالانقياد لهذا الأمـر وأولا بالطاعة لموقع هذا الزجر لصحّة الاعتقاد وتحقيق الوعد في الْمعاد[2] وإذا لم نكن من أهل القبول كنا ممن ذمّهم الله تعالى في كتابه العزيز بقوله الحقّ (بِئْسَـمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مؤمِنِينَ) (البقرة٩٣) فمـا بـالكم أيهـا الْمؤمنـون لا تتعظون، وعن التذكرة معرضون فكأنكم لما عرفتموه منكرون، وبما قد علمتمـوه جاهلون، قد أصبحتم لما أودعتموه من الأسرار مضيّعين، ولما قد علمتم من العلـم الْمصون مذيعين، أشبهتُمُ العميان يقودُهمُ الأعمى فهم لا يهتدون.

المعنى: وبعد أن حمل تلك الحملة الشعواء على المتقمصين بثـوب الإيمـان المتشبهين بأهل العرفان.. الخ.. شرع قدسه الله يستعطف إخوانه بهذه الجمل الشائقة والنفس الطاهر المليء بالرقة والتوجع ممزوجاً بالعتب والملام يستنهضـهم للعمـل الصالح خالصاً لله، متعجباً كيف لم نـتعظ بـالمواعظ ونقابـل الأوامـر بـالقبول، فالمؤمنون أولى بالطاعة والانقياد لصحة الاعتقاد.

يستودع أحدكم الطالب ما في يده من الأمانة[3] بلا رياضة[4] ولا إيناس[5] رشد ويلقيه إليه بغير اختبار واستحقاق بل استخفافاً[6] بهذه الجوهرة[7] الثمينـة والـدّرة

---

[1] الأمد الغاية. الاستفهام بهذه الآية الكريمة للتوبيخ والإنكار، والمراد بذكر الله هو الذكر المأخوذ من صاحب الذكر أو تذكر الله وما نزل من الحق من آيات القرآن ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب.

[2] الميعاد المواعدة وفي نسخة المعاد وهو المرجع والمصير والجنة والحجّ والآخرة.

[3] الأمانة ما يودع عند الأمين قصدا الى حفظه ونمائه إن كان له نماءٌ وأمانات الله عنـد الأنسـان كثيرة وأنت تعلم الحديث القدسي. كنت كنزا مخفيا.. الخ. فمعرفة هذا الكنز هي الأمانة التي أرادها المؤلف قدسه الله.

[4] راض المهر يروضه روضاً ورياضةً ورياضاً، ذلّله وجعله مسخراً ومُطيعاً وعلمه السـير فهـو رائضٌ جمعُهُ راضةٌ ورواضٌ ورائضون، ويقال رُضْ نفسك بالتقوى وهو المراد.

[5] الإيناس مصدر آنس الشيء إيناسا أبصره، يقال آنست منه رشدا أي علِمتهُ.

[6] الاستخفاف مصدر استخفه: استجهله فحمله على اتباعه في غيه، وزيداً عن رأيه حمله على الجهل والخفة واستخف به استهان وهو المراد.

[7] الجوهرة واحدة الجواهر وهي أصل المركبات وكل حجر كريم مُعرب (كوهر) وسيأتي الكلام عن العرض والجوهر.

اليتيمة المصونة لقلقةً[1] في اللسان وتهاوناً ببرّ الرحمن ظنّاً منه إنّه قد أحياه من المْمات وخلّصه من الآفات[2] وأفاده الأيمان وجعله من الأخوان وأعطاه من النار الأمان وليس الأمر والله كذلك بل ألقاه في شبكة الشكّ وقرّبه من الإفك إن لم يفهمه في دينه.

وقد قال أمير المؤمنين منه الرحمة لو رأيتُ شاباً من شيعتي لا يتفقّه في دينه لعلوت رأسه بسيفي[3] هذا وأشار إلى ذي الفقار[4].

فيا ويله من الأثم ويا ويله مما يأتي على نفسه من الظلم لقد ضلّ وأضلّ فحسبه الله وكفى إن لم يفقه في الدين ويستدرك أمره ليكون من المْوقنين[5] فأنّه ما حصل بما ألقاه أليه إلاّ على الحيرة[6] والشكّ والوقوع في تيه[7] الظنّ وشبكة الشرك فهو كما قال الله تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ) (يوسف١٠٦) فنعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ومن الشك بعد اليقين بأتباع الهوى فهو سبب الردى.

المعنى: يقول مؤنباً الفقهاء المرشدين أو من ينصب نفسه فقيهاً، وكأنه بين رجال عصرنا من إلقاء هذا السر لمستحقه وغير مستحقه بدون شرط ولا اشتراط استخفافاً بهذه الجوهرة الثمينة، وتهاوناً بأمانة الله، ظناً من حضرة هذا الفقيه أنه قد أحيا طالبه بعد مماته، مع أنه ألقاه في شبكة الشك والشرك بما ألقاه إليه، حيث لم يعرفه أمر هذا الصعب المستصعب فيحمله على الجادة، لئلا يقع بحكم من لو رآه أمير المؤمنين لضربه بسيفه الذي لم يضرب به أحداً إلا دخل النار. فياويل هذا المرشد لقد ضل بعمله هذا وأضل صاحبه المسكين، أفلا يرى إخوان عصرنا هذا وأمثاله مما مُلئت به بطون كتب الدين، وخصوصاً كيف كان إرشاد السيد أبي عبد

---

[1] اللقلقة شدةُ الصوت في حركةَ واضطراب.

[2] الآفات جمع آفة العاهة والآفة عرض مفسد لما أصاب من شيء، يقال آفة الظُّرف الصلف وآفة العلم النسيان.

[3] علاه بسيفه ضربه به.

[4] ذو الفقار لقب سيف علي بن أبي طالب يقال إن الله أهداه إياهِ من الجنة.

[5] الموقنون جمع الموقن اسم فاعل من أيقن الأمر وبالأمر إيقاناً علمه وتحققه.

[6] الحيرة مصدر حار الرجل في أمره لم يدر وجه الصواب فيه فهو حيران والحيرة عدم الاهتداء الى السبيل.

[7] التيه الضلال والذهاب تحيراً.

الله زعيم هذه الفرقة الناجية، وحيثُ وصلنا الى هذا العصر الذي لا يكفي الطالب به أن تقول له رد الشمس وأحيا الميت، فتقوده الى ما تريد كما تريد، فالرجوع الى ما كان عليه الأقدمون من الحرص على هذا السر أولى. وأما أنا فلم أفقه طالباً من مدة قريبة إلا قليلاً خوفاً مما ذكر هذا المؤلف الجليل وغيره.

فالواجب على من نَصّبَ نفسه فقيهاً للتعليم[١] أن يعتبر هدى الطالبين أوّلاً وأفعالهم وصنائعهم وأجناسهم[٢] وأحرافهم[٣] وأصنافهم واعتدالهم[٤] من استعدادهم وضعفهم فإن رآهم سالمين من جميع العيوب المْذمومة والعاهات[٥] والصنائع المْشهورة والأجناس المْعروفة المْانعات من إيداع سرّ الله تعالى وإلاّ فلا فسحة له في تقريبهم إليه، لِمَا ورد من النهي والتحذير من ذلك، ولوكان أباه الذي ربّاه، وولده الذي أعقبه من ظهره، فإن قرّبهم إليه وأذاع سرّ الله تعالى عندهم فقد عاند الله وخالف أمره وندّ عنه[٦] وتناكره[٧] وصدّ عنه وعن معرفته وجحدها، فاستوجب بذلك الفعل منه النكال[٨] في هذه الصورة والأمثال كلّها حتى تتجنبه أهل الحقائق[٩] ويبعدوه وينكروه ويكفّروه ويلعنوه ويطردوه، بجرأته على مولاه، وعناده لما أمرَ به، ويردّ في كلّ قالب[١٠] وهيكل ونوع وجنس وصنف ألف مرّة، حتى يكمل له

---

[١] الفقيه: العالم بالفقه، والفقه هو إدراك الأغراض والغايات خصوصاً الغايات الإلهية، من الأقوال والأشياء، لا إدراك المفاهيم من الألفاظ فقط كما ظن، وبعبارة أخرى الفقه هو الذي يحرك الإنسان من حضيض نفسه الى أوج عقله، ومن دنياه الى آخرته، وتفسيره أنه هو العلم بالفروع الدينية مواضعة اصطلاحية محضة، ولا يُسمى علم الله ولا علم الملائكة فقها، لأنه لا استعداد هناك للتعلم، بل تعلمهم عين علمهم، وقوتهم عين فعلهم، والحاصل إن الاشتداد بالسير في طريق الإنسانية مأخوذ من مفهوم الفقه، فكلما كان الإدراك كذلك كان فقها وإلا لم يكن فقها.

[٢] الجنس: بالكسر الضرب من كل شيء والمراد هنا أجناس الأمم.

[٣] الحِرف: جمع حرفة المهنة التي يعيش بها المرء.

[٤] الاعتدال: مصدر اعتدل توسط بين حالين في كم أو كيف كقولهم جسمٌ معتدل بين الطول والقصر، وسيأتي عن الاعتدال والانحراف ما تستحليه.

[٥] العاهات: جمع عاهة عرضٌ مفسدٌ لما أصابه، كالفساد الذي يقع في الزرع من حَر أو عطش، وفي الإبل من جرب وغيره.

[٦] ند البعير يندُّ ندا أو ندوداً: هام على وجهه، فهو نادّ وهي نادةٌ.

[٧] تناكر الأمر: جهله، والقوم تعادوا.

[٨] النكال: كسحاب ما نكلت به غيرك كائناً ما كان.

[٩] الحقائق: جمع حقيقة، غاية الشيء، وأصله المشتمل عليه، وعند الصوفيين هي باطن الطريقة، والطريقة باطن الشريعة، فالشريعة للكل بكل أحكامها، والطريقة كمذهب من المذاهب، والحقيقة سرُّ الجميع.

[١٠] القالب: الشيء الذي تُفرغُ فيه الجواهر، ليكون مثالاً لما يُصاغ، فكأن صور الممسوخية التي يتردد بها الكافر قوالب هياكل تفرغ فيها روحه، كما سيأتي أن النفس ببساطتها كهيئة الجسد بكثافته.

سبعون ألف قالب، وهي دوران كلّ دور[1] خمسة أكوار[2] يوفّيه لكل قالب خمسين سنة إن زاد في قالب نقص في الأخر حتّى يوفيه سنيّه.

المعنى: يقول بعد أن استنهض إخوانه المؤمنين بما مر بك من تلكم العبارات الرحيمة، والاستعطافات الشائقة معلماً كيف يجب أن يكون الاحتفاظ بهذه الجوهرة السَّنيَّة، محذراً من بذلها لغير مستحقيها لقلقةً باللسان، وتهاوناً بسر الرحمن. فالمتحتم على من نصب نفسه أستاذاً لإعطاء السر، أن يعتبر هدى الطالبين أولاً، وصنعتهم متعرفاً على أمورهم كُلها، (بما في مجموع أبي سعيد)، فمن وجده سالماً من العيوب المانعة من هذا السر، وإلا فلا فسحة له في تقريبه إليه، والإعطاء له، ولو كان ذلك الطالب والده أو ولده، وهما أقرب إليه، فإن فعل فقد أذاع سر الله واستحق عقابه، فيستوجب أن يُرَدَّدَ في قوالب المسوخية، وما ربك بظلام للعبيد، وفي كل الكتب الباطنة والظاهرة، وعند كل الحكماء تجد وجوب كتمان السر إلا عن أهله، ويكفيك ما هنا وبالمصرية والجوهرة:

ففي السر أسرارٌ دقاقٌ لطيفةٌ تراق دمانا جهرة إن بها بُحنا، بالسر إن باحوا تباح دماؤهم الخ... وفقنا الله.

فإن وجده أهلاً لإيداع سرّ الله (ﷻ) علّمه أولاً الطريق إلى معرفة مولاه، ومطالع[3] أنواره، ومعادن[4] أسراره، وهو الأدب[5] الذي يحسن به الْمنقلب[6]، ويحصل بوجوده السلوك[1]، وبسببه تزيل الشكوك.

---

[1] الدَّور: بالفتح الحركة، وعود الشيء إلى ما كان عليه، وبحسب نسبته الى قوالب المسوخية يكون خمسة وثلاثين ألف سنة، أعاذنا الله.

[2] الأكوار جمع كور وهو سبعة آلاف سنة.

[3] المطالع: جمع مطلع من طلعت الشمس والكواكب ظهرت، ويريدُ قدسه الله الأئمة الكرام مطالع أنوار الله ومحل إشراق ظهوراته، كما سموهم في غير موضع مقاماته.

[4] المعادن: جمع معدن، كمجلس منبت الجواهر من ذهب وفضة ونحوهما، ومكان كل شيء فيه أصله ومركزه، ويقال على طريق المجاز فلانٌ معدن الخير والكرم، أي مكان أصله، فالموالي الكرام مطالعُ أنواره، ومنابت أسراره، فمتى عرف الطالب أحاديثهم ودلالاتهم على مولاهم استسهل الطريق، وركِب الجدد، كما جرى للشيخ وصاحب المصرية وغيرهما.

[5] الأدب: ملكة تعصم من قامت به عما يشينه، والظرف وحُسن التناول، ورياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل، وهذه المرادة هنا، فمعرفة الموالي وآدابهم هو الاستحقاق لإيداع حكمة الله.

[6] المنقلب: اسم مكان ومصدرٌ نحو انقلب فلان سوء منقلب.

كما قال مولانا الباقر منه الرحمة: لا يوصل إلى علمنا إلاّ بحسن الأدب. فإن أبي كان يقول «من قدّم العلم في الله أعاده الله إليه ولو طال عمره».

وقد صحّ إن هذا الطريق هو أجلّ الطرق، لأن الطرق تتشرّف وتتَضع بحسب غاياتها[٢]، ولمّا كان هذا الطريق غايته الحقّ للمعنى سبحانه[٣]، والحقّ أشرف الْموجودات وأعزّ الْمعلومات، كان الطريق إليه أشرف الطرق وأفضلها. والدّال عليه سيّد الأدلّة وأكملهم وأعظمهم، والسالك إليه أسعد السالكين وأنجاهم. والعلم بالله أجلّ العلوم، والأدب هو الطريق، والوصول والتوفيق من الله تعالى إلى تبليغ الْمحصول.

المعنى: يقول: إذا المرشد وجد الطالب أهلاً لإلقاء سر الله عرّفه أولاً من هم الموالي الكرام، وما هي آدابهم، فإن آدابهم هي التي يحسن بها المنقلب عند الله، ومن قدّمَ العلم والمعرفة قبل أن يرتقي إليهما من سلم الشريعة، أعاده الله في كراته الى التأدب بآداب الشريعة أولاً، ثم الى التفقه قال الأمير:

ترق الى الباطن من ظاهر ما شرعته فعندها اصمُتْ واعتزل

فإذا كان الله سبحانه أجلَّ الأشياء، فالطريق المؤدي إليه – وهو الشريعة – أشرف الطرق، والدال الى هذا الطريق – وهو الشيخ المرشد – أسعدُ السالكين، وآداب الشريعة هي الطريق الى الله وهو نفسه ذات الوصول الى الله، وهو السلم لارتقاء النفس بدرجات المعارف الإلهية، وسيأتيك بعد قليل ما تعلم به أن الظاهر هو الباطن كما أن الظاهر من الذات العلية هونفس الباطن، فتكون الشريعة هي الطريق والوصول، وان ترك الشريعة وإهمالها هو الكفر.

---

[١] السلوك: مصدر سلك المكان يسلكه سلكاً وسلوكاً دخل فيه، والطريق دخل فيه أيضاً، وللصوفيين بالسلوك الى الله مراتب أهمها أربع:
الأولى: سيرة من الخلق الى الحق.
الثانية: سيرة من الحق والخلق الى الحق.
الثالثة: سيره من الحق الى الحق.
الرابعة: سيرة بالحق في الخلق، وهو آخر مراتب السالكين، وبين هذه المراتب مراتب كثيرة سيمر بك تفضيلها حسب الإمكان.

[٢] الغايات: جمع غاية المدى والفائدة المقصودة كانت عائدة الى الفاعل أم غير عائدة، والنسبة إليهما غائي.

[٣] سبحان الله: أي أبرئ الله من كل سوء، سبحان الله من كذا تعجب منه، وهو على الإضافة.

وقد قال مولانا الصادق منه السلام: أدب الدين قبل الدين وإنما قدم الأدب الذي هو الفرع، على الدين الذي هو الأصل لأسباب التعظيم قبل المعرفة (١) وهي الشروط التي ذكرناها في رسالة التعليقة [1].

منها: تعظيم التلميذ للسيّد في طلبه منه المعرفة، وهو سبيله الدّال على دياقته ومرشده إلى أيمانه ومخلصه من رقّ عبوديته (٣)، ومطهّره من دنس ممسوخيّته[2]. فلا يخالف له أمراً، ولا يفشي له سرّاً، ولا يهتك له ستراً، ولا يردّ عليه قولاً، ولا يوغر له صدراً، ولا يقبّح له ذكراً، ولا يشكّ في ما يلقي إليه، ولا يوالي له عدوّاً، ولا يعادي له وليّاً، ولا يردّ ما يلقي إليه من معرفة الله (ص).

ومنها لبس التقيّة عند الجاحدين، وخلع المعصية للمؤمنين، وصون السرّ، وإدمان[3] الذكر، وإنجاز الوعد، وحفظ العهد، وقول الصدق، وفصل الحقّ، وأن لا يسعى بمؤمن ولا يسيء إلى محسن، ولا يستحلّ محرّماً، ولا يهتك للمؤمنين حرماً، وأن يحفظ ذمّتهم[4]، ويرفض مذمّتهم[5]، وأن يجعل صدقته لسؤالهم[6]، ورأفته لأطفالهم، وحرصه لسرورهم، ومراعاته لهم في أمورهم، وإيثارهم على نفسه، وعداوته لمن عاداهم من أبناء جنسه، وأن يرى حرمهم[7] حرمه، فإن العمى مكتسب من النظر إلى محارمهم، والجهل بحقّ عالمهم، والفقر من الشحّ عليهم، فإن خالفه في هذه الوصيّة خسر الدنيا والآخرة.

---

[1] التعليقة: من علقت المرأة بالولد حبلت، وهذا مناسب لما ذكره الموحدون، وكأنه كان قد ألف رسالة أسماها التعليقة خصيصة بآداب الطلاب وكيفية إلقاء السر إليهم، يذكر هنا نتفا منها، ولعل جميع ما عند الموحدين من هذه الناحية أخذ عنها.

[2] المسوخية: نسبة إلى المسخ فكأن الرجل قبل أن يعرف على يد متفقه رشيد يكون ممسوخاً غير مطهر، إذ الطهارة الحقيقية معرفة الله بآداب الموالي. أو أن المراد لولا ما ألقاه إليه سيده لكان يكون مسخا، وما يكون مسخا فهو مسخ.

[3] الإنمان: مصدر أدمن الشيء أدامه.

[4] الذمة: العهد والأمان. يقال في ذمتي كذا، أي في ضمانتي، جمعه ذمم وفي الحديث: أقلبنا بذمة، أي أرددنا إلى أهلنا سالمين.

[5] المذمة: خلاف المحمدة.

[6] السؤال: جمع سائل اسم فاعل، ويراد به عند إطلاقه المستعطي، ومنه الحديث (أعطوا السائل ولو جاء على فرس) ويجمع سائلون، وسألة، ككتبة.

[7] الحرم: محركة، ما يحميه الرجل ويقاتل عنه، وقالوا حرمٌ وحرامٌ كما قالوا زمنٌ وزمانٌ. وبالضم فتح نساء الرجل وهو المراد.

المعنى: وبعد أن عرّف - سلك الله بنا مسالكه - لإعطاء المعرفة ذاكراً الشروط التي كان ذكرها في رسالة له أسماها التعليقة، منها تعظيم السيد لأنه مُخلصُ الطالب من رقّ العبودية ودنس المسوخية.. الى أخر ما ذكر من الآداب التي تلزم كل طالب مسترشد مما لا يحتاج الى شرح، غير أنني أنكر هؤلاء الإخوان بحالهم مع طلابهم وحال طلابهم معهم، فلعلهم ينتبهون لهذه الهوة السحيقة البعيدة القرار، فلا يهوون بها، ويكونون سبباً لهوى غيرهم.

فقد قال مولانا الصادق منه السلام: من أخذ علمنا بالقبول فتح الله عليه بالمعرفة الحديث الواحد عشرة أحاديث، حتى يعود فقيهاً، ومن أخذ علمنا بالمكر[1] وحرّف[2] فيه الرأي والتدبير صرفه الله عنه صرف دامية المعز من الذنب الأزل[3]، فلا يزداد من المعرفة إلا بعداً.

فمن صبر على تصديق[4] ما أورده عليه سيّده، ويلقيه من معرفة الله إليه، وقابله بالقبول، فتح الله عليه أبواب معرفته، ووفقه للإطلاع على حقيقة سرّه وعلانيته، وأتضح له بدليل البرهان وظهر فيه نور الإيمان، ودخل في زمرة[5] من هداهم الله أليه برحمته، وذكر وصفهم في كتابه العزيز بقوله تعالى (والذين جاهدوا[6] فينا لنهدينّهم سُبُلنا وإنّ اللّه لمع المحسنين) (العنكبوت٦٩) ونجا من أسر الطبيعة[7]، ونال بقبوله منه أعلى المنازل الرفيعة.

المعنى: وبعد أن علّم آداب الطلب ينوء بها الطيب القلب والعمل شرع يعلم آداب الطالب، أن بقبول ما يلقى إليه يضاعف الله له من معارفه حتى يعود فقيهاً -

---

[1] المكر: الخديعة.
[2] حرّف الكلام: غيره والشيء جعل له حرفاً وأماله.
[3] الأزل: الخفيف الوركين والسريع والأرسخ، والأنثى زلاء، وذنبٌ لرسخ يتولد بين الضبع والذئب، وهذه الصفة لازمة له.
[4] التصديق: نسبة الصدق بالقلب واللسان الى القائل، والفرق بينه وبين المعرفة أن ضده الإنكار والتكذيب، وضد المعرفة الجهالة والنكارة.
[5] الزمرة: الجماعة في تفرقة.
[6] جاهد العدو مجاهدة وجهاداً: قاتله، وفلانٌ في سبيل الله بذل وسعة، يعني الذين بالغوا في الجهد والتعب في محبتنا وطريقتنا، لنهدينهم سبلنا المعوجة والمستقيمة جميعاً، والمراد بالمجاهدين من كان في الطريق الأول
[7] الطبيعة عبارة عن القوة السارية في الأجسام بها يصل الجسم الى كماله الطبيعي، وتطلق أيضاً على المزاج الخاص بالبدن، والطبيعة لغة على وزن فعيلة بمعنى مفعولة، كصنيعة بمعنى مصنوعة، وسميت طبيعة لأنها طبعت الأشياء الموجودة بطابعها الخاصي على رأي (ارسطو).

ويالها من منة – ومن أخذه مكراً وخداعاً أو جهلاً وارتياباً، وحـــرّف فيـــه برأيـــه، صرفه الله عنه صرف دامية المعز من الذنب الأزل، ومن حمل نفسه على تصـــديق ما أعطاه سيده وقابله بالقبول فتح الله عليه أبواب معرفته ودخل في زمرة من هداهم الله ف نجا من أسر الطبيعة الى أعلى المنازل الرفيعة.

وقد ورد في الخبر عن رسول الله (ص) إنّه قال:

الآباء ثلاثة أبّ أولدك وأبّ ربّاك وأبّ علّمك وخيرهم الذي علّمـــك وأفـــاض عليك معرفة الله تعالى وهو الأب الديني الحقيقيّ فألزمه ترشد وأطعه تسعد.

قال السيد الرسول لأمير المؤمنين منه الرحمة: أنا وأنت يا علي أبوا هـــذه الأمّة فلعن الله عاقّ[1] والديه[2].

ولقد أنشدني بعضهم.

وأنّ أبائنـــا الـــذين هـــم قد أوقعونـــا فـــي ورطـــة التّلـــف
مـــن علّـــم العلـــم كـــان خيـــر أب ذاك أبـــو الـــرّوح لا أبـــو النّطـــف

وإلى ذلك أشار السيد المسيح (ص) بقوله: من لم يولد ولادتين لـــم يلـــج[3] ملكوت السمَوات[4]. أو الله

---

[1] العاق اسم فاعل من عقّ الولد والده عقوقاً ومعقةً عصاه وترك الشفقة عليه.

[2] الوالدان أبو المرء والمرء ذو مراتب كثيرة. وكل مرتبة لها ســببٌ لوجودهـــا، فســبب مرتبتـــه الجسمانية أبواه الجسمانيا، وسبب وجود صدره المنشرح بالكفر الشيطان وســبب وجــود صــدره المنشرح بالإسلام الملك وكل من انتسب إليه في كل هذه الرتب فهو قريبه بحسب قربه منه، واللذان بايعا معه البيعة الخاصة هما أبواه من جهة التكليف، والنسبة الفاسدة الروحانية كالنســبة الفاســدة الجسمانية منفية الحكم، وربما اعتبرت كما في قوله تعالى (وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِــهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا) (الآية٨ من سورة العنكبوت)، فالمراد بهما الأول والثاني على طريقة الاســتخدام في جاهداك، والولادة الروحانية عبارة تنزل صورة الوالد وظهورها بصورة الولد، ويظهر من ذلك معنى الاهتمام بالوالدين الروحانيين، بحيث جعله الله قريناً بتوحيده أينما ذكر، ففي ســورة النســاء (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) (سورة الإسراء: من الآية ٢٣) وعلي ومحمد أبوا هذه الأمة ولعن الله عاق والديه، وفي الرسالة المصرية تجد فضل الأبوة مفصلاً.

[3] يلج: يدخل.

[4] ملكوت الله المراد به الجنة.

المعنى: وبعد أن عرفنا آداب الطالب، شرع يعلمنا فضل الأب، وأن صاحب هذا الفضل العظيم هو الأب الروحاني، كما مر بك محمدٌ وعليّ أبوا هذه الأمة بما ترى تحقيقه بجانبه، والآباء الذين هم سببٌ لإيجاد الأعراض، لهم من الفضل ما يقارب فضل الآباء الروحانيين، لكن الأب الحقيقي من علم معرفة الله فكان سبباً للخلاص من أسر الطبيعة وآلامها، لا الذي كان سبباً للوقوع في شركها وويلاتها:

فذاك مربّي الروح والروح جوهرٌ وهذا مربي الجسم والجسم من صدف

ولا يدخل الجنة من لم يولد ولادتين: ولادةً جسمانية وولادة روحانية. وكلا الولادتين تكون صحيحة النسبة. ورد عن الإمام جعفر (ع):لا يلج ملكوت الله من لم يولد فينا مرتين. وقديماً قيل: لولا المربي ما عرفت ربي.

فلُذ بأمين لا يمينُ عن الهوى يبن لك بعد الغيَ رشد طريقتي
فإن تغد مولوداً له رُحت والداً لنفس بمفهوم الغرام تزكت

ومن جملة الآداب رفض القياس[1] فهو الذي أوجب تشعب الأراء وتفرق الأهواء فأول من قاس إبليس[2] لعنه الله حيث أمره الله تعالى بالسجود لأدم (عليه السلام) فأبى وأستكبر كما قال الله تعالى(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) فكان جزائه الحرمان من المعرفة والبعد والطرد من الرحمة ولبعد المعرفة عن طريق القياس حصل التعجّب من سالكها، ولوضوح أمرها بظهور الدلائل عليها والإشارات إليها في الآراء كلّها حصل العجب من تاركها. كما قال مولانا زين العابدين علي بن الحسين بن أبي طالب منهم السلام في هذا المعنى نظماً وهو حيث يقول:

علمُ[3] المَحَجَّةِ[1] واضحٌ لمريدهِ[2] وأرى القلوبَ عن المحجةِ في عَمى
ولقد عجبتُ لِهالكٍ ونجاتُهُ موجودةٌ ولقد عجبتُ لِمنْ نجى

---

[1] القياس: مصدر قاس الشيء على غيره وبغيره يقيسه قياساً قدّره على مثاله.
[2] إبليس: علم جنس للشيطان، الجمع أبلسة وأباليس.
[3] العلم: محركة العلامة و الأثر و المنارة وشيءٌ منصوبٌ في الطريق يهتدي به.

المعنى: يقول هدانا الله بما يقول – إنَّ من جملة الآداب التـي يتحلـى بهـا الطالب بما يُلقيه إليه مرشدُهُ بأن يقول لا يصح عندي هذا من طريق القيـاس علـى ذلك، فإن القياس طريق الانعكاس، وهو الذي أوجب تشعب الآراء الدينية والأهـواء المذهبية، فأول من قاس إبليس اللعين فكان قياسه سبباً لطرده من الجنة وحرمانه من المعرفة عندما قال: (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) (الأعراف: مـن الآية ١٢)، ولبعد المعرفة من القياس حصل التعجب من سالك طريقها، لأن معرفـة كثير من الأشياء لا تصحُ عن طريق القياس كما تقدم في المقدمـة، ولأن الحقيقـة واضحةٌ كل الوضوح وظاهرةٌ لا يحجبها شيءٌ، وكافة الدلائل متضافرةٌ متواسقةٌ في كافة الآراء من جميع الملل والنحل على إظهارها، فهي أجلى من رابعـة النهـار، وأظهر من الوجود والمكونات، ولكن الناس لضعف عقولهم ودكن استعدادهم يقفون دون شمس الحقيقة بالعيون العُمي، ودون داعي الله وسماع حُججه بـالآذان الصُـمّ، والى ذلك فالمعرفة غامضةٌ كل الغموض مخفيةٌ كل الخفاء، بطن فيما ظهر، وظهر فيما بطن، باطنٌ ظاهرٌ غائبٌ حاضرٌ، مالله سرٌّ إلا وهو على ألسن خلقـه، ولا لـه حُصنٌ أمنع من جهلهم به:

وظـاهرُ الحسـن الـذي باطنُـهُ ظاهره بـاطن حُسـن قـد كمُـلْ

فإن مَنّ[3] الله على الطالب ووصل بفضله سبب معرفته إليه وتلقّاهُ من سيّده بالقبول، فحركه فخزنه[4] في صدره وجعله عُمدَةَ[5] أمره وستَّرَهُ عن الإذاعة إلى غير أهله، والإبداء إلى غير مستحقّه، لحق بمن وصفه رسول الله (ص) بقوله:

(المؤمن صائمٌ[6] أبداً) أي صامتٌ فإن الصمت هو الصـوم، وشـاهده قولـه تعالى حكاية عن مريم بقولها (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَـوْمَ إِنسِـيّاً)

---

[1] المحجة: الطريق وقيل جادة الطريق الجمع محاجّ، ومحجة الطريق سَنَنُهُ والمقصدُ والمسلك.

[2] المريدُ: اسم فاعل من أرادَ الشيء شاءهُ، وفلاناً على الأمر حمله.

[3] مَنَّ عليه بكذا: يمُنُ مَنّاً ومَنِينى: أنعم الله عليه من غير تعب، واصطنع عليه صنيعةً وإحساناً.

[4] خزَنَ المال: وغيره في الخزانة يخزنه خزناً أحرزه، وادخره فيها.

[5] العمدة: بالضم ما يعتمد عليه أي يُتكأ، يقال فلانٌ عُمدتنا عند الشدائد.

[6] صائمٌ: اسم فاعل من صام إذا أمسك عن الطعام والشراب، وعن الكلام أمسك عنه، وسيأتي الكلام عن الصوم باطناً وظاهراً.

(مريم٢٦) ومن جملة الآداب الدينية التخلّق[1] بأخلاق المؤمنين وهو بأن يلزم الطالب الصمت بين الأنام حتى لا يزلّ[2] في القول والفعل والكلام ويترك الهوى، ويتقمّص بلباس التقيّة والتقوى[3]، وأن يُجمّل[4] صورته بالوقار، ويُرديها بالمجد والافتخار، ويهذّبها بتصفية الأخلاق، ويطهّرها من دنس الخلاق والنفاق، ويحلّيها بالطاعة والوفاق، ويزيّنها بحسن الأمانة وترك الخيانة، ويعوّدها صدق اللسان ومحافظة الأخوان، ويحصّنها بدرع الشريعة[5]، وينزّهها عن أفعال الطبيعة، ويقبل على الدين بقلب سليمٍ تقي، وفكر صافٍ نقي، وعقلٍ وافٍ[6] زكيّ[7]، ويكتم أسراره، ويواظب على معرفة شروطه وأوضاعه[8]، ويُديم النظر فيه، ويكرّرهُ بسرّه ليعرف مقاصده ومعانيه، ويدقّق[9] السؤال، ويشقّق[10] اللفظ والمقال، ويخضع لمن أنعم عليه، ويطيع من أحسن إليه، ويفي بالعهد والميثاق، ويسأل عن منزلة الكفّال[11] وآخذي الوثاق[12]، ويحسم بين الأمة السياسة، لبيان الرفعة والرئاسة، ويدعو إلى الحق بحسن أفعاله وشرف أعماله، ويكون من الخير قريباً، وعن الشرّ بعيداً، ويدفع ما عليه من ماله للإخوان، ويقرّ بفضل من مضى من أهل الإيمان.

ويعترف بطاعة الحاضر الموجود ويصدّق بعلم ما يأتي غداً من الموعود[13] مما سمعه من الحكمة، وتصوّره وعرفه، ويعلم أنّ تحته دقائق[14] في ضمنه[15]

---

[1] التخلقُ: مصدر تخلق الرجل خُلُقه تكلّفه، واستعمله من غير أن يكون موضوعاً في فطرته، وقيل: لا تتخلق بأخلاق إلسفيه.

[2] زَلّ الرجل: يَزل ويَزُل زلاً وزليلي وغير ذلك، زلق وعن الصواب انحرف.

[3] التقوى: اسمٌ من الإتقاء، وأصله وقوى قلبه، للفرق بين الاسم والصفة كخزيا وصديا.

[4] جَمّلَهُ: زينه، ومنه إذا لم يُجملك مالك لم يُجد عليك جمالك.

[5] الشريعة: ما شرع الله لعباده من السُنن والأحكام، ومعناها الطريقة لشروع الناس فيها، وعلى ذلك تكون الشريعة الظاهر المستقيم من المذاهب.

[6] وافٍ: من وفى الشيءُ طال.

[7] الزكيُّ: فعيل بمعنى فاعل من زكا: الزائد الخير والفضل بين الزكاء.

[8] الأوضاع: جمع وضع من وضع الشيء يضعه وضعاً وموضعاً وموضوعاً أثبته وخلافُ رفعهُ.

[9] دقّق الشيء: استعمل الدقة فيه.

[10] يشقق: مضارع شقّق الكلام أخرجه أحسن مخرج.

[11] الكفال من كافله مكافلة: كان مكافلاً له والمكافل المعاهد والمعاقد.

[12] الوثاق: مصدر واثقه مواثقة ووثاقاً عاهده.

[13] الموعود: مصدر وعدهُ بالأمر والأمر يعده وعداً زعدةً وموعدةً وموعوداً وموعودةً، قال له أنه يجريه له أو يُنيلهُ إياه واليوم الموعود يوم القيامة.

[14] الدقائق جمع دقيقة: الأمر الغامض.

[15] الحقائق: جمع حقيقة، غاية الشيء وأصله المشتمل عليه.

حقائق، ولا يتوهَم أنه قد وصل منه إلى الغاية، ولا أنه قد بلغ منه إلى النهاية، ويسأله عن ربَّ الحكمة في الخلوات، فتفتح له أبواب السعادات، وما يعجز عنه فهمه ويقصر تصوّره فيه ووهمُهُ[١] فليردّه إلى ولي النعمة، فيكشف له منه حقائق الرحمة، وليحزر أن يأخذه فيه شك ويعترض له معترض، فإنّ الاعتراض يحدث المرض في القلوب والتسليم من صحّة اليقين، فعليه بالتسليم والرضى لوليّ أمره وإمام عصره، فإنّه قاعدة الدين وركن معرفة اليقين، وليتجنّب المرآء والرياء والحقد والحسد والكبرياء، فإنه فعل إبليس اللعين في بدو الأمر، وإيّاه والخداع والمكر والابتداع والكذب، فإنه حيض الرجال وأنجس الأقوال، فلا يجره على لسانه ولا يعتمده في مقاله، وإيّاه القذف والبهتان[٢] فإنهما يجانبان الإيمان.

وهذا شرح بعض أدب الدين الذي يلزم كل طالب ناقصة ديّان راغب في معرفة توحيد زائدة الرحمن.

المعنى: كل الذي أوره مفهوم لا يحتاج الى شرح، غير أن الطالب يجب أن يتقيد بهذه الآداب التي ذكرناها عالماً أن تحتها دقائق في ضمنها حقائق، لأن السالك لم يدرك غايةً إلا تجلى له من وراء تلك الغاية غايةٌ، وهذا الذي بالغً نهاية الشدة في عسف التكليف، ولكنه بنظره بعض آداب الدين التي تلزم كل طالب ديان، راغب في معرفة الرحمن، لأنه صوفي، وطريق الصوفي أدق وأرق.

ومن الشروط الواجبة والآداب اللازمة المرويّة عن الأئمة الأطهار والسادة الأبرار منهم السلام في حفظ التقيّة وصيانة الدين.

وممّا روي عن مولانا عزّ عزّه قال:عليكم بالجهاد[٣] الحقيقي.

قالوا:وما الجهاد الحقيقي يامولانا؟.

قال:الاجتهاد في إقامة التقيّة[١] وإظهار الأعمال الظاهرة.

---

[١] الوهم: ما يقع في القلب من الخاطر، وقد يطلق الوهم على القوة الوهمية من الحواس الباطنة التي من شأنها إدراك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات، كشجاعة زيد وسخائه، وهذه القوة هي التي تحكم في الشاة بأن الذئب مهروبٌ منه، والولد معطوف عليه، جمعُهُ أوهامٌ ووهومٌ ووهمٌ.
[٢] القذف: مصدر قذف، مصدر المُحصنةِ، رماها بريبة بغير تدبر وتأمل.
[٣] الجهاد: من جاهد العدو مجاهدة وجهاداً قاتله، وفلان في سبيل الله بذل وسعه. قال الله تعالى (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ) (سورة الحج: من الآية ٧٨).

وقال في بعض خطبه: أيها المؤمنون إنّي أوصيكم بلزوم الظاهر والمحافظة عليه، فان التقيّة لا تهمل، فحافظوا عليها وتألفوها لتعتادها نفوسكم.

وقال مولانا الصادق منه السلام: إن الله[2] أوحى إلى شيث ابن آدم منه السلام أن لا يحارب قابيل وان يعبد ربّه سرّاً، فجرت التقيّة إلى يوم الوقت المعلوم، وأجرت التقيّة أبائي قبلي منذ قتل قابيل[3] هابيل، فمن ترك التقيّة أذاقه الله حرّ الحديد وبرده لأذاعته سرّ الله تعالى.

فالتقيّة ديني ودين آبائي وأجدادي، فمن لا تقيّة له لا دين له وهي اصل الديانة وحفظ الأمانة[4].

وقال مولانا الصادق منه السلام للمفضل بن عمر: يامفضّل صن دينك.

---

[1]سمى التقية جهاداً حقيقياً لما ورد عنه (ص) خلصنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس، فالنفس صعبٌ عليها التقيد بمفترضات الشريعة، ولا سيما عندما يتمكن منها المرانُ والعادة على تركها كما هي الحال عندنا الآن.

[2]أوحى إليه: كلمه بكلام خفي وبعثه، وبكذا ألهمه به.

[3]لعل فرض التقية من يوم قتل قابيل هابيل هو لأنَّ القربان الذي تقرب به كلاهما إن كان دعاء كما في رواية، فهو إظهار سرّ لا يجوز أن يطلع عليه قابيل، وإن كان ذبيحة كما في رواية أخرى يكون الدعاء الذي أمرهما به أبوهما ذلك السر، فكان هابيل ضحية إفشائه، فكانت التقية إلى يوم الوقت المعلوم. وجميل ما في بيان السعادة من إن أمثال حكاية آدم وحواء وبجميع ما جرى لها هو من مرموزات القدماء، وهكذا حكاية سليمان وهاروت وماروت مما لا يوافق شأن الأنبياء، فإنهم أرادوا بذلك التنبيه على المعاني الغيبية المشهودة لهم، وتداولها الناس بنحو الأسماء، ولم يدركوا منها سوى المعاني الظاهرة المدركة بالمدارك الحيوانية مما ينافي عصمة الأنبياء، وقد ورد عن الموالي إنكارها. فآدم أبو البشر، وحواء أم البشر خلقا في العالم الكبير، وهبطا الى العالم الصغير (أي الأنسان) هبط آدم على صفا النفس، وأقربها من بيت الله الحقيقي وحواء على مروة النفس وأكدار أطرافها وأبعدها من القلب (بيت الله)، وأول بطن من حواء بعد زواجها كان قابيل النوعي الذي غلبتِ عليه صفات النفس من الأنانية والبخل وما أشبه، وثاني بطنٍ هابيل النوعي، وكان كل منهما توءماً لأخت، فأراد آدم تزويج كل من أخت أخيه، فأبى قابيل ذلك أنفة من الصعود إلى قرب العقل، وحسد أخاه فقتله، فأصبح من الخاسرين، وبقتل هابيل تنقطع الإنسانية من العالم الصغير الذي هو الإنسان الفردُ نفسه، ويفنى الناس في هذا العالم الذين هم من نسل هابيل أي أبناءِ العقل، وإذا لم يُقتل هابيل الأنسان الذي هو العالم الصغير كان الخطاب من الله متوجها إليه، وإذا قتل فلا خطاب ولا تكليف، وكان الزنا والصلاة متساويين. فمن قتل في ملكه قابيلٍ وجوده هابيل وجوده قتل الناس كلهم في وجودهِ، ولم يتوجه إليهم بعدُ خطابٌ ولا تكليف (مَنْ قَتَلَ نفسا بغيرِ نفسٍ أوْ فسَادٍ فِي الأرْضِ فكأنَمَا قتل الناسَ جَمِيعا) (سورة المائدة: من الآية ٣٢).

[4]الأمانات عند الأنسان كثيرة، والمقصود هنا هو هذا السر، وحفظهُ هو إقامة التقيةِ، فإقامة الشريعة الغراء كما فرضت هو أصل الديانة، لأنها هي الوسيلة المؤدية الى الغاية، والغاية لا تنال إلا عن طريق الوسيلة، فالغاية معرفة باطن الشريعة، والوسيلة ظاهرُ الشريعة، وبغير إظهار الأعمال الظاهرات تكون خنت تلك الأمانة، واستحققت من الله العقاب الصارم، والمجازاة الأليمة.

فقلتُ: يامولاي كيف أصونه؟.

قال:بإظهار العبادة ومواساة[١] أولياء الله تعالى.

يا مفضّل من عَرَّفَ جيرانه أو أحداً من المْقصّرة[٢] سرّ شيء من الشهوات الشنيعة[٣] المْسماة بالْمعصية يناله، فهو بالله تعالى كافر مردود في التهتّك[٤]، ومن يخرجها عن كونها معصية فليستغفر الله تعالى يجد الله غفوراً رحيما، ويستر فعله بخلقه وجوده بإيجاده، ولا يحلل ما حرّمه الله ولا يحرّم ما حلله الله تعالى.

ثم قال: يامفضل استعبدوا هذه النفس الأمّارة بالسوء بإقامة التأديب[٥]، فمن أظهر منكم خلاف ماأظهرناه فقد خالفنا، ومن خالفنا فقد بارزنا.

يامفضّل عوّدوا أنفسكم هذه الآصار[٦] في الخلاء، كي لا تسهوا عنها في الْملا، وأقيموا الفرائض والسنن والرواتب[٧] والتأديب، ولا تغفلوا عنها أيُحبُّ أحدكم أن ينزل إلى السوق عرياناً.

المعنى: كل هذه الروايات المارة بك الملأى بالتهديد والوعيد من قبل الموالي الكرام على تارك التقية، أو مُهملها، الفياضة بالحث والندب الى إقامتها تارةً، يسمونها بالجهاد الحقيقي وطَوراً بالأمانة، وإنها جرت من يوم قابيل هابيل، ومن لا تقية له لا دين له.. الخ، كلٍ هذا بينٌ لا يحتاج الى الشرح والتفسير، غير أنني أتعجب من إخوان عصرنا كيف أجازوا إهمالها، وأنى لهم ذلك، وأغرب من كل غريب إن الشيخ حبيب عيد صالَ علي بهذه الروايات نفسها على ترك الشريعة وإهمالها وزعم أن الظاهر هو الشجرة الملعونة في القرآن وألف في ذلك، ولا غرو فإن من أوّلَ قوله تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

---

[١] المواساة: المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق.

[٢] ورد في باب زين العابدين من هداية الشيخ الخصيبي عن الصادق: المقصرة هم الذين هداهم الله وأفضينا إليهم بسرنا فشكوا فينا وأنكروا فضلنا.

[٣] الشنيعة: مؤنث الشنيع، وهو القبيح والكريه الطعم من الأدوية.

[٤] التهتك: مصدر تهتك الستر وغيره وانتهك مطاوع هتك، وفلانٌ افتضح، وفي البطالة انهمك فيها.

[٥] التأديب: مصدر أدبه فتأدب: علمه الأدب، وألان عريكته، وعاقبه على إساءته لأنه سببٌ يدعو الى قلة الأدب.

[٦] الآصار: جمع إصر: الحبس والتضييق.

[٧] الرواتب: الوظائف والسنن السابقة للفرائض، وقيل المؤقتة بوقت مخصوص.

(سورة البقرة: من الآية ٢٥٧) الخ. مستدلاً بها على حمد الظلمة، يقول ما شاء ويتكلم بما يريد أعاذنا الله.

وعن الْمفضّل قال سمعت مولاي الصادق منه السلام يقول: أنّ في هذه العصابة قوماً يدخلون فيها ليسقطوا عن أنفسهم العزايم(١)، ويستخفّوا بحمل الفرائض، وما هؤلاء منّي ولا أنا منهم (وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) (آل عمران١٠) يا مفضّل، كلّ ما يناله الْمؤمن في دولة الضدّ حلالٌ له إلاّ ما يظهره لعدوّه مما يهتك به ستره ويطعن عليه بسببه وعلى من يقول بمقالته:

يا مفضّل أما أنّه حلالٌ لكم معكم حرامٌ عليكم مع غيركم، فإنه أفترض على أوليائه الْمؤمنين الْممتحنين أن يقرّوا بالصلاة باطناً، وهي معرفة الله تعالى، ويقيموها ظاهراً، ويأتوا الْمساجد ظاهراً، ويقرون بها باطناً، ويصومون شهر رمضان بعد معرفته باطناً، ويحجّون البيت الحرام ظاهراً بعد معرفة مناسكه باطناً. ويأتون الزكاة بعد معرفة باطنها ولا يدعوا شيئاً ممّا افترض الله عليهم ظاهراً وباطناً، ومن ترك الظاهر بعد ما عرّفه الله الباطن سلبه الله الباطن والظاهر معاً.

وروي عن عبد الله بن سنان قال: سالت أبا عبد الله الصادق منه السلام عن قول الله (إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم) قال أعلمكم بالتّقية وأحفظكم عليها.

وقال (ع): إنما ظهر الله بين خلقه ليؤخذ بآدابه، فما عملناه فاعملوه، وما رفضناه فارفضوه، وكونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا عاراً وشيناً.

المعنى: العزائم فرائض الله التي أوجبها على عباده، وعزائم السجود ما أمر بالسجود فيها. يقال خير الأمور عزائمها التي عُزم عليك فعلها، أولا يكفيك أيها الأخ أن الأعمال بالتقية التي هي إقامة الأوامر الشرعيات هو الأتقى والأكمل، بلى والله، ولو كان لنا قلوبٌ واعيةٌ وآذانٌ صاغيةٌ لعملت بنا هذه الروايات المعصومة وأضرابها أو لا ينظر هؤلاء المتقاعسون عن آداب الشريعة الى ما وصمهم به الصادق بأنهم يدخلون في هذه العصابة ليسقطوا عن أنفسهم مفترضات الشريعة، فهؤلاء ليسوا من الصادق، ولا الصادق منهم، أولئك هم وقود النار، ومن فعل ذلك كمن مشى في السوق عُريان البشرة بادي السوءة مفضوح السريرة، فكل ما ناله المؤمن في دولة الضد من شراب وتبرئة من الأضداد، ومذاكرة توحيدية سرية، مما

لايجوز إظهاره، فيهتك به ستره المامور بإسداله دائماً وأبداً، ويُطعنُ عليه بسببه وعلى شيعته القائلين بمقالته، فحلال، وما سوى ذلك فحرام (حلال لكم معكم حرام عليكم مع غيركم)، والعجب من هؤلاء الإخوان أنهم لا يعرفون من أشباه هذه الروايات ومن كل ما قيل في التقية، إلا الصيام فقط، ولو كان المراد ما تأوّلوه لم يقل الصادق: إنما افترض عليهم الظاهر والباطن، ومن ترك الظاهر بعد ما عرَّفَهُ الله الباطن سلبه الله الباطن والظاهر، وإذا سألناهم - وقد سألنا الشيخ حبيب عيد - من أن كل باطن له ظاهرٌ، ورأيك أن كل ما عُرفَ باطنه وجب ترك ظاهره وجوباً، وقد عرفنا أن كل شيء من المأكولات والمشروبات والزواج وما أشبه له باطنٌ. فإذا عرفنا أن باطن المحرمات أشخاصٌ مذمومون وقلنا بإهمال الظاهر، حل لنا لحم الخنزير كالخروف، وإذا عرفنا أن باطن النكاح الولادة الروحانية استوى عندنا بنات العم والعمات وبنات الخال والخالات، أعاذنا الله من هذا الجهل الفاضح، وتالله إنها للطامة الكبرى التي خذلت هذا الشعب المسكين فحطته عن مستوى الشعوب..

المعنى: يقول - سلك الله بنا مسالكه- مستشهداً عن الموالي الكرام ظهر الله بذاته ليُعمل بآدابه، فما عمل الموالي يجب أن نعمل، وما رفضوه يجب أن نرفض، فإن فعلنا كنا لهم زيناً، وإلا كنا عليهم عاراً بنتسابنا لولايتهم وتسميتنا شيعتهم. إعلم أيها الأخ الكريم أن إقامة ظاهر الشريعة الغراء من سنة كل حكيم من ملل الإسلام ونحله وغيرهم من ذوي الأديان والأبصار، وخصوصاً السادة الصوفية، فإذا كرم الله عبداً نصب له العبودية، وستر عنه شهوات نفسه، وجعله يتقلَّبُ في عبوديته وشهوات نفسه عنه مستورةٌ، مع جري ما قُدر له، وإذا أهان عبداً نصب له شهوات نفسه وستر عنه عبوديته، وإذا أراد أن يوصل عبداً توجه إليه أولاً بنور حلاوة العمل الظاهر، فيعمل الى أن يستوجب المدد بنور حلاوة العمل الباطن، ويعمل الى أن يتوجه إليه بنور المشاهدة، فيصير حينئذ عبداً لله حراً مما سواه، ظاهره عبوديةٌ بعمله الظاهر وباطنه حريةٌ بسيره بالأنوار الباطنة، وقدرته على كبح جماح شهواته حتى أماتها، وهذه الثلاث الأنوار: نور العمل الظاهر. ونور العمل الباطن. ونور المشاهدة، هي نور الشريعة، ونور الطريقة، ونور الحقيقة. فامتثال الأمر في الظاهر يدل على كمال الشريعة وتحقيق العبودية، فمن نظر الى ظاهر المظهر تحقق بأوصاف العبودية، ومن نظر لعظمة الله صرفاً تحقق بعظمة الربوبية، والكامل ينظر

إليهما جميعاً فيتحقق بأوصاف العبودية في الظاهر وبعظمة الربوبية في الباطن، فمن وقف مع المكونات مستدلاً بها على الله فهو صاحب الشريعة، ومن استنار لبه يكشف مساوئ عيوبه مقبلاً على صفائه فهو صاحب الطريقة، ومن كشف له عن ظلمة الأكوان وأشرق عليه نور الشهود والعيان فهو صاحب الحقيقة، وصاحب الطريقة يحتفظ بالشريعة، وصاحب الحقيقة يحتفظ بالطريقة والشريعة، فتمسك بهذا، هدانا الله وإياك.

فإن قيل إنّ قد عرفنا هذه الأعمال الظّاهرة التي ذكرتها فبيّن لنا ماهية بواطنها.

فنقول: اعلموا إخواني إن الصلاة الحقيقية هي التي تنهى عن الفحشاء[١] وَالْمنكر[٢]، وهي صلة[٣] بين الله وبين عباده، وهي عماد[٤] الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين، وهي معراج[٥] الْمؤمن فمن أتى بها كما ينبغي فقد تمت دائرته[٦] وعاد إلى ما منه بدا، وهي من أعظم الْمواهب[٧] الإلهية وأجلّ النعم الربانية لا تدرك في الْمكاسب ولا تجلب مع كلّ جالب وإن العمل بشروطها[٨] من

---

[١] الفحشاء: الفاحشة وهي الزنى، وما يشتد قبحه من الذنوب، وكل ما نهى الله عنه.

[٢] المنكر بالضم ففتح: ما ليس فيه رضا الخالق. والصلاة ذات مراتب عديدة، وكل مرتبة تنهى عن فحشاء تلك المرتبة عينها، لأن لكل مرتبة من مراتب الصلاة فحشاء بقدر تلك المرتبة، فالصلاة القلبية تنهى عن الفحشاء والمنكر القلبي، والصلاة القلبية المأخوذة بإجازة إلهية تنهى عن الفحشاء والمنكر بمرتبة القلب، وكذلك الصلاة الصدرية المسماة عندهم بالفكر والحضور، وهي ملكوت ولي الأمر، تنهى حالاً ومقالاً عن جملة الفحشاء والمنكر، وصلاة المستغرق في شهود جمال الوحدة ناهية عن الالتفات لغير الله، وهذا الالتفات هو منكره، والصلاة التي هي الرسول أو الإمام تنهى عن الفحشاء والمنكر من أصناف البشر، وقد فسر الفحشاء والمنكر بالأول والثاني. نقل أنه ما لم تنه الصلاة عن الفحشاء، لم تزدد من الله إلا بعداً، وروي أن فتىً من الأنصار كان يصلي الصلاة مع رسول ويرتكب الفواحش، فوصف ذلك لرسول الله (ص) فقال إن صلاته تنهاه يوما ما فلم يلبث أن تاب.

[٣] الصلة: مصدر وصل الشيء بالشيء يصله وصلاً وصلةً لأمَهُ وجمعه وضدُ فصله.

[٤] العمادُ: ككتاب ما يسند به، جمعه عُمُدٌ بضمتين.

[٥] المعراج والمعرَجُ والمَعرَجُ: المَصعَدُ جمعه معارج.

[٦] الدائرة ما أحاط بالشيء، وفي الهندسة: شكلٌ يحيط به خطٌ مستديرٌ، وفي داخله نقطةٌ جميع الخطوط الخارجة منها متساوية.

[٧] المواهب: جمع موهبة، اسمٌ من وهب كالوهب العطية.

[٨] الشروط جمع شرط بالفتح: إلزام الشيء والتزامه في البيع ونحوه، وشروط الصلاة التي يعنيها المؤلف هي ما سيمليه عليك.

أشرف العبادات[1] وأقرب القربات[2]، وكما أن الطهارة[3] الظاهرة شرط في صحة الصلاة الظاهرة وهي معلومة لدى الجمهور فكذلك الطهارة[4] الباطنة شرطاً في صحة الصلاة الباطنة وهي عبارة عن قطع التكلّف[5] من الدنيا والآخرة. وما يتعلق بها لأنّ الصلاة[6] الباطنة عبارة عن اتصال رقيقة[7] الروح[8] الروحانية بالحضرة الإلهيّة فمن تعلق بغير الله ولو كان مؤمن بالله لم يقدر على الاتصال بالحضرة

---

[1] العبادات جمع عبادة الطاعة، ونهاية التعظيم لله عز وجل. والصلاة بشروطها أشرف ما يعظّمْ الله به، وأعظم ما يتقرب به إليه.

[2] القربان جمع قربة بالضم والقربة بضمتين ما يتقرب به الى الله تعالى من أعمال البر والطاعة، وتجمعُ على قِرب أيضا.

[3] هي ما طهُرَ ضد نجُسَ، وهي التنزه عن الأدناس ولو معنوياً، والوضوء معلومٌ وتشخيصه عند الموحدين مشهورٌ.

[4] الطهارة الباطنة تعلمُها من الجدول وغيره.

[5] التكليف: هو ما كلف الله به عباده، والمراد بقطعه عدم طلب الإثابة عليه، أي لا يرى المُكلفُ أن له على الله بأعماله جزاءً لأنه لم يفعل إلا تأدية الواجب، فلا يرجو عليه ما تتطلبه بشريته في دنياه من شهوة الفرج والبطن وما يتبع ذلك ولو كان حلالاً له، ولا يرجو عليه في آخرته جنة ولا يخشى نارا كسفلة الناس:

رغبت في النار فرحت زاهدا بجنة بوعدها غيري يُغرّ

فالناس في الطاعة على ثلاثة أقسام:

قسم يرجون عليها النعيم، ويدفعون بها العذاب الأليم، فهم يرون صدورها منهم لم يتبرؤوا فيها من حولهم وقوتهم، وهم أهل إياك نعبد.

وقسم يرونها هدايا من الله تحملهم الى لا يرون لأنفسهم فعلاً ولا تركاً ولا حولاً ولا قوةً، فهم محمولون بالقدرة مصرفون بالمشيئة، فهم أهل إياك نستعين.

وقسم فانون عن أنفسهم باقون بربهم، إن ظهرت منهم طاعةً فالحمد لله، وإن ظهرت منهم معصية اعتذروا لله أدبا مع الله، لا يزيد فرحهم بالطاعة ولا ينقص بالمعصية لأنهم بالله ولله ومن أهل لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذه الصفة الأخيرة من الطاعات هي التي أرادها، رحمنا الله بمعرفة أسراره.

[6] الصلاة: اسمٌ لما ينصرف به عن غير الله ويدل على ذلك أن الصلاة كانت بكل شريعة، ولم تكن بتلك الهيئة وقوله تعالى (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) (سورة المعارج: ٢٣) يُدل على ما ذكر وكذا قول علي أنا الصلاة، والصلاة معراج المؤمن وبيوت الله التي أذن أن ترفع والكعبة والمسجد وغير ذلك. ورد في الخبر ان من الصلاة الى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر. وعن علي امير المؤمنين قال: سمعت رسول (ص) يقول: أرجى آية في كتاب الله. (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (سورة هود: من الآية ١١٤) والذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا إن أحدكم ليقوم الى وضوئه، فتساقط عن جوارحه الذنوب فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه، لم ينفتل من صلاته وعليه من ذنوبه شيءٌ كما ولدته أمهُ.

[7] الرقيقة: مؤنث الرقيق وهو ما سهل وما عَذُبَ وما لطف من المعاني والعيش الناعم الرغيد.

[8] للروح أسام باعتبار أوصافه كما سيجيء، وهذه الأسامي مادة الصور كالأرواح النورية الفائضة على الأشخاص البشرية.

الإلهية فيمتنع من الصلاة الباطنة وكما إنّ استقبال القبلة الظاهرة شرط في صحـة الصلاة الظاهرة فكذلك استقبال القبلة الباطنة[1] شرطٌ في صحّة الصلاة الباطنة وهي عبارة عن الإقبال على الله بالكليّة والإدبار عما سواه قلباً ونفساً[2] وروحاً وعقـلاً وسراً، فإن من لم يقبل بالكلية على الله عز وجل ويدبر بالكليّـة عمّـا سـواه[3] لا يتصل بحضرة الله ومؤمن السوى لا يتصل بحضرة الله كما قيل شعرٌ:للمراجعة

فلم تهوني[4] ما لم تكن فيَّ فانيا[1]   ولم تَفْنَ ما لم تُجْتَلَ[2] فيك صورتي[3].

---

[1]القبلة الباطنة: هي استقبال وجه الله، والوجه ما به ظهور الشيء، وما به توجهه واستقباله، وذات الشيء والحق الأول تعالى بحسب مقام غيبه لا اسمٌ له ولا رسمٌ، وبحسب مقام ظهور فعله لا ظهور لشيء إلا وهو ظهوره، هو معكم أينما كنتم، داخل الأشياء كدخول المقوم في المتقـوم، لا كـدخول شيء في شيء، وحيث لا يحويه مكانٌ دون مكان فلا اختصاص بالعبادة لبقعة دون بقعة والتوجه الى الله في نفسها، لكن قد يعرض لبعض الامتياز عن الآخر بأمور خارجة، فقبلة وجه البدن أشرف بقاع الأرض (مكة) وقبلة وجه النفس القلب، وقبلة وجه القلب الروح، وقبلة الروح الولاية المطلقة، وقبلة الكل خليفة الله:

ووجهت وجهـي فـي اتجـاهي لوجههـا   ومن حيـث مـا اسـتقبلتها فهـي قبلتـي

وفي الجوهرة (إنهم كانوا يرون وجه قديم الزمان من كل الجهات).

كل جهات قصدها واحدة   لخاطر فيها بسلطان خطر.

[2]إن النفس والقلب والروح والعقل والسر عند الصوفيين شيءٌ واحدٌ، وما هي إلا الـروح تتطـور بحسب التصفية والترقية، فما دامت مشغولة بشهواتها الجسيمة فهي نفسٌ، فإذا انزجـرت وعقلـت بعقال الشرع إلا أنها تعصي مرة وتتوب أخرى فهي عقل، لأنها معقولة بالدليل والبرهان محبوسـة في سجن الأكوان، فإذا سكنت عن المعاصي، إلا أنها تتقلب بين الغفلة وبـين الاهتمـام بالطاعـة والمعصية، سُميت قلباً وهو أول مطالع الأنوار فتشرق عليها أنوار التوجه، فلا تزال تتوارد عليـه الواردات حتى يسكن الى الله ويطمئن بذكر الله، وتدخل، فإذا تصفت من غبش الحس، وتطهرت من كدر الأغيار سُميت سرا، وهو أول أنوار المشاهدة، فإذا نزلت من لوث الأنوار وهو الوقوف مـع المقامات، والالتفات الى الكرامات، سُميت سر السر، وهو أول مطالع أنوار المعاينة والمكالمة ثم لا حال ولا مقام (يا أهل يثرب لا مقام لكم).

[3]سواه: غيره، راجع الى الله.

[4]الهوى: غرادة النفس، ويكون في الخير والشر، وهو عند الصوفية من صفات الله العليـا حقيقتـه الحق الأول لا يُحاط به، لأنه عين الواقع ذهنا، أي لكان الأمر الكائن في الـذهن بالتصـور وهـو الذهن والواقعي ذهنيا، والهوى المطلق منزهٌ عن إدراك الحس والخيال والعقل للزوم التشـابه فـي الأصل بين المدرك والمُدرَك، بل لزوم الاتحاد بينهما ولا سنخيّة ولا تشابه ولا اتحاد بين المطلـق والمقيد. والعشق المقيد من أجل أوصاف الإنسان، وبه تتحقق إنسانيته، ولا يـدرك حالـه بالحـال والقال، ولا بالعقل والخيال، لأنه يقتضي الدهشة والحيرة، ولذلك ظن العقلاء من الحكماء أنه جنونٌ. وترقى بعضهم فقال إنه جنونٌ إلهي. والهوى كالوجود، ليس لأحد الكلام فيه- إذا بلغ الكلام للـذات فأمسكوا- ويتنزل كتنزل الوجود -كما مر بك-، واختلف في عشق زليخا ليوسف فقال من لاخبرة له إنه عشق حيوانيٌ، بدليل تهديدها إياه بالسجن، والعاشق لا يمكنه تهديد المعشوق، وبدليل قولهـا هيت لك وقولها: راودته فاستعصم. وقال ذوو البصائر: إنه عشق علويّ موجبٌ لقرب الحق الأول، لأنه انتهى إلى محبة الله ومشاهدة جماله، فقد ورد أن يوسف افتتن بها وهي استغنت بالله عنه.

فبالجملة إنّ الطهارة الباطنة هي ترك المُرادات[٤] الدنيويّة والأخرويّة ظاهراً وباطناً، فمن تعلّقت إرادته بشيء سوى الله لم يقدر علـــى الاتصـــال بحضـــرة الله تعالى.

المعنى: وبعد أن حضَّ على إقامة الظاهر بما مر بك مدعماً حججه البالغـــة بآراء الموالي الكرام منهم السلام، شرع يعلمنا باطن هذا الظاهر فقال – نورنـــا الله بمعارفه – إن الصلاة الحقيقية تنهى عن الفحشاء والمنكر بمعانيها في كل نوع مـــن أنواع الصلاة -كما مر بك- وهي الوصلة بين العبد وربه. فمن أتى بها كما ينبغـــي

فنـــي وجـــودي فـــي وجـــود الهـــوى ... وزال فـــــي أحكامـــــه حكمـــــي
وأصـــبحت ذاتـــي بـــذات الهـــوى ... كـــالعرض اللائـــح فـــي الجســـم

[١] الفاني:اسم فاعل من فني يفنى فناءً: عُدمَ. والمقامات التي يقطعها السالك في الفناء ثلاثةٌ:
- فناء في الأفعال.
- وفناء في الصفات.
- وفناء في الذات.

أو تقول فِناءٌ فِي الأسم، وفناءٌ في الذات، وفناء في الفناء، هومقام البقاء ثم الترقي الى ما لا نهايـــة له، فاذا كشف للسالك عن سر توحيد الأفعال، إذ الأفعال كلها لله وزادت حلاوته وارادت همتـــه أن تقف مع ذلك المقام، نادته هواتف حقيقة المقام الذي فوقه الذي تطلب أمامك، حتى يصل الى مقـــام البقاء نادته هواتف العلوم الغيبية: وقل ربي زدني علما:

مـــا زال يخيفنـــي الغـــرام بحـــبكم ... حتـــى خفيـــت بـــه عـــن الأوهـــام
وفنيـــت حتـــى لـــو تصـــورني الفنـــا ... لـــم يـــدر أيـــن أنـــا، وفيـــه مقـــامي

[٢] اجتلى الشيء كشفه.

[٣] الصورة بالضم الوجه، وشكل الشيء وتمثاله إذا بلغ العبد أوان التكليف القالبي، وتنبـــه لمعرفـــة الغيب مترقيا بالتكليف القلبي، وراي الفعل من الله ولا حول ولا قوة إلا بالله صار باقيا بصـــفة الله، فإذا ترقى بحيث لا يرى نفسه بائنةً عن المدد الإلهي صار فانيا بالله، فإن أبقاه الله في هـــذا المقـــام صار باقيا وتم له السلوك وصار جامعا بين الفرق والجمع، والوحدة والكثرة، وحينئذ تجتلـــي بـــه صورة الله. ورد في الحديث القدسي: لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى أحبهُ فإذا أحببته كنـــت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيداً (أو كنت عينه التي يبصر بها...الخ) وآنئذ يكون العبد منمحقـــا فـــي أنوار الله. (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى). وهذا هو سر الاتحاد بالله:

الـــى الـــرحمن نســـبة كـــل عبـــد ... ظهـــور صـــفاته الحســـنى عليـــه

صفا جسدي حتى بدا منه قلبه...الخ. وللفارض في هذا ادعاءات عناهم المؤلف بقوله (لا يغـــرنكم من تجلت له المشاهد)، وكم ورد عنهم من معاني ذلك الاتحاد: ما في جُبتي هذه إلا الله – أنا النقطة التي تحت الباء – أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا.

[٤] المرادات: جمع مرادة صفة لموصوف محذوف من أراد ولعلها الإرادات يدل عليها ما بعدها من تعلقت إرادتهُ.

فقد تمت دائرة قُمص تأجيله، وصفا وعاد إلى نورانيته التي منها بدا، فهبوط المؤمن من الصفاء، وتكراره في قمص التأجيل، وعودُه منها الى الصفاء بمثابة الدائرة ينتهي خطها المستدير بالنقطة التي بدا منها، وهذه هي دائرته، -لا التي زعمها الصوفية-، وهي أعظم المواهب الإلهية، وكما أن الطهارة الظاهرة بالماء، شرطٌ في صحة الصلاة الظاهرة، فللصلاة الباطنة طهارةٌ هي معرفة أمير المؤمنين عندهم والبراءة من أعدائه، وهي عند المؤلف تجرد المرء من دنياه وما تتطلبه بشريته كخلقه بأخلاق البهائم من شهوة البطن والفرج، وما أشبه ولو كان حلالاً له، وقطع التكليف في الآخرة هو أن لا يرجو على عمله جزاءً ولا شكوراً وأن لا يرجو جنةً ولا يخشى ناراً. والصلاة الباطنة عبارةٌ عن الاتصال بحضرة الله سبحانه بقطع الاتصال مما سواه، لأن من تعلق بغير الله لا يتصل بالله والذي يرى أن ثمة موجوداً غير الله محالٌ عليه الاتصال بالله. واستقبال القبلة الباطنة هو الإقبال على الله بسائر مقامات الروح والعقل والسر وسر السر، لا تُدبرُ عنه وأنت في مقام من هذه المقامات، بل تُقبلُ على الله مدبراً عما سواه بكل منها. (وفي هذا التشديد ما غيره، وإلا فإن موالي أمير المؤمنين العارف بأن الصورة المرئية هي الغاية الكلية هو مؤمن لا شك في إيمانه، ومع هذا فقد ورد عن الصوفية. لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، وعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة الى ذكر مع وجود يقظة الى ذكر مع حضور الى ذكر مع غيبة عما المذكور)، فليذكر المُريد ربه فالغفلة عن الذكر إعراضٌ بالكلية وفي وجود الذكر إقبالٌ بوجه ما) فلم تهوَ الله سبحانه ما لم تَفْنَ به عن الجسمانيات ولذائذها، وعن النفسانية وشهواتها إلى تجردك عنهما، ثم تقطع مراتب السلوك إلى الفناء الذي هو عين البقاء، فهو رتبة الجمع أو رتبة جمع الجمع، فحينئذ تكون مجلى أنوار الله ومظهر أسراره، ومحلاً لتجلي أسمائه وصفاته. وسيمر بك زيادةُ إيضاح لهذه المعاني عند ذكر الإنسان وجموعاته إن شاء الله.

وأمّا الزكاة الباطنة فهي عبارة عن تزكية[1] العبد من يقين وجوده بالكليّه، وأما الصّوم(٢) الظاهر فهو الإمساك عن الطعام والشراب.

---

[1] التزكية: التنمية والتطهير. يريد قدسه الله أن الزكاة الباطنة أن تطهر نفسك بمعرفة الزكاة التي هي عبارة عن التبري من غير ولي الله بمعرفة شخصها الذي هوالمسين، أو أراد أن الزكاة أن يطهر

وأمّا الصّوم الباطن[1] فهو الإمساك عمّا سوى الله وأما الحجّ الظاهر فهو المعلوم.

وأمّا الحجّ الباطن[2] فهو مشاهدة الحيّ القيّوم، وبالجملة فمن حمل على الظاهر المحض فهو حشوي[3] ومن تمسك بالباطن الصرف فهو ملحد ومن جمع بين الظاهر والباطن معاً أي بالتقيّة والتقوى كان مؤمناً موحّداً عارفاً محققاً، إذ الإيمان والتّقوى هما فتح باب كلّ خير وبركة ورزق صوري[4] ومعنوي[5] كما قال الله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ[6].... الآية) (الأعراف٩٦)

وقال (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ[7] مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم...الآية) (المائدة٦٦)

المرء نفسه باتباع ولاية ولي الأمر والتبري من غير ولي الأمر، فيكون زكى نفسه التي بها قيام وجوده(ومن يُقيم وجوده) في نسخة من يقين وجوده.

[1] الصوم الباطن عندهم صورة التبري، وبالتبري ترتفع الموانع عن التوجه الى الله وعظمته وكبريائه، ترتفع الغفلة والنسيان فإنهما ليسا إلا من استتار عظمته.

[2] الحج الباطن عندهم حجان: صوريٌ ومعنويٌ.
الصوري: لقاء الإمام بحسب الصورة.
والحج المعنوي: لقاؤه المعنوي، فيكون الحج أمراً بالفكر الذي هو مصطلح السادة الصوفية، وهو عبارة عن المجاهدة في العبادة والأذكار القلبية واللسانية حتى تصفو النفس من الكدورات، فيتمثل الإمام على المجاهد. نسبَ الى الباقر (ع): (إن تمام الحج لقاء الإمام) وعن الصادق (إذا حج أحدكم فليختم حجة بزيارتنا لأن ذلك من تمام الحج).

والحج قصدٌ ظاهرٌ لباطن له معان بالرسوم تُعتبر

[3] الحشوي: نسبة الى الحشوية، لعلها لغة من الحشوة بالضم رذال الناس، واصطلاحاً على زعم الشهرستاني جماعة من غالية الشيعة وجماعة من اصحاب الحديث، فحشوية أصحاب الحديث صرحوا بالتشبيه. حُكي عن أحمد الجهمي أن المسلمين يعاينونه في الدنيا والآخرة. قال بعضهم: أن معبودهم جسمٌ ولحمٌ ودمٌ وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ولسان وأذنين، ومع ذلك فهو جسمٌ لا كالأجسام الخ. حملهم على ذلك ما بالقرآن من استواء ويد ووجه وجنب وما بالحديث أيضا.

[4] الصوري نسبةٌ الى الصورة كنايةٌ عن عمل محسوس.

[5] المعنوي: نسبةَ الى المعنى، كنايةٌ عن الفيوضات الإلهية.

[6] إذا آمن الإنسان وانقاد لشكر خيراته الجسمانية الحاصلة من الأرض، وخيراته الروحانية الحاصلة من السماء كثرت خيراته الروحانية والجسمانية، من اعتناق سماوات الطبع مع أرض الطبع، ومن اعتناق سماوات الأرواح مع أراضي الأشباح النورية والظلمانية، فسماوات الطبع كنايةٌ عن معرفة الباطن، وأرض الطبع كنايةٌ عن إقامة الظاهر، واعتناقها هو إقامتها، وكذلك سماوات الأرواح وأراضي الأشباح.

[7] إن الألفاظ موضوعةٌ للحقائق باعتبارها عناوين لها، من غير اعتبار خصوصيةٍ من الخصوصيات كليةً كانت أو جزئيةً، فإن زيدا مثلاً في صباه وشيخوخته وتجرده وتجسمه وغير ذلك هو زيد،

أي يحصل لهم العلم الإلهي الوهبي[1] اللدني الباطن.

والعلم الكوني الكسبي[2] الظاهر جميعاً.

المعنى: يقول أن الزكاة الباطنة تطهير النفس بمعرفة ولي الأمر والتبري من عدوه، والصوم الباطن التبري أيضاً، بحيث ترتفع الموانع عن التوجه الى الله بالإمساك عما سوى الله، والحج مشاهدة تجلي الله سبحانه للسالك في سائر رتب السلوك (وما ورد عن الإمام هذا معناه) فمن حمل الشريعة على الظاهر المحض فقط هو حشويٌ مجسمٌ لأنه جسم المعاني الغيبية والأشخاص النورية، ومن تمسك بالباطن الصرف كان ملحداً(فآهٍ للشيخ حبيب عيد) لأنه بجحده الصور الشرعية أحال على عدم، لأن ما غاب فلم يُرَ يوشك ألا يكون شيئاً، ومن جحد صور العبادات الشرعية بما استدل على باطنها فهو ملحداً، ومن جمع بين الباطن والظاهر كان مؤمناً موحداً عارفاً. فالإيمان وهو ثاني رتبة من رُتب السلوك- هو اشتغال القلب بتصفيته بالتخلية والتحلية وتحقيق الإخلاص، والتقوى هي تقوى الله في جميع مراتب السلوك كما مرَّ ويمُر، فجمع الباطن والظاهر معرفةً وعملاً هو مفتاح باب كل خير وبركة، حسياً كالمال والجاه والرئاسة والعمل الظاهر، ومعنوياً كالفيوضات الإلهية، وبهما تُفتَحُ بركات السماوات والأرض بمعانيها ويأكل مُقيمُها مما فوقه ومما تحت رجليه، والأكل كما مر معنى عموميّ لا خصوصيٌ، يعني لو أن الناس أقاموا ما أُنزل إليهم من ربهم من المعارف الإلهية الظاهرة والباطنة لأكلوا من فوقهم من الأرزاق السماوية الأخروية الروحية، ومن تحت أرجلهم من الأرزاق الأرضية الدنيوية البدنية، وكلا الأمرين أكلٌ للروح. يعني يحصل لهم العلم الوهبي تجليات وإفاضات بدون واسطة عمل محسوس والعلمُ الكوني الكسبي الظاهر بالأعمال الشرعيات.

فاعلم أن الكل غير معتبر في الأكل الحيواني، بل هو اسمٌ لفعل ما به قوام الفاعل وقوَتَهُ وازدياده بأي نحو كان وفي أي نشأة وقع.

[1] الوهبيُ: نسبةً الى الوهب مصدر وهب وهباً ووهباً وهبةً أعطى من غير عوض، ويعني بالعلم الإلهي الوهبي التجليات الإلهية والإفاضات النورانية.

[2] الكسبيُ: نسبةً للكسب، مصدر كسب الشيء يكسبه كسباً وكسباً جمعه، وكسب مالاً وعلماً وربحه، ويعني به المفترضات الشرعية الحسية.

ومهما تغذّت الأنفس من كسب أيديها فإنها لا تجدُ حلاوة الجود، ويكون أكل مما تحت رجليه، والكامل من أكل من فوقه ولا يكون معلّمُهُ فقيراً ولا مؤنثاً، بل لا يأخُذُ علمه إلاّ من الله تعالى، لا يأخذه من النفس ولا من العقل، ولا يطلب من العلوم إلاّ ما يكمل به ذاته، وليس إلاّ العلم بالله من حيث الوهب وَالْمشاهدة الآخرة وما يقتضيه الواجب من معرفة مقاماتها، حتى يمشي فيها كمشيه في منزله أصلاً فإنّه من أهل العرفان والإيمان لا من أهل الشك والنكران، لقوله تعالى (وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (التغابن١١) لأنّه أشهده حقائق أيمانه كشفاً وقال تبارك وتعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ..... الآية) (يونس٩) وعلامة من اهتدى واستضاء بنور الأيمان هُدي قلبه على طلب الأسباب علويّها وسفليّها، وذلك بما يخصّه الله تعالى من العناية.

المعنى: يقول : إن النفس مهما تغذت من العمل الظاهر بالأوامر الشرعية لا تجدُ حلاوة الجود الذي هو الإعطاء بلا عوض(كنايةً عن المعارف الإلهية)، ويكون ذلك المتغذي بالعمل المحسوس أكل من تحت رجليه، أي من ظاهر الشريعة فقط، والكامل من أكل من فوقه أي تلقى العلوم الإلهية كشفاً وتجلياً(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) (سورة الذاريات: ٢٢) ولا يكون العلم الذي يُلمه فقراً ولا مؤنثاً، بخلاف الذي يأكُلُ من تحت رجليه، وأنت تعلم الذكورة والأنوثة مما في كتب الدين، وسيمر بك أن بكل شيء أنوثة وذكورة، بل يأخذ الكامل الآكل من فوقه علمه من الله فيوضات وإشراقاً بلا واسطة، ولا يطلب من العلوم إلا ما يكمل به ذاته، وليس العلم المكمل للذات إلا العلم بالله من حيث هو وهبٌ من الله، وإشراقاً بدون معاناة درس ولا عمل، ولا يكون إلا بعد درس مع مداومة العمل ويأخذه مشاهدةً وكشفاً بخرق الحجب والستور، يسير بها كما تقتضيه مقامات السلوك حتى يكون عارفاً بتلك الأسرار وما يحتويه مضمونها كما تقتضيه مقاماتها، سائراً بتلك التجليات والمشاهدات كسيره في منزله أصلاً (وصاحب البيت أدرى بالذي فيه)، فحينئذ يكون هذا السالك من أهل العلم والعرفان لا من أهل الشك والنكران(وقدس الله روحه ما أقسى لهجته وأشد حُكمهُ) ومن يؤمن بالله سبحانه يُهد قلبه إلى طلب الأسباب عُلويةً بالكشف والمشاهدات وسفليةً بالأوامر الشرعيات.

وقال سبحانه (وَمَن يَتَقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) (الطلاق٣)، والرزق الصوري كالمال والجاه والحشمة والنعمة. والرزق المعنوي كالعلوم الحقيقيّة الألهيّة والحكمة الربانية، وقال تبارك وتعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) (سورة البقرة: من الآية ٢٨٢) أي بذاته لا بالوسائط مالم تكونوا تعلمون من العلوم الإلهية اللّدنيّة، ولهذا أضاف التعليم إلى الاسم الأعظم وهو الله تعالى وقال سبحانه تعالى للذين أمنوا: (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً[١] (الآية ٢٩ من سورة الأنفال)، يعني من أتخذ الله[٢] وقاية في جميع صور الكمالات[٣] العمليّة[٤] الصادرة[٥] عنه، وجعل نفسه وقايةً لله في جميع صور النقائص[٦] الصادرة منه، يجعل له فرقاناً بين مرتبتي العبدانية والربانيّة.

---

[١] الفرقان: مصدرٌ بمعنى المفروق المفصّل، وقد فُسر -بأخبار كثيرة- القرآن بجملة الكتاب، والفرقان بالمحكم الواجب العمل به.

[٢] الوقاية: بالكسر والفتح ما يوقى بهِ.

[٣] الكمالات جمع كمال: مصدر كمُل أي تم.

[٤] العملية: نسبة الى العمل.

[٥] الصادرة: اسم فاعل من صدر عنه الأمر نتج ونشأ، ومنه برز.

[٦] النقائص جمع نقيصة الخِصلة الدنيئة، والعيب. يعني من نسب جميع ما يصدر عنه من النقائص إلى نفسه يجعل الله له نوراً فارقاً بين الحق والباطل، وتعليل ذلك أن الفاعل في موجود هو الله، وليس من الناس إلا الإستعداد القبول والمشيئة والحسنة منسوبتان إلى الخلق نسبة الشيء إلى القابل، ومنسوبتان الى الله نسبة الشيء الى الفاعل، لكن السيئات أي الأعدام والموجبات للأعدام لما كان الوجود فيها ضعيفاً حيث عدّها بعضهم أعداماً صرفةً تكون نسبتها الى الفاعل الأول ضعيفة لضعف الوجود فيها، والنسبة الى الفاعل لا تكون إلا من حيث الوجود، وتكون نسبتها الى القابل أقوى، فيكون الفاعل أولى بها، ونسبة الفعل الى الشيطان والقرين ومشيئة الله كذبٌ محضٌ، فإن الشيطان والقرين ليس لهما إلا الإعداد، والمشيئة وإن كانت فاعلة أو سبباً للفعل، لكن الفاعل ما دام يرى نفسه منفصلة عن المدد العاملة به ليس له نسبة الفعل إلى المشيئة أو تعليقهُ عليها، ولو نسب لا ينبغي الغفلة عن استعداد القابل، وبهذا يرتفع التناقض، فانحراف المكونات تكويناً عن طريقها المستقيمة التي تكون بالفطرة سالكة عليها إلى كمالاتها الثانية، لا يكون إلا بإرادة الله وانحراف المكلفين عن طريقهم المستقيمة التكليفية لا يكون إلا بإرادة الله ومشيئته أيضاً، لكن ذلك الانحراف لا يكون إلا من نقص مادته وحدود وجوده، فتكون نسبته إلى نفسه أولى من نسبته إلى خالقه، ويكون غير مرضي بحسب الرحمة الرحيمية، ويكون مبغوضاً ومسخوطاً، وصاحبه مخذولاً وضالاً وغير قابل للولاية، وسيمر بك شرح الرحمة الرحمانية والرحمة الرحيمة أن شاء الله قال الأمير:

العقل في جوهره واحد | وعنه يبدو النفع والضرّ
مثل شعاع الشمس في بدرها | بردٌ ومنه في الثرى حرّ

أي يجعل له نوراً يفرق به بين الحق والباطل في الأمور كلّها، وبين الصدق والكذب في الأقوال والأفعال، وهذه كلّها أشارةٌ إلى حفظ التقيّة. وفي هذا قال أبو الحسين محمّد ابن علي الجلّي من قصيدةٍ له قدسه الله حيث يقول:

رجعتُ إلى الله مستسلماً[1] بقلبٍ تقي ونفسٍ زكيّة
وصمت على أنّني مفطرٌ ورأس الدّيانةِ حفظ التقيّة

المعنى: يقول – أنار الله قلوبنا بمعارفه-. من يتق الله سبحانه بما ذكر من إقامة الباطن والظاهر يجعل له مخرجاً من كل ضيق، ويرزقه من الرزقين المعنوي والصوري، من حيث لا يحتسب الإرتزاق. والرزق الصوري هو المال والجاه وما يتعلق بكل محسوس، ومنه الأوامر الشرعيات.

المعنوي كالعلوم الحقيقية والحكمة الربانية، إفاضات من الله بدون واسطة من الوسائط كما تقدم، وكأن التعليم باطناً وظاهراً مأخوذٌ عن الإسم العظيم والحجاب الكريم، وهو الذي عليه الموحدون من رجال هذا البيت الشعيبي، ولا منافاة بين هذا القول وبين من زعم أن التعليم من الحق الأول، كما عليه الراسخون بالعلم من رجال، هذا البيت أيضاً، ومن ظاهرية الصوفية، رجوعاً بالأشياء الى مبدئها الأول، ومن نسب جميع ما يصدر عنه من أفعال الخير والكمال إلى الله سبحانه، وجميع ما يصدر عنه من الشرور والأعدام إلى نفسه جعل الله فرقاناً يفرق به بين المرتبة العبدانية التي منها الشرور والنقائص، وبين المرتبة الربانية التي منها أفعال الخير والكمال، ويجعل له مع ذلك نوراً يفرق به بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب في الأقوال والأحوال والأفعال، فالصدق نسبة الشرور الى فاعلها، والخير إلى الفاعل الأول وكذلك الحق والباطل:

وكلُّ قبيح إن نسبت لفعله أتتك معاني الحسن فيه تسارع يكمل نقصان القبيح جماله. وكل ما ذكره من بركات السماء والأرض اللذين هما العلم الوهبي اللدني والعلم الكوني الكسبي. وآداب نسبة الأفعال وغير ذلك هونتيجة الآداب الشرعية يفتح

الله على العبد باب الرزقين: المعنوي وهو الفيوضات، والصوري وهو الشرعيات فتأمل هدانا الله وإياك.

ومن شروط الآداب اللازمة المْرويّة عن الأئمة الأطهار والسادة الأبرار علينا منهم السلام كتمان الأسرار.

فقد ورد عن مولانا الصادق منه السلام أنّه قال: سرالله تعالى مبثوث[1] بين خلقه لا يعرفه أكثرهم فلو أراد الله عرّفهم، فمن أذاع سرّ الله فقد عاند الله تعالى.

وقال منه السلام: ما لله سر إلاّ وهو على ألسن خلقه ولا له خزانة هي أحرز من جهلهم به، فمن عرّف أعداء الله سرّ الله فقد حاد عن أمره.

وقال منه السلام: ظهور الله بين ظهراني[2] عباده سرّ، وعلمه فيهم مستسرّ، كذلك ما عرّفكم مستسرّ(٣) عن من ليس منكم، فكونوا على طريق الله ومنهاجه، فإنّه لو شاء هتك ما ستر، ولكن ليبلو بعضكم ببعض.

وقال منه السلام: من أذاع لنا سرّاً ستر الله سرّنا وابتلاه الله بالجنون أو بِحرّ الحديد وبرده.

وقال منه السلام: كلّ سرٍّ مستسرٌّ بالسرِّ، فمن فهم من ذلك شيئاً وأذاعه وعلّمه للجهلة أو أراد به الْمعاندة فقد هتك سرّ الله، ومن هتك سرّ الله أذاقه الله حرّ الحديد وبرده.

وقال منه السلام: جاحده شاكّ وقائله عند غير أهله كافرٌ.

وقيل: إفشاء سرّ الربوبيّة كفرٌ. ولله درّ القائل شعراً حيث يقول:

صن سرّهم إن كنت تطلب وصلهم ... فالحاسدون على الوصال كثيرُ
واحفظ وقارك إن وقفت ببِابهم ... فالباب من آدابه التّوقيرُ

---

[1] مبعوثٌ: مفعولٌ من بثّ الخير والشيء يبثه بثاً ينشره ويفرقه.
[2] يقال هو نازل بين ظهريهم وظهرانيهم، ولا تكسر النون وبين أظهرهم: أي وسطهم وفي معظمهم، وكل ما كان في وسطه شيءٌ ومعظمه فهو بين ظهريه وظهرانيه.

فإذا وجدتم أهل السرّ فأعطوا لهم مؤنتكم ولا تكتموهم شيئاً ممّا تعلمونه. فإنّ الرواية عن السيّد المسيح منه السلام أنّه قال: لا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتضيّعوها، ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم. ولقد أحسن الشافعي حيث يقول شعراً[١]:

أأنثرُ درّاً بين سارحة النعم ... كما نظم منثور لراعية الغنم
لعمري لئن ضيّعت في شرّ بلدةٍ ... فلست مضيعاً بينهم درر الكلم
فإن وفّق الله الكريم بفضله ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
بثثتُ مفيداً واستفدت ودادهم ... وإلاّ فمخزونٌ لديّ ومكتتم
فمن منح الجهّال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

فهذا ما اختصرناه من وجوب استعمال الظاهر وكتمان الباطن وصون الأسرار وستر الفاذورات[٢] عن ذي الجهل والاغترار وإظهار العبادة والأذكار[٣] بمقتضى هذه الأخبار الواردة عن الأئمة الأطهار. إذ ليس كل سرٍّ يُكشف ويفشى

---

[١] الشافعي: سبق في كلمته. [illegible] ومن جملة الآداب التي وردت عن الأئمة المعصومين كتمان السر [illegible]

[illegible] ... ولا تنثر السرّ [illegible]
[illegible] ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
[illegible] ... وإلاّ فمخزونٌ لديّ ومكتتم
فمن منح الجهّال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

[٢] الفاذورات جمع فاذورة: الفاحشة، سمي بها هنا التهتك الذي يظهره الإخوان [illegible] عنه وعنهم.
[٣] الأذكار جمع ذكر [illegible] ذكر الله [illegible] وتسبيحه.

ولا كل حقيقة تعرض[1] وتجلى، ولا كل ما كان موجوداً فهو نصيب لكلِّ أحدٍ. ولا كل ما تقدر رؤيته يعلم كنهه، ولا كلّما يعلم كنهه[2] يجوز قوله، ولا كلّما يجوز قوله تجوز كتابته، لأنه إذا كانت الرؤية بالعين والنظر فالعلم يكون بالخبر والأثر. وإن كان القول بالتصريح فالكتابة بالتعريض والتلويح. فكيف إذا كان بالإيماء والرموز[3] والإشارة. فإنّ الخطاب من الأنبياء والكمل من الأولياء والحكماء مع قومهم كان إمّا مثلاً وإمّا رمزاً وإيماءً وإشارةً. إذ لا سبيل إلى التصريح مع الأكثرين فلهم التعريض في وقتٍ مع قومٍ والتصريح في وقتٍ مع قومٍ آخرين.

وقد ورد خبرٌ عن مولانا الصادق منه السلام إنّه قال: كل من لم ينتفع بالتعريض لم ينتفع بالتصريح. ولولا التعريض لما عرف التصريح. ولا جهل الله أحد وبطل الثواب وارتفعت الجنّة. ولولا التصريح ما عرف التعريض ولا عرف الله أحد. ثم قال إذا عرفتم المعنى فصرّحوا بما شئتم من اللفظ.

المعنى: استعمل الموالي الكرام -هداهم الله بهديهم- وسائر الحكماء أن يشرحوا الرواية بقدر قوة المستمع، وعلى حسب استعداده، فيروى الشرح عنهم على وجوه متعددة، وفي بعض الأحيان مختلفة أيضاً. وذلك لأنهم أطباء النفوس يعطون الدواء بقدر الداء. وقد سُئل أمير المؤمنين عن ذلك فقال: ذلك أبقى لنا ولكم. وهذا الخبر المروي عن الإمام جعفر دليلٌ قطعيٌ على أن التعريض بل التصريح لا يفيد شيئاً إلا بواسطة الاستعداد، وصفاء القابلية. فإذا صحت القابلية نفع التعريض وأغنى وبر وأقنى، وإذا لم تصف القابلية لم ينفع التصريح بل التلويح، فكم قرأنا عمن لوح لهم فاعتقدوا، وعمن صرح لهم فازدادوا ضلالاً على ضلال. فلولا التعريض الذي هو تلميحات الرسول الأكرم على معنوية معناه، وتعريض المعنى بالدلالة على نفسه لما عرف التصريح

---

[1] عرض الشيء: أظهره، وعرض الشيء: أراه إياه.
[2] الكنه: بالضم حقيقة الشيء وجوهره وقدره.
[3] الرمز: مصدر رمز إليه يرمز، ويرمز بشفتيه أو عينيه أو فمه. إن الأكثرين من الأنبياء والحكماء رمزوا عن أسرارهم بحكايات تدل عليها فتكون قصصاً للرعاع ومعارف للعلماء مثل حكاية (يأجوج ومأجوج)، وهما في العالم الصغير جنود إبليس المتولدة من الجنية التي أوتي بها لابن آدم، والسد الذي بينهم وبين بني آدم المتولدين من الحورية وقس على هذا كل قصص القرآن:

فسألوا تحدثت بالصحيح ... من الحديث بجهر رمز
فأجبتهم هل عاقل ... يرمي الكنوز بجهر حرز

الذي هو الكشف بالدعوة، ولا عرف الله أحدٌ، فكأن التعريض كان تمهيداً للتصريح فأشربت النفوس الخيرة به شيئاً وآنست منه نوراً، فحين سمعت التصريح اعتقدت وكأن التعريض كان مانعاً من قبول التصريح، لأن النفوس الشريرة تخمرت به فلما سمعت التصريح أنكرته، ولولا ذلك لما جهل الله أحدٌ وبطل الثواب والعقاب وارتفعت الجنة والنار، وكذلك لولا التصريح بالمعنوية لما عُرِفَ التعريضُ بالدعوة، وحينئذ لم يكن ليَعرف الله أحدٌ، وانظُر تجد كتب الشيعة ملأى بالتلويح والتصريح، ولم ينتفع بهما رواتهما. ومع وضوح هذا الخبر، ووضوح ألفاظه والدلائل المتضافرة على معناه، وكثرة تكراري إياه لا أراني فهمته بألفاظه وبيت المكزون:

أَأكشفُ حالاً ستْرُهُ في النهي شرط وأستر ما في كشفه اتسع الخط

يشرحه تماماً. وفي رسالة الشيخ: سُئل العالم عن قوله في التعريض والتلويح وهما واحدٌ في اللفظ والخطاب، لأن العالم يقول القول فهو تصريحٌ لأهل المعرفة والإقرار وجميع أهل البصائر والرتب يعرفونه ويعقلونه بتأويله، وهو تعريضٌ لأهل الارتياب وليس للخلق على الباري حُجةٌ بعد التعريض والتصريح.

وبالجملة إنّما منعوا إظهار أكثر العلوم وإفشاء الأسرار لإختلاف الحقائق[١] والأمزجة[٢] والطبائع البشرية وضعف الاستعداد لقبول العلوم اللّدنيَة الوهبيَة[٣] والأسرار الحقيقيَة. ومن هاهنا قال السيّد الرسول (ص) لا تطرحوا الجواهر تحت أرجل الخنازير. وقال بعضهم ربّما أصاب من كتم الحقَ عن أهله خشيَةً من سطوة الغيّ وجهله فإبداء الحقَ في غير أوانه انتهاك لحرمته وتضييعٌ لمصونه[٤] وإهانة لمن صانه، إذ الحقَ مستودع عند الأحرار استيداع الأصانة. أي الأمانة. فإبداله إلى غير أهله تفريطٌ[٥] وخيانةٌ، وإنمّا يجب على العاقل اللبيب النطق بالحقَ إذ صادف أهله وزمانه، فلا يتوهم الجاهل لنفسه التارك هذه الأخبار المشروعة والشرائع المتبوعة

---

[١] الحقائق جمع حقيقة: غاية الشيء وأصله المشتمل عليه، والمراد هنا حقائق الأسرار الإلهية واختلافها باختلاف الأمزجة.
[٢] الأمزجة ما أُسسَ عليه البدن من الطبائع، واحدة مزاج.
[٣] الوهبية نسبة الى الوهب، تقدم أنه ما أخذ من الله هبةً أي كشفاً ومشاهدة.
[٤] المصان: اسم مفعول من صان الشيء أي حفظه.
[٥] التفريط: مصدرٌ من فرّط الشيء وفي الشيء ضيعه، وقدّم العجز فيه، والشيء بدده وفرقه.

إنّه بتركها أصاب الصواب ودخل بيت المعرفة من الباب، لا والذي عنده علم الكتاب بل ماعرفه من الحقّ حجّة عليه لا له. كما ورد: ويلٌ لمن لايعلم وألف ويلٌ لمن يعلم ولا يعمل بعلمه أما يعلم المغرور بلقلقة[١] اللسان، المتقمّص[٢] بثوب الأيمان، المنهمك[٣] في الشهوات البهيميّة واللّذات الجسمانيّة، إنّه قد أشبه بأفعاله الحيوان وترك التشبّه بملائكة الرحمن، فإنّهم يسبّحون الليل والنهار لايفترون[٤] ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ولقد عدل هذا الحيوان عن طريق أهل الأيمان وأضاع الصواب وأتبع الشهوات، ومن عدل عن سنّتهم ولم يعمل بها كان مبتدعاً في مقاله غير موافق في أفعاله، لعدوله عن الصواب، ولدخوله البيت من غير الباب.

المعنى: إن الموالي الكرام منعوا إظهار الأسرار لاختلاف حقائقها، باختلاف الأمزجة والطبائع لا بذواتها، كما مرَّ بك من أن كل شريعة لها صلاةٌ وزكاةٌ مختلفةٌ صوراً عن غيرها، وكذلك الحقائق الشريعية والحقائق الطريقية والحقائق الحقيقية مختلفةٌ صوراً وأشكالاً، لا معاني وذوات، بل هن حقيقةٌ واحدةٌ، وأمزجة الناس مختلفةٌ في قبول الحقائق كاختلافها في قبول الأطعمة، فالأطعمة تسعةٌ:

الحلو والمر والحامض والمالح والحريف والعفص والدسم والتنه. والجسم إما أن يكون كثيفاً أو لطيفاً أو معتدلاً، والفاعل فيه إما البرودة أو الحرارة أو المعتدل بينهما فينفعل الحار بالكثيف مرارةً، وفي اللطيف حموضة، والقبض في الحصص ويسمى بشاعةً، والمرارة والملوحة في السبخة ويسمى الزعوقة. وزعم بعضهم أن أصل الطعوم أربعةٌ الحرارة والمرارة والحموضة والملوحة، فباختلاف الطبائع تختلف القابليات، فاختلافها مانعٌ لقبول العلم اللدني الوهبي، فمُظهرُ الأسرار الإلهية – والحالة هذه – لمن يستحقها كطارح الجواهر تحت أرجل الخنازير، وقد يصيب

---

[١] اللقلقة: شدة الصوت في حركة، واضطراب وتقدم.
[٢] المتقمص اسم فاعل من تقمَّصَ لبس القميص.
[٣] المهنمك: اسم فاعل من انهمك. جدَّ ولجَّ.
[٤] لا يفترون لا يضعفون.
وكِلا الأمرين ضدّان لا يجتمعان: الأحمر زائد وصلاً وقطعاً وأقبالاً وأدباراً حقاً وباطلاً علماً وجهلاً جدّاً وهزلاً.
فأيّهما وجد عُدِمَ الأخر كالليل والنهار والنور والظلمة لأن الضدان لاتتفق والأشكال لاتفترق، فمن لايفهم ذالك وجحده فكفاه جهلا بأتباع هواه واسخاط مولاه.

من يكتم الحقائق عن أهلها حياشةً من أن تقع في يد غير أهلها، وإظهار السر في غير أوان إظهاره، تضييعٌ له واستهانةٌ به، فإذا صادف العاقل أهل السر، وزمن إلقائه بحيث يكون في أمن، من اطلاع أحد على الخلوة المختصة به فحينئذ يكون وجوب إعطائه، فلا يتوهمن الجاهل قدر نفسه، التارك الأئتمار بهذه الأخبار، أنه بتركهما أصاب الصواب، ودخل البيت من الباب، لا والذي عنده علم الكتاب. وكلا الأمرين: العدول عن إقامة الشريعة، وطاعة الله، ضدان لا يجتمعان ومتناقضان لا يتفقان، والأضداد لا تأتلفُ والأشكال لا تختلف.

ولقد ورد إنّ الإيمان شجرةٌ والعلم ورقها والعمل ثمرها، فإذا كانت الشجرة بلا ورق فلا ظلّ لها، وإذا كانت بلا ثمر فلا انتفاع بها، وإذا كانت حطباً فالنار أولى بها.

فكذلك من يدّعي الإيمان ولم يعمل بشروطه من الخصال الحسان الْمشرّفة للإنسان من أقامة الْمشروع ظاهراً وباطناً وَالْمحافظة على أداء حقوق الأخوان بحسب الإمكان على ما حصل وبأيّ حبلٍ من الله تعالى أتصل إذا أخذَ بالرُّخَص[1] وترك العزائم[2] وظنّ إنّه مؤمن بما هو فيه من الْمآثم، فكان كما قال الله تعالى (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا اللّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون إنّهم يحسنون صنعا) أليس ذلك هو الخسران الْمبين.

ومن الشروط الواجبة: أن يفضّل الْمؤمن أخاه الْمؤمن الْموافق له في الحلّ والعقد والإيمان، وأن لا يسلّم قياده إلى كل من ادّعى الإيمان إلاّ بعد إثبات أبوّته مع العرفان، فلربما يكون سارقاً لكلمة التوحيد أو متلصصاً فيغترّ به السامع ويميل إليه، فيشتركان في الإثم، فنعوذ بالله ممن يتقمّص بثوب الإيمان وليس له أبوّةٌ إيمانيةٌ وإنّما تصح الأخوّة الإيمانيّة إذا ثبتت الأبوّة الإيمانيّة.

---

[1] الرخص جمع رخصة بالضم للتخفيف بالأمر (إن الله أحب أن يؤخذ برخصه كما أحب أن يؤخذ بعزائمه).

[2] عزائم الله: فرائضه التي أوجبها على عباده، وعزائم السجود ما أمر بالسجود فيها (خير الأمور عزائمها) أي فرائضها.

كما قال مولانا الصادق منه السلام: إذا ثبتت الأبوّة صحّت الأخوّة ونفعت. وروي عن العالم منه السلام إنّه قال: عليك بأخيك السببي فإنّه أولى من أخ النسب فحسب القاطع أخاه قطعهُ لنا وانفصاله عنّا.

المعنى: ترك ظاهر الشرع والتمسك بباطنه ضدان كما مر، وتارك الشرع بنظرهم قد انسلّ من الدين انسلال الشعرة من العجين. وهو الأخسر عملاً، لأنه فعل بغير ما انزل الله ففعله ضائعٌ خاسرٌ، ولو اعتقد أن فعله بحكومة الله، وأن له عليه أجراً، فقد أبطل بذلك استعداده لتدارك الطاف الله، بجهله المركب الذي عدَّه علماء الأخلاق الداء الذي لا دواء له. ومن شروط التدين أن يفضل المؤمن أخاه المؤمن بعد الوثوق من صحيح أبوته، للبعد ما بين الأرحام الروحانية والجسمانية. فإنه كما أسس الله لصحة النسبة الجسمانية في كل ملة وشريعة ما تبتني عليه كذلك أسس لصحة النسب الروحانية ما تبتني عليه، ومن لم تكن كذلك نسبته مبتنية على ما أسسه كانت لغيةً (أي زنا) في النسبتين الروحانية والجسمانية، وكما أن داخل النسب الجسماني ملعونٌ، كذلك داخل النسب الروحاني ملعونٌ ونسبته اللغية الى اللغية ونسبته داخل النسب الى داخل النسب كنسبة الروح الى الجسد. وعند الصوفيين: من لا شيخ له فالشيطان شيخه. قال الأمير:

ولـه منـي ولاءٌ وبَـرا   فـي إبـاء حبـه مـن أبـوي

قال الله تعالى (والسّارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله)

أعلموا إخواني رحمكم الله إنّ السارق في الباطن هو الذي يأتي إلى باب المْوحّد فيسرق علمه ثمّ يدّعيه لنفسه، والسارقة هو المْحجوب الذي يأتي إلى أهل الحقيقة ويتستّر بالتشبّه بهم في ظاهر القول دون الباطن والعقد حتّى يسرق علمهم بالاحتيال من غير جهة الباب المْنصوب للتعليم، ثم يذيعه إلى المقصّرة والمْحجوبين، فيجب على من يلقي إلى هؤلاء شيئاً من الأسرار ثم علم إنّهم

لصوص أن يتبرأ منهم ومما ألقى إليهم ليدهشهم[1] ويوهمهم إنّ الذي ألقاه إليهم وعلّمهم وسمّعهم وخاطبهم ليس له على ذلك بيّنة ولا دليل ولا برهان، ويشككهم ويقطع عنهم تلك العلوم والمعارف والكلام جملةً، فإنّهم يضلّون ويتحيّرون جزاءً لما أصرّوا وعاندوا لا يكلّمهم بعد ذلك ولا يلقي إليهم شيئاً من العلوم والأسرار، فهذا معنى قطع يد السارق والسارقة عند أهل الحقيقة.

المعنى: كل هذا بينّ بأن الواجب على من أعطى رجلاً ما من الذين لا يريدون العلم لله، شيئاً من أسرار الله غلطاً أو توهماً أن يتبرأ مما ألقى إليه ليوهمه أن ما أعطاه باطلٌ لا ظل له من الحقيق، فيتوهم ويقطع عنه المعارف جملةً واحدةً فيضل ويتحير. وشرحه السارق والسارقة كما في الحقائق باللفظ.

وأمّا أخوّة المؤمن المحقّق فيجب عليه أن لا يردّ عليه كلامه، فقد ورد خبر عن مولانا الصادق (ص) أنه قال: من ردّ على أخيه المؤمن كلامه أو احتشمه[2] أو اغتمه أو ظنّ إنّ له شيئاً دونه وأخذه بسيئة كانت منه، لم أسكنه جواري ولم أنظر إليه برحمتي.

وعن المفضّل بن عمر إليه التسليم إنّه قال: من أراد أن يعلم حبّ الله له فليمتحن نفسه ما لأخيه في قلبه فكذلك حبّ الله له.

وعن مولانا الصادق منه السلام إنّه قال: من أراد الاستمتاع بإخوانه فلا يعصهم، ومن أراد دوام النعمة عليه من الله فليكرمهم، ومن منع أخاه شيئاً من عرض الدنيا وحطامها لم يمت حتى يسلط الله عليه من يأخذ منه ما منع أخاه ويروح منه بغير طاعة ويرى عمله عليه حسرة يوم القيامة. وقال منه السلام: اغتنموا الفرصة في حقوق إخوانكم فإنها تمرّ مرّ السحاب.

وقال منه السلام: من لم يمشي في حاجة وليّ الله ابتلي بأن يمشي في حاجة عدوّ الله.

وعنه منه السلام إنّه قال: يسألني المؤمن حاجة فأسرع في قضائها خوفاً من أن يستغني فلا يجد لها إذ قضيتها موضعاً.

---

[1] أدهشه كدهشة: جعله مدهوشاً، والمدهوش: المتحير والذاهب العقل من ذهول ووله.
[2] احتشم عنه ومنه: انقبض عنه واستحيا.

وقال منه السلام: من أعطى مؤمن عند المسألة وبعد الشكوى إليه فقد أثم لأنه يجب عليه أن يفتقده[١] ويرعاه ولا يحوجه إلى إخلاق[٢] ديباجة وجهه وإراقة ماء محيّاه، فإن لم يحوجه إلى ذلك كان ممّن قال الله تعالى في حقّهم(مَثَلُ الَّذِين يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:٢٦١)

وقد روي عنه منه السلام إنه قال لإسحاق بن عمار الكوفي رضي الله عنه: كيف برك بإخوانك يا ابن عمّار؟.

فقال: أحسن برّ يا مولاي إذا جاءوني بررتهم وإذا سألوني أعطيتهم.

فقال منه السلام: ولا تبرّهم حتى يجيئوك، ولا تعطهم حتى يسألوك، أذللتهم أذلّك الله.

وروي عن المفضّل بن عمر إليه التسليم قال: كنت سائرا مع مولاي الصادق منه السلام وهو يريد الكوفة، وإذ اجتزنا ببستان وهو على شاطئ الفرات عليه دواليب عدّة تغرف الماء فجعلت أنظر إليها متعجّباً من حسنها. فقال لي مولاي: يا مفضّل لقد كان صاحب هذا البستان رجلا ضعيفا لا قدر له فاجتاز به وليٌّ من أولياء الله وقد كظّه[٣] العطش فاستسقى ماءً واستلذّ ببردها فدعا له فرزق هذا البستان، يا مفضّل فليخبئ الرجل المؤمن جوعته وعطشته إلى أخيه المؤمن فإنّ المخالف إذا قضى لكم حاجة يصير علويّا هاشميّاً لأجل خدمته لكم.

وعنه منه السلام إنّه قال لجابر: صل رحمك فربّ امرئ بقي من عمره ثلاثة وستّون سنة فيقطع رحمه فجعلها الله ثلاثا وثلاثين سنة، وربّ امرئ بقي من عمره ثلاثة وثلاثون سنة فيصل رحمه فيجعلها الله ثلاثا وستّين سنة.

قال جابر فقلت: يا مولاي فمن ليس له قرابة تمسّه قال يا جابر ليس هو كما ذهبت إنّما هي رحم الإيمان الذي يساوي بين العبد والمولى والوضيع والشريف والحرّ والعبد. وأنشد بعضهم شعراً:

---

[١] افتقده: طلبه عند غيبته.
[٢] إخلاق الديباجة: الإطلاع على دخيلة الأمر.
[٣] كظّه الأمر: كظاظا وكظاظة بهظه وكربه.

وإنّ لربّي صفوةً من عباده نفوس قلوبهم[2] في بحر حكمته تجري
وأبدانهم في الأرض سكرى بحبّه وأرواحهم في العزّ نحو العلا تسري
فما عرّسوا[1] إلاّ بذكر حبيبهم ولا عرّجوا[3] من مسّ بؤسٍ ولا عسرِ
تصافوا فدانوا واستقرّت قلوبهم بحيث يرون الغيب في الغيب كالجهرِ

وروي عن مولانا الصادق منه السلام: إنّه قال: إذا تواخا المؤمنان على معرفة منهما بأبويهما ظاهراً وباطناً لزم كل واحد منهما لأخيه المؤمن من الاعتراف بحقّه أن لا يبخل[4] أحدهما على صاحبه بما عنده من دينٍ ودنيا فمن كان بخلاف هذه العادة فلا ولاية بيننا وبينه، وكنت خصمه يوم القيامة وهو في الآخرة من الخاسرين.

المعنى: إن ما ذكر من تعظيم المؤمن وما للأخ على أخيه كله لا يحتاج الى تفسير، غير أن التفاضل في الإنفاق وأجره إنما هو بالتفاوت في حال المنفق، وحال

---

[1] التعريس: نزول المسافر ليلاً.
[2] القلوب جمع قلب، قال المكاشفون: إن للقلب سبعة أطوار. أولها وهو نور الإسلام وظلمة الكفر.
ثانيها: القلب وهو محل الإيمان (كتب في قلوبهم الإيمان).
ثالثها: الشغاف وهومحل المحبة الإلهية.
رابعها: الفؤاد وهو محل المشاهدة للأنوار الغيبية (ما كذب الفؤاد ما رأى).
خامسها: حبة القلب وهي محل المحبة الإلهية.
سادسها: سويداء القلب وهي محل المكاشفة والعلوم اللدنية.
سابعها: مهجة القلب وهي محل تجلي الله بأسمائه وصفاته وأفعاله.
[3] عرج الرجل: دخل في وقت الغيبوبة ومال، عن الشيء انصرف.
[4] البخل: معلومٌ ولكنه عند رسول الله (ص) هو عدم تأدية الزكاة المفروضة، وعدم إعطاء البائنة، ولو كان صاحبه يبذر فيما سوى ذلك، وقد يسمى المال المنفق بالبائنة لأنه كل ما ينسب إلى الإنسان حتى وجوده من شأنه البينونة والمفارقة عنه إلا وجه الله:

فإن تكنِ الأموال للترك كلها فما بال متروك به الحرُّ يبخل

والسخاء فريضة متوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط اللذين هما التبذير والتقتير، وللتقتير مراتب عديدة كما في كتب اللغة، وعندهم أنه لما كان ظاهرُ الإنسان من أقواله وأفعاله وأخلاقه وأحواله من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم، كان التمييز بين السخاء والتبذير والتقتير وبين مراتبها بحسب المعرفة في غاية الخفاء حتى على نفس الفاعل. فإن الإنفاق خيرٌ من الإمساك الحسن، وربُ إنفاق كان وبالاً على المنفق، ولما كان أصل ما ينسب الى الإنسان أنانيته، وعلة الإنفاقات وغايتها الإنفاق من الأنانية، وأصل جميع ما ينفق عليه الولاية بالتسليم لولي الأمر بقبول الدعوة الباطنة والظاهرة، فإن من أنفق من هذه الجهة ولو كان على غير طريق الفرض والندب والإباحة كان إنفاقه سخاءً، ومن تمسك كان إمساكه بخلاً، وإن أنفق كان إنفاقه تبذيراً، وإلا إذا كان في طلب الولاية فحينئذ لم يكن بخلاً ولا تبذيراً.

المنفق عليه بالولاية. ففي الخبر(إذا أحسن العبد عمله ضاعف الله له عمله في كل حسنة سبعمائة ضعف) وفي هذا الخبر دلالةٌ على أن المراد في قوله تعالى(مثل الذين ينفقون أموالهم) في أعم من الأعراض الدينوية والقوى والأعضاء البدنية، حيث أشهد فيها تضعيف الأجر الى سبعمائة في الله لا تكثير الضعف فوق السبعمائة ولا تقييد الضعف بمن يشاء. ورب محسن يجازيه الله بالإحسان الى عشرة الى سبعين الى سبعمائة الى سبعة الآف الى سبعين ألفاً الى ما لانهاية. ومعى الأبيات: أن لله صفوةً مختارةً من عبيده قلوبهم جاريةٌ في بحر معرفة دقائق صنعه من الأنوار المجردات الى الماديات المحسوسات، وهو الانتهاء الى أشرف الغايات، فما ضمهم ليلٌ إلا وآنسهم ذكر حبيبهم، ولم يتجانفوا عن صفاء محبتهم لمس بؤس أصابهم، ولا لعسر ألم بهم، فلذتهم بالله وحده، صفا بعضهم لبعض، وصفت قلوبهم لله، فأصبحوا مكشوفاً عن بصائرهم، بحيث يرون عالم الغيب كرؤيتهم عالم الشهادة. غير أني رأيت هذه الأبيات في (منهاج الراغبين) من قصيدة مطلعها:

حنين قلوب العاشقين الى الذكر   وتذكارهم عند المناجاة بالعسر
وأجسامهم في الأرض سكرى بحبه   وأرواحهم في نيل حجب العلا تسري

وبعد أربعة ابيات

فما غرسوا إلا بقرب حبيبهم   وما ضجروا من مس بؤس ولا ضير

اعلموا إخواني: إنّ الأنبياء والأوصياء[1] والأولياء هم أنوار الله في عالمه وأمناء الله في خلقه، وإنّ إخوانكم القائلين بمقالتكم المتحقّقين بإيمانكم محل إشراق أنوار الله في خلقه.

---

[1] الأوصياء لغةً جمع وصي وشرعاً من يقام لأجل الحفظ والتصرف في مال الرجل وأطفاله بعد الموت، والفرق بين الوصي والقيّم، أن الوصي يفوّضُ إليه الحفظ والتصرف، والقيم يفوض إليه الحفظ دون التصرف، والمراد هنا أوصياء الأنبياء كالأئمة المعصومين، وبين الشيعة والسنة خلاف كبيرٌ في استحقاق الخلافة. يورد أهل السنة أحاديث تثبت خلافة أبي بكر على زعمهم مثل (لا تجتمع أمتي على ضلال)، وهذا يدفعه حديث الغدير الذي ما أمكن إنكاره وآية الخيرة، وتوسلهم بصلاته بالأمة في حال حياته(ص) حُجةً عليهم لأنه (ص) أزاله عن مقامه بعد ما أفاق قبل إتمام صلاته وحديث (سيد كهول أهل الجنة) مدفوعٌ عقلا ونقلا، لأن أهل الجنة لا كهول بهم، فكلهم شبابٌ. وحديث(لو لم أبعث فيكم لبُعث عمر) يكذبه قوله(ص) في حق من تخلف عن جيش أسامة، وقول عمر إنه ليهجُرُ، ومواخاته لعلي ووصايتهُ إليه بإنجاز عداته وأداء ديونه. وأنت مني بمنزلة هارون من موسى وغير ذلك، وفرار الشيطان من عمر يكذبهُ فرار عمر من الزحف وآية (إنما

والشاهد بذلك قول السيّد الرسول منه السلام حكاية عن ربّه (ﷻ) إنّه قال: أنا الله لا إله إلاّ أنا لا يسعني شيء ووسعني قلب[١] عبدي المؤمن[٢]. ولله درّ القائل شعراً:

استَزَلَّهُمُ الشَّيطَانُ) (سورة آل عمران: ١٥٥) في الفارين، والحال أن مقدماتهم التي نظموها مختلةٌ، فإنما يقولون إن أبا بكر لم يكن معصوماً وكل من لم يكن معصوما يمكن أن يكون خليفة، وكل من يمكن أن يكون خليفة، وأجمعت الأمة على خلافته فهو خليفة. فأبو بكر خليفة. فنقول إن هذا الزعم باطل وفاسدٌ، لأن الرسول(ص) كانت له الرسالة والخلافة والإلهية وخلافته(ص) تقتضي أن يكون صاحبها كالإله معصوما من الخطإ حتى يكون خليفة بالمعنى الصحيح ناظرا في كل إلى مقامه وإلا لم يكن خليفة لله ولا لرسول الله (ص) وإن كان المراد بالخليفة السلطنة مع عدم العصمة فمُسلّمٌ، لكن الخلافة لا تسمى خلافة الله ولا خلافة رسوله لأن صاحبها ليس كالرسول واسطة بين الحق والخلق موصلاً كلا إلى غايته، فهو والحال هذه مُهلك للحرث والنسل، وهذا الذي اقتضى أمر النص، لأن العصمة ليست في ظاهر البشر. فمن لم يكن عليه نصّ لا يمكن أن يكون خليفة ولذلك قالت الصوفية، وكانت سلسلة إجازتهم منضبطة يدا بيد ونفسا بنفس الى العصوم، وإلا لم يجُز له أن يروي حديثا من أحاديث المعصومين، ولما كان (ص) مؤسسا للأحكام الشرعية جميعها آخذ للبيعة من الناس من هذه الجهة، وهو الإسلام، وكان مصلحا لأحوال الباطن آخذا للبيعة من هذه الجهة وهو الإيمان كان الخليفة له من هاتين الجهتين لعلي وأولاده، وإما خليفة له من هذه الجهة الأولى كالفقهاء بالأحكام الظاهرة، وإما خليفة له من الأخرى كالصوفية من الشيعة، والنزاع بين فقهاء الفريقين بالشرع وعلماء الباطن ناشئ عن الجهل بحقيقة الرسالة والغفلة عن كيفية النيابة.

[١] للقلب قوتان بإحداهما يتصرف في كثرات عالمه الصغير على وفق حكم العقل، وبالأخرى يتوجه الى العقل ويأخذ منه ما هو صلاحه بحسب نفسه ومقامه، فهو بهاتين القوتين كالمرآة له وجهان وجهٌ مضيئ ووجهٌ مظلمٌ، فبوجهه المظلم لا يرى إلا الماديات المظلمات، فإذا صُقل وجهه المضيء بالأنوار الإلهية انطبع فيه ما يقابله من عوالم الغيبية فيرى الآخرة أقرب من أن يرحل إليها، إذ هي الرحلة إليه، ورأى محاسن الدنيا متجلية بظهور ظلمة فنائها، فصار ما كان ظاهرا من الماديات باطنا لأنها رجعت بعينه الى ظلمة فنائها، وما كان باطنا من العوالم النورية الغيبية ظاهرا، وهكذا ما كان كثيفا صار لطيفا، وما كان لطيفا صار كثيفا، وما كان غيبا صار شهادة وما كان شهادة صار غيبا، فعند ذلك يكون القلب وسع حضرة الحق لأنه وسع كل شيء، والأشياء مظاهر صفات الله وأسمائه وليست أسماؤه وصفاته غيره ثبتنا الله.

[٢] إذا وفق الإنسان لطلب النجاة عن طريق الهادي دله المنذر الى الهادي، بقوله مثلاً (من كنت مولاه فعلي مولاه) فيؤخذ عليه العهد بالمبايعة القلبية بعد المبايعة القالبية بعقد اليد باليد، ثم يسير على الطريق فهو من ميوله وأهوائه بين غيلان وقطاع طريق، فيدافع بسلاح المنذر والهادي فينجو، فيصل الى الطريق الذي هو عليّ مثلا ويكون قد فنيَ عن نسبة الأفعال من علي، ويسمى هذا الفناء بالفناء الفعلي، فإذا ارتفع حتى يرى الصفات جميعها من علي صارت الأثنينية بينه وبين علي ضعيفة، ويُسمى (إذا وصلوا اتصلوا)، فلا يكون فرق بينه وبين حبيبه ويسمى بالفناء الذاتي، وتسمى هذه الفناءات بالمحو والمحق والطمس، وهذا هو معنى قولهم (إن السالك في أول سيره يُسمى سائرا الى الطريق لا الى الله)، وإذا كان سيرا الى الله يسمى سفرا من الخلق الى الحق، يعني الاستدلال من المكونات على المكون، وإذا وصل الى الطريق يصير سالكا الى الله، ويسمى هذا السفر من الحق بالحق الى الحق، وهو السير بالفيوضات والإشراقات، وإذا فنيَ عن أفعاله وصفاته يسمى هذا السفر بالحق في الحق، وبهذا السير تتم له العبودية والفناء، ولا يبقى منه ذاتٌ ولا أثرٌ ويصير وصاله اتصالاً وينتقل بعد ذلك من عبوديته الى الربوبية. قال الأمير:

لا غير من غيره لي إله إذ ما لموجود وجودٌ سواه

فعين ذاتك[1] عين الله فيك ترى نموذج الأمر فافهم أيّها اللاهي

ونور عقلك عَينُ العينِ تُظهِرُ ما حملَتهُ عجباً من قدرة الله

فأنتم أيها المؤمنون القائمون مقام أنوار الله وإن ضعفت قواكم عن ذلك ونزلت درجاتكم عن درجاتهم.

المعنى: يقول إن الأنبياء دعاة الله وسفراؤه في خلقه، وأوصيائهم المبينون أسرار دعوتهم والأولياء –(وهم الذين ظهروا مع الرسول من عالم النور) هم أنوار الله المشرقة في خلقه، ومحل إشراق هذه الأنوار المؤمنون المهتدون بهم، وقلوب المؤمنين محل لتجلي الله سبحانه مع أنه ضاق عنه السماوات والأرض، وذلك أن الله جعل الإنسان بين مُلك وملكوت ليُعَرِّفَهُ جلالة قدره، قال سبحانه(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (الآية ٧٠ من سورة الإسراء) فالإنسان جوهرة نفيسة مصونة في صدف نفيس، وهو الكون بأسره، وعلى هذه الجوهرة تُطوى أصداف مكوناته من عرشه إلى فرشه تُقلُّهُ الأرض وتُظله السماء، والجهات تكتنفه والحيوانات تخدمه، والأفلاك دائرةٌ به والشمس والقمر ميزانٌ لما هو فيه، فهو جوهرة الصدف ولباب الكون، وسعه الكون من حيث جسمانيته، ولم يسعه من حيث روحانيته، لأن روحه متصلةٌ بعالم الجبروت المحيط، فلما انحصرت في الهيكل لزمتها القهرية فانحجبت بالحكمة، وتقيدت بالقدرة، فما دامت مقيدة بالشهوات والعوائد فهي محجوبة، فإذا تلطفت بالإقبال على الله، انخرق عنها الجهات، واتصلت ببحرها الذي هو عالم الجبروت، فصار الملك والملكوت في طي قبضتها فلم يسعها حينئذ أرض ولا سماء، ولا يحصرها عرشٌ ولا فرشٌ، ولذلك قيل (الصوفي لا تقله الأرض ولا تظله السماء)، فمتى كان العبد المؤمن هكذا فقد وسع قلبه الله، فهو عين الله بفنائه التام الذي هو البقاء بالله، وهذه هي الوحدة الجامعة، وإذا رجع المؤمن الى نفسه متعرفاً على ما فيها من مخزونات الأسرار ومؤهلات الترقي، أعطته الأنموذج الصادق عن كل شيء، ونورُ عقل المؤمن الفاني في الله من قدرة الله، وحيث تكون القدرة فهناك القادر، والقدرة لا

---

[1] عين الذات ذات العين.

تفارق القادر، قال بعضهم: إن العرش هو العالم الكبير وهو محل استواء الرحمن، والإنسان هوالعالم الصغير وهو محل استواء الكبير، وتأمل كيف صغّر الكبير وكبر الصغير، وكلٌ في مرتبته، إذا عرفت هذا عرفت قوله: وسعني قلب عبدي المؤمن، ومتى كان المؤمن هكذا قام مقام أنوار الله، وإن ضعُفت قوته عن ذلك وأظن أن أبيات الأمير:

دَورُ الوجود لعيني — بكوره قد تسلسل
كما لآخر آن — تاليه يُصبحُ أول
وذا مثال قريبٌ — عنه البعيد مغفل

لا تضيق عن هذا المعنى مع احتمالها ما شرحت به، لا بل هذا أرفع وأبلغ ويجمع كل هذه المعني قوله:

وأصبح السائب عن كل محروز — من الأكوان في حرزي

ومما يجب للمؤمن من الحقوق على أخيه المْؤمن أن لا ينظر إلى حرمه بعين الخيانة، فإن العمى مكتسب من عقابه، ولا يغتابه[1](١) ولا يذكره بسوء ولا يعيبه بما يشينه، فإنّ الخرس من عقابه والبرص[2](٢) من إظهار معائبه.

[1] اغتابه اغتياباً عابه وذكره بما يكره من العيوب وهو حقّ. وعندهم أن الغيبة أن تُظهر بلسانك أو بسائر جوارحك بالتصريح أو بالكتابة والتلويح عيبا للمؤمن قد ستره الله. وأما العيوب التي لم تكن به، فنسبتها إليه بهتانٌ أو أشدُ من الغيبة عن الصادق (ع) (الغيبة أن يقول لأخيك في دينه ما لم يفعل، وتثبت عليه أمرا قد ستره الله لم يقم عليه فيه حدّ)، وفي خبر (قولوا بالفاسق بما فيه كي يحذره الناس)، وقالوا عن الغيبة أنها أشد من الزنا، لأن الزاني يتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يُغفرْ له إلا أن يغفر صاحبه. وقال بعض أهل المعرفة: غير المؤمن حكمُهُ حكم الأنعام، فإن منتحل الإسلام كمنتحِلِ التهود والتنصر وتمثيل الغيبة بأكل لحم الميتة بقوله تعالى(أيُحِبُّ أحَدُكَمْ أنْ يَأكل لحْمَ أخِيهِ مَيْتاً فكرِهتمُوهُ) (الآية ١٢ من سورة الحجرات) هو أن الأسماء قوالب للمسميات لا تتحصر بشكل من الأشكال، فمن ذكر مؤمنا بسوء لا يكون ذلك منه إلا بتخلية لطيفة إيمانه، فذكر المؤمن على لسانه وسماعه بسمعه بمنزلة لحمه الخالي من الروح الممضوغ بفمه والداخل بجوفه من طريق سمعه كدخوله بجوفه من طريق حلقه، ولذلك ورد أن السامع الغيبة شريك المغتاب.

[2] البرص: بياض يظهر في الجسد لفساد مزاج، والذي قد ابيض من الدابة من أثر العضّ.

وينبغي لكم إخواني وفّقكم الله أن تعتمدوا ذلك مع غير المؤمن أيضاً، خشية من مؤمنٍ مستور ومحجوب بالتقيّة، فإن وجد الخطأ لزم العقاب، فأما الخطأ فهو من التعرّض إلى حرم[1](٣) المؤمنين، واحذروا من التحيّف في معاملتهم والظلم والاغتنام والاحتشام.

وقد روي عن علي بن يقطين إنه قال: دخلت على مولاي الحسن بن علي العسكري منه السلام فقال: يا علي أبشّرك بشارةً تهنأ بها.

فقلت: حسنت بشارتك.

فقال: يا علي محافظة الإخوان كفّارة من عمل الشيطان[2](٤)، يا علي إضمن لي خصلة أضمن لك أربع خصال.

فقلت: يا مولاي وما هي الخصلة[3](٥) التي أضمنها لك وما الأربع التي تضمنها لي؟

فقال: يا علي لا تتعدّى على وليٍّ من أوليائي أكفيك حرّ الحديد وبرده ومرارة الفقر[4] وضيق السجن[5] وأمنحك بعد ذلك الجنّة.

فقلت: يا مولاي من وليّك.

---

[1] الحُرَمُ مُحركةً ما لا يُحلُّ انتهاكه.

[2] الشيطان: روحٌ خبيثٌ متمردٌ وهو لا يرى، ولكنه يُدرك بأنه أقبح المخلوقات، ويُضرب به المثل في الخبث والعدوان، وكل عاتٍ متمرد من أنس وجن ودابة، وفعل المرء وقوله إذا لم يكن تحت تصرف الرحمن كان تحت تصرف الشيطان ولسانه لسان الشيطان، وكلامه كلام الشيطان، وإذا خرج من تحت تصرف الشيطان كان كلامه كلام الرحمن ولسانه لسان الرحمن، والإنسان ما لم يخرج من دار الكثرة ويرى الأفعال من العباد دون الله كالمعتزلة، فحكمه الفرار من الشيطان وإضلاله، وإذا خرج من دار الكثرة ودخل في دار توحيد الأفعال لا يرى الأفعال إلا من الله، وإذا دخل دار توحيد الصفات لا يرى صفة إلا من الله في صفاته القهرية التي تظهر في مظاهر لطفه. وإذا دخل دار توحيد الذات لا يرى في الوجود ذاتاً سوى ذات الله، وهو مقام الفناء الذاتي كما كان المقامان السابقان مقام الفناء الفعلي والصفاتي.

[3] الخصلة الفضيلة. والفرق بينها وبين الخلة أنها لا تكون إلا بالخير والخلة في الخير والشر.

[4] الفقر نقيض الغنى، وعندهم هو الاستغناء عما سواه، فإذا غلب على السالك أوصاف نفسه فهو الفقير الى الله وإذا غلب عليه أوصاف الله فهو الغني بالله وهما يتعاقبان على العارف فإذا ظهر عليه الغنى بالله ظهرت عليه آثار العناية، وإذا ظهر عليه الفقر الى الله التزم الرعاية؛ فحين غلب عليه(ص) الغنى أطعم ألفاً من صاع وحين غلب عليه الفقر شد الحجر على بطنه من الجوع.

[5] السجن: الحبس وعندهم هو انحباس الروح في قفص البدن، والإخراج من السجن هو تغلب الروحانية على البشرية بمجاهدة النفس.

فقال: اخٌ من إخوانكم متحقق بإيمانكم.

فقلت: يا مولاي وإن نقص من هذه الخصال شيئاً ورأيته قائلاً بهذا المقال ما يجب له عليّ.

قال: يجب عليك أن لا تحوجه إلى عدوّه وأن تحفظ حرمته وتستر عورته[١] وتسدّ جوعته وتنظر نلّته وتعود مرضته وتشيّع جنازته وتتركه على حالته فذنوبه أوبقته[٢] فإن كان حرم التوفيق في ذنب قد تقدّم فلن تحرم أنت الثواب من معاملته بحسب نيّتك وإن كان ما عرفه حجّةً عليه فأنت مأجورٌ بإحسانك أليه.

قلتُ:فتكون معرفته حُجّةً عليه وقد أقرّ بالتوحيد.

قال نعم بإقراره ثبتت عليه الحجّة.

قلتُ: فما الدليل على جحوده[٣] بعد إقراره بالمعرفة قال قوله تعالى(ليهلك من هلك عنْ بيّنةٍ ويحيى منْ حيّ عنْ بيّنةٍ) (الأنفال: من الآية٤٢)، فإذا علم الطالب ما نكرناه من الآداب وعمل به، ودرسه، وحفظه، ووعاه قلبه، وفكّر في معانيه بلبّه، صار طبعاً نلك وصار مستعداً لإشراق نور الله في سرّه، مستحقاً لمعرفة ربه، ووجب عليه ان يجاهد نفسه ويلازم درسه، فقد قيل: من طلب وجدّ وجد ومن قرع الباب ولجّ ولج، ولم يبقى عليه إلاّ الكتمان وستر سرّه وأمره.

وقال أبو الخطّاب في تلبيته: يا مظهر جواهر الأنوار البسيطة المستضيئة بضياء نورك الشعشعاني[٤] الذي أكملت في الحدث[٥] ظهورها، فاستضاء جميع خلقك

---

[١] العورة: كل ما يستحيا منه.
[٢] أوبقته: أهلكته.
[٣] الجحود: الإنكار مع العلم.
[٤] الشعشعاني: الطويل، والشعشعان: الحسن.
[٥] الحدث: ضد القدم. ومعرفة الحدث والقدم أن تعلم أن العوالم لم ينحصر عدد مراتبها، وقد فصلها بعضهم إلى أربعة عوالم، وعبر عنها بالجبروت، وهو الذات المقدسة، وبالملكوت وهو صفات الذات الجسمية، وبالغيب وهو المحدثات النورية الغائبة عن الحس، وبالشهادة وهو عالم المرئيات. فالملك الجبار منفردٌ بالجبروت لأنه يُجري الأمور مجاري أحكامه، وبالملكوت لأنه يتصرف بالخلق على سبيل الاستعلاء، وله على كل شيء جبروت، لترفعه بالذات على كل شيء، وبالملكوت لتصرّفه بصفته في كل حي وميت، وصفاته وسائط التصرف، وروابط التألف بين أسمائه وأفعاله: كاللطف والقهر المتوسطين بين اللطيف والملطوف به، والقهر والمقهور. وبين كل مربوب وربه سنة مخصوصة هي ملكوته الذي بيد الملك الجبار، ولما كان الإسم في الحقيقة هو الذات المتسمة

بنورها، ونجى المتأدّب بآدابها التابع لأسبابها، وهلك الجاحد لها باجترائه عليها، فاعلموا أخواني رحمكم الله أنّ معرفة الآداب هي حبل الاتصال.

وفقّنا الله وأيّاكم لمرضاته إنّه هو الموفق لحسن الآداب وَالملهم لمن عرف الصواب.

خلاصةُ المقدمة الأولى

المبايعون ليكونوا خلفاء الله بتأدية أوامره ونواهيه أربعةٌ:

الرسل والأئمة والمشايخ والسلاطين، من لحق منهم بالمشايخ لا غيرْ والمبايع على الحقيقة الله رب العالمين. لأن كل داع الى البيعة إذا خرج من أنانيته وبقي بأنانية الله سبحانه كان الداعي للبيعة هو الله. فالرسول والأئمة معصومون والمشايخ

بصفة ما كان موقع الأسماء ومستقرها عالم الجبروت. ووجود هذا العالم فيما تحته من العوالم ليس إلا بطريق التنزلات،

- فتنزل أولا الى عالم الملكوت من جهة اتصافه بالصفات،
- وثانيا الى عالم الغيب من جهة إبداعه الروحانيات،
- وثالثا الى عالم الشهادة من جهة تكوينها الجسمانيات وتكوينها.

وعندما ترجع الى سلسلة التكوين بفيوضات النور كما ذكره السيد أبي عبد الله تعلم ما ذُكر هنا. إلا أن هنا رأيا صوفيا يرمي الى الجمع والفرق، فالأنوار أشعة النور الأول وليس النور غير المنير من جهة وهو غيره من جهة. ويسمون تلك المراتب أسماءً لله وصفات وأفعالا له. ولعلك عرفت بعد هذا التمهيد أن جواهر النوار البسيطة هم عالم العقول والنفوس اللذين كوّن منهما عالم النور البسيط، وإن كمالها بظهورها في المحدث وهو أنه لولا ظهورها بالمحدث المحسوس لما رُئيت ولا عُرفت ولم ينتفع بها، كما قالوا عن الوجود: لو لم يُخلق غيبا وشهادة ومحسوسا ومعقولا لما كمُلت تقاسيم الوجود، ولولا ظهور القديم بالمحدث لما استضاء المحدث بالنور ونجا المتأدب بآدابه الخ... كل ما ذكر قدسه الله من احترام المؤمن وتعظيمه وحرقة اغتيابه والنظر الى حرمه وغير ذلك؛ مفهومٌ واضحٌ. وقد تعلم معنى دعاء أبي الخطاب من قول المؤلف قدسه الله (أن الأنبياء والأوصياء والأولياء هم أنوار الله في خلقه ومحل إشراق هذا النور المؤمنون). ومما تقدم من تنزُّل الوجود وتقسيم العوالم فيكون معنى قول أبي الخطاب: يا مُظهر جواهر الأنوار البسيطة (العقول والنفوس) بإمداد نورك المستطيل مُنزّلة في مراتب الوجود الى أن كمُل ظهورها بالموجود المحسوس من مظاهر الأوصياء والأنبياء، ظاهرة بعقول المؤمنين التي هي محل لتجلي أنوار الله جل جلاله. أو ظاهرة للبشر كالبشر فاستضاء جميع خلقك المؤمنين والكافرين والحيُّ والأموات بنورها، ونجا منهم المتأدب بآدابها الشرعية التابع لأسبابها اللاهوتية، وهلك الجاحد لها باجترائه على تركها، فمعرفة الآداب هي حبل الاتصال بالله وفقنا الله لحسن الآداب والتعلق بأكمل الأسباب وأحسن من تكلم عن تصوير المجرد جلال الدين. قال الأمير:

معنى القديم بالحديث مُشهدٌ	لناظرٍ مغيبٌ عن الفكر
فمنه ما عنه غدوت سامعا	والعين أغنتني به عن الأثر

محفوظون. والسلاطين من لحق منهم بالمشايخ كان محفوظاً. وإلا كان مخـذولاً ولا يبايع، والفرق بين المعصوم والمحفوظ أن المعصوم لا ينوي الشر ولا يصدر عنه، والمحفوظ ينوي فعل الشر ولا يُيسرُ لفعله ومن نكث من الأتباع المبـايعين حسبُهُ جهنم ولا ينظر الله إليه يوم القيامة، وحظه في الدنيا السلوك في مراتـب المسـخ، فالسعيد من وُعظ بغيره والشقي من وُعظ بنفسه حتى وعظه بغيره. فالسباق الى النهج القويم والصراط المستقيم، ولا يغرنكم من تجلت له المشاهد الغيبيـة مـع مناوأته لأمر الله لاتصاله بعالم الأرواح الخبيثة، فهو مكرٌ به واستدراجٌ كالمتصـوفة الظاهرية، ونعوذ بالله من مرض الغرور، وهو الحُمقُ الذي أعيا الجميع علاجـه إلا نادراً، وقد يرى المغتر بنعيم الدنيا أنه يموت له عدوٌ فيظن أنه من كرامته على الله، أو لا يعلم هذا المسكين أن الله يزوي الدنيا عن محبه رأفة به، وأيضاً يعطي الـدنيا من يُحبُ ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا لمن أحب، فمن زاد وجله وشكره على نعم الله عند حصولها فهو حبيب الله، وإلا فهو بغيضه، وإذا أملى الله لهذا البغـيض فمكرٌ به واستدراجٌ ولا يكون الاستدراج إلا بالآيات البينات، فلندع تفصيل طبقـات العالم وأصنافهم، فكل من اعتز بغير الله صُد عن الدخول الى حضرة الله إذ ما سوى الله باطلٌ، فالاغترار بما سوى الله خسرانٌ، وما أحدثه المتقمصون بثـوب الإيمـان المتشبهون بأهل العرفان لا يليق إلا بالملاحدة وإلا لكانت أمورهم جملـةً وتفصـيلا تشبه أمور المؤمنين لا أمور الملاحدة الذين لا يعتقدون أنهم يُجمعون بيـوم الجمـع والفصل وما هو بالهزل، فبالله أنصفوني بالكلام وأعينوني بالأفهام، أليس نحن على النهج الواضح، ورائدنا الى الله ناصحٌ، فحتام غفلتنا، وعلام سكرتنا، ألم يأن للـذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق.

فنحن معاشر المؤمنين أحق بالانقياد وأولى بالطلعة يستودع أحـدكم الطالـب سر الله وأمانته بلا رياضة ولا إيناس استخفافاً بسر الله وتهاوناً به، ظناً من حضرة هذا المستودع أنه أحيا طالبه بعد الممات، وخلصه من الآفات، وليس – الله– الأمـر كذلك بل ألقاه في شبكة الشك وقربه من الإفك، فلقد ضل بذلك وأضل إن لم يفقهـه في الدين ويستدرك أمره ليكون من الموقنين، فالواجب على من نصب نفسه للتفقيـه أن يعتبر هدى الطالبين وصفاتهم بما في(مجموع أبي سعيد)، فإن رآهم سالمين مما يمنع من تقريبهم، وإلا فلا فسحة له في ذلك أياً كان الطالب، فإن فعل فقد عانـد الله

وخالفه وندَّ به، فيستوجب النكال حتى يُردد في قوالب المسوخية، وإن وجده أهلاً لإيداع سر الله علمه أولاً آداب الشريعة التي هي الطريق إلى معرفة الله وأهل العصمة، فهذا الطريق أجل الطرق، والدال عليه أفضل الأدلة، والسالك إليه أسعد السالكين، وعلى الطالب تعظيم سيده لأنه مخلصه من رق عبوديته ودنس مسوخيته فلا يخالف له أمراً ولا يفشي له سراً الخ. وعليه لبس التقية عند الجاحدين وإطاعة المؤمنين وأن يصون السر ويُدمن الذكر وألا يهتك للمؤمنين حرماً ولا يستحل محرماً، وأن يجعل صدقته لسؤالهم ورأفته لأطفالهم، وأن يرى حُرمهم حرمه، فالعمى مكتسبٌ من النظر الى محارمهم، والفقر من الشح عليهم، فمن أخذ هذا العلم بالقبول فتح الله عليه حتى يعود فقيهاً ويتضح حينئذ له دليل البرهان ونور الإيمان، ويصبح من الذين جاهدوا في الله فهداهم الله، ومن أنكره صرفه الله عنه، وأبعده منه، والآباءُ ثلاثةٌ: أبٌ ولدك، وأبٌ رباك، وأبٌ علمك. وخيرهم من علمك وأفاض عليك معرفة الله، فمن لايولد ولادتين لا يلج ملكوت السماء.

ومن جملة الآداب، رفض القياس فهو الذي أوجب تشعب الآراء وتفرق الأهواء، وأول من قاس إبليس اللعين فطُرد من جنة الله. ولبعد المعرفة عن طريق القياس حصل التعجب من سالكها ولوضوح أمرها حصل التعجب من تاركها. فإن من الله على الطالب وتلقى ما أُلقي إليه بالقبول وستره عن الإذاعة لغير أهله، كان صائماً أبداً -أي صامتاً-، ومن جملة الآداب التخلق بأخلاق المؤمنين من الصمت وترك الهوى، والتقمص بالتقية والتقوى، وحسن الأخلاق، ومحافظة الإخوان، وصدق اللسان، والتحصن بدرع الشريعة والإقبال على الدين بالقلب والفكر والعقل وكتم أسراره والمواظبة على شروطه وأوضاعه وتدقيق السؤال وتحسين المقال ويعلمُ أن تحت ما علمَهُ دقائق في ضمنها حقائق، فتفتح له أبواب السعادات وليحذر من رد ما لم يفهمه بل يرده الى ولي أمره وليتجنب المراء والرئاء والحسد والكبرياء، فإنه فعل ابليس وإياه والخداع والكذب فهو حيض الرجال.

ومن الآداب حفظ التقية وصيانة الدين فهو الجهاد الحقيقي، وقد فرضها الله من يوم قتل قابيل هابيل، وحيث عرفت هذه الأعمال الظاهرة فلنمل عليك معرفة باطنها. فالصلاة الباطنة عماد الدين ومعراج المؤمن، فمن أتى بها كما ينبغي فقد خلص من قمص بشريته ورجع الى نورانيته التي منها بدا. والطهارة الباطنة عبارة

عن ترك الدنيا بمحسوساتها، والآخرة بمجرداتها، والإقبال على الله لا لأجلهما، لأن الصلاة الباطنة عبارةٌ عن تعلق الروح بالحضرة الإلهية، فمن تعلق بغير الله ولو كان مؤمناً بالله لم يقدر على الإتصال بالله، والقبلة الباطنة الإقبال على الله في سائر مراتب السلوك وفي تدرج الروح والعقل والسر، فمن لم يُقبل على الله بالكلية ويدبر عما سواه بالكلية لا يتصل بالله والمؤمن بشيء سوى الله لا يتصل بحضرة الله، فلم تهو الله سبحانه ما لم تفن عن فعلك وصفتك وذاتك، وتعلم أنها لله سبحانه لا لك، فتصبح في دار توحيد الأفعال والصفات والذوات، ولم تفن هذا الفناء ما لم تظهر فيك صورة الله جل جلاله بتقربك إليه حتى يحبك فيكون سمعك وبصرك، ويدك ومؤيدك. والزكاة الباطنة أن تزكي نفسك بالبراءة من غير ولي الله. والصوم الباطن الإمساك عما سوى الله. والحج مشاهدة تجليه سبحانه، فمن اعتقد الظاهر فقط فهو حشويّ لأنه جسم المعاني الغيبية المجردات، ومن تمسك بالباطن الصرف فهو ملحدٌ لأنه أحال على عدم، ومن جمع بينهما كان الموحد العارف، فتفتح له بركات السماء والأرض فيأكل من فوقه إفاضات العلوم الإلهية ومن تحت رجليه الأوامر الشرعية، وهما العلم الدني الباطن والعلم الكوني الكسبي الظاهر، والكامل من أكل من فوقه تجليات وإشراقات لا من النفس ولا من العقل قال تعالى(فاتقوا الله ويعلمكم الله)، أي بذاته لا بالوسائط. فمن نسب صور الكمال الصادرة عنه لله سبحانه وصور النقص لنفسه يجعل له فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، وهذا كله عبارةٌ عن حفظ التقية.

ومن الآداب اللازمة كتم الأسرار لأن إفشاء سر الربوبية كفرٌ (لا تعطوا الحكمة لغر أهلها فتضيعوها ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم) فليس كل سر يكشف ويفشى، ولا كل حقيقة تُعرض وتجلى، ولا كل ما كان موجوداً فهو نصيب لكل أحد، ولا كل ما يُقدر على رؤيته يُعلم كنهه، ولا كل ما يعلم كنهه يجوز قوله، ولا كل ما يجوز قوله تجوز كتابته. لأنه إذا كانت الرؤية بالعين والنظر فالعلم يكون بالخبر والأثر، وإن كان القول بالتصريح فالكتابة بالتعريض والتلويح، فللحكماء التعريض مع قوم والتصريح مع آخرين، وقد منعوا إفشاء الأسرار لاختلاف الحقائق بمظاهرها واختلاف الأمزجة بقبولها، وربما أصاب من كتم الحق عن أهله خشية سطوة الغي والجهل، فلا يتوهم القارئ هذه الأخبار المشروعة المتبوعة، أنه بتركها أصاب الصواب ودخل بيت الحكمة من الباب، لا والذي عنده علم الكتاب لا بل أشبه

بفعله الحيوان وترك التشبه بملائكة الرحمن، ومن عدل عن سنن الموالي ولم يعمل بها عدل عن الصواب ودخل بيت من غير الباب، وكذلك من يدعي الإيمان ولم يعمل بشروطه المشرفة للإنسان من إقامة الشرع ظاهراً والمحافظة على حقوق الإخوان بحسب الإمكان على أي شيء حصل، وبأي حبل من الله اتصل، إذ من الشروط الواجبة أن يفضل المؤمن أخاه المؤمن، ولا يُسلم قياده لكل مدع إلا بعد ثبوت الأبوة، فربما كان سارقاً فيشتركان في الإثم، وإنما تصح الأخوة إذ ثبتت الأبوة، وشرط الأخوة أن لا ترد على أخيك كلامه ولا تحتشمه ولا تغتنمه، ولا تظن أن لك شيئاً دونه، ولا تأخذه بسيئة كانت منه أو معنى جهله، وإلا لم تسكن بجوار الله ولم ينظر إليك برحمته، فلله سبحانه صفوةٌ مختارةٌ من عبيده قلوبهم جاريةٌ في بحر حكمته من الأنوار المجردات إلى الماديات المحسوسات إن هم ذكر حبيبهم، لم يثنهم عن صفاء محبته مس بؤس، ولا ألم عسر، فلذتهم بالله وحده صفا بعضهم لبعض وصفت قلوبهم فكشف عن بصائرهم فرأوا عالم الغيب عياناً كعالم الشهادة. والأنبياء والأوصياء والأولياء أنوار الله في عالمه وأمناؤه في خلقه والمؤمنون محل إشراق هذه الأنوار(لا يسعني شيءٌ ووسعني قلب عبدي المؤمن)، فإذا تبصرت أيها العبد الفاني بالله، ترى أنك بتجردك عن أعراضك وغلبة وجوبك عليها أنه لا وجود لك فوجودك وجود الله سبحانه ونور عقلك الذي تمتد منه هو ذات الذات التي أظهرت لك ما أودع فيك من عجائب صنع الله. فإذا علم الطالب ما ذُكر من الآداب وعمل به ودرسه وفكر في معانيه صار مستعداً لإشراق أنوار الله (فمن جد وجد ومن قرع الباب ولجّ ولج) قال أبو الخطاب (يا مظهر الأنوار المجردة المستضيئة بما استمدته من نورك بالمحدث المحسوس فأكمل به ظهورها لأنها لو لم تظهر محسوسةً لما عُرفت واستضاء جميع الخلق بنورها في المظاهر النبوية ونجا المتأدب بآدابها الشرعية وهلك الجاحد لها باجترائه عليها. تمت المقدمة الأولى وخلاصتها.

قواعد البيت الإلهي الأربع

في بيان سرّ حصر هذه القواعد الأربع في عداد الأربع بين سائر الأعداد لاأقلّ ولا أكثر أعلموا أخواني حباكم الله فنونِ المعارف وجزيل العوارف[1] في

مطالع الأنوار لمّا كانت قواعد البيت الإلهي الكوني مبنيّة على أركان أربع صارت قواعد[1] هذا البيت الْمكرّم والحرم الْمعظّم مؤسسة على معارف أربع:

- أولها معرفة إثبات وجود الْمعنى القديم وظهوره بذاته لخلقه كخلقه.
- وثانيها سبب وجوب معرفة الاسم القديم على خلقه.
- وثالثها معرفة السبب الْموصل إلى معرفة الْمعنى القديم.
- ورابعها معرفة حقيقة الإيمان وصورته وروحه ومقاماته ودرجاته ومراتبه وشروطه وما يجب على الْمؤمنين من أداء حقوق بعضهم بعضاً وإنما قلنا إنّ البيت الإلهي وهو اليقين[2] الثاني الذي هو

---

[1] القواعد: جمع قاعدة: ركن البيت وأساسه وزواياه، فقواعد البيت الإلهي الكوني هي: الحياة والعلم والإرادة والقدرة التي بها التكوين كما سيأتي، وقواعد البيت الشعيبي فصلها المؤلف وسيأتي الكلام عنها مفصلا وهي كل الكتاب، ولهم في البيت المحجوج وأسراره كلامٌ نحب أن نجمله لك وهو أن البيت الحقيقي لله وهو القلب في العالم الصغير(وهو الإنسان) وصاحب القلب في العالم الكبير(عالم الغيب) والبيت الذي بناه ابراهيم صورة هذا البيت، ولذا سُمي بيت الله. ويجمع هذا البيت من مناسك ومواقف وشهر حرام وحرم وغير ذلك من جميع المناسك المخصوصة بالبيت الحرام، وهو أول بيت وُضع للناس وأنت تعلم أن الإنسان جامع الجموعات من العرش الى الفرش كما سيجيء ولا يبعد حينئذ أن يكون القلب هو البيت المعمور والسقف المرفوع.

[2] اليقين الثاني هو عينُ اليقين فمراتب اليقين أربعة: علمُ اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وحقيقة حق اليقين. وهذه المراتب الأربع عبارةٌ عن تجلي الله سبحانه للسالك. فالسالك الذي استشعر بالنور وأدرك الشعاع ولم يدرك النور وهذا هو مقام الإيمان هو في رتبة علم اليقين. فإذا صحت بصيرته ورأى النور محيطاً به فهو في رتبة عين اليقين وهو مقام الإحسان. وهو مقام الإحسان. وإذا أدركت بصيرتهُ الحق وغابت عن نور الفروع بنور الأصول فهو في رتبة حق اليقين. وحقيقة حق اليقين قل من ذكرها غير المؤلف والمكزون والفارض؛ غير أني رأيت في كتاب (جامع السعادات) بعد شرحه مراتب اليقين الثلاث قال: ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك يعبرون عنها: بحقيقة حق اليقين. والفناء في الله وهو أن يرى السالك ذاته محترقاً في أنوار الله. وقال بعضهم: علم اليقين حال التفرقة، وعين اليقين حال الجمع، وحق اليقين جمع الجمع فعلى هذا يكون علم اليقين عقداً ذهنياً موافقاً بلا اضطراب وعين اليقين مشاهدةً بلا حجاب وحق اليقين اتحادا بلا اقتراب. وقيل مراتب اليقين: اسمٌ ورسمٌ وعينٌ وحق وحقيقة؛ فالإسم والرسم للعوام وعين اليقين للأولياء، وعين اليقين للأنبياء، وحقيقة حق اليقين لنبيّنا (ص) فتكون هذه المراتب هي الأسماء الذاتية الأربعة: الحياة والعلم والإرادة والقدرة، ولم تجتمع لأحد من الأنبياء إلا لمحمد(ص) فعلم اليقين هي مرتبة من علم أن له خالقا خلقه، وعين اليقين مرتبة من رآه بعينه متجلياً له، فلذلك كان اليقين الثاني هو المرتبة الإلهية أي تجلي الاسم الخالق بعينه، كما سيأتي من أن الأسماء هي الفاعلة للمكونات.

مرتبة الإلهية[١] التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة ولها ثلاث لوازم وهي تتمّاتٌ وشروط في ظهور تمام أحكامه[٢] وآثاره[٣] وهي القول والجود والأقساط[٤]

فإنّ التأثير إنما يصدر عن حيٍّ يعلم شيئاً في نفسه وأراد ظهوره وكان قادراً على ذلك فحينئذٍ يكون بعلمه وإرادته كالآمر نفسه بأن يظهره فأظهره فيكون القول صورة الأمر لشيءٍ يعلم فيراد إيجاده ففي إيجاده الأرواح الكليّة[٥](٤) كان القول

---

[١] الإلهية نسبة الى الإله والإله مأخوذ من أله إلهةً وألوهةً: عُبد، وقيل من لاه الله الخلق يلوه بمعنى خلقهم. وقيل من لاه يليه بمعنى تستر، وقيل... وقيل، وإنما سُمي اليقين الثاني الذي هو عين اليقين بالمرتبة الإلهية لأن الحق الأول مسمىً بالله باعتبار احتواء هذا الاسم على جميع الأسماء التي تحتوي جميع المفاعيل كالخالق والرازق وما أشبه، ومسمى بالرحمن باعتبار إظهاره للكثرات من الأسماء والصفات اللواتي هن الفاعلات في المكونات. ومشيئته سبحانه التي هي فعلهُ مظهرٌ لله باعتبار انطواء كثرات الأسماء فيه كما ذكر ومظهر للأسم الرحمن من حيث ظهور الأسماء به وانبساطه عليها. **والمشيئة بالاعتبار الأول تسمى عرشا** (الرحمن على العرش استوى) وبالاعتبار الثاني تسمى كرسيا. (وسع كرسيه السموات والأرض) وكل من مراتب الجبروت والملكوت مظهرٌ لله وللرحمن بالاعتبارين المذكورين فالجبروت مظهرٌ لله باعتبار أن هذا الاسم منزه عن الأسماء والصفات والرحمن مظهرٌ للمكونات باعتبار أن هذا الاسم مظهرٌ للأسماء والصفات. والمراتب النورية مظهرٌ لله من حيث إجمال الأسماء فيه بالنسة الى دانيها ودانيها مظهرٌ للرحمن من حيث التجزئة والتفصيل بالنسبة الى العالي وحيث عرفت أن مراتب اليقين تجليات الله بحسب السالكين فالمتيقن الذي اعتقده صاحب اليقين له ثلاث أحوال:

أولا: رتبة المدرك المتيقن، فذاك هو علم اليقين.

ثانيا: رتبة الواصل الى مقام مشهود بمعنى أن المدرك صار مشهوداً له ببصره أو بصيرته وذاك عين اليقين.

ثالثا: رتبة الواصل الى التحقق بمعنى أن المدرك صار متحققاً بالمدرك وصار ذاته فذاك حق اليقين مثال ذلك المتيقن بالنار بإدراك الدخان الذي هم من آثارها أو بشهودها أو بصيرورته عين النار. فأسماء الله سبحانه تختلف باختلاف صفاته وأفعاله وكثرته ووحدته وهو وحدانيُ الذات وقد أظهر سر ذاته في مظاهر أفعاله وأسماؤه وصفاته وأفعاله عكوس تجلياته على السالك بحسب مراتبهم فعين اليقين من مراتب اليقين هو مظهر الخالق المكون، فلذلك كانت مرتبة عين اليقين هي المرتبة الإلهية يعني مظهر الاسم الخالق وسيأتي مزيد إيضاح عن أسماء الله ومفعولاتها.

[٢] الأحكام: جمع حكم: القضاء في العدل. ومنه الحديث (الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار) لأن أكثرهم فقهاء.

[٣] الآثار جمع أثر ما يبقى من رسم الشيء ومقابل العين(لا تطلب أثراً بعد عين)

[٤] الأقساط:جمع قِسط: الحصة والنصيب كما رأيت في كتاب (مصباح الأنس) أو مصدر أقسط الوالي كان مُقسطاً أي عادلاً كما عليه أكثرهم.

[٥] الأرواح الكلية عبارة عن عوالم الأرواح المجردة عن المادة وعن التقدُّر ولعلها سُميت كليةً لأنها كُلٌ لما انبثق عنها من الأرواح الجزئية.

ركناً والقدرة تتمّة له وشرطاً وفي إيجاده الأجسام[١](٥) الكليّة بالعكس تكون القدرة ركناً والقول تتمّة له وشرطاً ولهذا كان عالم الأرواح يسمّى بعالم الأمر[٢](٦) وأمّا الجود فإنّه شرط ظهور أثر القول عنه إرادة الإيجاد فإنّ إفاضة الجود بالاختبار بالحكم والأمر الإيجادي المعيّن صدوره من اليقين الثاني الذي هو مرتبة الإلهيّة سريّة[٣] (٧) المفاتيح[٤](٨) وهي الأسماء[٥](٩) الذاتيّة[٦](١٠) في الأسماء الإلهيّة فظهوره منها بصورة الفاعلين وأمّا الإقساط فهو شرط في ذلك ولكن سريّة المفاتيح في قوابل[٧](١١) ظهورها من ورائها بصورة قبول الحكم والأمر الإيجادي

---

[١] الأجسام الكلية عبارة عن عوالم الأشباح مادية كانت أو مجردة كعالم المثال. ولعلها سميت كلية أيضاً لأنها كل لما تفرع عنها من الأجسام الجزئية، وسيأتيك أن الأجسام عندهم هي عالم النور وأن الجسمانيات العالم المحسوس.

[٢] الأمر: طلب إحداث شيء، وعالم الأمر هو عالم النور المجرد الذي كوّن (بكن الأمرية).

[٣] سراية: مصدر سرى الرجل يسري سُرىً وسُرية وسراية وسريانا (ياثيّ) سار.

[٤] المفتاح جمع مفتاح مفتحة وهي الخزانة، وعندهم هي الصفات الأربع المذكورة التي هي مفاتيح لأسرار الغيب.

[٥] الأسماء جمع اسم بالكسر والضم اللفظ الموضوع على شيء يتميز به. قال ابن عربي في الفتوحات المكية. أسماء الله تعالى هي المؤثرة في هذا العالم وهي الفاتح الأول التي لا يعلمها إلا هو وإن لكل حقيقة إسما مما يخصها من الأسماء وأعني بالحقيقة حقيقة تجمع جنسا من الحقائق، وربُّ تلك الحقيقة ذلك الأسم، وتلك الحقيقة عابدية وتحت تكليفه، وإن جمع لك شيءٌ ما أشياء، فليس الأمر على ما توهمت فإنك إذا نظرت الى ذلك الشيء وجدت له من الوجوه ما يقابل تلك الأسماء؛ مثل الجوهر الفرد فإن فيه حقائق متعددة تطلب أسماء إلهية على عددها فحقيقة إيجاده تطلب اسم القادر، ووجه أحكامه يطلب اسم العالم ووجه اختصاصه يطلب اسم المريد ووجه ظهوره يطلب اسم المريد والرائي الي غير ذلك، فهذا وإن كان فردا فله هذه الوجوه وغيرها مما لم نذكرها، ولكل وجه وجوة متعددة تطلب من الأسماء بحسبها والوقوف عليها عسيرٌ، وتحصيلها من طريق الكشف أعسرُ. فلنذكر أمهات الأسماء كلها المعلومة في العالم العلوي والسفلي المعبر عنه بالصفات عند أصحاب علم الكلام وهي الحيُّ العالم المريد القادر فإنا نحتاج في دلائل العقول في معرفة الحق إلا كونه حيا عالما مريدا إلا أن الشيخ محمد الحسين آل الكاشف الغطاء بكتابه (الدين والإسلام) جعل القدم من الصفات الأربع وحذف الإرادة، والذي رآه المؤلف هو الأحق لما نراه من أن هذه الأربع هي الإرادة العاملة في كل حي فإذا بطلت صفة منها بطلت حركة الأربع وقد أفاضها سبحانه على مكوناته جميعا، كما أفاض الوحدة التي تفرد بها على جميع المكونات فتكثر مع المتكثرات في حال احتفاظها بالوحدة.

[٦] الذاتية نسبة الى الذات وهو ما يصلح لأن يُعلَمَ ويُخبر عنه، ويُراد به الحقائق الأربعة: الحياة والعلم والإرادة والقدرة. وعندهم أن الحقائق أربعة أنواع: حقائق ترجع الى الذات المقدسة، وهي كل مشهد يقيمك فيه الحق على معرفة كونه: عالما قادرا مريدا حيا؛ وحقائق ترجع الى الصفات المنزهة وهي النسبُ وحقائق ترجع الى الأفعال وهي كن وأخواتها وحقائق ترجع الى المفعولات وهي الأكوان والمكونات. وهذه الحقائق الكونية على ثلاث مراتب: علوية وهي المعقولات، وسفلية وهي المحسوسات، وبرزخية وهي المخيلات.

[٧] القوابل: جمع قابلة من قبل الشيء قبولاً لزمه وأخذ فيه. والقول صدَّقهُ.

ليكون فلا جرم عين الحق سبحانه من حيث أسمه الباري في اللوح[1](١٢ ما) المحفوظ.

المقدمة الثانية الأركان الأربعة

لكلّ واحدٍ من هذه الأركان الأربعة الإلهيّة مظهراً خاصاً وصورةً روحانيّة مع حكم احتمال كل واحدٍ على آثار الباقي وسميّت هذه المظاهر في اصطلاح الشرع بإسرافيل وجبريل وميكائيل وعزرائيل فكان إسرافيل مظهر ركن الحياة الكليّة الجمليّة الأصليّة المشتملة على جميع الكمال والإحساس بكليّتها وجملتها ولهذا كانت الحياة الأبديّة الآخرويّة متعلّقة في النفخة الثانيّة في الصور[2] الذي هو مجمل الصورة الطبيعيّة وأصلها ويجمعها علويّ وسفليّ وتلك النفخة المرسلة الموجبة حياة الخلق وقيامهم ناظرين فيما يبدو من إشراق نور الحضرة الربّانيّة بلا وسائط ولا أسباب يوم القيامة لقوله تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) (٦٨)) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) (الزمر: من الآية٦٩)

---

[1] اللوح المحفوظ النفوس الكلية أو العقول الكلية، فإنها بوجه كُتُبٌ وألواحٌ. واللوح المحفوظ أم الكتاب أيضا (وله معان غير هذه) وأم الكتاب الفاتحة لافتتاح الكتاب التكويني بها الذي هو جملة ما سوى الله، ولإفتتاح الكتاب التدويني(القرآن) بها. وسُميت أم الكتاب لكونها بحقيقتها التي هي المشيئة أصلا وعمادا ومجموعا فيها جميع أجزاء الكتاب التكويني، والعرب تسمي كل مجتمع وكل أصل أما، ولأن صورته التدوينية مشتملة على جميع النسب والإضافات الخلقية التي ليس الكتاب التدويني إلا لبيانها، ومن هنا تعلم كيف كتب بالقلم باللوح المحفوظ جميع ما كان ويكون الى يوم القيامة فاللوح لوحٌ من نور والقلم قلمٌ من نور، والمداد مدادٌ من نور. وسيأتيك أن القرآن الكريم تنزّل على المراتب النورية بحسب المراتب النورية الى أن كان عندنا بالأصوات والحروف بحسبنا.

[2] الصُورُ: القرنُ الذي ينفخ فيه. ورد في الأخبار أنه قرنٌ من نور، وله رأسان وطرفان ينفخ فيه إسرافيل فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي الأرض ومن الطرف الذي يلي السماوات فيموت أهل السماء والأرض، فتمكثان خليتين ما شاء الله ثم ينفخ فيه إسرافيل مرة أخرى وله ألقابٌ بعدد الخلائق فيحيون ويحشرون. قال ابن عربي: نفخ الحقيقة الإسرافيلية من المحمدية المضافة الى الحق. نفخها كما قال الله تعالى(فينفخ في الصور) بفتح الواو وقرئ بالياء وضمها وفتح الفاء، والنافخ هو إسرافيل والقبول من الصور وسر الحق بينهما هو المعنى بين النافخ والقوابل، كالربط من الحروف بين الكلمتين وذلك هو سر الفعل الأقدس الذي لا يطلع عليه القوابل ولا النافخ، فعلى النافخ أن ينفخ وعلى النار أن تتقد وعلى السراج أن ينطفئ، والانطفاء والاتقاد بالسر الإلهي (فتنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) وفي حقائق أسرار الدين فإذا نفخ في الصور بفتح الواو تنفخ الحياةالإلهية بالمدد الإلهي بالصور.

فأمّا الأولى منه فيه فإنما تكون بإصعاد النفخ وإرجاعه من الظاهر إلى الباطن يشتهي حكم الحياة الدينونيّة ويرجع إلى أصلها ثم يبتدي حكم ظهورها وتفصيلها في النشأة الأخرويّة فلهذا المعنى كان إسرافيل مظهراً للحياة كما قلنا والأقساط مندرج فيها كحكم جمعيّتها للجميع أصلاً وفرعاً.

المعنى: يقول : إن البيت الإلهي وهو الاسم الخالق من أسماء الله سبحانه وهو التجلي لأهل مرتبة اليقين الثاني الذين هم أهل الشهود؛ مبني على أركانٍ أربعةٍ كبناء البيوت العادية، وأركانه الحياة والعلم والقدرة لا يقوم إلا بها ولهذه الأركان لوازم وتتماتٌ وشروطٌ يتم بها الفعل كاملاً وهي القول والجود والأقساط. فالفعل من كل فاعلٍ لا يكون إلا عن ذي حياةٍ عالم بما يريد أن يفعل قادرٍ على ذلك الفعل آمرٍ نفسه بالتحدث إليها سراً أو جهراً بما يريد أن يفعل وبذلك يكون الفاعل جمع الفات الأربع المذكورات ولوازمها وتتماتها وبهذا تعلم أن الصفات الإلهية الأربع أفاضها على مخلوقاته كإضافة وحدته ن فبإيجاده الرواح الكلية (العوالم المجردة عن المادة والتقدر) يكون قوله (كن) رُكناً يستند عليه الإيجاد والقدرة تتمة لذلك الفعل وشرطاً؛ وكلامه سبحانه ليس بصوتٍ يقرع ولا نداءٍ يسمع. وكن الوجودية هي مشيئة الله وفعلخ وكلمته وأمره وغيرذلك من الأسماء المختصة بها، وبإيجاده الأجسام الكلية الذين هم عوالم الأشباح النورية تكون القدرة التي يستند عليها الإيجاد رُكناً والقول الذي هو كن الأمرية تتمةً له وشرطاً، وكون القدرة ركناً لإيجاد الجسام، هو لأن الأجسام مركبةٌ من أجزاء بالنسبة لما فوقها، فتحتاج في تكوينها الى مادةٍ تكون منها، والى مدةٍ من الزمن لإنجاز العمل بخلاف عالم الأرواح فإنها لا تحتاج في تكوينها إلا كُنِ فيكون، ولذلك كانت القدرة ركناً يستند عليه إيجاد الأجسام فكلمة الخلق تستعمل في المكونات الماديات، والإبداع الذي هو كُنْ يستعمل بالمجردات، وقد يُخَصُّ الخلق ما يحتاج الى مادةٍ ومدةٍ كالمواليد ن والأختراع بما يحتاج الى مادةٍ دون مدةٍ كالسماوات والعناصر والإنشاء بالمتقدرات المتجردة عن المادة والمدة وابداع بالمجردات عن الكل قال الأمير:

عرفتُ الخلقَ والأمر ... ومعنى الكلِّ في الكلِّ
فجمعت بلا وصل ... وفرقت بلا فصل

فإفاضة الوجود على الموجودات علويةً وسفليةً باختيار الله سبحانه وإرادته وأمره الصادر عن الاسم الخالق وهو التجلي لأهل اليقين الثاني بشرط المدد من مفاتيح الغيب التي هي الأسماء الذاتية لله سبحانه: الحياة والعلم والإرادة والقدرة. فظهور الوجود جميعه من الأسماء الإلهية التي لا عداد لها وكل اسمٍ له فعلٌ خاصٌ به كالرحيم لإفاضة الرحمة، والحي لإفاضة الحياة والعالم لإفاضة العلم وما أشبه والفعل في ذلك كله للسر الساري بها من هذه الأسماء المذكورة: الحياة والعلم والإرادة والقدرة. والأقساط التي هي جمع قسطٍ (النصيب أو العدل) شرطٌ في صحة الإيجاد مصحوباً بسراية المفاتح المذكورة مع وجوب الاستعداد والقبول اللذان هما القسط المذكور لظهور الفعلب بصورةٍ تقبل حكم الله وأمره الإيجادي ليكون هذا الأسم الظاهر في مظهر الفاعل أياً كان ذات الحق سبحانه من حيث اسمه الباري في اللوح المحفوظ الذي هو المشيئة ن ولكل واحدٍ من هذه الأركان مظهر خاصٌ مشتملٌ على خواص البواقي؛ يعني أن مظهر الحياة الذي هو إسرافيل مشتملٌ على أحكام العلم والإرادة والقدرة، وهكذا بقية المظاهر الأربعة: إسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل. وغنما قال سميت باصطلاح الشرع لأنها مسميات لله وليست أسماؤه غيره. ثم يقول:متعنا الله بمعارفه. إن إسرافيل من هذه الأركان الأربعة رُكنُ الحياة الكلية المادية والمعنوية المشتملة على جميع القوى الروحانية والمادية من العقل الأول الى آخر مخلوقٍ ولذلك تعلقت الحياة الكلية الأخروية التي لا فناء لها بالنفخة الثانية بالصور الذي هو مجمل الطبيعتين المطلقة (وهي هيولي عالم الأنوار) والمقيدة (وهي الطبائع الأربع) فأما الأولى من النفختين تكون بإصعاد النفس وإرجاعه من ظاهر المحسوس الى باطن المعقول بالمدد من الأنوار الإلهية (أي يمتد مدد الحياة منه الى سائر الأحياء مادياً، ثم بارجاع النفس بعد النفخ يحييها بأماتتها عن الماديات وإرجاعها الى أصلها النوراني وذلك تشبيهاً بالنفس الإنساني يمتد ثم يرجع الى فم صاحبه من حيث أتى ولكن المرتبط بالمحسوس يشتهي حكم الحياة الدنيوية، فحينما يرجع يرجع الى أصلها يظهر له سرها مفصلاً بالنشأة الأخروية الباطنة، بانكشاف أسرارها يعني أن مظهر الحياة الكلية الذي هو إسرافيل بامتداد نفسه الإلهي (وهو فيض النور) تحيا الأنفس بإماتتها عن الطبيعيات وإحيائها

بنور الله بالنفخة الأولى، وبالأحرى تشرق الأرض بنور ربها وذلك هو الكشف والصفاء التام فترجع الفروع الى أصولها والأسباب الى مباديها، ولهذا كان اسرافيل مظهراً لركن الحياة مع إندراج الأقساط بهذا النفخ، كما أنه مشتملٌ على خواص وآثار الحقائق الإلهية وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة. وبها شرحوا قوله تعالى (جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ) (سورة فاطر: من الآية ١)

وقال الحسن منه السلام (لم تجتمع رباع إلا في جدي رسول الله (ص) قال الأمير:

وسائلٍ أجبتُهُ إن كُنْتَ مَنْ يعرِفُ ما أحنحةُ الرسلِ فَطِرْ

وأمّا جبريل فكان من اللوح الْمحفوظ مظهراً لركن العلم[1] ولهذا كان حاملاً للوحي الْمشتمل على أنواع العلوم ودرجاتها ومعلّماً حيث قال الله تعالى (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) (سورة النجم: ٥) عنى به قولاً بلا واسطة كتكوين عيسى من حيث

---

[1] العلم يطلق على مطلق الإدراكِ الإنساني بالمدارك الظاهرة أو الباطنة جزئياً أو كلياً، تصوراً أو تصديقا، ويطلق على الإدراك الكلي أو المركب أو البسيط، وعلى التصديق ظنيا أو علميا تقليديا أو عاديا أو برهانيا، وعلى الفنون والصناعات وعلى الملكة الحاصلة للإنسان من المدارسة والممارسة، ولا يطلق على إدراك الحيوان الصامت لإنه لا شعور له بشعوره. ولما كانت العلوم والإدراكات متخالفة والعلوم والجهالات متشابهة، يُضل بها كثيرٌ عن طريق الحق، ويحسب أن العلم في الجهل؛ كان التعرض لتحقق العلم وأقسامه من المهمات فنقول إن العلم في المراتب النورية يسمى علما وعقلا كما يسمى وجودا ونورا لأنه ليس لها استعدادٌ وقبول لأن تتعلم فتبرر العلم من القوة الى الفعل كما هو الحال عندنا بل استعدادُها وقوتها عين فعلها، والمراتب الأرضيات كالعناصر والمولدات لا يسمى شعورها الضعيف علما، لغلبة الأعدام عليها ولإ شعور لها من قبل أنفسها في فناءٍ ومن قبل موجدها في بقاءٍ، وإذا بلغ الإنسان سُمي شعوره علما لحصول الشعور بالشعور وعدمه

والعلم يقتضي العمل بمقتضاه لأن العطشان إذاعلم أن وراء الجدار ماءً عمل للوصول إليه، واعلم يورث العمل بنصوص الأخبار والآيات (من عمل بما علم ورَّثهُ الله علم ما لم يعلم) قال الله (واتقوا الله ويعلمكم الله) فجعل التعليم الموررث للعلم ميراث التقوى فمن تعلم السحر لإبطال السحر، والشطرنج للتنبه على السير في البيوت للغلبة على الخصم الذي هو الشيطان كان إدراكه علماً، وتعلم الفقه ولم يقصد به العمل لله جهل. فمدار عملية الإدراك وجهاليته شاكلة الإنسان لا صورة الصناعات والمدارك فرُب متعلم للفقه كان عبداً للشيطان. والحاصل ما كان سبباً للإدبار عن الدنيا، والإقبال على الآخرة فهو علم وإلا فهو جهل قال (ص) إنما العلم ثلاثةٌ:
آية محكمةٌ. وفريضة عادلةٌ. وسنةٌ قائمةٌ.
وهي العلم القلاني الذي هو معرفة ما وراء المادة والعلم النفساني الذي هو التحلي بالفضائل، والتخلي عن الرزائل، والعلم الجسماني الذي هو العلوم الشرعية. وما خلاهُنَّ فضل.

إنّه كلمة الله حين تمثل تمثّل لمريم لقوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً) (سورة مريم: من الآية ١٧)

وعلمه علم الساعة[١] أي بيان لقيام الساعة فكان مظهراً للعلم والقول أيضاً فكان من حيث مظهريّته للعلم يسمّى بروح القدس[٢] ومن حيث مظهريّته للقول يسمّى بالروح الأمين فكان له جهتان وحكمان كإسرافيل فهو أي جبرائيل الذي هو عين الوجود من حيث ظاهره الغالب عليه حكم القول صار مظهراً للقول ومن حيث باطنه الغالب عليه حكم العلم صار مظهراً للعلم فتنبّه لهذا السرّ السرير بخزائن المعرفة وأمّا ميكائيل فكان مظهراً لركن الإرادة[٣].

---

[١] علم الساعة من العلوم الخفية التي لا يطلع عليها إلا المعصومون قال أمير المؤمنين (خُصِصْتُ بعلم المنايا. وهي موتات الإنسان في السلوك، والموت الطبيعي، وأنواع ظهورات الساعة والقائم) والبلايا(وهي الامتحانات للخلاص من حُجُبِ الساعة). وأشراط الساعة كثيرٌ وهي تنطبق على الحال الواقعة الآن بما أتى عنه(ص).

[٢] روح القدس عند الصوفيين، جوهر نورانيّ، وجوهريته مظهرٌ للذات المتجلية في عالم الظهور ونورانيته مظهر علمه الأزلي ويسمى باعتبار الجوهرية النفس الواحة (خلقكم من نفسٍ واحدةٍ) وباعتبار النورانية العقل (أول ما خلق الله العقل) وله باعتبار التوسط بين الحدث والقدم جنبان، فخلق من جنبه الأيسر النفس الكليةِ ووقع بينهما تجاذبٌ من ميل الجنس الى جنسه كما جرى لآدم وحواء، وتولد منها الكائنات نتيجة بعد نتيجةٍ حتى انتهى حتى انتهى الأمر الى آخر مولودٍ وهو الإنسان فظهر نتيجة انطباق الوجود على بدايتها ولظهور صورة النفس والروح في الإنسان صارت فيه أنوثة وذكورة كالذكورة والأنوثة الحيوانيين، وأول شخص ظهر فيه الروح آدم وحواء وتولد من ازدواجهما الذكرية مثل تولد الكائنات من الروح والنفس، والطبيعة برزخ بين النفس والجسم ورابطة التعلق بينهما، ولها وجة صافٍ الى النفس تنعكس فيه صورة النفس بأسمائها وصفاتها، وهو الروح الحيواني تستمد منه أرواح الحيوانات ووجة كدرٌ الى الجسم وهو الروح الطبيعي الذي تستمد منه طباع الأجسام عُلويها وسفليها، وما بين الوجهين الروح النباتي.

[٣] الإرادة:مصدر أراد الشيء شاءه، وكل شيءٍ من أفعال العباد وصفاتهم وغيرها مما له سمة الإمكان، فهو مراده تعالى لتسليم كل من أقر بالمبدأ الأول أن لاشيء في عالم الإمكان إلا بعلمه ومشيئته وإرادته، وكل مراده فهو مفعولٌ له لا لغيره فعلى هذا تكون أفعال العباد فعل الله جبرٌ ولا تفويضٌ فليس العباد مجبورون في الفعال لأن الجبر يقتضي جابرا مغايرا للجبور، ومجبورا مستقلا في الوجود مريدا مختارا مسلوبا عنه الاختيار متحركا على حسب إرادة الجابر، المخالفة لإرادة الجبور، ولا إرادة مستقلة مغايرة لإرادة الجابر فالجبر يقتضي مفاسد التفويض مع شيءٍ آخر من المفاسد علاوة على نسبة الاستقلال للعباد، وليس الأفعال بتخير الله أيضا لما ذكر فإنه لا فرق بين التسخير والجبر إلا بسلب الإرادة وعدمه، فإن المسخر إرادته باقية تابعة لإرادة المُسخر بخلاف المجبور فإن إرادته تكون مسلوبة وحركته تكون لإرادة المجبور بل الأمر أدق وألطف من الجبر والتسخير.

أرواح الحيوانات

فإنه مرتّبٌ لما فيه بقاء الخلق من الرزق المعنوي[١](١) والصوري علماً وفهماً وغذاء كالجاه والحشمة[٢](٢) وحساً كالمال والنعمة فكان مظهر الإرادة والجود مندرجٌ فيه لتوقّف نفاذ حكم إرادته عليه.

المعنى: يقول: أخذ الله بيدنا لفهم أسراره. إن جبريل مظهر لركن العلم من الأركان الأربعة الكائنة باللوح المحفوظ. المكتوبة به المكونات كما مر، ولذا كان حاملاً للوحي الإلهي المشتمل على جميع العلوم ومعلماً لجميع الأنبياء

(علمه شديد القوى) وهو المتمثل لمريم والملقى إليها كلمة الله (عيسى) والمعلم علم الساعة وهو العلم بكل شيءٍ ولا يطلع عليه إلا صاحب الولاية المطلقة، وله جهتان وحكمان كلإسرافيل، فإن لإسرافيل من الأركان الحياة والقدرة ولجبرائيل جهة القدرة وجهة العلم وهو الغالب عليه (أو إنه كما قال حضرة الشيخ عبدالهادي حيدر (أبي قبيس) (إن المراد بحكمي إسرافيل في نفختي الصور حكم الموت وحكم الحياة المعنويين والحسيين وبجهته الحياة ولازمتها وهي الأقساط) وأنت تعلم أن السيد محمداً هو الوجود بهوية الوجود المطلق والمقيد، وأن الباب صورة هذه الهوية وجبرائيل هنا مظهر العلم الإلهي وليس علم الله غيره فيكون جبرائيل صورة الناس الذين هو ذات الوجود وحقيقته، والوجود المطلق لهذه الصورة حضرة الحق (هو الهيولي وكل الخلق صورته) (الكون جسمٌ وفيه روح) وميكال من الأركان الأربعة الذاتية: الحياة والعلم والإرادة والقدرة. مظهر لركن الإرادة المنبثة آثارها في المخلوقات كبقايا الصفات الأربع، فهو مرتبٌ للأمداد المعنوية كالعلم والفهم والجاه، والأمداد الصورية، كالمال والنعمة والجود الذي هو من اللوازم مندرجٌ بهذا المظهر لتوقف نفاذ حكم إلادته على الجود. أرشدنا الله.

---

[١] المعني نسبةً الى المعنى والمراد به هنا ما به قيام النفوس من الإشراقات وما تناله من الجاه والعظمة.

[٢] الحشمة بالضم قارابة الرجل. يقال:فيهم حشمةٌ اي قرابةٌ. او لعلها حشم بدون تاء وهي خاصة الرجل الذين يغضبون له من اهلٍ وعبيدٍ وخدمٍ كثيرةٍ.

عزرائيل وتوحيد الأفعال، القلم

وأمّا عزرائيل[1] فكان مظهراً لركن القدرة بقهر الجبابرة وبذلّهم بالْموت والفناء غير ممانع ولا مدافع لكمال تحقّقه بصورة القدرة وكما أنّ جميع الحقائق الإلهيّة والكونيّة من توابع هذه الحقائق الأربع فكذلك جميع الأرواح وَالْملائكة من توابع هذه الْملائكة الأربع وقواها بعد القلم[2] الأعلى وَالْمهيمَةُ[3] وهم العالون الذين لم يدخلوا في حكم الأمر بالسجود لآدم لإكمال هيمانهم في حال جمال الحق جلّ جلاله كما أشير إليه في قوله تعالى لإبليس (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) (سورة ص: من الآية ٧٥) وهم الأنبياء الخمسة.

---

[1] عزرائيل اسم ملك الموت، ولم يختص عزرائيل بالموت وحده بل الله يتوفى الأنفس وملك الموت والملائكة والرسل، والتوفي ليس مخصوصا بالموت الطبيعي بل المراد بالتوفي عند الصوفيين الإماتة عن رتبةٍ برفع السالك الى غيرها، فإن العقل في العالم الصغير (الإنسان الفرد) كالحق في العالم الكبير، وإذا لوحظ أن للعقل جنوداً وأعواناً ومدارك وقوىً لا يعصون ما أمرهم العقل، وهم بأمره يعملون ولأن أمره للقوى والمشاعر، امتثالها من غير تراخٍ أو تأبٍّ، وفعلها كما أنه منسوب إليها حقيقة منسوبٌ الى العقل أيضا حقيقة من غير مجاز بل فعل القوى من غير تعددٍ في الجهة فعل العقل أيضا، فالرؤية مثلاً فعل الباصرة وهي من حيث أنها فعل الباصرة فعل العقل لكن بمرتبة الباصرة لا بمرتبته العالية بل فعله الخاص به في مرتبته العالية إدراك الأشياء مجردة عن غواشي المادة والتقدر والتشكل. فالفاعل في كلٍ فعل دانياً كان أو عالياً هو الله لكن بواسطة مباشر خاص ينتسب الفعل إليه والى الله باعتبار تشؤنهِ وظهوره بفاعله الخاص وله باعتبار مرتبته المخصوصة فعل خاصٌ به لا يُنسب إلى غيره فالفعل مظهرٌ لله في مرتبته الخاصة، والنفس مظهرٌ لملك الموت والقوى والمشاعر مظاهر للملائكة والرسل فالباصرة والعقل كالله ينتزع الكليات عن الصور مع النزع الأول فعل العقل بواسطة الباصرة، والنزع الأخير فعله بلا واسطةٍ، فاختلاف الآيات والأخبار باعتبار اختلاف المباشر للفعل، واختلاف المراتب على صحة الانحصار في قوله تعالى (الله يتوفي الأنفس) واختلاف المراتب للفعل باعتبارِ اختلاف النفوس مثل مباشر نزع النفوس النباتية والحيوانية والإنسانية، وفي النفوس الإنسانية أيضاً مراتب فنفسٌ يقبضها الله بلا واسطة ونفسٌ تقبضها الملائكة والرسل، ومقبوض الملائكة مقبوضٌ لملك الموت ولله ومقبوض ملك الموت مقبوضٌ لله.

[2] القلمُ: الرقم الذي يُكتَبُ وهو مجازٌ من تسمية الشيء بما يؤول إليه، والقلم هنا هو الذي كتب به الكائنات باللوح المحفوظ، فآيات الكتاب الكريم في مقامه العالي من مراتب العقول يُعَبرُ عنها الأقلام، ومراتب النفوس يعبر عنها بالألواح العالية واللوح المحفوظ والمراد بالقلم هنا التجلي كصفة الاسم العظيم الذي كتب به المكونات في اللوح المحفوظ، أي المفوض إليه خلق الأشياء. قال ابن عربي: المحرك للقلم صفات الله الحمالية. قال الأمير:

القلم الجاري الذي مداده لأحرف التنزيل باللوح سطر

[3] المهيَّمةُ جمع مهيم اسم مفعول من هيَّمَهُ الود جعله ذا هيام والملائكة المهيمون هم المقربون والقيام لا ينظرون وهم العقول الطولية بلسان الفلاسفة. قال ابن عربي: الملائكة المهيمون المخلوقون من العماء فوق القلم وسيأتيك، أنهم تجلياته سبحانه بالمشيئة والفطرة والعلم والقدرة واللطف الخفي.

مظاهر القواعد

التي انبثقت[1] من أنوار الذات العاليّة القدسيّة والتفرّعات[2] الحاصلة منهم كالتفرّعات الحاصلة في تلك الحقائق المعنويّة في الحضرة العلميّة

المعنى: يقول : إن عزرائيل مظهرٌ لركن القدرة من الأركان يقهر الجبابرة بالموت، لا يُدفع ولا يُمنع لتحققه الكامل بصورة القدرة الإلهية، وكما أن جميع الحقائق الإلهية وهي أربعٌ منها حقائق ترجع الى الذات، وحقائق ترجع الى صفات الذات وحقائق ترجع الى أفعال الذات وحقائق ترجع الى مفعولات الذات وكل هذه الحقائق من توابع الحقائق الأربعة: الحياة والعلم والإرادة والقدرة فكذلك جميع الأرواح والملائكة من توابع هذه الملائكة الأربعة الذين هم صورةٌ للأسماء الذاتية بتنزل الوجود إلا القلم العلي الذي كتب به المكونات في اللوح المحفوظ الذي هو العرش أو النفس الكلية وهذا القلم هو التجلي كصفة الاسم، وإلا المهيمة العالون الذين لم يؤمروا بالسجود لآدم وهم الأنوار الخمسة الذين هم:

المشيئة والفطرة والعلم واللطف الخفي المنبثقة من الذات العلية وتفرع عنهم:

محمد وفاطر والحسن والحسين والمحسن، ويسمون هؤلاء ظلال أولئك. في الأسوس (احتجب الله بأربعة من الملائكة جبرائيل الروح الأمين، إذا أراد الله أن يخسف قريةً أو يزلزلها حل فيه وهو الفاعل لا الملك، وإذا أراد أن يغير صورة جبرائيل يجعل له من الاستطاعة أن يفعل فعل الرب ثم إسرافيل النافخ في الصور فلو كان هو المحيي لكان هو الملك الديان، ولكن الله ينزل قدرته به ويعده بيتاً من بيوته، والنفخة من الملك وإحياء الموتى من عند الله، وميكائيل صاحب اللوح المحفظ يحتجب الله به فيؤدي تلك الغيوب لا يؤديها غيره وله حُجُبٌ غير هذه كثيرة. في مشارق الأنوار إن الصفات الإلهية سبعة:

الحيُ وهو إمام الأئمة، والعليم والمريد والقادر والمتكلم والمقسط والجواد (وهذه هي الأسماء الذاتية وتتماتها وشروطها كما ذكر المؤلف) ولهذه الأسماء

---

[1] انبثق الفجر :أقبل تمتد حبال نوره في المشرق.
[2] التفرعات: جمع التفرع. أغصان الشجرة إذا كثرت والتفريع جعل شيء لاجتياح اللاحق الى السابق.

مظاهر فمظهر ركن الحياة. إسرافيل، ومظهر ركن العلم. وجبرائيل ومظهر ركن الإرادة ميكائيل، ولهذه الأصول سبعُ مظاهر كوكبية، وكل كوكبٍ منها خادم لأسم من هذه الأسماء فمظهر تجلي الحياة الشمس ومظهر تجلي العلم المشتري ومظهر تجلي القدرة المريخ ومظهر تجلي الإرادة الزهرة ومظهر تجلي الكلام القمر ومظهر تجلي الأقساط عطارد ومظهر تجلي الجود زحل، والأسماء هي المؤثرة فيما تحتها من العوالم لكن بواسطة هذه المظاهر كما تقتضيه الحكمة الأزلية من ترتيب الأسباب على المسببات وإليه الإشارة بقوله سبحانه(وأوحي في كل سماءٍ أمرها) وكذلك الأنبياء فإنهم مظاهر أسماء الله فمن كان منهم مظهراً لأسم (كُل) كانت شريعته كليةً. وجميع الأسماء ترجع الى الاسم الجامع وهو محمدٌ(ص) فاتضح من هذا ما أراده المؤلف من مظاهر الأركان الأربعة في هذه الملائكة الأربعة.

ظلال مظاهر الأركان

واعلموا إخواني إنّ لكلّ واحدٍ من هذه المظاهر الأربعة ظلاً يسمى في اصطلاح القوم باسمٍ معلوم نذكره هاهنا: أما الظل[1] الأول فيسمَى بالعقل الكلي[2]. والثاني يسمَى بالنفس الكليّة[3]. والثالث يسمَى بالكلمة الكليّة[1]. والرابع يسمَى بالصورة الكليّة[2].

---

[1] الظل نقيض الضّحْ وهو الفيء، فكل ما في الدنيا من السماويات والأرضيات صُورٌ وأظلالٌ لما في الآخرة وما في الآخرة حقائق لما في الدنيا. فالعناصر ومواليدها والأفلاك وكواكبها حقائقها في الجنة وليس في الجنة شيءٌ إلا وظله في هذا العالم.

[2] العقل جوهرٌ مجردٌ عن المادة مقره الدماغ به تدركُ النفوس العلوم الضرورية والنظرية ولأنه صادرٌ عن الله بلا واسطةٍ سُمي العقل الأول من حيث أن الأشياء تجد منه قوة التعقل الفعال ومن حيث أن العقل فاض منه الى جميع الموجودات فادركت به حقائق الأشياء سُمي عقل الكل أو العقل الكلي

[3] النفس الكلية هو إخراج الكلمات الإلهية من عين الجمع، وهو الذات الأزلية الى محل التفصيل الذي هو النفس الكلية، كالعلم الذي هو واسطة إخراج الكلمات من عين الجمع، والخفاء الذي هو إلقاؤه الى محل الظهور، والتفصيل الذي هو اللوح. فالنفس الكلية في قبول صور المعلومات المفصلة بمثابة اللوح، واللوح المحفوظ عبارة عنها، وكما أن النفس محل تفصيل حقائق المعلومات فالجسم محل تفصيل صورها، وفي كل نفس من النفوس الجزئية الإنسانية مكتوبٌ بعض تلك الحقائق على ما شاء الله أن يحيط به، ولا ينكشفُ لها شيءٌ مما أحاطت به قبل الوقوع في الشهادة إلا عند تجردها عن الغواشي البشرية والكاتب في كل ذلك القلم:

أقام نظامها بعميم لطف ... على تقديرها قلمٌ وصوف

المعنى: يقول : إن لكلٍ من هذه المظاهر الأربع التي هي:
إسرافيل، وجبرائيل، وميكائيل، وعزرائيل. ظلاً يمثله فهو صورةٌ عنه ولكل ظلٍ اسمٌ مخصوصٌ، فالظل الأول العقل الكلي الذي هو السيد الأزلي المسمى من حيث مفعولاته بالعقل الأول والعقل الفعال والعقل الكلي بحسب مراتب أفعاله، وكلها السيد الأزلي، والظل الثاني النفس الكلية الذي هو اللوح المحفوظ الذي كتب به المكونات أي جمعها فيه، وهو الكرسي الذي وسع السماوات والأرض ز والظل الثالث الكلمة الكلية الجامعة للكلمات والكلمات حقائق المكونات والظل الرابع الصورة الكلية الجامعة لسائر الصور المعنوية والمادية فكل محسوسٍ له صورة محسوسة وكل معقولٍ له صورةٌ معقولةٌ. وكل الصور نازلها ظل لعاليها وصورة له والصورة الجامعة للصور الذات العلية وهذه الظلالات الأربعة هي تجلياته سبحانه، بحسب تنزل الوجود، فتكون أمهات الصفات الأربع. الحياة والعلم والإرادة والقدرة. هي أسماء ذاتياتٌ لله كما مر ومظاهرها الملائكة الأربع تجليات أفعاله وأفعاله هذه الظلالات الأربعة الجامعات للكل:

لوجودك الجزئي كليات أجناس ... الجواهر أصبحت أعراضا
الكل للكلي أنت ولم يكن ... لو لم تكن عنه الوجود مفاضا

---

[1] الكلمة غير مختصةٍ بالحروف المركبة الحاصلة من تقاطيع الهواء النفسي مع مخارج الحروف الموضوعة لمعنىً من المعاني، بل كل ما دل على غيره من الأشياء العينية فهو كلمة، بل التحقيق في معنى الكلمة أن الحق المضاف باعتبار تعلقه بالأعيان الوجودية الثابتة وبالمهيئات التي وجودها اعتباري فقط هو كلمته تعالى، والحق المضاف هو مشيئة الله التي كون بها المكونات، وهي نفسي الرحمن (تشبيها باستداد النفس الإنساني) وهو الرب المضاف، وقد ورد عنهم (نحن كلمات الله التامات)، وتلك الكلمة التي هي المشيئة هي باعتبارها في نفسها تامة، وباعتبار ظهورها على غيرها توصف بالتمام والنقص لإظهارها التمام والنقص.

[2] إن الوجود حقيقةٌ متأصلةٌ بالتحقق، ظاهرةٌ في مراتبٍ كثيرةٍ، وكل مرتبةٍ منها لها صورةٌ بحسب التنزلات، فالأيام والشهور الزمانيةِ التي هاهنا صورة، والدهر صورة للسرمد، والكل ظهور سير شمس الحقيقة. وكل دان له صورة واستقلال في العالي، وصورة بالاستقلال في عالي العالي؛ وصورة بتبع العالي في عالي العالي، ولكل شيءٍ من الممكنات حقائق في حضرة الأسماء استقلالا وتبعا، وهذا هو معنى الصورة الكلية.

صور الظلالات الأربعة

ولكلّ واحدٌ من هذه الظلالات الأربعة صورة طبيعيّة تسمّى في اصطلاح قومٍ باسمٍ معلومٍ نذكره هاهنا:

أمّا الصورة الأولى فتسمّى بالحرارة الكليّة.

والثانيّة تسمّى بالرطوبة الكليّة.

والثالثة تسمّى بالبرودة الكليّة.

والرابعة تسمّى باليبوسة الكليّة.

ولهذه الصور الطبيعيّة أربع أشخاص الأول يسمّى بالنار. والثاني يسمّى بالهواء. والثالث يسمّى بِالْماء. والرابع يسمّى بالتراب.

وقد تركّبت من هذه الأشخاص الأربعة أربع عوالم: عالم الْمعدن. وعالم النبات. وعالم الحيوان. وعالم الإنسان. والجنّ والأنس قسمان:

أحدهما ناقصٌ صوريٌّ منحرفٌ[1] غافلٌ وهو الْمشار إليه بقوله تعالى:(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) (الفرقان:٤٤) وقوله تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ{الحقّ}وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا{الحقّ}وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا{ الحقّ} أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ{في فهم الحقّ} بل هم أضلّ{لأنهم كفّار}أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (لأعراف: من الآية١٧٩) عن أمر الآخرة الجاهلون بأسرار الحقّ.

وثانيها: كاملٌ معنويٌّ معتدلٌ عاقلٌ وهو الْمشار إليه بقوله تعالى:(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) من حيث صورته العنصريّ[2] الأخرويّة الجامعة، (وأجرٌ غير ممنون) من حيث حقيقته وكيف لا وهو مخلوقٌ على مثال الصورة الجامعة

---

[1] منحرفٌ: مائل عن الاعتدال.
[2] العنصرية نسبةً الى العنصر، وهو أحد الأجزاء الثابتة التي يتركب منها الجسم.

الصّور الكليّة والمعنى الكليّة فهو الجامع لجميع الجمعيّات[1] والظاهر بالجميع والناطق عن الجميع بجميع الألسنة والمقالات.

المعنى: يقول : ولكل واحدٍ من هذه الظلالات الأربعة التي هي العقل الكلي والنفس الكلية، والكلمة الكلية والصورة الكلية؛ صورةٌ طبيعية بسيطة وهي:الحرارة الكلية، والرطوبة، والبرودة الكلية، واليبوسة الكلية (والحرارة غير الحار، بل هي المعنى الكائن في الحار وهكذا) وهي منبثة في هذا الكون وهويقوم بمجموعها وهم الأيتام الأربعة:

بإفتراق تراهم غير ذي جسدٍ وباجتماع تراهم كلُّهم جسد ولهذه الصورة الطبيعية أشخاصٌ أربعةٌ: النار، والماء، والهواء، والتراب. وبمجموع هذه الاستقصات الأربعة كونت المكونات الحيُّ منها والموات وتركب منها العوالم الأربعة: عالمِ المعدن، وعالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان. وهو قسمان: قسمٌ منحرفٌ وهو الجن المُرادُ بقوله سبحانه (ولقدْ ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ) (سورة الأعراف: من الآية ١٧٩) الخ. والقسم الثاني الإنسان الجامع لجميع الجموعات من عرشه الى فرشه كما رأيت فهو الجامع لجميع الأشياء المادية والمعنوية، والظاهر بالجميع من حيٍ ومواتٍ والناطق عن الجميع بجميع الألسنة الآلية والفكرية والخيالية وبجميع اللغات الروحانية والصوتية وسيأتيك أن الإنسان يسمع نطق الوجود المطلق والمقيد، كما أنه ينطق بجميع الألسنة واللغات.

---

[1] جمعُ الإنسان لجميع الجمعيات هو أنه لما اقتضى حكم الذات الأزلية والصفات العقلية إبداع مملكة الألوهية، بإيجاد الخلائق وحفظ مراتب وجودها، وكانت مباشرة هذا الأمر من الذات بغير واسطة بعيدة جداً، لبعد المناسبة بين الحدث والقدم حكم الحق سبحانه بتخلف نقيب عنه في الولاية فكان الإنسان؛ وجعل لهذا النقيب وجهاً في الحدث يمد به الخلق وهو النفس، ووجهاً في القدم يستمد به من الخالق وهو العقل، وخلع عليه جميع أسمائه وصفاته وألقى إليه مقاليد أمور، ليتمكن من نفسه خلافته بتنفيذ تصرفاته في ملكه وملكوته، وجعل له بحكم اسميه الظاهر والباطن، حقيقة باطنة وصورة ظاهرة. فحقيقته الباطنة هي الروح الأعظم(وتقدم الكلام عليه) وهو الأمير الذي استحق به الخلافة، والعقل الأول وزيره وترجمته، والنفس الكلية خازنة وقهرمانه، والطبيعة الكلية (وهي الطبيعة المطلقة التي منها عالم النور) هي رئيس العملة من القوى الطبيعية، وأما صورته الظاهرة فهي صورة العالم من العرش الى الفرش، وما بينهما من البسائط والمركبات. وهذا معنى قولهم العالم إنسانٌ كبيرٌ، وأما قولهم الإنسان عالمٌ صغيرٌ، أرادوا به الشكل البشري وهو خليفة الله في الأرض، والإنسان الكبير خليفته في السماء والإنسان الصغير نسخة عن الإنسان الكبير.

الإنسان الكامل ونطق الوجود

وبالجملة الإنسان الكامل الجامع للحقّ والخلق هو الذي يسمع نطق[1] الموجود ويعقله ولا يغفل عنه مطلقاً. بل قد يغفل عن صورة دون صورة وهو لا يتصوّر منه الغفلة عن الحضرات كلّها معنىً[2] وروحاً[3].

ومثالاً[1] وحسّاً[1]، فإنّه بصورته المحسوسة العنصريّة جامع لجميع الصور العنصريّة وهو ناسوته[2] وملكه. وبخياله فإنّه جامع لجميع الصور الخياليّة والمثاليّة المطلقة والمقيّدة وهو جبروته[3]. وبروحانيّته جامع لجميع الخصائص.

---

[1] إن الأشياء الإمكانية الوجودية المحسوسة جميعها هاربةً من نقائصها طالبةً لكمالاتها. فإذا رأيت الشجرة تنمو مثلاً، فنموها هذا شعورها بالنقص وسعيها الى الكمال وهكذا (وقد استوفى ابن سينا في كتاب النجاة) وكل الأشياء متحركةً الى الكمال، والكمال هو تجلي الحقّ سبحانه، وهو الهرب من النقص والطلب للكمال هو تسبيح الأشياء الفطري، وهو تنزيه أسماء الله التي هي سر وجوداتها وتنزيه أسماء الله، تنزيهٌ لله، فالكل منزه لله ولما كان لكل شيء محسوس جهةٌ ملكيةٌ وجهةٌ ملكوتيةٌ هي المسمى عندنا بقدس المعرفة، (لا تتحرك ذرة إلا بقدس المعرفة). كانت الأشياء إن كانت صامتةً تكون ناطقةً بالنطق الملكوتي بلسان أفصح من النطق الصوتي، لكن لا تسمع أصواتها تلك الأسماع الحيوانية، بل تختص بسماعها الأذن الملكوتيةَ، ولذلك قال سبحانه (لا تفقهون تسبيحهمْ) (سورة الإسراء: من الآية ٤٤) على خطاب نوع الإنسان لأنه لا يسمع ملكوتياً لهم وباللسان الملكوتي كان تسبيح الأستن (نوع من الشجر) الحنانة وشهادة الحصا للنبي(ص) وكل ما كان للأشياء من قبيل ذلك، فهذا هو نطق الوجود الذي يسمعه الإنسان الكامل الجامع الخلق بناسوتيته والحق بلاهوتيته، ولعل هذا ما أراده الأمير الخطير بقوله:

بنطق سمعي جرى لساني وعن فؤادي روى عياني
فلا وجود سوى وجودي وكل باقٍ سواه فان

[2] المعنى ما لا يدرك بالحواس، والمراد معاني المكونات من الأسرار الإلهية السارية بها.

[3] الروح ما به قيام الأشياء.

[1] المثال قالبٌ يدخل في عين النصل فيحرق وسطه ثم يطرق غراره حتى يبسط. وعالم المثال عندهم هو عالم النفوس الجزئية والكلية، ومرتبته من عالم الطبع مرتبة الخيال من قوى الإنسان يتأثر الخيال من حامله ومن غير حامله، كذلك عالم المثال يتأثر من عالم الطبع، وتأثر النفس هو بتأثر النفوس الكلية، وهو تأثر العقول الكلية، وهو تأثر المشيئة، وهو تأثر الله هكذا بالتسلسل. والمثل الأفلاطونية تعبر عن ذلك تعبيراً جيداً؛ فقد أثبت لكل الوجود شخص في العالم الحسي موجوداً مشخصاً في العالم العقلي، فالمبادئ الأول بسائط والمثل(العالم المتوسط بين عالمين) مبسوطات والأشخاص مركبات. فهذا الإنسان المركب جزء ذلك الإنسان المبسوط وكذلك كل نوعٍ من الحيوان والنبات والمعادن وكل الموجودات هنا آثار الموجودات هناك، ولا بد لكل أثر من مؤثر يشابهه نوعاً من المشابهة، ولما كان أصل العقل الإنساني من ذلك الاعلم انتزع من المادة مثالاً محسوساً معقولاً يطابق المثال الذي في عالم العقل بكليته ويطابق الموجود في عالم الحس بجزئيته، ولو لم يكن العقل من ذلك العالم لما أدرك ذلك العالم إدراكاً مطابقاً. فالعالم عالمان:

الإنسان وجمعه المجموعات.

وهي ملكوته. وبحقيقته جامع الحضرة وَالْمعاني والحقائق وبسرّه متحقّق بالحقّ الْمطلق دائماً وهو لاهوته[1]. وببرزخيّته[1] جامعٌ بين الإطلاق والتقييد وبين

عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية. وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية البشرية، كالمرآة المجلوة تنطبع فيها صور المحسوسات، كذلك العنصر في العالم المثالي مرآة تتراءى فيه جميع صور هذا العالم، وصورة تلك المرآة موجودة حقيقة تحرك الأشخاص ولا تتحرك ولها الوجود الدائم بخلاف المرآة الحسية، وذلك أن كل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع فقد كانت صورة هذا العالم في علم الحق الأول والصور عنده بلا نهاية، ولو لم تكن الصورة عنده في أزليته لكانت تدثر بدثور هيولاها، والصور الحسية لا تبقى إلا إذا كان لها صورٌ عقلية ترجو اللحاق بها وتخاف التخلف عنها، نجد النفس تدركَ أمور البسائط مثل النقطة والخط والسطح، وتدرك توابع الجسم مثل الحركة والزمان والمكان والأشكال. فإننا نلحظها بأذهاننا بسائط ومركباتٍ ولها حقائق في ذواتها من غير حوامل ولا موضوعاتٍ، ومن البسائط ما ليست هيولانية مثل الجوهر والوحدة والوجود، فالعقل يُدركُ القسمين جميعا متطابقين عالمين متقابلين:

عالم العقل وفيه المثل العقلية التي تطابقها الأشخاص الحسية

وعالم البسائط وفيه المتمثلات الحسية التي تطابقها المثل العقلية.

فأعيان ذلك العالم آثارٌ في هذا العالم، وأعيان هذا العالم آثارٌ في ذلك العالم، وعليه وُضعت الفطرة والتقدير. فأنظر الى قوله: كل نوع من الحيوان والنبات إلخ.. تراه ككل حقيقةٍ من الحقائق مطابقا لرأي الموالي الكرام من تسميتهم العالم الكبير بالنخيل والأعناب وهكذا.

[1]الحس: عالم الإمكان المحسوس.

[1]الناسوت طبيعة الإنسان سريانية.

[1]الجبروت بالتحريك والفتح: العظمة والجلال والسلطة والقدرة المتناهية والكنز والقهر وعندهم هو أحد العوالم الثلاثة الملك والملكوت والجبروت. فالملك ما يدرك بالحواس والوهم، والملكوت ما يدرك بالعلم والفهم، والجبروت ما يعرف بالبصيرة والمعرفة، وهذه العوالم محلها واحدٌ وهو الوجود الأصلي والفرعي، وإنما تختلف التسمية باختلاف النظرة، وتختلف النظرة باختلاف المعرفة فالوجود عند المحققين من العارفين واحدٌ، قسمٌ منه لطيف غيبٌ لم يدخل عالم التكوين وهو عالم الغيب، وقسمٌ دخل عالم التكوين وهو عالم الشهادة، وما كان خفيا في عالم الغيب نظهر في عالم الشهادة، فمن نظر الى حس الأشياء الظاهر سماه ملكا، ويسمى عالم الحكمة، وعالم الأشباح. ومن نظر الى أسرار المعاني القائمة بالأواني ـ وهو أسرار الذات القائمة بالصفات ـ سماه ملكوتا ومن نظر الى الأسرار الأزلية التي كانت حال الكنزية(كنت كنزا مخفيا) لم تدخل عالم التكوين سماه جبروتيا. أو تقول: من نظر الى الكشف المكون ورآه قائما بقدرة الله سمي في حقه ملكا، وهو لأهل الحجاب من أهل الفرق. ومن رآه نورا فائضا من النور اللطيف إلا أنه تكثف بالقدرة وتستر بالحكمة سماه ملكوتا، وسمي اللطيف الباقي على أصله الذي هو محيطٌ بكل شيءٍ جبروتا، فإن ضم الأصل الى فرعه والكثيف الى اللطيف سمي الجميع جبروتا:

فلم يبق إلا الله لا ثمَّ كائنٌ ولا ثمَّ موصولٌ ولا ثمَّ بائنٌ

بذا جاء برهانُ العيانِ فلا أرى بعينيَّ شيئاً غيرَهُ إذا أعاينُ

[1]اللاهوت:مبالغةٌ بمعنى الإله. ولاهوت الإنسان تحققُهُ بالحقائق الإلهية من اسماءٍ وصفاتٍ وغيرهما.

عالم الغيب والشهادة وَالْملك وَالْملكوت والحضور والغيبَة والوجوب والأمكان[٢] فهو الجامع لجميع الجمعيّات. الجموعات بدل

المعنى: يقول: إن الإنسان الكامل الفاني بالله الجامع الحقّ والخلقَ، فهو حقٌّ خلقٌ؛ حقٌّ بما فيه من تجلي الإلوهية خلقٌ بطبيعته وجسمانيته، فذاك هو الذي يسمع نطق الوجود ويفهمه لأنه كل الوجود ويعرف تسبيح كل شيءٍ ويعقلهُ. كما مر (وإن من شيءٍ إلا يسبح بحمده) ولا يغفل عن نطق الوجود مطلقاً وإذا غفل فغفلتُهُ عن صورةٍ ما دون صورةٍ، ولا يغفل عن الحضرات كلها الأسمائية والصفاتية والأفعالية اللواتي هُنَّ مجموع المكونات ولا يجوز أن يغفل عن الأشياء التي به قيامُها، ولا عن الروح القائمة بهذا المعنى ولا عن المثال ولا عن عوالم الطبع، وذلك لأن الإنسان الكامل جمع العوالم الثلاثة:

الملك والملكوت والجبروت. فصورته البشرية الجامعة لجميع الصور الطبيعية عالم ملكه، وخيالُهُ الجامع الصور الخيالية والمثالية عالم جبروته، وروحانيته الجامعة كل القوى ذات التأثير والمفاعيل عالم ملكوته، فهو في حقيقته جامعٌ كل هذه العوالم وحقائقها، وسره الذي هو لطائف الله وبه تحقق بالحق المطلق عالم لاهوته؛ فهو، والحالة هذه، جامعٌ للجميع من العرش الى الفرش، فلا يتصور أن يغفل عن هذه الحضرات التي هي مجموعه فغفلته عنها غفلته عن نفسه وربه وهذا للإنسان الكامل الذي تم له السلوك فأصبح سِراً من أسرار الله.

تسلسل التكوين

فإذا كان هو بذاته كذلك فلا يمكن غفلته إلاّ من حيث الذهن والتعقّل[٣]، التعقل عن صورة ما دون، ولا يغفل عن كليّات الحضرات أيضاً فأنّه مع الحقّ الذي عيّنه

---

[١] البرزخ: الحاجز ما بين شيئين ويُسمى ما بين عالم الطبع وعالم المثال برزخاً لكونه بين الدنيا والآخرة، فإن الدنيا دار إبتلاءٍ وامتحان، والآخرة دار قرارٍ وراحةٍ والبرزخ بينهما هو الذي يدخله الإنسان بعد الموت ولا يستقر فيه بل يَجتازه براحةٍ أو تعبٍ ويسمى **بهرقوليا** كما أن قبله **جابلقا** وجابلقا فوق مقام **جابلسا**. وهرقوليا وجابلسا وجابلقا غير مَجردةٍ عن التقدُّر وفوقها عوالم مجردة عن التقدر (وهذا معنى ما بالدستور المكرم) قال الأمير:
ولي برزخ ما بين بحري صبابتي ودونهما للعاشقين بَرازخ.

[٢] الإمكان ضدُّ الوجوب، والوجوب هو ضرورة اقتضاء الذات عينها وتحققها في الخارج.

[٣] التعقل: مصدر تعقل الشيء عقله أي أدركه بعقله.

هو عين الحقّ والكلّ، وإذا فهم المعنى فلا مشاحّة[1] في التسمية فأن أول ما ظهر من امتداد النفس[2] الرحماني المتوهم لافي جسم لمّا طلب الخروج الى الغاية وهو نهاية الخلاء[3]. العقل الأول وهو المسمّى عندنا بالحجاب. ثم النفس الكليّة وهي المسمّاة عندنا بالباب، ثم الطبيعة المطلقة[4] وهو المسمّاة عندنا باليتيم الأكبر ثم الهيولا[5] وهو المسمّى عندنا باليتيم الثاني، ثم الجسم[6] وهو اليتيم الثالث ثم فلك الثوابت[7] وهو اليتيم الرابع ثم السموات السبع وما فيها من العناصر والمولّدات وهو اليتيم الخامس، وإن شئت فقل إنّ الله تفرّد بالوحدّة التي هي عين ذاته ولا صفةً زائدةً ولا نعتً زايدً عليها ثم أفاضها على خلقه.

المعنى: يقول: إذا كان الإنسان الكامل بذاته جامعاً لجميع الجموعات فلا يمكن أن يغفل عن الحضرات كلها، فإذا غفل عن حضرة من الحضرات فغفلته من حيث تعقله وإدراكه لا من حيث أنه ليس بذي قوةٍ واستعدادٍ للتعقل والإدراك، ولا تكونُ له تلك الغفلة إلا عن صورةٍ ما دون صورةٍ من صور الوجود البواقي، فإذا فُهم ما أراد فلا مناقشة في التسمية لأن المراد حقيقةُ المسمى لا الإسم. وشرع يقرِّرُ ما شرحه بأنه أول ما ظهر من فيوضات الوجود اما أراد الله الإيجاد العقل الأول وهو الاسم، وبعده النفس الكلية وهو الباب، وهكذا ثُمَّ أراد أن يعرفك الإفاضات الوجودية من وجهٍ آخر مشيراً الى رتبة الجمع فقال: إن شئت قلت إن الله تفرد بالوحدة التي هي عين ذاته بلا نعتٍ زائدٍ ولا صفةٍ زائدةٍ، ثم أفاضها على المكونات فإن الأشياء كلها صور أعيان غيرياتٍ أفاضها الباري على العقل الفعال ثم على النفس الكلية التي هي نفس العالم بأسره، ثم على الهيولى المطلقة، ثم على النفوس الجزئية. ومثل ذلك أن تعتبر صور المصنوعات كيف تكونُها في نفوس الصناع قبل

---

[1] المشاحة مصدرٌ من شاحه. ماحكه، ومنه لا مُشاحة في الاصطلاح أي لا مناقشة فيما اصطلح عليه العلماء.

[2] امتدادُ النفس الرحماني عبارةٌ عن إفاضة الوجود على الموجودات.

[3] الخلاء المكان الفارغ كنوا به عن الخلوّ من الإيجاد حينئذ

[4] الطبيعة عبارة عن القوة السارية في الأجسام يصل بها الجسم الى كماله الطبيعي والطبيعة المطلقة عبارة عن الإفاضات من قبل اليتيم الأكبر لتكوين عالم النور، وسُميت مطلقةً لأن هذه التي كونها منها مقيدة.

[5] الهيولى: لفظٌ يوناني الأصل وهو المادة وعند المتكلمين الجوهر الفرد.

[6] الجسمُ بالكسر جماعة البدن.

[7] الفلك:مدارُ النجوم والثوابت ما سوى السيارات من الكواكب وتعرف بالبيانات.

إظهارهم لها في الهيولات، فكذلك كانت الأشياء في النفس الكليـة؛ واعتبـر حـال المعلومات في أنفس العلماء قبل تعليمهم إياها للمتعلمين، فكذلك كانت الأشـياء فـي علم الباري سبحانه فأنفس العلماء علامةٌ بالفعل، وأنفس المتعلمـين علامـة بـالقوة والتعليم ليس شيئاً سوى إخراج ما بالقوة الى الفعل، والتعلم هو الخروج من القـوة إليه، فكل نفسٍ تكون أكثر معلوماتٍ وأحكم مصنوعاتٍ هي أقرب للنفس الكلية لشدة تشبهها بها كما قيل في حَدِ الفلسفة: إنها التشبه بالإله بحسب طاقة الإنسـان. فـإذا علمت أن المكونات إفاضاتٌ عن نور الله، وإن تلك الإفاضات أسماؤه وصـفاته وأن أسماؤه وصفاته ليست غيره من حيث رتبة الجمع، علمت أن الإنسان الكامل الجامع للمجموعات لا يغفل عن حضرات الوجود إلا من حيث التعقل والذهن لا من حيـث العقل والاستعداد.

إفاضة الوحدة

فأول موجود منه الوحدة[1] أمره تعالى في قوله تعالى (وما أمرنا[2] إلاّ واحدةٍ كلمحٍ بالبصر) وأول مبتدع[3] قبل الوحدة من الأمر هو العقـل الأوّل وأوّل منبعـث[4] قبل الوحدة من العقل هو النفس وأوّل مكوّن قبل الوحدة من النفس جرم الكلّ[5] ثـم

---

[1] قال فيثاغورس الوحدة تنقسم الى وحدةٍ غير مستفادةٍ من الغير، وهي وحدة الإحاطة بكـل شـيءٍ وحدة الحكمة على كل شيءٍ وحدة تصدر عنها الآحاد الموجودات والكثرة فيها وهذه كلهـا وحـدة الباري؛ والى وحدةٍ مستفادةٍ وتلك وحدة المخلوقات وربما يقول الوحدة تنقسم الى وحدةٍ قبل الدهر: وحدة الباري، والوحدة مع الدهر: وحدة العقل الأول، والوحدة التي هي بعد الدهر وحـدة الـنفس، والوحدة التي هي مع الزمان وحدة العناصر والمركبات.

[2] الأمر:طلب إحداث شيءٍ وعندهم هو صورة الوجود الفعلي الذي هو المشيئة التي هي أمره تعالى وفعله وكلمته وإضافته الى غير ذلك من الأسماء وأمره سبحانه يتنزل من تنزل الوجود من سـماء المشيئة الى سماء الأرواح الى سماء النفوس الكلية الى سماء النفوس الجزئية الى أراضي الأشـباح الظلمانية، فيعرج صاعدا من حيث أتى (واليه يرجع الأمركله)، وفي (الحقائق) جعل الحروف فعلا للمفعول به كقوله للشيء كن فيكون فالكنْ نفسه منه صنع، وما يكون به فهو المصنوع، فلذلك جُعلت الحروف فعلاً وما أخرجته الحروف المفعول به.

[3] المبتَدَعُ اسمُ مفعولٍ مِن ابتَدِعَ، وابتَدَعَ الله الشيء أبداه لاعلى مثالٍ سبق، والمحدثُ العجيـبُ لـم يُعرف قبل ذلك

[4] مُنبَعِث: اسمِ فاعل من انبعث مطاوع بعث فلاناً على الشيء حمله على فعلـه. وانبعـث الشـيء والشِعرُ كتَبعَّث اندفع.

[5] الكل ما يضم الأجزاء. والمراد به الطبيعة المطلقة: اليتيم الأكبر.

أفاضت الوحدة على الطبائع والْمركّبات[1] فقامت الْموجودات كلّها بوحدانيّة[2] الأمر الأعلى والله سبحانه هو الأحدُ[3].

المقدمة الثانية لإفاضة الوجود

(الصَّمَدُ[4]، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

المعنى: يقولُ: جمع الله لنا أسراره، مدللاً على ما ذكره من أن الإنسان الكامل يسمع نطق الوجود بعد ما ذكر التكوين بالفيوضات: إن أول موجودٍ من توحده سبحانه وتفرده، أمْرُهُ الذي هو المشيئة وهي فعله وهي، على ما أرى، قديم الميم الذي كان عنه المحدَثُ. وأول مخترع من قبل الأمر العقل الأول (فيكون هو محدَثَ الميم) وأول منبعثٍ من قبل الوحدة من الفعل هو النفس الكلية التي عنها كانت النفوس الجزئية، وأول محدَثٍ من قبل الوحدة من النفس الكلية جرمُ الكلِ الذي عنه كانت المكونات السماوية، ثم أفيضت الوحدة على المكونات المعقولة والمحسوسة فقامت قِبلةُ الموجودات التي هي عبارةٌ عن الكثرات من الأسماء والصفات بتوحُّدِ الأمر الأعلى، والله سبحانه هو المنزه عن أخلاط الكثرات ونقائض المكونات، المصمود لقضاء الحاجات لم يلد بإيجاد المكونات عنه، ولم يوجد عن غيره، بل هو واجب الوجود لنفسه. وقد مر بك أن امتداد النفس الرحماني عبارةٌ عن الفيوضات التكوينية؛ فأول ممتدٍ عن هذه النفس العقل ثم الباب ثم اليتيم... ثم... ثم الخ. وهذا الكلام كشرح لما تقدم، وما تقدم إجمالٌ لما قالت الفلاسفة الإلهيون: إن

---

[1] المركبات جمع مركبٍ: مفعولٌ من رُكِّبَ: وضع بعضه فوق بعضٍ والمراد ما تركب من نوعين متباينين كالإنسان.

[2] الوحدانية نقيض الكثرة.

[3] الأحد قد يستعمل خاصاً بالله وهو مبالغةً في الوحدة، والبالغ في الوحدة لا يكون فيه شَوْبُ كثرةٍ بوجهٍ من الوجوه، لا كثرةَ العدد ولا كثرةَ الأجزاء المقدارية ولا كثرةَ الأجزاء الخارجيةَ من المادة والصورةَ، ولا كثرةَ الأجزاء الفعليةَ من الجنس والفصل، ولا ولا بهذا المعنى لا يوصف به إلا اللهُ، ولهذه المبالغة خصصوا الأحد بمقام الغيب الذي ليس فيه كثرة ولا لحاظ كثرةٍ، وقالوا: الأحد اسمٌ لمقام الغيب الذي لا اسمٌ ولا رسمٌ كما أن الواحد اسمٌ لمقام ظهوره بإسمائه وصفاته، ففي مقام الواحديةَ هو متكثرٌ بكثرة الأسماء والصفات، بحيث لا تنثلمُ وحدته بها وفي مقام الأحديةَ لا كثرة فيه البتةَ.

[4] الصَّمَدُ محركةً: السيدُ لأن الصمد بالسكون: القصدُ والسيدُ من شأنِهِ أن يُقصَدَ، والدائمُ والرفيعُ والمصمَتَ الذي لا جوف له. فمعنى الصمدِ أن الله في عين استجماعه لجملة الصفات منزهٌ عن جميع الكثرات لا تَشوبُهُ كثرةٌ من كثرات الصفات.

الوجود الواجب له مراتب: المرتبة الأولى غيبٌ مطلقٌ لا اسم له ولا رسم وهو الوجوب الذاتي. ومرتبةٌ منه فعل الوجوب الذاتي وهو ظهور الأسماء والصفات، وهي عنوانٌ له بأسمائه الواحدية، فبأعتبار كونها اقتضاء إيجاد العالم تُسمى بفعله، وباعتبار كونها موجوداً واحداً جميعاً تُسمى بالله. ومرتبةٌ منه عالم المجردات ذاتاً وفعلاً ويسمونه العقول والأرواح والملائكة المهيمين، والصافات صفاً والعقول الطولية والعقول العرضية، وأرباب الأنواع وأرباب الطلسمات. ومرتبةٌ منه عالم المجردات بالذات لا بالفعل ويسمى بالمدبرات أمراً، وينقسم الى النفوس الجزئية، يعني اللوح المحفوظ ولوح المحو والإثبات. ومرتبةٌ منه عالم المثال وفيه البداء الذي ذُكر بالأخبار. ومرتبةٌ منه عالم الماديات من سماواته وسماوياته وعنصره وعنصرياته. وهذا العالم مجمع الأضداد ومورد المتخالفات. ومرتبةٌ منه عالم الجِنة والشياطين فإذا أردت عرفان هذه المراتب وفلسفة معرفتها مجملةً فارجع لرأي السيد أبي عبد الله عن مواليه الكرام من أن الله سبحانه اخترع السيد محمداً ثم الباب ثم اليتيم ثم... ثم كما تعلم، وما لكل من هذه المفاعيل كما في ذكره للصفات الأربع والقدر الأربع ولا غيره باختلاف الأسماء والألفاظ فاختلاف الأسماء بحسب اختلاف المفاعيل، ومفاعيل كل واحدٍ منهم منوعةٌ كما علمت وتعلم فيجب أن تكون أسماؤهم بحسب مفعولاتهم.

أسرار الأربعة

فإذا فهم ماقرّرناه فنقول: إنّما كانت هذه الحقائق[١] الألهيّة والكونيّة منحصرة في الأربعة لا أقلّ ولا أكثر لأنَّ الأربعة أصلٌ في البسائط[٢] العدديّة والبسائط أصلٌ في تراكيب الأعداد إلى ما لا يتناهى والدليل على ذلك إنّ بسائط الأعداد من واحدٍ إلى عشرةٍ وليس في البسائط مايجمع العشرة إلاّ الأربعة فأنّ الأربعة حقيقتها أربعة وفيها الثلاثة فكانت سبعة وفيها الاثنان فكانت تسعة وفيها الواحد فكانت عشرةً وليس في الأعداد عددٌ يتضمّن العشرة غيرها[٣].

---

[١] كما تقدم هي الأركان الأربعة: الحياة والعلم والإرادة والقدرة.

[٢] البسائط جمع بسيطٍ ضد المركب، وبسائط الأعداد من واحدٍ الى عشرةٍ لأنها غير مركبةٍ بل كلماتٌ مفردةٌ.

[٣] لفلاسفة الدين أراءٌ في العدد كلها سديدٌ مُفلحٌ

المعنى: يقول : إنما الحقائق الذاتية الأربعة الحياة والعلم والإرادة والقـدرة منحصرةٌ في الأربعة أصل البسائط العددية وكلها. فالبسائط من الواحد الى العشـرة وما فوقها مركبٌ يرجع إليها، والأربعة هي العشرة لأن الأربعة بها الواحد والإثنان والثلاثة والأربعة نفسها فتكون عشرةً وليس بها الأعداد ما يجمع العشـرة غيرهـا، والعشرة كلُّ العدد لأنك عندما تبلغ العشرة ترجع الى الواحد مع العشرة ثم الإثنـين مع العشرة وهكذا الى آخر ما تظن والأعداد لا نهاية لها. وكذلك تفرع عن الحقائق الأربعة الإلهية الأربعة جميع الحقائق العقلانية والمادية وقد مر بك كلام عن العـدد هنا وفيما تقدم يجعلك تنتبه الى الأسرار العددية فيحرك التنبيه الى الأنوار المعقولات وأسرار التكوين.

البنات الأربع

فلهذا السرّ العددي والحكم القدري والحكمة الألهية صار هذا البيت المكـرّم والحرم المعظّم مبنياً على قواعد أربع مطابقاً للبيت الوجودي الإلهي والعالم الخلق الكوني.

فاعلموا أخواني رحمكم الله إنّ جنات[1] العقول[2] عـالم الكلمـات[3]. وجنّـات النفوس[4] عالم العقول وجنات الطبائع[5] عالم النفـوس وجنّـات المركّبـات[6] عـالم

قال (فيثاغورس) الوحدة بالعرض تنقسم الى ما هو مبدأ العدد، وليس هو داخلاً في العدد، والى ما هو مبدأ العدد وهو داخل فيه، كالجزء له مثل الإثنين إنما هو مركبٌ من واحدين، وكذلك كل عدد مركبٌ من آحاد لا محالة، وحيثما ارتقى الى الكثير نزلت نسبة الوحدة فيه الى القل، والى ما يختص فيه كاللازم له لا كالجزء فيه، مثل الإثنين والثلاثة في كونهما إثنين وثلاثة واحد، وكذلك المعدودات من المركبات والبسائط واحدة إما في الجنس وإما في النوع أو في الشخص كالجوهر في أنه جوهر على الإطلاق والإنسان في أنه إنسان والشخص المعين مثل زيد في أنه ذلك الشخص بعينه واحد، لم تنفك الوحدة من الموجودات قط، وشرف كل موجود بغلبة الوحدة فيه، وكل ما بعد الكثرة فهو أشرف، وقد جرّد العدد من المعدود تجريد الصورة عن المادة ويميل الى أن ابتداء العدد الاثنين، [illegible] هو السبب الأول والزوج السبب أربعة وهو المنقسم بمتساويين، ولم يجعل الاثنين زوجاً [illegible] تنقسم الى واحدين كون الواحد داخلاً في العدد ويجعل ابتدائه في العدد من اثنين. والزوج [illegible] نفسه فكيف يكون نصفه. والفرد السبب الأول ثلاثة. قال وتتم القسمة بذلك وما وراءه فهو [illegible] القسمة، والأربعة نهاية العدد وهي الكمال ومن هذا كان يقسم بالرباعية التي هي عشرة [illegible] أصل الكل ومبدأ العدد الاثنين وهو العقل باعتبار أن فيه اعتبارين: اعتبارا من حيث ذاته، واعتبار من حيث مبدعه. والمعدود الذي فيه ثلاثة هو النفس ازداد على الاعتبارين اعتبارا ثالثاً. والمعدود الذي فيه أربعة هو الطبيعة ازداد على الثلاثة رابعا وثم النهاية وما بعده من المركبات. الجنات جمع جنة وقد عدّها عشرة [illegible]

البسائط[6] وكلّ عالم فوق عالم فهو (في جنّةٍ عالية قطوفها دانية) وحورها[7] (حورٌ مقصورات[8] في الخيام) وولدانها[9] (ولدانٌ مخلّدون) مخلّدون على الدوام فهذا ما أردنا إيراده في هذه المقدّمة الثانية والله الهادي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

المعنى:يقول: إن لهذا السر العددي المذكور آنفاً صار هذا البيت الشعبي مبنياً على قواعد أربع هي معرفة إثبات وجود المعنى القديم ومعرفة الإسم العظيم ومعرفة السبب الموصول ومعرفة حقيقة الإيمان، وهي قواعد هذا الكتاب الأربع فهو على مثال البيت الإلهي التكويني المبني على الأركان الأربعة: الحياة والعلم والإرادة والقدرة التي كان بها التكوين كما مر بك مطابقاً للبيت المحجوج. والأربعة هي البسائط العددية، وأفيض عنها سائر الأعداد المركبات كما مر كذلك هذه الأركان الأربعة أفيض عنها بتنزلات الوجود سائر المكونات فهي جنةٌ لما أفيض عنها، وما أفيض عنها جنةٌ لما أفيض عنه، وهكذا.

خلاصة المقدمة الثانية

المقدمة الثانية هي معرفة أن البيت الإلهي مصدر التكوين بتنزل الوجود مبنيٌ على أربع قواعد ولهذا السر صار البيت الشعبي مؤسساً على أربع معارف مطابقاً

عدن، الفردوس، النعيم، المأوى، الخلد، دار المقامة، دار السلام، ويزعم بعضهم أنها أبواب الجنة وقد عدها أربعاً باعتبار العوالم الأربعة التي ذكرها كل عالم جنة لعالم الذي فوقه.

العقول عالمان عالم العقول الطولية وعالم العقول العرضية.

أصل الكلمات: الولاية وكل الكلمات من العقول والنفوس والأشباح النورانية والأشباح الظلمانية والعبارات والنقوش الكتابية أظلال لتلك الكلمة وكذلك المنبثة التي هي نفس الرحمن وإضافته الإشراقية وقرب المصنف باعتبار تعلقه بالمخرج تحصيه التي هي الأعيان الثابتة(العوالم النورية) والمهيات الاعتبارية كلمته تعالى باعتبار توحده وكلمته باعتبار تعدده فإن له في نفسه وحدة طلبية وبالكثرات وحدة اعتبارية والصفتيه. وقد مر بك أن الكلمة لا تختص لها بالكلمات الصوتية ولا بغيرها.

النفوس تالي العوالم وهي النفوس الكلية والنفوس الجزئية المعبر عنها بالمجردات أمراً.

الطبائع ثالث العوالم التي وجودها وجود تعلقي مادي وقد مر بك أنها هي التي كون عالم النور منها.

المركبات جمع مركبة: النوع المركب من نوعين مختلفين.

[6] البسائط جمع بسيط ضد المركب وهي الأنوار التي فوق العرضية دون المجردات.

[7] الحور جمع حوراء لا يقصد بذلك حور عينيها.

[8] المقصورات جمع مقصورة المرأة المحبوسة في البيت لا تترك أن تخرج منه، ومنه حورٌ مقصورات في الخيام.

[9] الولدان جمع وليد: الصبي.

وهذه المعارف الأربع أركان البيت الشعيبي هـي مجمـوع للبيت الكوني المحجوج وأركان البيت الإلهي الذي هو التجلي لأهـل كتابه قدسه الله أو جمعها كتابه جميعها هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة واللواتي اليقين الثاني الظاهر بمظهر الإسم الخالق في المكونات كلها. ولهذه الأركان الأربعة لوازم ثلاثٌ هـي:القـول هنَّ أداة العمل والجود والأقساط وهن تتماتٌ وشروطٌ للأركان الأربعة، يظهر تمام أحكام المكـون وآثار أفعاله فإن كل فعل لا يكون إلا عن ذي حياةٍ عالمٍ شيئاً في نفسه مريدٍ أن يفعل ذلك الشيء ويكون قادراً على ذلك الفعل فيكون بذلك كالآمر نفسه بإظهار الفعـل ن فحينئذٍ تكون حضرت جميع المؤهلات للفعل. ففي إيجاد الله سبحانه للأرواح الكليـة يكون قوله سبحانه (كُنْ) ركناً يستند عليه الإيجاد والقدرة تتمة للإيجاد وشرطاً، لأن الإيجاد لا تتم إلا بالقدرة وبإيجاده للأجسام الكلية بالعكس تكون القدرة هـي الـركن الذي يستند عليه الإيجاد والقول تتمة له وشرطاً لأن الأجسام تحتاج الى مادة تتكون منها ومدةٍ زمانيةٍ تتكون فيها وذلك بالنسبة لما فوقها خلافاً للأرواح الكلية فإنها غير محتاجة الى مدةٍ ولا مادةٍ ولذلك كانت كلمة (كُنْ) الأمرية ركناً في إيجادهـا. وقـد تختص كلمة الخلق بما يحتاج الى مادة ومدةٍ كالمواليد، والإختراع بما يحتـاج الـى مادةٍ دون مدةٍ كالسماوات والعناصر، والإنشاء بالمتقدرات المجردة عن المـادة(إِنَّـا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً) والإبداع بالمجردات عن الكل والجود شرط ظهور أثر القول فـي كل ذلك الإيجاد جميعه جودٌ منه سبحانه، وإفاضة الوجود في اختيـار الله سـبحانه وحكمه وأمره الذي كان به الإيجاد الصادر من مرتبة الإلهية التي هي التجلي لأهل اليقين الثاني وكل ذلك بسراية مفاتح الخزائن الغيبية وهي الحيـاة والعـالم والإرادة والقدرة. وأما القسط فهو شرطٌ في صحة الإيجاد ليكون التكوين في كل شيءٍ بحسب القابل لظهور هذه الأسماء الذاتية في باطنه من وراء ظاهره الذي يصدر عنه الفعل وصدور الفعل هو حقيقة من الفاعل الظاهر بباطن الفاعل الذي صدر عنه الفعـل، وهو مظهر هذه الأسماء الذاتية التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة بصورةٍ تقبل حكم الله وأمره الإيجادي ليكون هذا الفاعل المتجلي من وراء ظاهر هـذه الصـورة الإيجادية عين الحق سبحانه من حيث اسمه الباري في اللوح المحفوظ، وكما تعلم أن أسماء الله هي الفاعلة في جميع المكونات فالهدى من اسمه الهادي والرحمـة مـن اسمه الرحيم وهكذا.. ولكل من هذه الأركان الأربعة مظهـر خـاصٌ بـه صـورةٌ روحانيةٌ مجردةٌ مع اشتماله على آثار ومفعولات البواقي من الأسماء. وهذه المظاهر

هي اسرافيل وجبريل وميكال وعزريل فكان اسرافيل مظهراً لركن الحياة الكلية العلوية والسفلية ولذا كانت الحياة الأبدية متعلقةً بنفخة اسرافيل الثانية بالصور الذي هو مجمل الطبيعة العلوية والسفلية يعني منه مدد الحياة السارية في المكونات ولذا قيل: إن بالصور أثقاباً بعدد الخلائق فأولى نفختيه تكون بإصعاد النفخ لإرجاع المنفوخ فيه من ظاهر حسه الى باطنه أي بيتَهُ عن حياته الطبيعية راجعٌ الى اصلها الأخروي، أي أنه نفخ فكانت المكونات عنه كما يخرج النفس من النافخ ثم أرجع النفس فكانت إماتة المكونات عن حياتها الطبيعية بإحيائها في الحياة الأخروية. فبخروج النفس كانت المكونات وبإرجاع النفس عادت الى أصلها. ثم يبتدئ حكم ظهور الحياة الطبيعية الدنيوية في النشأة الأخروية. قال تعالى (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) (سورة الزمر: من الآية ٦٨) بإماتتهم عن ظواهرهم، ثم نفخ فيه مرة أخرى فإذا هم قيام ينظرون (إحياؤهم ببواطنهم) وأشرقت الأرض بنور ربها فلهذا كان اسرافيل مظهراً لركن الحياة مع اشتماله على خواص البواقي من الأسماء الذاتية: العلم والإرادة والقدرة. وكان جبرائيل من اللوح المحفوظ مظهراً لركن العلم فلهذا كان حاملاً للوحي ومعلماً للأنبياء وواسطة لتكونِ عيسى (كلمة الله ألقاها الله الى مريم) فكان له جهتان وحكمان وهما العلم والقول الذي هو الأمر كما لأسرافيل جهتا الحياة والقدرة وكان ميكائيل مظهراً لركن افرادة، فإنه مُرتبٌ لما فيه بقاء كيان الخلق من الرزقين المعنوي كالعلم والجاه والصوري كالمال والمآكل وما أشبه. وكان عزرائيل مظهراً لركن القدرة بقهر الجبابرة بالموت غير مدافعٍ ولا ممانع، وكما أن جميع الحقائق الإلهية والكونية من توابع هذه الأسماء الأربعة الحياة والعلم والإرادة والقدرة، فكذلك جميع الأرواح من توابع هذه الملائكة الربعة إلا القلم العلي الذي كتب به المكونات في اللوح المحفوظ (وهو على ما أرى تجلي الحق كصفة اسمه) والمهية وهم الملائكة المخلوقون من العماء فوق القلم على رأي ابن عربي (ويكون تجلياً إلهياً كذلك) وعند المؤلف المهية هم المشيئة والفطرة والعلم والقدرة واللطف الخفي وكلها تجلياته سبحانه ولكل واحد من هذه الأربعة:اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل ظلٌ يمثله: فالظل الأول العقل الكلي. والثاني النفس الكلية والثالث الكلمة الكلية والرابع الصورة الكلية، ولكل من هذه الظلالات صورةٌ طبيعيةٌ: الحرارة الكلية، الرطوبة الكلية، البرودة الكلية، اليبوسة الكلية. ولهذه الصور أربعة عوالم:

عالم المعدن، عالم النبات، عالم الحيوان، عالم الإنس والجن.

والإنس والجن قسمان: قسمٌ منحرف غافلٌ. وقسمٌ معتدلٌ عاقلٌ مخلوقٌ على مثال الصورة الجامعة الصور الكلية، أي على مثال صورة الله فهو خلاصة المكونات عُلويّها وسفليها والظاهر فيه جميع المكونات عُلويّها وسفليها، كما مر، وهو الناطق عن الجميع بجميع الألسنة المعنوية والحسية والسامع نطق الجميع. وذلك أن لكل شيءٍ جهتين جهة ملكوتية يتجه بها الى الله، وجهةً ملكيةً هي ظاهر محسوسة المرئي، فلا يُتصور من الإنسان الغفلة عن حضرات الوجود كلها بل يغفل عن حضرةٍ ما دون بقية الحضرات وغفلته من جهة تعقله فقط لا من جهة استعداده للتعقل لأن الجميع موجودٌ به، فهو بناسوته التركيبي جامعٌ لجميع الصور العنصرية، وبخياله جامع الصور الغيبية المجردة وهو بما به من عالم الجبروت وبروحانيته جامعٌ الخصائص وهي المفاضة عليه من عالم الملكوت وبحقيقته جامع الجميع وببرزخيته جامعٌ بين جميع العوالم لأن البرزخ الحد ما بين عالم النور وعالم الظلمة. ولما لم تخلُ حقيقةٌ من الحقائق من كمالٍ يناسبها وكانت الحياة شاملة الجميع كان الإسم الحيُّ شامل الجميع. ولما كان العالم متعلقاً بمعلومات مفصلة، والإحساس للحياة كان العالم داخلاً في الحياة، ولما كانت الإرادة من خصائص العلم كانت الإرادة داخلةً في العلم، وناشئةً منه، ولما كان القول يتضمن معنىً مُراداً كان داخلاً في حكم الإرادة، ولما كانت القدرة تُمكننا من التأثير في الفعل كانت داخلةً في حكم القول ولما كان الجود هو التمكن من قبول اقتضاء الإيثار كان داخلاً في حكم القدرة، ولما كان الأقساط لإيثار قسط كل ماله قسط استعدادي يقبل من الجواد ما يؤثره دخل في الجود ومجمع الجميع من هذه الأسماء الإسم (الله) فلأن الحقيقة التي هي عين التعين الثاني لظاهركلمة الاسم (الله) والإسم الحي جامعها من حيث طلب الكمال المستوعب، والعلم من عموم التعلق والمريد من حيث طلب الكمال والقائل من حيث كل واحدٍ تعين النفس الرحماني، والقادر من حيث صحة إفاضة تمكن التأثر الى كل تأثرٍ الى الكل، والمقسط من جهة رعاية كل حكمٍ التوسط بين قيام الوحدة الحقيقية والنسبية إليه، ولكل من هذه الأسماء جهتان: إحداهما اشتمال كل منهما على الباقي مع تحقيق أثر من التمايز كما ذكر من كون البرزخية الثانية واقعة في التعين الثاني ووجوه نسبته الى الأبدية. وثانيتهما عكس الجهة الأولى، أعني

ظهور أثر المختص بكلٍ منهما مع أثرٍ خفيٍ من الاشتمال المذكور فتميزهــا بحكـم تفصيل البرزخية وحكم وحدتها واشتمالها. والذي عرّفنا إياه من تنزل الوجود مــن الصفات الأربع ظلالاتٍ وصوراً وأشخاصاً أربعاً فأربعاً مشيراً الى رتبة الفرق ثــم أراد أن يعرفنا الوجود من جهةٍ أخرى من جهات الفرق فقال:

إن أول ما ظهر من امتداد الوجود العقل الأول (الحجاب) ثم الــنفس الكليــة (الباب) ثم الطبيعة المطلقة (اليتيم الأكبر) ثم الهيولى (اليتيم الثاني) ثم الجسم (اليتيم الثالث) ثم فلكُ الثوابت (اليتيم الرابع) ثم السماوات السبع وما فيهن مــن العناصــر والولدان(اليتيم الخامس).

ثم عرفنا تنزل الوجود من جهة الجميع فقال(وإن شئت قلــت إن الله ســبحانه تفرد بالوحدة التي هي عين ذاته ثم أفاضها على مكوناتها) بالترتيب المــذكور فــإذا فهمت ما قرره في هذه المقدمة علمت أن الحقائق الإلهيــة الحيــاة والعلــم والإرادة والقدرة ، منحصرة في الأربعة لا أقل ولا أكثر لأن الأربعة أصل البسائط العدديــة من واحدٍ الى عشرةٍ لأنها غير مركبةٍ من كلمتين، والأربعة تجمع العشرة لأن فيهــا الواحد والإثنين والثلاثة والأربعة فالجميع عشرة فلهذا السر العددي فــي الأربعــة الذاتية صار هذا البيت الشعيبي مبنياً على قواعد أربعٍ مطابقاً للبيت الوجودي الإلهي المذكور(تنزل الوجود) وإتماماً لما في الأربعة من السر قال: إن جنات العقول عالم الكلمات، وجنات النفوس عالم العقول، وجنات الطبــائع عــالم النفــوس، وجنــات المركبات عالم البسائط، وكل عالم جنةٌ عالية حورها مقصورات في الخيام وولدانها مخلدون على الدوام. وإذا لم أقدر بعد على إفهامك البيت الإلهي وأركانه ولوازمها، فإني أضرب لك مثلاً لعله يعينك على تفهم هذا البيت الذي معرفته هــي المعــارف الإلهية كلها تصور هذا البيت بيتاً عادياً للسكن واجعل أركانه الأربعة هــي أركــان البيت الإلهي الأربعة الحياة والعلم والإرادة والقدرة، واعلم أن هذا البيــت العــادي يحتاج في بنائه الى لــوازم هــي أدواتٌ تُعــين علــى قطــع أحجــاره وتربيعهــا ونحتها(كالهادرور) والأزميل والمشط واجعل هذه الأدوات الثلاث التي ذكرت القول الذي هو كن الأمرية والجود والنصيب والقابل، فهي ولا شك تتمــة وشــروط فــي أحكام بنائه وتصور أن (الهادور) هو كن المرية والجود هــو المشــط والنصــيب هوالإزميل (فالهادور) عندما يريد قطع الحجر للبناء من صخرة كبيرة يكــون هــو

القدرة التي يستند عليها قطع الحجر من الصخرة والإزميل والمشط الكفيلان بتربيعها وتحسينها تتمة في ذلك وشرطاً، لأن الهادور لا يعمل عملها وعندما نريد تربيع الحجر ونحته ليكون صالحاً للبناء يكون المشط ركناً يستند عليه تحسين الحجر وتزيينه (والهادور) تتمةً له وشرطاً، لأن الحجر لا يكون صالحاً لاستعمال المشط والإزميل إلا بعد فصله عن الصخرة بواسطة الهادور، والإزميل الذي سميناه النصيب والقابل شرطٌ في صحة البناء لتربيع الحجر وتصوره. إن هذه الأفعال التي تظهر من البناء بواسطة (الهادور) والإزميل ليست فعل أعضائه الظاهرة بل بواسطة قوةٍ كامنةٍ في باطنه وهذه القوة الباطنة التي كان بها العمل هي مظهر لتجلي الحق سبحانه من حيث إسمه الباري في اللوح المحفوظ الذي به كل الأسماء وسائر الأشياء. تمثل هذا في مخيلتك وقس على بناء ذلك البيت العظيم البيت الصغير والسقيفة وهكذا بحسب تنزل الوجود على مثل ما ذكر قدسه الله، تعلم ما اراد من بناء البيت الإلهي من أركانٍ أربعةٍ، وما أحتاج البناء من لوازم وتتماتٍ هدانا الله وإياك للمعرفة التامة الموجبة لحسن القبول التام...

القاعدة الأولى

في بيان معرفة و إثبات وجود المعنى القديم وظهوره بذاته ووجوده لخلقه لخلقه

التنبيه الأول

في بيان معرفة أثبات وجود المعنى القديم من طريق الاستدلال عليه بالوجود وظهوره بذاته لخلقه

أعلموا أخواني أيّدكم الله بروحٍ منه إنّ حقّ اليقين في إثبات وجود الْمعنى القديم أن يُستدل عليه بالوجود، الذي هو جنس الأجناس وهو الْمعلوم ثم الْمذكور ثم الشيء[1] وهو الجنس[2] الأعمُّ الذي لم يخرج منه معلومٌ ولا مذكورٌ أصلاً لا خلق

---

[1] الشيء عبارةٌ عن موجود إما حِساً كالأجسام وإما معنىً كالأقوال وهو مذكرٌ يطلق على المذكر والمؤنث، ويقع على الواجب والممكن، وقد يطلق الشيء ويُراد به وجوده فلا يشمل الحق الأول ولا حضرة الأسماء ولا حضرة العقل الذي هو مبدأ إضافته ويشمل الممكنات من حضرة العقول المعبر عنها بالأقلام العالية والملائكة المقربين.

[2] الجنس: ما يَعُمُّ كثيرين، وعند المنطقيين هو المقول على كثيرين مختلفين في الحقائق في جواب ما هو وله معانٍ عديدة.

ولا حقّ ولا ممكنٌ ولا واجبٌ ولا محال إلى أن ينتهي إلى النوع[1] الأخير الذي لا نوع بعدَهُ إلاّ بالصفات وتظهر أعيان الأشخاص.

المعنى:يقول : بعد أن علّمنا أن البيت الإلهي مبنيٌ على أركان أربعةٍ ، الحياة والعلم... الخ أن هذا البيت المكرم والحرم المعظم صار مبنياً على أربعة أركان هي قواعد كتابه الأربعُ. والأصول التي صدرت عن الأركان الإلهية بتنزل الوجود أربعاً فأربعاً، ومراتب اليقين أربع وحقائق العدد أربعٌ والجنات بحسب العوالم أربعٌ، وكل هذه الأربعات التي هي كل شيءٍ، شرحها شرحاً وافياً. كما مر بك. وهذه القاعدة الأولى من قواعد كتابه الأربع خصيصةٌ.

بمعرفة الله سبحانه من طريق الاستدلال عليه بالوجود الذي يضم جميع أجناس المكونات المعلوم منها عقلاً وبصيرةً ثم المذكور منها علماً ومعرفةً فهو الشيء الذي يطلق على كل شيءٍ، فإذن الوجود هو الجنس الأعمُ الذي لايخرج عنه لا خالقٌ ولا مخلوقٌ ، ولا ممكن (والمراد به عوالم النور) ولا واجبٌ غير متغيرٍ عن كيانه(والمراد به حضرة الحق سبحانه) ولا مستحيل ولا متغير من الاستواء الى العوج (والمراد به عالم البشر) فالوجود هو الأشياءُ كلها من هنا الى النوع الآخر وهو العقل الأول الذي لا نوعِ بعده إلا معناه، ومعناه لا يُعرف إلا بالصفات وتجليه بالأشخاص. ولا عبره. فيما ذُكر. من تحيد الشيء أنه لا يشمل الحق الأول، فهذا عند التنزيه وإلا فقد أتى عن الصادق والشيخ وغيرهما أن الشيء يُطلق على الحق الأول وغيره.

وهو عبارة عن شخص واحد في الخارج به يكون الشيءُ هو ما هو وهو هو لذاته فلا هو ولا هو هو أيّ هو النفس ماهيّة وقيل الوجود هو ما به وجدان صورة كلّ تعيينِ منه نفسها ومثلها موجوداً وروحانيّاً[2] ومثاليّاً وجسمانيّاً[3] ظاهراً في كلّ مرتبة بحسبه وحكمه فإن الموجود في مرتبة الأرواح لا يجد نفسه ومثله

---

[1] النوع بالفتح كل ضربٍ من الشيء وكل صنفٍ من كل شيء وهو أخصُ من الجنس وجمعه انواعٌ.

[2] الروحاني بالضم نسبة الى ما فيه روحٌ وكذلك النسبة الى الملائكة والجن. وألف والنون زائدتان لان النسبة الى الروح روحي. وهي سماعية لا يقاس عليها إلا إذا أريد بها الدلالة على عظيم المنسوب، كالصدراني، عظيم الصدر، وقد مر بك أن الأرواح عالمٌ قائمٌ بذاته.

[3] الجسماني بالكسر المنسوب الى الجسم والجسمان وهو من كلام المولدين. وسيمر بك أن الجسمانيات غير الأجسام في غرفهم.

إلاّ جسمانيّاً محسوساً. وقيل: الوجود هو الذي يشمل الثبوت بكل اعتبارٍ حتّى يدخل فيه العدم الإضافي وليس هو معروض للماهيّة حتّى يكون عرضيّاً بل الْماهيّة[1] هي عرضاً في الوجود.

المعنى: يقول: إن الوجود عبارة عن شخصٍ خارجٍ عن غيره متحيزٍ بنفسه وبهذا الشخص الذي هو الصورة المشار إليها يكون الشيء هو الشيء ولكنه ليس هو هو لذاته لأن ذاته هي القوة الإلهية القائمة به فلا هو ما هو لأنه عين ذاته وهو هو ولا هو هو لأن الشيء المتحيز هو غير نفسه وحقيقته نفسه وهي غير ماهيته المادية. وقيل إن الوجود ما به وجود جميع الأنواع بكل اعتباراتها ومراتبها: روحانيةً ومثاليةً وجسمانيةً (قد مر بك تقسيم العوالم) من أول مخترع الى أن يدخل الوجود في العدم اضافي (آخر المكونات) وهو هذا المحسوس، والمحسوس لا هو موجودٌ بحقيقة معنى الوجود ولا معدومٌ بحقيقة معنى العدم. غير أن الموجود في كل مرتبةٍ لا يجد نفسه ولا مثله بالنسبة الى الأعلى منه إلا جسمانياً محسوساً وليس الوجود عرضاً للماهية كما توهم بعض الحكماء يقوم بها كالجسم يقوم بالروح فيكون لولا الماهية عدماً، بل الملهية التي تضم كل معقولٍ وحسوسٍ عرضٌ بالوجود تقوم به وهو جوهرها(وقد تقدم بالمقدمة عن الوجود ما به كفاية وغنى) وهذه الجملة (هو ما هو) بِها تشويش مُعمًى فصححتها كما رأيت إستناداً على تحديدهم الماهية ولعلها استقامت.

---

[1] الماهية تبحث عن حقيقة الشيء وحقيقة الشيء تُعرف بالحد والرسم وذلك أن الأشياء نوعان مركبٌ وبسيطٌ، فالمركب مثل الجسم والبسيط مثل الهيولي والصورة. والأشياء المركبة تعرف حقيقتها إذا عُرفت الأشياء المركبة منها. مثال ذلك: إذا قيل ما حقيقة الطين؟ فيقال ترابٌ وماءٌ وعلى هذا القياس. ويُسمى مثل هذا الوصف حداً، فقد قالوا في حد الجسم إنه الشيء الطويل العريض العميق. فقولهم الجسم إشارة الى الهيولي وقولهم الطول العرض والعمق إشارة الى الصورة. وهكذا قولهم في حد الإنسان إنه حيّ ناطقٌ مائت، فالحي الناطق النفس والمائت الجسد وأما الأشياء التي ليست مركبة بل مخترعة مبتدعة فحقيقتها تعرف من الصفات المختصة بها. فإذا قيل ما حقيقة الهيولى؟ فقال: جوهر بسيط قابل للصورة لا كيفية فيه البتة.
وإذا قيل ما الصورة؟
فيقال هي التي يكون بها الشيء ما هو. فمثل هذا الوصف تسميه الحكماء الرسم، والفرق بين الحد والرسم أن الحدِ ماخوذ من الأشياء التي المحدود مركبٌ منها، والرسم مأخوذ من الصفات المختصة بالمرسوم وفرق آخر أن الحد يخبرك عن جوهر الشيء المحدود ويميزه عما سواه.

تحرير الوجود

وقيل الوجود من حيث هو غنيٌّ عن التحديد والتعريض لوضوحه وظهوره عند الذكي والبليد والغويّ والرشيد وتصوّره[١] بديهيٌّ[٢] فطريٌّ[٣] إذ لا يفتقر أحداً في إدراكه إلى دليل من خارج ولا إلى سلّم ومعارج لأنّ كلّ أحدٍ غير غائب عن وجوده الخاصّ به وهو الذي يشير إليه كلّ واحد بقوله (أنا) وهو أنانيتُهُ الذي يشير إليها غيره ولهم هاهنا قياس يقيني وبرهان نظري لا يشك فيه عاقلٌ لبيب وهو قول القائل تصوّر وجوديّ بديهيٌّ، فالوجود جزءٌ منه وتصوُّرُ جزء المتصوّر بالبديهيّة بديهيٌّ فالوجود بديهيٌّ وهو من حيث مفهومه لا جزء له ولا أعمّ منه فلا جنس[٤] له فلا فصلَ له[٥] فلا حدَّ له[٦] ولا لازمَ[٧] أظهَرُ منه فلا رسم[٨] إذ إنّ الحدّ عبارة عن الجمع بين الجنسين والفصل وليس للوجود جنس اعمّ منه حتّى يضاف إليه فصله فيحصل منه الوجود والرسم عبارة عن تعاريف الشيء الحقيّ الواضح من الوجود ولا أظهر منه ولا أشهر حتّى يُعرَّفَ به الوجود ولكن إذا ذكر لفظ الوجود المعجميّ ولم يفهَم بدله بالعجميّة ليفهم المراد باللفظ.

المعنى: يقول : إن الوجود الذي يُستدلُّ به على الموحد من حيث هو على ما هو عليه غنيّ عن أن يُعرَّفَ أو يحدد لوضوحه للعالم والجاهل لأن الوجود يُعلم

---

[١] تصور الشيء توهم صورته وتمثلها وعند المنطقيين هو إدراك المفرد، والتصديق إدراك النسبة، وعند ابن سينا التصديق هو العلم الأول ويكتسب بالجد أو ما يجري مجراه مثل تصديقنا أن لكل مبدا:

تصُوري تصديق أهل النهى ... لذا بديهيّ لهم كسَب

[٢] البديهُ المفهوم المعلوم من دون تفكر، وهو ما لا يتوقفُ حصوله على كسب ونظر.
[٣] الفطري: المنسوب الى الفطرة وهي الخلقة التي خلق المولود عليها في رحم أمه، والجبلة المهيأة لقبول الدين.
[٤] الجنس ما يَعمُّ كثيرين وعند المنطقيين هو المقول على كثيرين مختلفين في الحقائق في جواب ما هو وله معان عديدة وهو كالحيوان بالنسبة الى الإنسان والفرس وغيرهما.
[٥] الفصل الفرق ما بين شيئين وعند المنطقيين الفصل كالصاهل بالنسبة للفرس.
[٦] الحدُّ الفاصل ما بين شيئين كالبرزخ بين البحرين وهو المحيط بمعناه المميز عن غيره
[٧] اللازم اسم فاعل من لزمه تعلق به وعند المنطقيين اللوازم ثلاثة: لازمٌ ذهناً وخارجاً، كقابل الكتابة والعلم للإنسان، وخارجاً فقط كالسواد للغراب والزنجي، ولازمٌ ذهناً فقط كالبصر للعمى.
[٨] الرسم آثار الديار ونحوها، وعند المنطقيين الرسم قسمان: تامٌ وناقصٌ، فالرسم التام هو الذي يتركب من جنس الشيء القريب كقولنا في تعريف الإنسان: ماشٍ على قدميه، عريض الأظفار، بادي البَشرة مستقيم القامة ضحّاك بالطبع، المعجم: المبهم.

لأن كل أحدٍ ليس بغائب بداهةً ولا يفتقر أحدٌ في إدراك الوجود الى أسبابٍ ومسبباتٍ لأن كل أحدٍ ليس بغائب بداهةً ولا يفتقر أحدٌ في إثبات الوجود لا يُشَكُّ به وهو أن تصور عن كيانه الخاص به، وللعلماء قياس على إثبات الوجود بالبداهة شيءٌ فهو ولا شك شيءٌ بديهيٌ فالوجود الوجود بالبداهة بديهي وإذا تصور بالبداهة شيءٌ فهو ولا شك شيءٌ بديهيٌ فالوجود بديهيٌ، والوجود من حيث مفهومه عام لجميع الأجناس فلا جزء له لأنه لا شيء أعم منه، ولا هو الجنس المختص بنوع من الأنواع ولا هو فصل يميز نوعاً عن آخر، ولا هو حدٌ فينفرد به الجنس والفصل ولا لازم فتنفرد به الصفة الملازمة للموصوف ولا هو رسم جنسٍ ، فينفرد به الشيء المبين الواضح من الوجود عن الشيء الغائب ولا هو مختص بشيءٍ دون شيءٍ بل يعم جميع الأشياء كما تقدم. فذكر لفظ الوجود مبهماً بغير تعريف وتحيد بنوع من الأنواع ليُفهم أن المراد بهذا اللفظ المبهم سائر الموجودات والمعقولات.

النقص والكمال

فإذاً الوجود هو الأمر الذي لا تخرج عنه حقيقة من الحقائق الْموصوفة بالوجود ولا يوصف ولا ينعت ولا يُسمّى ولا يُحدّ ولا يوسم إلاّ بالنظر إلى ذاته سوى انّه وجود ولم يوصف أيضاً بالوجود إلاّ بالنظر إلى الْموجود ولله درّ القائل شعراً:

وجودٌ وحسبي أن أقولَ وجودُ ... له كرمٌ منه عليَّ وجودُ
تنَزّه عن نعت الكمال لأنّه ... لمعنى اعتبار النقص فيه يقودُ
ولكنّه فيه الكمال وضدّه ... له منه وَالْمجموع فيه صمودُ[١]

المعنى: يقول : إذن إن الوجود هو الشامل جميع الأشياء ولا يدخل تحت نعت أو سمةٍ أو رسمٍ أو حدٍ لأنه يعمُ جميع الموجودات، ولا يعرف بالنظر الى ذاته سوى أنه وجودٌ. ومعنى هذه الأبيات: وجود وحسي... من تعريف الوجود وإكباره أن أنطق لفظة الوجود فوجودي الذي أنا عليه كرمٌ وجودٌ من الوجود المطلق (وهو الحق سبحانه) والوجود بحد ذاته منزه عن نعت الكمال لأن الكمال لا يكون إلا بعد النقص، ولكن الوجود لجمعه الموجودات مطلقها ومقيدها مجردها ومحسوسها يوصف بالنقص والكمال باعتبار ظهوره بالموجودات (كما يوصف بالعجز

---

[١] الصمود جمع صَمدٍ وتقدم أن له معناه المنزه عن جميع الكثرات.

والمعجز) وكلهما كمال ومعجزٌ كما سيجيء والوجود مع جمعه جميع الصفات منزه عن جميع النقص والكثرات (وهو معنى الصمد) جاء في شرح رسالة الأسفار لابن عربي: بقدر ما ينقص من النور في وجه البدر يزيد في الوجه الآخر، ويقوم ما نقص من الوجه البدري، فكل ما نقص من البدر أخذه الباطن أعني الممحوق، على ميزانٍ مخصوصٍ، وهكذا الليل والنهار وهما الظاهر والباطن، وكذلك المقادير فإنك إذا أخذت شمعةً ومددتها بقدر ما يزداد بطولها ينقص من عرضها، فسبحان من جعل العالم علامةً عليه لأنه خلقه على صورته هذا بالكمال الذاتي، وأما الكمال الصفاتي فإن كماله بوجود النقص فلولا النقص ما صح الكمال للكمال قال أحدهم:

وأني لأهوى النقص من أجل من أهوى لأن به كان الكمال لمن يدري
وما جاء بالنقصان إلا مخافةً من العين مثل البدر في آخر الشهر

الى قوله:

فلو لم يكن في الكون نقصٌ محققٌ لكان وجود الحق ينقص بالقدر
فبي كان للحق الإله كماله مع النقص فانظر ما تضمنه شعري

وسيأتيك الكلام عن العجز والمعجز، ومنه تعلم حقيقة قولهم إن العجز من القادر قدرة والنقص هو الكمال. غير أن الفلاسفة قالوا: إن الحق الأول الأزلي لما كان هو الغاية والكمال فلا يفعل فعلاً لغاية دون ذاته، وإلا فتكون الغاية والكمال هي الحامل والأول محمولٌ وذلك محالٌ فالحكمة في فعله وقعت تبعاً لكمال ذاته، وذلك هو الكمال المطلق في الحكمة وفي غيره من المتوسطات وقعت مقصوداً للكمال المطلوب.

الإطلاق والتقييد

وليس في الوجود موجودٌ يوصف بالإطلاق[1] إلاّ وله وجهٌ إلى التقييد وله من حيث تعيّنهُ[2] من تعقُّلٍ[3] متعقِّلٍ ومتعقِّلين. وكذلك ليس في الوجود موجودٌ محكومٌ عليه بالتقييد إلاّ وله وجه إلى الإطلاق لكن لايعرف ذلك إلاّ من عرف الأشياء معرفةً تامّةً بعد معرفة الوجود ومن لم يشهد ذوقاً[4] لم يتحقق بمعرفة الحقِّ والخلق.

المعنى: يقول بعد تحديده الوجود كما رأيت: إنه ليس في الوجود بجميع مراتبه موجودٌ يوصف بالإطلاق (عديم التحديد) إلا وله وجه التقييد ولو كان تقيده من جهة تعينه وإفرازه عما سواه بواسطة تعقل الرجل المتعقل المدرك، وبالعكس فليس في الوجود موجودٌ مقيد إلا وله وجهٌ الى الإطلاق كالإنسان مثلاً فإنه مطلقٌ من حيث عقله ونفسه الروحانيان ومقيد من حيث تركيبه المحدود، وكل مرتبةٍ من المراتب النورية مطلقةٌ من حيث لا حد ولا كيفية ومقيدةٌ من حيث تحديدها عقلياً وخيالياً، حتى حضرة الحق سبحانه مطلقٌ من حيث لا حد ولا نهاية ولا كيفيةَ ولا ولا وقيد. وتعالى الله. من حيث تنزلاته الوجودية بمظاهر أسمائه وصفاته، لكن لا يعرف ذلك التقييد والإطلاق معرفةً تامةً في جميع الأشياء إلا من عرف جميع الأشياء معرفةً تامة، ومن لم يكن صوفياً متحققاً بالبصيرة وناظراً بها لم يكن متحققا بمعرفة الحق والخلق وهذا تمهيدٌ لما سيُعرفُكَ إياه من الحق والخلق والحق.

الرب الحق والعبد الخلق

واعلموا أخواني وفقكم الله لمرضاته وأداء مفترضاته إنّ الحقّية والخلقيّة والربوبيّة والعابديّة وَالمعبوديّة للموجود الحقّ الذي هو هو في جميع هذه النسب

---

[1] الإطلاق التعميم دون التقيد.
[2] التعيُّنَ مصدر تعيَّنَ الشيء وعيَّنهُ خصصه من الجملة.
[3] التعقل مصدر تعقل الغلام إذا أدرك.
[4] الذوق الطبع وأصله تعرف الطعم ثم كثر حتى أصبح عبارةً عن كل تجربةٍ وعند السادة الصوفيةِ هو إفاضةَ المواهِبِ الإلهيةَ كما يُفهم من كلامهم:

ولائكَ ممّنْ طيشَتهُ طروسُهُ — بحيث استخفتْ عقلَهُ واستفزّتِ
فثمّ وراء النقل علمٌ يدقّ عن مدارك غاياتِ العقول السليمةِ
تلقيتهُ عني ومني أخذتهُ — ونفسي كانت من عطائي مُمدتي.

ذاتي فلا تحصر العين والغير المُنحصر لذاته في حقّية وخلقيّة فإنه حقٌ فهو حقاً خلقاً، فإذا نظرتم إلى الربّ الحقّ فلا تغفلوا عن العبد الخلق الذي لا أنفكاك له عن عينه. وإذا نظرتم إلى الخلق فلا تحصروا في كونه سواه فهو من حيث وجوده الحقّ عين ربّه الحق مع قطع النظر عن وجود ربّه نسبة عدميّة تعيينيّة فالوجود الحقّ كسوته التي بها ظهوره في الوجود.

المعنى: يقول : إن الحقية والخلقية والربوبية والعابدية والمعبودية، وإن كانت في مظاهرها متناقضةً، هي جميعها للوجود الحق الذي هو أحديُ الذات في ظهوره جميع هذه النسب، لم يزل عن كيانه بظهوره بها، فلا تحصر الذات العلية غير المنحصرة في مظهر من مظاهر الحقية والخلقية، فإنه تعالى باعتبار مظاهره وتجرده عن المظاهر حقّ خلقّ؛ حقّ بحقيقته الحقية، والحق بحقيقة الحقية. كما يقتضي الوجوب الذاتي، يقتضي الإحاطة بجميع الأشياء، والعلم بالكل على السواء، وعدم ممانعة شأن من الشؤون ولا وصفٍ عن وصف، ولا علمٍ عن علم، فهو حقّ من هذه الجهة، خلق من جهة مظاهره التكوينية. سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها فلا تنظر الى الرب الحق غافلاً عن وجوبه الذاتي في مظهر العبد الخلق الذي هو إفاضات الأسماء الإلهية عليه، وإذا نظرت الى العبد الخلق فلا تحصره مفردا لنفسه عن مدد ربه الحق، لأنه من حيث وجوده الحقي الذي هو محجة أنوار الحق عين ربه بقطع النظر عن هذه الحالات البشرية والنسب العدمية، والإفرازات الوجودية.

الحقُ في الخلق خلقٌ والخلقُ في الحقّ حقُ

فالله سبحانه واحداً في ذاته وصفاته وأفعاله، والفعل لا يصدر من غير صفةٍ والصفة لا تفارق الموصوف فالفعل متحدّ والصفة متحدةّ والمتصف بها واحدٌ والأشياء كلها قائمةٌ بين ذاتٍ وصفاتٍ بين حس ومعنى بين قدرة وحكمةٍ فالذات اللطيفة مستورةً معانيها بالذات الكثيفة والمعنى اللطيف مستورٌ بالحس الكثيف والقدرة مستورة بالحكمة، والكل من الله والى الله ولا موجود سواه، وعظمة الربوبية ظهرت في مظاهر العبودية، فمن نظر للعظمة صرفاً تحقق بعظمة الربوبية ومن

نظر لظاهر المظهر تحقق باوصاف العبودية والكامل ينظر إليهما جميعاً فالربوبية بلا عبوديةٍ نقصٌ يلزم عليه إبطال حكمته والعبودية بلا ربوبية محالٌ لا يُتصور وجوده. قال الأمير:

وكل ما لي فمضاف إلى فِعلي وفيَّ انفعل الربُ

والفلك الأطلس لي مركز به محيط مني التُربُ.

قال (ص) ما معناه: رحم الله أخي موسى فإن عينه اليمنى كانت عوراء ورحم الله أخي عيسى فإن عينه اليسرى كانت عوراء وأنا ذو العينين الصحيحتين. يريد بالعين اليمنى حقيقة الجمع بأن لا يرى السالك مع الله غيره(أإله مع موسى) وموسى كان ينظر الى الماديات ولذا كانت عينه اليسرى عوراء، ويريد باليسرى النظر الى رتبة الفرق بأن يرى السالك الموجودات مخلوقةً لله يستدل بها على الله وعيسى كان ينظر الى الروحانيات فقط، ولذا كانت عينه اليسرى عوراء. وهو الصحيح العينين لأنه ينظر في شريعته الى رتبة الجمع والفرق معاً فشريعته ماديةٌ منعويةٌ فهي أكمل الشرائع وأئمتها.

المجموع الأحدي

وإذا شهدتم هذا فأنتم إذاً نزّهتم الْمطلقة عن الحصر والتقييد والتحديد في أعين التشبيه[1] لكونها مطلقةً عن الإطلاق الذي في مقابلة التقييد فقيّده في عين إطلاقه. وإذا شهدتم هذا الْمشهد[2] فأنتم قائمون مقام السواء[3] والبرزخيّة العظمى فتكونون إن شئتم في الكثرة والتفرقة مجموعاً أحدياً وإن شئتم كنتم الجمع الأحدي جامعين للكثرة[4] فأنّكم لاتبالون لكونكم جامعين للكلّ وحائزين قصب السبق في الكل إذا ظهر كلّ متميّز[5] بشهود الجزئي الخصيص به إذ لا[6] خصوص لكم إلاّ أحديّة جمعكم الذي هو أحديّةُ جمعِهِ.

---

[1] التّشبيهُ المساواةَ بين شيءٍ وشيءٍ، وشبهه به مثله.
[2] شَهِدَ المجلس حَضَرَهُ والشيءِ عاينه واطلع عليه.
[3] السّواء والسوى الغيرُ والمثل والقصدُ.
[4] الكثرة نقيض القلة وهي عند الصوفيين مظاهر الله في صفاته وأسمائه التي هي مجموع مكوناته.
[5] تميز انفصل عن غيره.
[6] الخصوص الانفراد ومقابلة العموم والانحصار يقابله الإطلاق.

المعنى: يقول: إذا عرفتم اعتقاداً ما قاله عن الرب الحق والعبد الخلق برتبة الجمع والفرق فقد نزهتم الذات عن المظاهر حقيقةً كان أو خليفة سواءً كانت مع الحق أو الخلق، فالحصر والتقييد لا يكونان إلا في ذات التمثيل بالظهور لا غير فهذه الصورة المطلقة عن الحصر في حقٍ أو خلقٍ، تنزيهها إطلاقها عن الإطلاق الذي هو التنزيه عن التكييف والتحديد يصبح قيداً بقولنا إطلاقُ وتنزيه كأنه قيدَهُ الوهم والتخيل، فيجب حينئذٍ إطلاقها عن الإطلاق، وكذلك إذا نزهنا حضرة الحق تنزيهاً مطلقاً وحظرنا عليه التجلي في المظاهر ألا نكون حصرناه في جانب التنزيه فقط، فيصبح هذا التنزيه حصراً وقيداً، فإذا شهدتم هذا المشهد تكونون قمتم مقام الغير الذي هو عالم الإمكان، ومقام البرزخية التي هي الجمع بين الوجوب والإمكان، فتكونون إن شئتم في مقام الكثرة التي هي تعدد المظاهر في رتبة الفرق كل موجودٍ لنفسه في حال أحديتكم الجمعية، وإن شئتم كنتم المجموع الأحدي بتجردكم عن طبائعكم البشرية الى عقولكم ونفوسكم اللذين هما سعَةُ العقل الكلي والنفس الكلية، وليس النور غير المنير، جامعين مع توحدكم بهذا تعدُّدَ الكثرات كلها، وإذا كنتم جامعين الكل من العرش الى الفرش وحائزين قصَبَ السبق في كلٍ من الكثرة والوحدة، إذا كان كل شيءٍ من المكونات منفرداً بذاته وكيانه الجزئي الخاص به لأن هذه الرتبة ليست لشيءٍ إلا لكم بين الوجوب والإمكان والغيب والشهادة بفناء وجوداتكم العدمية المحسوسة بوجوده الواجب الذي هو أحدية جمع مظاهر أسمائه وصفاته المتفرقة في مكوناته.

لا تبقون ولا تفنون

فلا تفنون لأنّكم عينُ من لا يفنى ولا تبقون لأنّكم غيرُ متميّزين عنهُ حتّى يضاف إليكم البقاء بل بقاؤكم عينُ بقائه ولا تفنوا أنتم ولا تبقون ماكنتم تفنونه وتبقونه في حضرة شهود التّمييز ولا يُلقى عليكم من خارج ذواتكم إلهام ووحي بل منكم وفيكم وعليكم له ومن وفيه.

ولِهذا أشار شيخنا مُحي الدين العربي غفر الله له شعراً.

فـــلا تنـــظُرَ إلـــى الحـــقّ ... وتُعـــريهِ[2] عـــن الْخـــلقِ
ولا تنـــظرْ إلـــى الْخـــلق ... وتكســـوهُ ســـوى الْحـــق
ونـــزّهـــهُ وشـــبّهـــهُ ... وقُـــمْ فِـــي مقعـــد[3] الصـــدق
وكـــنْ فِـــي الْجمـــع[1] إن شـــئت ... وأن شـــئت ففـــي الفـــرق[4]
تَحُـــزْ بالـــكلِّ مـــن كُـــلٍّ ... تبـــدّى قصَـــبَ السَّـــبق

لا تفنون ولا تبقون

فـــلا تفـــنَى ولا تبـــقى ... ولا تـــفـــنِي ولا تُبـــقي
ولا يُلقـــى عليـــك الوحـــيُ ... إدمـــاناً[5] ولا تُـــلقـــي

فما أكمل الإنسان لو عرف قدره، وملك أمره، وكتم سرّه، ولَم يتعدَّ طوره[6]، ولزم مركزيّة[1]، حقيقة الاعتدال، وتَحقق بِحقيقة الإطلاق في الجمع والكمال.

---

[1] الجمع عند الصوفيين هو مكاشفة الباطن بسر لا موجود سوى الله وأن الأشباح الظـاهرة ظـلال ساجدة للأرواح الباطنة وأن المحب هو عين المحبوب.

[2] تعريه مصدر أعراهُ إعراء الثوب ومن الثوب نزعه.

[3] المقعدُ الصدق عبارة عن استقامة الإنسان في جميع ما تقتضيه إنسانيته وتمكنه من الخروج عـن جميع الحدود والدخول في مقام الإطلاق والاتصاف بجميع الصفات الإلهية والتمكن في كل ذلك.

[4] الفرق عند الصوفيين إذا أسبل حجاب العزة على الذات وعاد الروح الى عالم الخلق ظهـر نـور العقل وعاد التمييز بين الحدثَ والقدم، ولا يزال السالك بين جمعٍ وفرقٍ حتى يلوح له لائح الجمـع بحيث لو نظر بعين التفرقة بل يُجمَعُ له عينان ينظر الجمع باليمنى الى الحق وينظر باليسرى الـى الخلق، وهذه أعلى رتبةٍ من الجمع الصرف لاجتماع الضدين فيها وتسمى جمع الجمع، وصـاحب هذه الحالة لا تقدح فيه المخالطة مع الخلق بخلاف صاحب الجمع الصرف، فصاحب جمع الجمع لا يرى صورة الأكوان إلا آلاتٍ يستعملها فاعل واحدٌ فيجمع كل الأفعال في أفعاله وكل الصفات فـي صفاته، بل كل الذوات في ذاته وهو بالأفق الأعلى. والجمع الصرف يوجب الزندقة والإلحاد ويحكم برفع أحكام الظاهر، والفرق المحضُ يقتضي تعطيل الفاعل ونفي القوة المطلقة، والجمع مع التفرقة يُفيد حقيقة التوحيد ولصاحب الجمع أن يضيف الى نفسه كل أثر ظهر في الوجود وكل فعلٍ وصفة واسم لانحصار الكل عنده في ذاتٍ واحدةٍ، فالجمع والدِ ينصَبُّ إليهِ التوحيد وهذا يوضح لك معنـى قوله المتقدم إذا نظرت الى الرب الحق فلا تغفل عن العبد الخلق. وكتاب الأصيفر كله من ألـفه الى يائـه الجمع.

[5] الإدمان مصدر أدمن الشيء أدامهُ.

[6] الطور الحد بين شيئين والقدر يقال عدا طوره أي حده.

المعنى. يقول: إذا نزهتم الصورة المطلقة بإطلاقها عن الإطلاق وعرفتم حضوراً ومعرفةً ذلك المشهد الجمعي كنتم مجموع الكثرة مع الأحدية الصرفة إن شئتم وإن شئتم كنتم الجمع الأحدي مع اشتمالكم على مفترق الكثرة وعندما تكونون كذلك لا يجوز عليكم الفناء لأنكم وأنتم الجمع الأحدي ذاتُ من لا يفنى، ولا يجوز نسبة البقاء لأعيانكم المفرقة لأنكم غير منفصلين عن حضرة الحق فيضاف لكم البقاء، بل إنما بقاؤكم عين بقائه سبحانه فإذن أنتم لستم بفانين لأنكم عين من لا يفنى ولستم بباقين لأنكم غير متميزين عنه فيكون لكم وجودٌ لا يفنى ولا يجوز لكم البقاء والفناء معاً وأنتم في حضرة شهود الفرق التي هي محل الفناء ومن هو في هذه الرتبة يجوز عليه الفناء حالاً فحالاً الى أن يصل الى رتبة الجمع فيبقى ببقاء الله سبحانه. والمعارف التي تتلقونها لا تُلقى عليكم من خارج ذواتكم إلهاماً ووحياً بل تلقى عليكم من قبل عقولكم ونفوسكم فما هو فيكم ولكم؛ كما علمت؛ من أن العقل إشعاع العقل الأول والنفس إشراق النفس الكلية وهما النور وضياء النور، وليس النور غير المنير، فهذا الإلقاء من الله لله في الله، وذلك لأنكم نلتم الجمع الأحدي بفنائكم في الله سبحانه فأصبحتم غير متميزين عنه فيأتيكم ما يُلقى إليكم إلهاماً ووحياً خارج ذواتكم:

فناؤنا مع ثبوت واهبنا   يقضي بعود الجواد في هبتهْ
وذاك بُخلٌ وجلَّ خالقُنا   من أن يكون الإكداءُ من صفته

وما تقدم فهو معنى أبيات ابن عربي فلو عرف الإنسان نفسه وقدر أن يملك أمرها ولم يتعدَّ حدَّها المحدود لها بلزومه التوسط بين الإفراط والتفريط، وتحقق بحقيقة الإطلاق في رتبة الجمع بأن لا يرى موجوداً ولا فاعلاً إلا الله ليبلغ ذروة الكمال:

تجليتَ بالأشياء حين عرفتها   فها هي نيطت عنك فيها البراقع.

---

[1] المركزية: وسط الدائرة.

نسبة الأعمال

ولَمّا كان ظاهريّةُ الإنسان مَجموعَ العالَم من حيث حجابيته[1] ومَجمع النقائص وَالْمزامَ والشرور الخصيصة بِالْمقام الإمكاني[2] فالأفعال والأخلاق والأعمال الصادرة عن الإنسان إن كانت قبيحةً يستحق عليها الْمذامَ أما عرفاً وأما عقلاً وأما شرعاً فالأحرَى والأليق أن ينسب إلى نفسه تأديباً وتحقيقاً ناظراً في ذلك نظراً دقيقاً فإن الصادر عن الحقِّ خيرٌ محض وهو الوجود لاغير وهو غير محض بالنسبة إلى الْموجوديّة. والنقائص والقبائح راجعة إلى الكيان من حضرة الإمكان.

والعدم يلي أحد جانبي الإمكان زائد بالنسبة إليه أوّلاً وما كان فيها من الكمالات والفضائل وَالْمحامد وَالْمحاسن أضيف إلى الحقِّ لأنّها في الحقيقة راجعة إلى الوجود الحقِّ فيكون قد جعل نفسه وقاية الحقِّ في إضافة الْمذامَ إلى نفسه. كما قال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء:٧٩)، وجعل الحقَّ وقاية لنفسه في إضافة الْمحامد كلّها إليه، وإليه يرجع عواقب[3] الثناء، وهذا مقتضى التحقيق الأتمّ والأدب الأعمّ والتقيّة والتقى الأكمل ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ (الصافات:٦١) ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ[4] الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين:٢٦).

المعنى: يقول: لما كان الإنسان بظاهره مجموع العوالم لأنه مركبٌ من الطبائع الأربع وفيه الأكوان الستُ والقوى المنوعة كالسبعية والشهوانية وما أشبه، فهو بهذا مجمع النقائض والشرور من حيث مقامه الإمكاني الزائل فالأفعال الصادرة عنه إن كانت قبيحةً تستحق عليها العقاب إما عرفاً بقطع الإمداد الإلهية لتقصيره عن أداء واجب ما عرف. وإما عقلاً بمخالفة المسنونات العقلانية كالإقبال على الله بالإدبار عما سواه، وإما شرعاً بمخالفته قانون الشريعة المقدس. فالأولى والأجدر بالمرء أن ينسب أفعاله القبيحة الى نفسه تأديباً وتأدباً ناظراً في نسبتها نظراً دقيقاً

---

[1] الحجابية نسبة الى الحجاب وحجابية الإنسان هي وقوفه عند ظواهر المحسوسات وظلية الآثار دون النفوذ الى معرفة بواطنها والحجاب على الحقيقة ليس أمراً وجودياً بينه وبين الله ولو كان للزم أن يكون أقرب الى الإنسان من الله وهو أقرب إليه من حبل الوريد فرجعت حقيقة الحجاب الى توهم الحجاب.

[2] الإمكان هو الذي يجوز بقاؤه وعدمه وهو نقيض الواجب.

[3] العواقب جمع عاقبة: الجزاء بالخير.

[4] التنافس: التفاخر.

يؤديه الى وضع الأشياء في محالها لأن الصادر عن الحق خيرٌ محضٌ وهو بالإضافات الإلهية التي كان بها كل موجودٍ فالنقائص والأعمال الشريرة ترجع الى المقام الإمكاني وهو البشرية وأحوالها والمادة وأنواعها وتلك الأعمال بذاتها عدمٌ لأنها ليست من الوجود في شيءٍ وللمقام الإمكاني جانبا: جنب الى العدم وهو البدن.

وجانب الى الوجود وهو العقل. والشر من الأعمال يلي جانب العدم فنسبتها إليه أولى، ولما كان الإنسان في طاعاته منسلخاً من أنانيته وحدودها متوجهاً الى مولاه وامره كان إسناد طاعاته الى الله أولى. ولما كان في معصيته متحدداً بحدود أنانيته كانت نسبة معاصيه الى نفسه أولى (ما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك، وما أصابك من حسنة فمن الله) وفي الدين والإسلام تعريفٌ جليلٌ عن الشر والخير بأن الموجودات خيرٌ من جهتها الربوبية وإن كان بعضها شراً من جهتها الإمكانية.

الحادث والقديم:

وإذا فهم هذا فنقول: أعلموا أخواني رحمكم الله، إنّه لو لم يكن في الوجود قديمٌ لما كان في الوجود موجود أصلاً البتّة[1] وذلك لأن الوجود ينقسم قسمةً حاضرةً إلى محدثٍ وقديمٍ لأنّ المحدَث والقديم أعني ما لوجوده أولاً ليس لوجوده بداية، فلو لم يكن في الوجود قديماً لم يكن به حادثٌ أصلاً إذ ليس في طبيعة الحادث أن يوجد بذاته فإن الموجود بذاته يكون واجب الوجود[2] والواجب بذاته لا يتصوَر له بداية، وهاهنا برهانٌ عقليّ يسمّى بالشرط المتّصل وهو قولهم لو كان في الوجود موجود لزم بإلزام الضرورة أن يكون في الوجود قديم والوجود معلوما قطعاً ينتج عن هذين الأصلين وجود موجود قيم بالضرورة فهذا هو طريق الاستدلال بالوجود على إثبات وجود المعنى القديم. ولا يقال أنّ الباري موجود ولا معدوم، إذ لو كان موجوداً يكون مثل سائر الموجودات، ولوكان معدوماً يكون مثل سائر المعدومات وهو قولٌ باطل لأناّ نقول لا فرق في العقل بين أن يقال الشيء الفلاني ليس بموجود وبين أن يقال هو معدوم فأنّه إذا لم يكن موجوداً يكون

---

[1] يُقال لا أفعله البتّة كأنه قطع فعله، ولا أفعله بتةً بغير اللام لكل أمر لا رجعة إليه، ونصبهما على الحصر، ومذهب سيبويه لا تكون إلا معرفة ونكرةُ الفراءُ.

[2] واجب الوجود هو الذي يكون وجوده من ذاته ولا يحتاج الى شيءٍ وقد يقال الواجب على ما يقابل الجائز والممكن والممتنع، وعرفوه في فن التوحيد بأنه ما لا يتصور عدمه.

معدوماً جلّ جلال القديم عن التباس إلباس المحدثين وخطرات أوهام[1] المتوهمين

وتمويهات[2] المبطلين[3] وتخيلات[4] المتخيلين وتمثيل المتمثلين[5] المتشبهين.

المعنى: يقول: إذا فُهم ما قاله من إضافة الخير الى الله والشر لفاعله عائداً الى إثبات وجود الله. أنه لو لم يكن الوجود قديمٌ كان عنه الحادث لما كان في الوجود موجوداً أبداً، وذلك أن الوجود مقسومٌ الى قسمين:

قديم ومحدث والقديم هو ما ليس لوجوده أول وما ليس لوجوده أول ليس لوجوده بداية، فلو يكن في الوجود قديم تسلسل عنه الحادث وجودياً لم يكن الحادث لأن الحادث يستحيل أن يوجد بذاته بدون موجدٍ يوجده، فالموجود بذاته هو واجب الوجود الذي لا يحتاج الى شيء، وللمنطقيين برهانٌ عقليٌ على إثبات الوجود وهو إذا كان شيءٌ موجوداً لزم ضرورة أن يكون في الوجود موجودٌ قديمٌ والوجود معلومٌ لا شك فيه، فينتج من هذا وجود موجودٍ قديم بالضرورة، ولا يجوز أن يقال أنه جل جلاله ليس بوجودٍ ولا معدومٌ، وقد عنى المؤلف بحججه هذه طائفةً تزعم أن الله ليس بموجودٍ ولا معدومٍ. ذكرهما ابن ابي حديد، ولابن حزمٍ الظاهري في (فصله) حُججٌ قويةٌ على إثبات المحدث والقديم.

خلاصة التنبيه الأول من القاعدة الأولى: إثبات الوجود

إن الحق اليقين في إثبات وجوده سبحانه أن يُستدل عليه بالوجود الذي يعم جميع الأشياء، فالوجود جنس الأجناس الحقية والخلقية، وهو عبارة عن شخص متحيز لنفسه عن غيره، وبذلك التحيز والانفراد يكون الشخص هو هو وليس هو هو، أي هو هو من حيث وجوده الحق الذي هو العقل الوجوبي، وليس هو هو في كيانه الجسمي وأخلاطه الطبيعية، فكيانه وأخلاطه غير عقله. وقيل في تعريف

---

[1] الأوهام جمع وهم ما يقع في الخاطر، وقد يطلق الوهم على القوة الوهمية من الحواس الباطنة التي من شأنها إدراك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات كشجاعة زيدٍ وسخائه، وهذه القوة هي التي تحكم في الشاة بأن الذئب مهروبٌ منه وأن الولد معطوف عليه.

[2] موّه الخبر على فلان أخبره بخلاف ما سأله وزوّره عليه ولبسه فكأنه جعل له ماءً ونضارةً حتى قبله وموّه فلانٌ باطله إذا زينه وأراه إياه في صورة الحق.

[3] المبطلين جمع مبطل اسم فاعل من أبطل جاء بالباطل وجاء بكذب وادعى باطلاً. والشيء أفسده وأزاله حقاً أو باطلاً وبطل اتبع اللهو والبطالة.

[4] التخيلات جمع تخيلة مصدر خيّل، وخيّل إليه أنه كذا تشبّه.

[5] التمثيل مصدر مثّل، وتمثّل الشيء تصور مثاله.

الوجود أنه هو ما به إيجاد صورة كل موجودٍ مفردٍ لنفسه من أول المكونات لآخرها وقيل هو الذي به ثبات الموجودات من العقل الأول الى أن يدخل في العدم الإضافي وهو هذه المحسوسات والماهية التي هي تعريف الشيء ما هو عرضٌ للوجود به قيامها فهو جوهرها وهي عرضٌ له تقوم به، والوجود من حيث هو غنيٌ عن التحديد لأن كل أحدٍ غير غائبٍ عن وجوده الخاص به والوجود من حيث مفهومه العام لا جزء له لأنه يضم جميع الأشياء فهو كلٌ لها ولا له جنسٌ فينفرد به نوعٌ عن أخر، ولا فصل له فيتميز به نوعٌ عن أخر، ولا حد له فينفرد به الجنس والفصل، ولا لازم له فتنفرد به الصفة الملازمة للموصوف، بل هو يعم جميع الموجودات، ونكر لفظ الوجود بإبهامه من غير تعيينه بشيءٍ من الموجودات ليفهم أن المراد باللفظ جميع الموجودات لا نوع دون أخر، وليس في الوجود موجودٌ محكومٌ عليه بالتقييد إلا وله وجهٌ الى الإطلاق، فكل شيءٍ له جهتان: جهةٌ وجوبيةٌ. وجهةٌ إمكانيةٌ. كالإنسان مثلاً فإنه مطلقٌ من حيث عقله ومقيد من حيث بدنه، وكالشجرة فإنها من جهتها الملكوتية التي تطلب بها النمو والكمال دائماً. فهي مطلقةٌ ومن جهتها الملكية التي هي محسوسها مقيدةٌ، ولكن لا يعرف الإطلاق والتقييد في الأشياء كلها إلا من عرف الأشياء كلها، ولم يحدد الوجود هذا التحديد الكامل إلا ليعرفنا أن الحقية والخلقية والربوبية والعابدية والمعبودية كها للوجود الحق المطلق، وهو ذاتي لله سبحانه في جميع هذه النسب المتخالفة والاعتبارات المتباينة بين الحقية والخلقية.. الخ... فلا يجوز حصر الذات غير المنحصرة في حقيقةٍ أو خليقةٍ فالله سبحانه غير المنحصر في خلقٍ أو حقٍ، هو حقٌ خلقٌ. وإذا نظرتم الى العبد الخلق فلا تفردوه عن ربه الحق من حيث وجوبه الحق مع قطع النظر عن هذه الحالات الطبيعية، مع أن وجودها بالموجود الحق فإذا عرفتم هذا فحينئذٍ تكونون نزهتم الذات المطلقة أن تحصر في حقيقةٍ أو خليقةٍ، لأنها مطلقةٌ عن الإطلاق المقابل للتقييد، فتقومون مقام المثل والبرزخية العظمى، فإن شئتم حينئذٍ كنتم مجموعاً أحدياً لا يتجزأ في حال وجودكم في كثرتكم البشرية، وإن شئتم كنتم الجمع الأحدي بعرفانكم أن لا وجود حقيقةً إلا للموجد الأول، فحينئذٍ تصبحون بعيدي المنال معرفةً وعلماً لكونكم جامعين الكثرة والوحدة، وحائزين قصب السبق في كل منهما، ولا امتياز عن غيركم إلا جمعكم الجموع كلها فأصبحت أحديةً بكم، وتلك الأحدية أحديته تعالى، وكل شيء غيركم يتميز عن غيره بجزء وخصيصٍ به كعالم النور مثلاً فإنه من نوعٍ واحدٍ

وعالم الظلمة كذلك نوعٌ واحدٌ، والإنسان جامع الجميع، وأنتم لا تفنون لأنكم ذات من لا يفنى ولا تبقون لأنكم غير متميزين عن حضرة الحق حتى يضاف إليكم البقاء بل بقاؤكم عين بقائه، ولا يُلقى عليكم من خارج ذواتكم شيءٌ من العلوم والمعارف بل منكم وإليكم، لأن العقل الجزئي سعة العقل الكلي، فإلقاء المعارف منه إليه فيه فما أكمل الإنسان، والحالة هذه لو ملك أمره دون الانقياد الى بشريته ولم يتعدَّ حدَّه المفروض له ولزم الاعتدال بين الإفراط والتفريط، وتحقق بحقيقة إطلاقه في جمعه الجموع، ولما كان الإنسان مجموع العالم المادي كان مجمع النقائص والشرور المخصوصة بالإمكان، فما صدر عنه مما يستحق عليه العقاب يجب أن ينسبه الى نفسه، لأن النقائص ترجع مقام الإمكان، والصادر عنه من الفضائل يجب أن ينسبه الى حضرة الحق سبحانه، لأن الصادر عنه خيرٌ محضٌ، ولمثل هذا فليعمل العاملون، ولو لم يكن في الوجود قديمٌ كان عنه هذا الكائن المحدث لما كان في الوجود موجودٌ ولا يُقال: كما زعمت بعض الفرق الإسلامية. أن الله ليس بموجودٍ ولا معدومٍ لأن ما ليس بموجودٍ فهو معدومٌ وما هو معدوم ليس بموجودٍ.

التنبيه الثاني: الوجود والحركة والسكون

في إثبات وجود المعنى القديم على طريق النظر في الحركة والسكون.

أعلموا أخواني رحمكم الله إنّ أهل الكلام في أصول[1] الدين يستدلّون على حدوث العالم بالحركة والسكون فيقولون أجسام العالم لا تخلوا عن الحركة والسكون وهما محدثان وكما لا يخلوا كلّ جسم عن الحركة يُفرَطُ[2] وإن كان قاراً[3] في مكانه فهو متحرك وان لم يكن قادراً في مكانه فهو ساكن فقد عُلِمَ إنّ الجسم لا يخلوا من حركة أو سكون وأما بيان إنّ الحركة والسكون مُحدَث فهو إنّ الحركة

---

[1] الأصول جمعُ أصل أسفل الشيء، يُقال قعد في أصل الجبل وأصل الحائط، وقلع اصل الشجر ثم كثر حتى قيل أصل كُل شيءٍ ما يستند إليه وجوده والكلام في أصول الدين ينقسم الى أصول وفروع فالكلام بالأصول هو التكلمُ في المعرفة والتوحيد، والفروعُ التكلم بالشريعة والطاعة، فالأصول هي موضوع علم الكلام والفروع هي موضوع التكلم بالفقه. وقال بعضهم كل ما هو معقول ويُتوصّل إليه بالنظر والاستدلال فهو من الأصول وكل ما هو مظنون ويتوصل إليه بالقياس والاجتهاد فهومن الفروع.

[2] يُفرط من أفرط الشيء تركه يقال ما أفرط منهم أحداً وأظنها يفرذ كما سيتضح من السياق فيما بعد.

[3] قارّاً: ساكناً.

عبارة عن حصول الجوهر[1] في مكان بعد إنّ كان في مكان أخر ومعلوم إنّ ما كان مسبوقاً بغيره يكون مُحدثاً وأما بين أنّ السكون مُحدث فلأنّه لو لم يكن مُحدثاً ما جاز عليه العدم. لأن العدم لا يجوز على القديم لأن ما ثبتَ قِدَمُهُ إستحال عَدَمُهُ وبالعكس.

المعنى: يقول: إن أهل الكلام أصول الدين يستدلون على حدوث العالم بالحركة والسكون فإذا ثبت حدوث العالم ثبت أن هناك قديماً فيقولون إن أجسام العالم لا تخلو من أن تكون إما متحركةٍ وأما ساكنةً، والحركة والسكون محدثان مخلوقان وكل شيءٍ لا يخلو من جسم يُفردُ لنفسه فإن كان هذا الجسم قاراً في مكان فهو ساكنٌ وإن لم يكن قاراً فهو متحركٌ، والجسم لا يخلو من حركةٍ وسكونٍ. وأما إثبات أن الحركة والسكون محدثان ، فهو أن الحركة عبارةٌ عن كون الجسم في مكانٍ غير المكان الذي كان فيه فهي مسبوقةٌ وما كان مسبوقاً فهو محدث ولو لم يكن السكون محدثاً لما جاز عليه العدم، والعدم لا يجوز على القديم، وما ثبت قدمه استحال عدمه والمحدث عادم لا محالة.

إثبات الوجود من طريق المحدث

وأما بيان كلّما لا يخلو عن؟ من الحدث فهو محدث، وهو أنَ الحادث أمّا زوجٌ وأمّا فردٌ، وعلى التقديرين يكون متناهياً، فيكون لهذه الحوادث أوَل ونحن بيّنا أنَ الجسم لا يخلو من أوّل. وكلّما لا يخلو من شيء يكون له أوّلا فيكون هو أيضاً أولاً. فيجب أن يكون الجِسم محدثاً، وقد يستنبط أيضاً من المِيزان المعنوي العددي العلم بحدوث العالم، فلنفرض الكلام في اليوم الذي نحن فيه مثلاً فنقول لا تخلو الأيام التي قبله أن تكون متناهية الأعداد أو غير متناهية الأعداد، والقسم الثالث لا يعقل. فإن كانت متناهية الأعداد فلها أوّل. وهو دليل الحدوث وأن كانت غير متناهية الأعداد استحال وجود اليوم الذي نحن فيه لأنّه لا يأتي حتّى يتناهى ماقبله من الأيام ما لا يتناهى وتناهي مالا يتناهى محال.

---

[1] الجوهر ما به قيام العرض والمقصود الجسم الذي به قيام الألوان والطعوم وما أشبه فهو جوهرها.

المعنـــى: يقول: وأما بيان أن كل ما لا يخلو من شيء من الحوادث المكونات هو محدثٌ غير قديم فهو أن المحدث المكون لا يخلو من أن يكون زوجـاً أو فـرداً وعلى التقديرين: الزوجية والفردية يكون متناهياً إما بالزوجية وإما بالفردية، وكـل متناهٍ له أول وكل ما لا يخلو من سببٍ يكون به أولاً يكون هو أيضاً أولاً، وكل ذي أولٍ فهو محدثٌ وقد يستخرج العلم بحدوث الأشياء من الميـزان العـددي أيضـاً، فلنفرض الكلام لاستخراج ذلك في اليوم الذي نحن فيه، فالأيام التي قبل هذا اليوم لا تخلو من أن تكون متناهيةً أو غير متناهيةٍ فإن كانت غير متناهية اسـتحال وجـود اليوم الذي نحن فيه لأنه لا يأتي إلا بعد تناهي ما لايتناهى، وتناهي مـا لا يتنـاهى محالٌ، فثبت أولية كل شيء وآخريته وما ثبتت أوليته وآخريته فهو محدث وما كان محدثاً فله محدثٌ أحدثه. ناظَرَ الرسول من يقولون بقدم الأشياء لأنهم لا يرون لهـا زوالاً ولا فناء فقال: ألستم تشاهدون الليل والنهار واحدهما بعد الآخر؟ قالوا نعم.

قال: أترونهما لم يزالا ولا يزالان؟ فقالوا نعم.

قال أيجوز عندكم إجتماعهما؟ قالوا لا.

قال فإذن منقطعٌ أحدُهما عن الآخرِ وسبق أحدهما والثاني جاء بعده؟

قالوا نعم. قال قد حكمتم بحدوث ما تقدم من ليلٍ ونهارٍ...

ثم قال: أتقولون ما قبلكم من ليلٍ ونهارٍ متناهٍ أم غير متناهٍ؟

فإن قلتم غير متناه فقد وصل إليكم آخِرُ بلا نهاية لأوله وإن قلتم متناهٍ فقد كان ولا شيء منهما. قالوا نعم.

فقال لهم: أقلتم أن العالم قديمٌ غير محدثٍ وأنتم بمعنى ما أقررتم به وبمعنـى ما جحدتموه؟ قالوا نعم.

قال: فهذا الذي تشاهدونه من الأشياء بعضها يفتقر الى بعض لأنه لا قوام له إلا بما يتصل به. يرى البناء محتاجاً بعض أجزائه الى بعضٍ وإلا لم يتسق، وكـذا سائر ما نرى فإذا كان هذا المحتاج بعضه لبعضٍ لقوته وتمامه هو القديم، فأخبروني لو كان محدثاً كيف كان يكونُ وكيف تكون صفته ؟ فبهتوا لأنهم علموا أنـه لـيس للمحدث صفةٌ يصفونه بها إن كانت هذه الصفات صفات القديم.

الوجود والمحدث

وأيضا مثل ذلك نفرض الكلام في شخص من أشخاص الحيوانات كالآدمي مثلاً فنقول لا يخلو الآباء والأجداد الذين مضوا قبله أن يكونوا متناهي الأعداد او غير متناهيَ فإن كانت أعدادهم متناهية ثبتت أوّليتهم ومن كان له أوّلاً فهو مفتتح الوجود، ومن كان مفتتح الوجود فهو حادث وإن كانت أبآؤه وأجداده غير متناهين استحال وجود الشخص الحاضر، لأنّه لا يوجد حتّى يمضي قبله من الآباء ما لاعدد له وتناهي ما لاعدد له محال[1] كقول القائل: إذا جاء زيد أعطيناه ديناراً ولا نعطيه حتّى نعطي قبله من الدراهم ما لا نهاية له. فردّه على هذا الترتيب أعطي الدينار لزيد، وأيضا فأنّه إذا كان يجوز أن يكون حدوثه في العقل سابقاً على ذلك الوقت أو متأخراً عنه، فاختصاص[2] حدوثه بذلك الوقت مع انّه جائزٌ في العقل أن يكون قبله أو بعده ليس إلاّ الْمخصّص[3] فعلم إنّ للعالم صانعاً أوجده وأيضاً إذا ثبت حدوث العالم ثبت أنّ له محدثاً إذ يستحيل حدوث فعل إلاّ عن فاعل حيَ عالم مريد قادر، ثم نفرض الكلام في ذلك الفاعل فان كان بينه وبين فعله مشابهة في ذاته وصفاته وأفعاله لزمه من الحدوث ما لزم فعله وأن كان لا مشابهة بينه وبين فعله من جميع الجهات، فهو الْمعنى القديم على الحقيقة وهو العليّ العظيم.

المعنى: وبعد أن استنبط من الميزان العددي البرهان القاطع على حدوث الأشياء ضرب مثلاً يؤيده بالشخص الآدمي وشفعه بمثله بإعطاء الدينار، وهما كالمثل الذي ضربه بالأيام وأكد ذلك كله بأنه إذا كان جائزاً حدوث شيءٍ من الأشياء بحكم العقل سابقاً على الوقت الذي علمه به العقل أو متأخراً عنه، فاختصاص هذا العلم بذلك الوقت ليس إلا لشيء مخصص بنوعٍ من الأنواع، فعلم بذلك أن هذا المخصص حادثٌ لتحدده بالسبق أو التأخير، ولكل حادثٍ صانعٌ، وبما مر من إثباته المحدثان يثبت أن لها محدثاً إذ يستحيل وجود شيء (أكان ذلك الشيء صنعةً إلهية

---

[1] المُحال: المستحيل. قال الخليل: المُحال الكلام لغير شيءٍ والمستقيم كلام لشيءٍ والغلط كلام لشيءٍ لم ترده، واللغو كلام لشيء ليس من شأنك، والكذب كلام لشيءٍ تغرُّ به.
[2] الاختصاص: الانفراد.
[3] المخصص: ضد المعمم.

أو يدويةً أو آليةً والكل مصنوعاتٌ إلهيةٌ كما مر) إلا عن فاعلٍ مجمعةٍ به الصفات الأربع: الحياة والعلم والإرادة والقدرة، وقد مر عليها الكلام مستقصى، فإذا ظهر فعلٌ ما من فاعل ما ننظر الى الفاعل فإن كان بينه وبين فعله مشابهةٌ ما في ذاته أو صفاته أو أفعاله كالكاتب والصانع مثلاً فإن الكاتب يصور ما كان ثابتاً في مخيلته بصورة محسوسة معبرة عن كيفية معلوماته، والصانع يبرز مصنوعاته مركبةً من أجزاءٍ كتركيبه، فدلنا ذاك على أن كلاهما مصنوعٌ وإن كان لا مشابهة بينه وبين فعله بحيث يكون فعله إبداعاً، فالفعل مخلوقٌ وفاعله خالقٌ. وقد برهن ابن حزمٍ على حدوث العالم بأن كل شخصٍ في العالم وكل عرضٍ في شخصٍ وكل زمانٍ... كل ذلك متناه ذو اولٍ نشاهد ذلك حساً وعياناً، لأن تناهي الشخص ظاهرٌ بمساحته بأوله وآخره وبزمان وجوده وتناهي العرض المحمول ظاهرٌ بينٌ بتناهي الشخص الحامل له، وتناهي الزمان موجودٌ باستئناف ما يأتي بعد الماضي وفناء كل وقت بعد وجوده واستئناف آخر يأتي بعده إذ كل زمانٍ فنهايته الآن، وهو حد الزمانين، فهو نهاية الماضي وما بعده ابتداء المستقبل وهكذا. وكل جُملة أزمنة من أزمنةٍ متناهيةٍ. كما قدمنا ذات أوائل. والعالم كله أشخاصه ومكانها وأزمانها ومحمولاتها ذات أوائل كما ذكرنا، فالعالم كله متناهٍ ذو أولٍ إذ كل أجزائه لها أولٌ وليس هو غير أجزائه. قال الأمير:

لهُ الدهرُ آنٌ والزمان الذي انقضى إليه بجدية بوصلٍ له فصْلُ

التنبيه الثالث: الوجود والمعقول والمنقول

التَّنبيه الثَّالث: في بيان إثبات وجود الباري جلّت قدرته بِالْمعقول وَالْمنقول.

أمَا الْمعقول فمن وجهين أحدهما أنّ الحكمة الإلهية دلّت على أنّ لكلّ صنعةٍ صانعاً كالبناء والكتابة وغير ذلك مثلاً وجميع ما يشاهد في الوجود من الْموجودات صنعةٌ فلا بدّ لها من صانع بحكم الضرورة إذ يستحيل إيجادها لنفسها والدليل على دوام وجوده فيض جوده أزلاً وأبداً.

والثاني أنّه من الْمستحيل عدم الصانع مع وجود الصنعة من خلق السماوات والأرض وما فيهما وإتقانهما ودوام الفيض واستمراره أبداً مع بقائهما مثال ذلك أنّ بقاء الظلّ[1] الْموجود ببقاء الظلّ الْمعمود[2] فمهما دام كان الظلّ موجوداً بدوامه.

المعنى: ولما أثبت، ثبتنا الله على منهاجه، في التنبيه الثاني من القاعدة الأولى وجود المعنى من طريق الحركة والسكون وغيرهما شرع يعلمنا إثباته من طريق المعقول والمنقول، أما المعقول فمن وجهين:أحدهما أن الحكمة الإلهية دلتنا معرفة أن لا بد لكل صنعةٍ من صانع، لأننا لم نر بنايةً إلا ولها بانٍ، ولا كتابة إلا ولها كاتب ووجود هذه المصنوعات من خلقِ السماوات والأرض وكيفية إرتباطهما وتأثير السماوات في الأرض، وتأثر الأرض بها ووضع كواكب السماء واختلافها في الصغر والكبر وفي الحركة والبطء والسرعة والمناطق الشرقية والغربية والإستقامة وغير ذلك مما عُدِّدَ في محاله... غير أن السماوات والأرض لا يختصان بمرتبةٍ دون مرتبةٍ فكل ما كان فيه جهته الفاعلية أظهر وجهة القبول أخفى كان باسم السماء أجدر، وما كان بالعكس فباسم الأرض أحرى واستمرار الفيوضات ببقائها، فهما كالظل والشاخص والظل باقٍ ببقاء الشاخص والشاخص والظل كلاهما يطلق عليه اسم الظل كما تقدم، والأشياء عُلويُّ وسُفليها ظلالٌ لبعضها البعض حاصلة من محازاة شمس الحقيقة، وبهذا فُسِّرَ قوله تعالى (يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ) (سورة النحل: من الآية ٤٨) وأحسن من تكلم من الظاهريين والباطنيين عن ظهور عالم الغيب في عالم الشهادة جلال الدين في التقويم.

دوام الفيض

وكذلك إنّ مُلكَ الله تعالى دائمٌ لا زوال له إذ يستحيل عدمه مع بقاء الْمعبود ودوام فيضه عليه فأنّ الْمفيض ليس بضنين[3] على مَمرِّ الدهور والأحقاب[4] في

---

[1] الظل: الفيء الحاصل من الشاخص الذي ينتقل بانتقاله ويسكن بسكونه، وبالجملة لا إنانية للظل إلا أنانية الشاخص وكل موجودٍ عُلوي وسفلي له في مقامه الخاص به حقيقة وله أظلال في العالم الأعلى والأسفل منه فالعُلوي ظل للسفلي الذي كان عنه السفلي ظل للعُلوي إيضا فكلاهما ظل الآخر حتى الموجودات الطبيعية والأرضية والمواليد والعناصر لها ظلال صُورية حاصلة من مجازات النور.

[2] المعمود: من عمدَ بالشيء لزمه.

[3] الضنين: البخيل.

[4] الأحقاب جمع حُقبٍ بالضم:ثمانون سنةً وتجمع على حقابٍ أو أحقب.

وجوده ووجود كلّ شيءٍ من العقول[١] والنفوس[٢] والأفلاك[٣] والأركان[٤] وَالْمولّدات[٥] من الْمعادن والنباتات والحيوانات والإنسان على اختلاف الأصناف والأشكال والصوَر والصفات(في كلّ ما ينقسم) والأصوات في كل آن لا ينقسم (فسبحان الذي بيده ملكوت[٦] كلّ شيء وإليه ترجعون) منه بدء كلّ شيءٍ وإليه أوبةُ كلِّ شيءٍ آيب.

الوجود والمنقول

يوجد اختلاف في الآية في الكتاب سورة البقرة ١٦٤ وأما الْمنقول فمن وجهين أيضاً أحدهم ما ندب القرآن الْمجيد إليه في غير ما موضع منه قوله سبحانه (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[٧] لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ

---

[١] العقول الكلية والعقول الجزئية مرتبتان من مراتب عالم النور تقدم ذكرهما.

[٢] النفوس الكلية والنفوس الجزئية مرتبتان أيضا.

[٣] الأفلاك جمع فلكٍ مدار النجوم وهي ثمانية وعدها بعضهم سبعة عشر.

[٤] الأركان: الطبائع البشرية.

[٥] المولدات: ما تولد من الطبائع كعالم الإنسان والحيوان والمعادن والنبات.

[٦] الملكوت: العزُّ والسلطان يعني بيد الله تدبير كل شيءٍ والتصرف فيه فإن الملكوت باطن الأشياء المُسلط عليها وليس قولنا باطن الأشياء خروجا عن الوحدة فقد تقرر أن الوجود حقيقة وثيقة ذات مراتب عديدة بحسب تنزلاتها والأسماء والرسوم والكثرات المترائيات فيها إنما هي في مقام ظهورها فحقيقة الوجوب هي الظاهرة في كل المظاهر وهي الغائبة عن الكل فهي باعتبار الغيب ومرتبة الوجوب خالق الكل ومظهرُها وباعتبار مقام الظهور عين الكل وحقائقها وليس بذلك إشعارٌ بوحدة الوجود المؤدية الى الإلحاد، والى ما قلنا أُشير بالكلام الإلهي هو الأول والآخر والباكن والظاهر (بأل) التعريف فقوله الأول يدل على أن لا أول غيره والآخر يدل على أن لا آخر غيره وكذلك الباطن والظاهر أي أن الله باعتبار حقيقة الوجود هو الأول والآخر لا باعتبار الوجوب فالوجوب لا كلام عِنه وتلك الحقيقة منزهة عن كل الاعتبارات حتى اعتبار الإطلاق وعدم الدخول تحت شرطٍ فإذا اعتبرَت مطلقة مقيدة بالإطلاق كانت مقام العقل الذي هو مرتبة المشيئة، وإذا أُخذت بشرط شيءٍ كانت مَخلوقة ممكنة بمراتب الوجود الكثيرة فتلك الحقيقة وجودٌ لا غير في مقام الواجب والفعل والممكن أي في ذات الله وفي فعله عالم المجردات وفي عالم الإمكان بحيث مظاهر الوجود كلها وجوبٌ، ولا يلزم من ذلك شبيةٌ ولا شريكٌ فوجود المخلوق هو خالقيته تعالى وفعله، والمخلوق لا حكم له على حياله بل هو باعتبار المهيات محكومٌ عليه بالوجوب فهو في الخارجيات كالمعنى الحرفي في الذهنيات فالمعنى ليس هو الحرف المنطوق به ولا غيره بل هو هو بوجهٍ وهو غيره بوجهٍ، فمن نظر الى المكونات من حيث تحددُها أعياناً فهو الناظر الى المصنوع فنظرُهُ باطل ومن نظر إليها من حيث إنها فعل الربِّ وصنعه فهو صادق النظر وقدعرَّف آل كاشف الغطاء بالدين والإسلام الوجود أحسن تعريفٍ.

[٧] تقدم آنفا أن السماوات والأرض لا اختصاص لهما بالطبيعتين بل تتعداهما الى كل رتبةٍ من الرتب الوجودية كما ذكر مرارا.

فأحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (سورة الجاثية ٣، ٤، ٥) وأما الْمنقول فمن وجهين أيضاً أحدهم ما ندب القرآن الْمجيد إليه في غير ما موضع منه قوله سبحانه (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ[1] وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا[2] بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ[3] فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[4] (سورة البقرة: ١٦٤) ومنها قوله سبحانه تعالى (قل أنظروا ماذا في السَموات والأرض[5]) ومنها قوله تعالى (وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون[6] وقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الأفاق[7] وفي أنفسهم) أي نشهدهم الدلالات علينا في الآفاق وهو ما عدا الإنسان وفي أنفسهم وهو الإنسان (حتَى يتبيَن لهم إنَه الحقَ) أي حتَى يتضح لهم إنّ الْمشهود الْمرئي هو الحقّ.

المعنى: يقول: ومن الدلالات على إثبات وجود الحق من طريق المنقول هذه الآيات التي تعرِّفنا بأن الجميع ما في السماوات والأرض على تعدُّد هما كما ذُكِرَ يدل دلالةً قطعيةً على إثبات صانعٍ مكوِّنٍ لها كما في أنفسكم من عجيب معارفها ومداركها وارتباطها بهذا البدن الكثيف ما يدل على وجود مكونٍ حكيمٍ كونها فكل هذا ما كان منه مرئياً للعين والقلب أو مرئياً للقلب محجوباً عن العين يُبين لنا من غير شكٍ أن المشهود المرئي في كل هذه المظاهر هو الحق سبحانه من حيث وجوبه القائم بالكل لا من حيث الموجود:

تجلَّى حبيبي في مَرائي جمَاله ففي كلِّ معنىً للحبيبِ طلائعُ

---

[1] اختلاف الليل والنهار تعاقبها ومجيء كل خلف الاخر وزيادتهما ونقصانهما.

[2] إحياء الأرض بتهييج قواها وإثبات نباتها وتوريق أشجارها.

[3] بث: فرَّق.

[4] رويَ عنه(ص) أنه قال عند قراءة هذه الآية ويلٌ لمن لاكها بين فكيه ولم يتفكر فيها وهذا دليلٌ على أنه ليس المراد من النظر تقليب الحدقة فإن البهائم تشارك الإنسان بها، ومن لم ير من السماء إلا زرقتها ومن الأرض إلا غبرتها يشارك البهائم لا بل هو أدنى منها.

[5] قل انظروا الخ أي من نور ملكوته وأسرار جبروته أو من أسرار المعاني القائمة بالأواني.

[6] تقدم الكلام مستقصي على عجيب صنع الإنسان وأنه جامعُ المجموعات وأنه عالمٌ صغير والعالم الكبير إنسان كبيرٌ وسيأتي.

[7] الآفاق جمع أفق ويسكن آخر ما ظهر للناس من نواحي الفلك وأطراف الأرض وقيل مهابُ الرياح الأربع.

فلمـــا تجلـــى حُسْـــنُهُ متَنَوِّعـــاً تســـمى بأســـماءٍ فهـــنَّ مطـــالعُ

عن الصادق (ع) أن رجلاً سأل أمير المؤمنين (ع) بِم عرفت الله؟

قال: بفسخ العزائم لما هممتُ فحال بيني وبين هَمي وعزمت فخالف القضـــاء عزمي، فعلمت أن المدبر غيري، وهذا ضربٌ من آياته في الأنفس وعند الموحدين آيات الآفاق والأنفس المظهران.

الكوكب والقمر والشمس

ويكفيك استدلال الخليل من هذا الباب للكوكب والشمس والقمر قال الله تعالى (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ[1] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ(٧٥) (فَلَمَّا جَنَّ[2] عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ[3] قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ(٧٦) (فَلَمَّـــا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِـــنَ الْقَـــوْمِ الضَّالِّينَ(٧٧) (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(٧٨) (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْـــأَرْضَ حَنِيفاً[4] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة الأنعام: ٧٩).

---

[1] الملكوت: مبالغة في الملك وتقدم بمعانيه.

[2] جَنهُ الليل يجنه جنا وجنونا وجن عليه ستره وجن الليل أظلم.

[3] أفلت الشمس والقمر والنجم كل غاب.

[4] الحنيف الذي يتحنف عن الأديان أي يميل الى الحق والمخلص ومن أسلم لأمـــر الله، ولـــم يلتـــو والمستقيم. شرح الشراح هذه الآية الكريمة، بمعنى أن ابراهيم جارى قومه لأنهم كـــانوا يعبـــدون الزهرة والقمر والشمس ليريهم أن المعبود غير ما توهموه وأبان لهم أن كل آفل لا يجوز أن يكون ربا. وقال سلطان بن محمد: الملكوت لا يُسمى به عالم الطبع لا جهة مالكية له بل لـــيس فيـــه إلا المملوكية الصرف، والمراد بالملكوت عالم المثال فما فوقه إن كان المراد بالإرادة أعمَّ من الكشـــف الصوري، والمراد بالسماوات والأرض الطبيعيتان وما دام السالك في سرب نفسه المظلم ولم يخرج بالولادة الثانية الى فسحة عالم الملكوت يكون متحيرا لا يدري من أين والى أيـــن ثـــم إذا أدركتـــه العناية الإلهية وخرج من قعر سربه يطرأ عليه حالات وأطوارٌ وظلمات وأنوارٌ منيـــرات، فربمـــا يرى أنوارا عجيبة متلونة بألوان مختلفةٍ وربما يرى كواكب وأقمارا وشموسا ويذهُل عـــن التفكيـــر واستعمال المقدمات فيظنُ في بادئ رؤيته كوكبا أو قمرا أو شمسا أنه الله فيصيح به جبريل العقـــل ويفيق من محوه وينظر الى أفول المرئي وتغيره فيعلم أنه ليس به، ولا ضير أن يكون حال إبراهيم في بادئ خروجه من سربه حال سائر السّلاك، فيحسب في بادئ رؤيته الكوكب أنه هو ثـــم ينظـــر بعقله الى زواله وتغيره فيرى أنه ليس به ولا يلزم منه شركٌ ولا كفرٌ لأن تلك الأنـــوار ظهـــورات نور الأنوار وقد يغلب حكم الظاهر على المظهر بحيث يظنُ أن المظهر هو الظاهر وهذا الشرح هو

السير من الأضعف للأقوى

وأعلموا أخواني رحمكم الله تعالى إن السَموات والأرض في عالم الجسمانيات[1] وملكوت عالم الأجسام أرواحها وهي العقول والنفوس والْمرئي في سيره بأصغر الأنوار الذي مثاله الكوكب وهو النفس الناطقة والروح الآخر عن عالم الْملكوت ثم بأوسط الأنوار الذي مثاله القمر وهو النفس الكليّة، ثم بأعظم الأنوار الذي مثاله الشمس وهو العقل الكليّ، لأن سير السالك من الأصغر إلى الأكبر ومن الأضعف إلى الأقوى، إذ العقول البشرية ضعيفة كنور الخفَاش[2] بالنسبة إلى جمال الشمس يذوب عن أدراك جمال كبرياء الأعظم، ولو أبتلي بالأقوى تلاشى وانتمص ووقع في بحر الغرق[3] وأنغمس.

المعنى: يقول: شرح هذه الآية الكريمة إن السماوات والأرض المذكورات هنا في عالم الجسمانيات أي عالم الشهادة، وأرواحُ هذه السماوات والآرض عالم الأجسام الذي هو عالم النور المجرد أي إن قيامها بالفيض الإلهي من قبل عالم النور كقيام البدن بالروح. والمرء سيرُهُ في سلوكه الى الله بأصغر الأنوار الذي هو النفس الناطقة وهي الروح الذي هو آخر ما صدر عن عالم الملكوت وهو النفس الجزئية. وقد جعل الحكماء من قديم الزمان النفس مثلاً لمعرفة الله سبحانه كما سيأتي إن شاء الله. ثم يسير متدرجاً بأوسط الأنوار الذي مثاله القمر، وهو النفس الكلية في عالم الأنوار، ثم بأعظم الأنوار الذي مثالُهُ الشمس وهو العقل الكلي فحيئذٍ يكون وصَل الى الرتبة القصوى الموصلة الى معرفة المرتبة الإلهية فسير السالك من الأصغر الى الأكبر ومن الأضعف الى الأقوى بحسب الترتيب التعليمي وذلك هو التَجلي

شرح المؤلف نفسه لأن النبي يسير بحسب ما يُعلِّمُ الناس كُلاً بحسب مرتبَته، والتَجلي الإلهي بحسب قوةَ السالك واستعداده لثبوت التجلي وحضرة الحقَ سبحانه لم يتَغير عن كيانه وإن ظهر لعيانه، واختلاف المظاهر استعداد السلاك وقبولهم قال الأمير:

والذي به هام الورى ... أثرا عينا بدا في مقلتي
فجلا عن ناظري الكوكب والبدر ... والشمس به كشف الغطي

[1] الجسمانيات عندهم هي عالم الشهادةَ من عُلويٍ وسفليٍ كانه نسبةٌ الى عالم الأجسام الذي هو العقول والنفوس ومفهومٌ هذا كلامه قدسه الله.
[2] الخفاش الوطواط لصغر عينيه وضعف بصره ومنه يقال لمن لا يبصر بالليل دون الخفاش.
[3] تقدم الكلام مستقصىً عن الفرق والجمع.

الإلهي بالأنوار الثلاثة، لأن العقول البشرية ضعيفٌ نورها كنور الخفاش بالنسبة الى جمال الشمس بحيث يذوب عند النظر الى جمال كبرياء النور الأعظم، ولو ابتدأ السالك سلوكه بالنور الأقوى من الأنوار وبدون أن يتدرج إليه من الأدنى الى الأضعف تلاشى السالك من شدة غشراق التجلي وانطمس ووقع في بحر الماديات وانغمس لعمى عينيه عن استجلاء النور.

الكلمات

واعلموا أخواني أنّ العقول الفعّالة هي الكلمات[١] العليا والنفوس المُدبّرة الأفلاك هي كلماته الوسطى والنفوس البشريّة هي كلماته السفلى.

وقول السيّد الرسول منه السلام: أعوذ بكلمات الله التّامّات كلّها من شرّ ما خلق وذرا وبرأ إشارة إلي العقول الفعّالة الكاملة التّامّة لا إلى النفوس[٢] والأجرام[٣] فإنّ الأجرام نواقص مطلقاً والنفوس متوسّطات بينها في الكمال والنقص وهذا لا يعرفه السالك ما لم يعرف الأنوار الثلاثة المْحسوسة في عالم الأجسام وهي الشمس والقمر والكوكب. فإنّ هذه ظلال الأنوار المْجرّدة القاهرة وطلسمات[٤] تلك الصورة فالشمس مثال العقل والقمر مثال النفس والكوكب مثال النفوس الثلاثة المْختلفة بالصغر والكبر والإشراق والجلال والنور والبهاء.

---

[١] الكلمات جمعُ كلمةٍ، وتقدم أن الكلمة غير مختصةٍ بالحروف المركبة ولا غير ذلك، بل كل ما دل على غيره من الكلمات العينية فهو كلمةٌ، وأصل الكلمات الولاية وهي واحدة كسائر صفاته وأفعاله، وكل الكلمات من العقول والنفوس الكتابية أظلال تلك الكلمة وتلك الكلمة تختلف بحسب القوابل، ففي قابل تصير رحمة رحيمية وفي قابل تصير سخطاً وعذاباً وكل منهما إما تحف وترسخ للقابل وعليه، وإما لا تحق، والذي حقت له كلمة الرضا لا ينصرف عن الإيمان والذي حقت عليه كلمة السخط لا ينصرف عن الكفر.

[٢] النفس عند ابن سينا كجنسٍ واحدٍ ينقسم في ضرب من القسمة الى ثلاثة أقسام:

أحدها النباتية وهي كمال أول لجسمٍ طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويربو ويتغذى.

والثاني:النفس الحيوانية وهي كمالٌ أول لجسمٍ طبيعي آلي من جهة ما يُدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة.

والثالث النفس الإنسانية وهي كمال أول لجسمٍ طبيعي لجهة ما يفعل الفعال الكائنة بالاختبار الفكري والاستنباط بالرأي ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية.

[٣] الجرمُ بالكسر الجسد والأجرام الفلكية الأجسام التي في الفلك مع ما فيها.

[٤] الطلّسمات: جمع طلسم خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذىً وهو ضربٌ من السحر المكتوم وقد كثر قول الصوفية(سرّ مُطلسمٌ، وحجاب مطلسمٌ) وهو معرب تالسما ومعناه جزيةٌ، أوتالسمس ومعناه لا تكميل ويجمع على طلاسم.

المعنى: يقول: شارحاً كلامه السابق إن العقول الفعالة التي مثالها الشمس هي كلمات الله العليا والنفوس المدبرة الأفلاك التي مثالها في عالم الأجسام القمر هي كلماته الوسطى، والنفوس الثلاثة:

البشرية والحيوانية والنباتية التي مثالها الكوكب كلماته السفلى. والذي أراده (ص) بقوله:

أعوذ بكلمات الله التامات، العقول الفعالة لا النفوس المدبرة الأفلاك، ولا الأجرام وهي ما تضمنه الأفلاك من عالم النور ومَرَّ بك عن النقص والكمال طرفٌ وافٍ. والنفوس المدبرة الأفلاك بنقصها وكمالها متوسطةٌ بين العقول والأجرام وهذا لا يعرفه السالك لأنه غيبٌ عنه ما لم يعرف له مثالاً محسوساً فيرتقي بالخيال والتصور الى معرفته، وهذا المثال المحسوس هو الأنوار الثلاثة المحسوسة المرئية الشمس والقمر والكوكب، فإن هذه الأنوار الملكية ظلال الأنوار المجردة القاهرة وهؤلاء رابطة الروحانيات العلوية بالطبائع السفلية، فالشمس مثال العقل الأول، والقمر مثال النفس الكلية، والكوكب مثال النفوس الثلاثة: الإنسانية والحيوانية والنباتية، فالاهتداء الباطني بتلك الأنوار الثلاثة العقول والنفوس والأجرام، هو كالاهتداء الظاهري بالكوكب والقمر والشمس، وأنت تعلم شرح الموحدين لهذه الآية أنه تجلى الجليل للخليل في مراتب التمثيل كما في آية النور، وهو نفس هذا الشرح وان اختلفت الصيغ. وفي (الحقائق) معرفة الكلمات وتقسيمها وكيف كوَّن الله بها.

سير الخليل

فإذا فُهم ما قلنا عَلِمنا أنّ سير الخليل كان في عالم الجسمانيّات لا كما ظنّ بعض الناس من أنّ سيره كان في عالم الأجسام وكان حال سيره هذا غير عارف بربّه ولم يفطن لقوله منه السلام ما حكى الله (لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) (سورة الأنعام: من الآية ٧٧)، فإنّ قوله هذا يدلّ على إنّه قبل هذا الحال كان عارفاً بربّه، وإنّما اشتبه عليه ربّ عالم الْملكوت، فإنّه لمّا رأى تلك الأنوار الْمختلفة في العظمة والإشراق اختلاف الشمس والقمر والكوكب بالصغر والكبر والنور والظلمة دهش وتحيّر، وعن حالته تغيّر فغشيه نور جلال جمال الحضرة

وإشراق كماله، فبادر إلى مثال الكوكب بحسب الترتيب التعليمي خلاف الترتيب الكائن في الوجود العيني[١].

المعنى: يقول: إذا فُهم ما قاله عن الأنوار الثلاثة أنها ظلالٌ لما فوقها عُلِمَ أن سلوك الخليل كان في عالم الجسمانيات الذي هو عالم الشهادة، لافي عالم الأجسام الذي هو المعقول والنفوس كما ظن بعضهم، وكان حال سيره هذا غير عارفٍ بربه في مظاهره في عالم الأجسام، وهذا الذي ظن أن سيره كان في عالم الأجسام لم ينتبه لما حكاه عنه جل جلاله (لئن لم يهدني ربي)، فقوله هذا يدل على أنه كان عارفاً بربه في عالم الجسمانيات فقط، وإنما تطلع الى معرفته ربه في عالم الملكوت أي تجليه سبحانه لأهل عالم الملكوت، لأن له سبحانه في كل عالمٍ تجلياً، وهذا التجلي هو رب العالم الذي تجلى به أي ظهوره لهم كهم، فلما جنَّ الليل رأى تلك التجليات التي هي مظاهر الحق سشبحانه، فغشيه نور جلال جمال الحضرة الذاتية مثبتاً له، فبادر الى النور الظاهر كمثال الكوكب الخ... بحسب الترتيب التعليمي بأن يبتدئ من الأضعف الى الأقوى ومن الأدنى الى الأعلى بخلاف الترتيب التكويني فإنه يبتدئ من الأعلى فنازلاً: الاسم عن نور الذات والباب عن نور النور وهكذا، وإنما أظهر إبراهيم الخليل هذا السلوك التدريجي تعليماً للناس، والنبي يسير في الناس بحسب تعاليمه لهم كما يتنزل الشيخ ال رتبة تلميذه ويسايره رتبةً وتبةً.

ترتيب التكوين

فإن أول موجودٍ من قبل الوحدة الذاتية أمره تعالى ثم خلق ناقص فإنَ أتمَ ما خلق الله العقل الكلّي ثم النفس الكليّة ثم النفوس البشريّة، وإنما فعل ذلك تنبيهاً على إنّ سير السالك لا يمكن إلاّ بالتدريج، كما قلنا من الصغر إلى الكبر ومن الأضعف إلى الأقوى.

واعلموا أخواني -رحمكم الله- أنّ العقول الفعّالة السابق منها علّة وجود اللاحق، وأمّا النفوس فلا تكون علّةً لشيءٍ من الأجرام، نعم عسى أن تكون علّة لبعض الأعراض كالحياة التي في جسم الفلك، فإنّها فعلٌ من أفعال نفوسها بل هي أيضاً مفعولات معلولات العقول التي تسري في جسم الفلك بواسطة النفوس.

---

[١] العينيُ نسبة الى العين وهو الذات.

المعنى: ولما عرفنا، أنهضنا الله لفهم أسراره. أن السلوك لا يمكن أن يكون إلا من الأضعف الى الأقوى بحسب الترتيب التعليمي لا بحسب التريب التكـويني، شرع يعرفنا الترتيب التكويني بأنه أول ما وجد من قبل وحدة الوجود الذاتية الأمـر الذي هو قديم الميم. -كما ذكرنا- ثم العقل الكلي ثم النفس الكلية ثم النفوس الجزئية غير أن الخليل سار على الترتيب التعليمي تنبيهاً للسلاك بأنه لا يمكـن السـلوك إلا بالتدريج، فإن السالك كلما ارتفع حجابٌ عن بصره شهد حجاباً آخر أرقَّ وأرفع الى أن تهتك الحُجبُ كلها دونه، فيكون حينئذٍ العبد الفاني في الله. ثم شرع يعلمنـا بـأن العقول الفعالة كل سابقٍ منها علةٌ لوجود اللاحق به، أي أصـل فـي إيجـاده، وأن النفوس ليست علةً لإيجاد شيء من الأجرام، لكن ربما كانت علةً لبعض الأعـراض كالحياة التي في جسم الفلك، فإنها من أفعال نفوس الفلك لا بل هي أيضاً معلـولات العقول، لأن النفوس تستمد من العقول فهي معلولةٌ لها، وما استمد من النفوس راجعٌ الى ما استمدت منه النفوس، فالحياة التي بجسم الفلك من العقـول أصـلاً إلا أنهـا استمدت من النفوس والحقيقة إن العوالم كلها معلولةٌ لله، وإن العلية ليست كما توهم المتوهمون، مثل عِلية البناء للبناء والنار للنار والشمس للتبييض والتسويد، بل هـي بالتشؤن بمعنى أن المعلول لا بد أن يكون شأناً من العلة ومتقوماً بها، لأن تقابلهمـا تقابل التضايف والمتضايفان غير منفكين في الخارج وفي الذهن، كقولك كتابة زيـدٍ فالكتابة مضافةٌ الى زيدٍ وزيدٌ مضافٌ للكتابة، وكلاهما غير منفكٍ عن الآخر فلو لم تكن العلة داخلةً في قوام المعلول لم يكن المعلول، والحال إن المعلولية التـي هـي السبب بين العلة والمعلول غير ذات المعلول لمن تصوره بكنهه سفكاً عـن تصـور العلة والعلية في الحق الأول عين ذاته، كما أن المعلولية الممكن عين ذاته وإن ذات العلة علمٌ وإرادةٌ كله كما أنه وجودٌ كله. ولما لم يكن قوام المعلول فارغاً من العلـة كان قوامه علماً وإرادة لله تعالى.

المثل للإفاضة التكوين

ولا تفهمون هذه العلّة[1] وَالْمعلوليّة فيما بين هذه الجواهر إلاّ بأن تتصـوّروا في أنفسكم مثالاً من الْمحسوس، وهو أنّ ضوء الشمس متى وقع على ضوء القمر

---

[1] لعلها العلية وهي السبب الذي بين العلة والمعلول.

ينعكس[١] منه على المرآة، ثم على الماء ثم على الجدار. فهذه الأنوار بعضها نور الشمس وبعضها عكس نوره، وبعضها عكس عكسه، وبعضها عكسَ عكسْ عكسه وهذا إلى آخر المراتب. فكما أنّ نور الشمس أقوى وأشرف من عكسه فعكسه أشرف من عكس عكسه، وعلى هذا فالنفوس عكوس تلك الأنوار والأجسام الفلكيَة ظلالها والعقول إشراقها والعقل الأول الذي انبجس[٢] من بحر الجود وانفلق[٣] صبح وجوده من شمس الوجود هو نور الأنوار ومفيض الآثار الذي نخوض الآن في شاطئ بحره ونفري[٤] عباب نوره هو ينبوع النّور ومدبّر الأمور. وأخرها عكس الكل. وأوسطها نورٌ بالنسبة إلى عكسه الذي تحته. وعكسٌ بالنسبة إلى عكسه الذي تحته. وعكسٌ بالنسبة إلى نوره الذي فوقه. فهذا ما أردنا إيراده هاهنا والله الهادي وَالمرشد لا ربّ سواه.

المعنى: يقول : ولستم تفهمون هذه العلة في العقول الفعالة الغيبية، ولا المعلولية التي كانت بها النفوس عن العقول حتى تتصوروا لها مثالاً محسوساً وضرب المثل بضوء الشمس ينعكس على القمر ثم الضوء المنعكس ينعكس على صفحة المرآة، ثم هذا الضوء المنعكس على المرآة ينعكس على صفحة الماء، فهذه الأنوار أولها نور الشمس الحقيقي، والثاني عكس نور الشمس، وبواقي أنوار المراتب عكوسٌ عن عكوسٍ، وكلما كان العكس أقرب الى النور كان أشرف وأقوى، فالنفوس عكوس أنوار العقول، والأجسام الفلكية ظلالها أي عكوسها، والعقول إشراق العقل الأول (أي عكس نوره) المتفجر من بحر الجود الأزلي والمنشق صبح كيانه من شمس الوجود الأبدية، وهو منبع الأنوار وهو الذي نخوض بمعارفنا شاطئ بحره ونجتاب بما نعلمه آمادَ نوره وآخر الأنوار عكس ما قبله، وأوسطها نورٌ بالنسبة لما بعده وعكسٌ بالنسبة الى ما فوقه. وقد شرح سلطان بن محمد قوله تعالى «يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجداً لله وهم داخرون» فقال:إن النور الحقيقي هو الله سبحانه وفعله المُعبَّرُ عنه بالمشيئة فعالم العقول بالنسبة الى المشيئة كالشاخص وهكذا عالم المال وعالم الطبع وعالم الجنة والشياطين، فظل كلٍّ عبارةٌ عما دونه من

---

[١] العكس القلب وردُ الشيء الى أوله.
[٢] انبجس الماء انفجر وتفجر وتبجس أيضاً.
[٣] انفلق: انشق.
[٤] نفري: نجتاب ونشق.

العوالم وقد استعرض ابن ابي الحديد إفاضات التكوين فقال: مثل هذا القول وأطال إلا أنه سمى هذه العكوس أضواء، فإذا رددت هذه الأنوار الى مصدرها الأول رأيتها هي هو حقيقةً إلا تكثُّرها وتوحُّدُهُ وكنت في رتبة الجمع، وإذا اعتبرتها عوالم كل عالم لنفسه وكل مكونٍ لذاته لم تزل في رتبة الفرق والذي عليه المعوّل أن تحتفظ بالاعتبارين، فليست هي الحق الأول في كثراتها وأنواعها ولا هي غيره في حقائقها ووجوبها ولعل هذا هو الذي عناه الشيخ بقوله:

وذلك النورُ أشخاصٌ مفرقةٌ في إيِّما صورةٍ أبصرته حسنا

لكنه صمدٌ تعنو الوجوه له والعين تدرك منه قدْرَ ما مننا

خلاصة التنبيه الثالث من القاعدة الأولى.

أما إثبات وجوده جل جلاله من طريق المعقول فمن وجهين:

أحدهما أن كل مصنوعٍ لا بد له من صانع بقسم الضرورة إذ يستحيل إيجاده لنفسه، والثاني أنه يستحيل عدم الصانع مع وجود الصنعة من وجود خلق السماوات والأرض وإتقان صنعتهما ودوام الفيض الإلهي عليهما مثل بقاء الظل ببقاء الشاخص والفيض الجلالي مستمرٌ أبداً ، وفي اسمراره استمرار بقاء الوجود من عالم العقول والنفوس الى آخر المكونات. وأما إثباته عن طريق المنقول فمن وجهين أيضاً: الأول ما ندب إليه القرآن الكريم بقوله سبحانه: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. الخ) (سورة البقرة: من الآية ١٦٤)

ويكفيك من هذا الباب استدلال الخليل بالكوكب والقمر والشمس، قال سبحانه(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (سورة الأنعام: من الآية ٧٥) الخ فالسماوات والأرض هنا عالم الشهادة وأرواحهما التي بها قيامهما عالم العقول والنفوس، والمرء يجب أن يكون سلوكه الى الله من الأصغر الى الأكبر ومن الأضعف الى الأقوى، فيستدل أولاً على وجوده سبحانه من النفس الناطقة التي مثالها الكوكب في عالم الشهادة ثم من النفس الكلية التي مثالها في عالم الشهادة والقمر ثم من العقل الكلي الذي مثاله في عالم الشهادة الشمس. أي يستدل على إثبات الوجود من أمثلة الأنوار الغيبية الثلاثة:

النفس الناطقة، والنفس الكلية، والعقل الكلي. وأمثلتها التي يستدل بها الكوكب والقمر والشمس كما مر ولو ابتدأ السالك الى الله سلوكه من الأقوى الى الأضعف لتلاشى وفني لشدة إشراق النور. وكلمات الله الدالة عليه والمرشدة إليه سبحانه ثلاث: عُليا ووسطى وسفلي. فكلماته العليا، العقول الفعالة، والوسطى، النفوس الفلكية، والسفلى الأجرام السفلية. ولا يعرف السالك هذا في الأنوار المجردة لأنها غيبٌ عنه. وإنما يعرفه في الأنوار الثلاثة من عالم الشهادة: الكوكب والقمر والشمس هُنَّ ظلال الأنوار المجردة القاهرة وهذه الأنوار الثلاثة هُنَّ مثال العقل الجزئي أيضاً والنفس الناطقة الإنسانية والنفوس الثلاث الحيوانية والنباتية والإنسانية. يعني بالنفس الإنسانية هذه النفس التي بها حياة البدن لا النفس الروحانية الناطقة.

فسير الخليل كان في عالم الجسمانيات المحسوسات لا في عالم العقول والنفوس وكان حال سيره هذا غير عارفٍ برب عالم الملكوت، بل كان عارفاً برب العالم المحسوس أي لم يعرَف بعد التجلي في عالم الشهادة فلما تجلى له رب عالم الملكوت دُهِشَ لعظمة التجلي وجلال الإشراق، فغشيه نور جلال الجمال الإلهي مثبتاً له، فبادر الى مثال الأنوار الثلاثة في عالم العقول بحسب الترتيب التعليمي من الأضعف الى الأقوى بخلاف الترتيب التكويني، وإنما أظهر الخليل ذلك تعليماً للسلاك أن يسيروا من الأضعف الى الأقوى. والعقول الفعالة السابق منها علة لوجود اللاحق والنفوس علةً للحياة التي بجسم الفلك فقط لا علة للتكوين، ولا تفهم هذه العلة والمعلولية إلا بضرب مثالٍ محسوسٍ فينقلنا الخيال بواسطته الى العالم المجرد والمثل هو انعكاس نور الشمس على القمر ثم منه على القمر، وهكذا الى آخر المراتب وهذه العكوس بعضها نور الشمس، وبعضها نور نوره وهكذا...

فالنور واحدٌ وتعدد بتعدد العكوس والإفاضات. وعلى هذا فالنفوس عكوس أنوار العقول والأجسام الفلكية عكوس النفوس أو ظلالها والعقول إشراق العقل الأول الذي أشرق عن حضرة الحق سبحانه وآخر الأنوار عكس الكل وأوسطها نورٌ بالنسبة الى ما تحته وعكس بالنسبة الى ما فوقه.

التنبيه الرابع: في إثبات وحدة المعنى القديم

أعلموا أخواني رحمكم الله إن الله تعالى واحدٌ أحد من حيث الاسم أحدٌ من حيث الذات لا إثنان كما زعمت الثنويّة[1] دلّنا على ذلك إنّهما لو كانا أثنين أو ما زاد. كما زعمت النصارى بالثالوث وقالت به فلا يخلو من أمرين أمّا أن يكونا قادرين أو عاجزين أو أحدهما قادر والآخر عاجز، فهذه أقسام لابدّ لهما من بطلان أن يكونا عاجزين لعدم قدرتهما على الإيجاد ولا قائل به.

وأمّا الاثنان إذا كانا قادرين فنقول:

هل يقدر أحدهما على أنّ يمنع الآخر عن أرادته؟

فإن كان له قدرة ظهر عجز الآخر عن مقاومته وثبتت القدرة لهذا فكان أحقّ زائدة بالتألّه.

---

[1] الثنوية اختصت بالمجوس فإنهم أثبتوا أصلين مدبّرَين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد ومسائلهم تدور على قاعدتين إحداهما سببِ امتزاج النور بالظلمة والثانية سبب خلاص النور من الظلمة وجعلوا الإمتزاج مبدأ والخلاص معادا. قال صاحب (بيان السعادة) في شرح قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (الأنبياء: من الآية ٢٢) لكون الآلهة حينئذ تامّي القدرة وإلا لم يكونوا آلهة وتمامية القدرة تقضي أن يكون كل منهما قادرا على دفع الآخر عن مراده، فإن قيل إن مرادهما يكون قرينا للحكمة فلا ينبغي التدافع يقال الحجة بصحة إمكان التدافع لا بوقوعه، وصحته مستلزمة للفساد وهذا هو استدلال المتكلمين وبيانهم للآية والتحقيق في بيان الآية أنه لو فرض إلاهان فإما أن يكونا قديمين قويين أو حادثين ضعيفين أو يكون أحدهما قويا والآخر ضعيفا حادثا والآخران خلاف الفرض ومثبتان للتوحيد، وإن كانا قديمين واجبين والوجوب من صفات الوجود، والوجود متأصل في التحقق وتحقق كل شيء لا يكون إلا بتحقق الوجود وهو حقيقة واحدة لا تكثر فيه كما مر مرارا فتكثره لا يكون إلا بأجزاء تضم إليه وكذلك الوجوب فإذا كان القديمان واجبين بالذات كانا واحدا في حقيقة الوجود وتعددهما لا يكون إلا بشئ يضمّ إليهما ليصح الافتراق بينهما ويتمّ الانضمام وهذه الضميمة لا يجوز أن تكون من جنس ذوات المهيات المادية ولا النورية المكونة ولا تكون إلا من جنس المضموم إليه ليصح الإنضمام، وإذا كانت من جنسه تكون هي هو فلا تعدد بينهما، وإذا كانت من غير جنسه يصبح مركبا من نوعين وذاك مُحال، ويكون المفروض إلهين أصبح ثلاثة، ولما كانت الثلاثة مشتركة في حقيقة الوجود والوجود لا تكثر فيه فلا يكون التعدد إلا في ضمائم أيضا وأقلها ضميمان فيصير الثلاثة خمسة وهكذا. وهذا البرهان بعد إتقان المقدمات من أشدّ البراهين وأتمها لأنه يؤخذ من النظر الى حقيقة الوجود من غير اعتبار شيئ آخر معها، وسُمي برهان الفرجة (أي الفصل) لأنه لا يجوز أن يكونا أثنين إلا بفاصل وإذا كانت الفاصل كانا متباينين، ولا تحصل المعرفة التامة بالله إلا برفع الحُجُب والمظاهر ونفي الأسماء والصفات وكشف سُبحات الجلال من غير إشارة وذات للعارف كما ورد عنهم اعرفوا الله بالله، يعني لا بمظاهره، والحاصل أنه لو كان الواجب متعددا لزم انقلاب الواجب ممكنا وفيه بطلان العالم وفساد السموات والأرض لأنها ممكنة والممكن ما لم يستند الى واجب لم يوجد، وصيرورة المتعدد واحدا وهو المطلوب أو عدم انتهاء عدد الواجب وهو خلاف المدعي.

وإن لم يقدر على صاحبه في قمعه فهو عاجزٌ، وأن أستويا في القدرة فقد أتحدا وأتحاد الذاتين والهيئتين لايكون إلاّ بعد المْقاومة، لأنّهما بعد الإتحاد إن بقيا موجودين فهما إثنان وإن عدم أحدهما فلا إتحاد لأن المْعدومَ لايتَّحِد بالمْعدومِ ولابالْموجود، وأن قلت إنَهما تَهادنا هذا لفعل الخير وهذا لفعل الشرّ وهذا للإيجاد وهذا للإعدام. قلتُ اجتماعِ الضدّين مستحيل في بديه العقل ويلزم من المْهادنة وجود ثالث فوّض إلى كلّ منهما ما يشاء فعله وكان هو أصلاً لَهما وكانا فرعين عنه فثبت لنا التوحيد وبطل الشِركُ والإتحاد الذي هو صيرورة الذاتين والهيئتين واحدةً.

المعنى: يقول: بعد أن أثبت وجود الحق سبحانه مُدللاً على وحدته، إن الله واحدٌ أحدٌ من حيث الاسم واحدٌ أحدٌ ، من حيث الذات، لا كما تزعم الثنوية القائلة بإلهين إلهٍ للخير وإلهٍ للشر، إذ لو كانا اثنين أو ثلاثةً كما زعمت النصارى فلا تخلو من أن يكونا عاجزين أو قادرين، ولا من قائل بأنهما عاجزان، فلم يبق إلا أنهما قادران فنسأل القائل بذلك هل يقدر أحدهما من منع الآخر من مراده أم لا، فإن كان أحدهما قادراً على منع صاحبه من مراده كان أحق بالتأله، وإن لم يقدر فهما عاجزان، ومُنع الاثنان من التأله، وإن زعم أنهما استويا في القدرة فقد اتحدا، فكانا شيئً واحداً وبعد الاتحاد إن بقيا موجودين بقيا اثنين وبطل الاتحاد، وإن عدمَ أحدهما فلا اتحاد بواسطة العدم وإن زعم أنهما تهادنا أن يعمل كلّ منهما عملاً مخصوصاً به من الخير والشر، فالمهادنة لا تكون إلا بعد مقاومةٍ واجتماع الضدين مستحيلٌ بداهةً، إذ فاعل الشر وفاعل الخير ضدان، فكيف اجتماعهما على الاتفاق ويلزم لذلك إله ثالثٌ فوض لكل منهما ما يشاء لأن يفعل، وهذا الثالث يكون أصلاً لهما وهما فرعاه فبذلك وبإبطال هذه الزعوم جميعاً ثبت التوحيد العيان على الأضداد بعض الأدلة وقد تناول صاحب(الحجة) ذلك بحُججٍ قويةٍ كما هو مشهور عنه ومن أرادها حُججاً لا تُردُّ فليرجع الى كتاب الاحتجاج فيرى رد النبي على اليهود والنصارى والثنوية والدهريين، قال للثنويين: ما الذي دعاكم لما قلتموه، قالوا: وجدنا العالم صنفين خيراً وشراً فأنكرنا أن يكون الفاعل واحداً، فالثلج مُحالٌ أن يُسخِّنَ والنار مُحال أن تُبرِّدَ قال : قد رأيتم سواداً وبياضاً وحمرةً وصفرةً وخضرةً وزرقةً وكل واحدةٍ ضد سائرها لاستحالة اجتماع مثلين منهما في محلٍ واحدٍ، كما أن الحرَّ والبرد

ضدان لاستحالة اجتماعهما في محلٍ واحدٍ، فهلا أثبتم بعدد كل لون صانعاً قديماً ليكون فاعلُ كل ضدٍ من هذه الألوان غير فاعل الضد الآخر ثم قال: فكيف النور والظلمة وهذا من طبعه الصعود وهذا من طبعه الهبوط؟ أرأيتم لو أن رجلاً أخذ شرقاً والآخر أخذ غرباً أيجوز أن يلتقيا قالوا لا. قال فوجب ألاّ يختلط النور والظلمة فأفحموا. وردَّ اليهود والنصارى رداً مُخجلاً مضحكاً.

صحة الاتحاد

وأمّا إذا كان الإتحاد لمنزلة ظهور الواحد في مراتب الأعداد فيظهر العدد فانّه صحيح من هذا الوجه ويكون الدليل مخالفاً للحسّ[١] فيكون له وجهين كالكتابة عن حركة يد الكاتب حتماً وبدليل أنّ الله تعالى خالقها وأنّها أثر القدرة القديمة للمحدثة. وأيضاً معلوم أنّ الواحد أصل وما زاد فرع ومتى ثبت الأصل تقدّم وجوده على الفرع والفرع يفتقر إلى الأصل والأصل لا يفتقر إلى الفرع كما قلتُ شعراً:

فأفراد كل ليس كلاً أنا نعم ولا هو غيري لإتّحادي بجملتي
فما الفرع عين الأصل في واحديّةٍ ولا الأصل عين الفرع في أحديّةِ

وبالجملة فلا حاجةٌ لنا في أقامة الدليل في أثبات الوحدانيّة لله تعالى فإنّ المشاهدة[٢] تمنع عن الجدال في الله وفي وحدانيّته، وقال الله تعالى (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ[٣] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (سورة إبراهيم: من الآية ١٠) ولكن يقال للمشرك نحن وإيّاك مجمعون على واحد وأنتَ زدت عليه فما الدليل على أثبات الزائد فهو يتكلّف طلب الدليل عليه لا نحن.

المعنى: ولما أثبت وحدانية الله سبحانه وأن الاتحاد بين شكلين متباينين مُحال، قال: وأما إذا كان الاتحاد هو ظهور الواحد في مراتب الأعداد تتركب منه وبه

---

[١] الحِسُّ: إحدى الحواس الخمس، وعند الحكماء الحس المشترك هو القوة التي ترتسم فيها صور الجزئيات بالحواس الظاهرة.
[٢] المشاهدة إحدى الرُتب الثلاث عند الصوفيين وهي الفراسة والمكاشفة والمشاهدة وسيأتي الكلام عليها مُفصلاً عند تكلمه عنها.
[٣] فاطرٌ: خالق.

تظهر، فهو صحيح من هذا الوجه، ولكن هذا الاتحاد مخالفٌ للواقع المحسوس ولا يُعرف إلا بالعقل، فيكون حينئذٍ للاتحاد وجهان: ظهور الواحد في مراتب الأعداد ودلالته على التكوين بتنزل الوجود في عالم الغيب كالكتابة مثلاً، فإنها حركة يد الكاتب حتماً وهي الحقيقة أثر قدرة الله القديمة لا قدرة الكاتب المحدثة (أنا قلمٌ والاقتدار أصابع)، والاتحاد المذكور عند الصوفية ليس المُراد به صيرورة الذاتين ذاتاً واحداً، فإن ذلك محال بل هو انسلاخ التعددات العارضة لكل كليٍّ بظهور أمرٍ أقوى منه حتى يعود واحداً كما كان، فبين الإنسان الواصل الى رتبة العقل وبين العقل أن الإنسان يأخذ عن الله بواسطة العقول والنفوس ويأخذ عنه بحكم وجوبه بلا واسطةٍ، وكذلك الأعداد فإنها وإن كانت دلالة الأشياء المحدثة فإنها دلالة الفيوضات عن الواحد جل جلاله، وأيضاً معلومٌ لا مرية به أن الواحد أصل الأعداد، وما زاد عليه من العدد فرعٌ له والأصل بكل شيئٍ متقدمٌ على الفرع وكذلك ما زعموا من تعدد الآلهة، فالأول هو الأصل وما زاد عليه مما زعموا هو الفرع. وستشهد على حقائقه هذه بما نظم.

إنني لست أنا كل الأشياء لانفراد كل الأشياء عني وانفرادي عنها، ولا كل مجموع الأشياء بمختلف الأشياء غيري لأنني مُتَّحِدٌ بجملتي، وجملتي هي الكل الذي لا يتجزأ (وقد علمت جمع الإنسان للجموعات) وأنا غير الأصل الذي كانت عنه المكونات لأنني فرعٌ عنه والأصل لا يكون عين الفرع في المظهر الواحدي المنفعل عن ذات الأحد، كما أن الفرع لا يكون عين الأصل في الحقيقة الأحدية، وبالجملة فإنه لا يرى حاجةً لطلب الأدلة على وحدانية الله فإن مشاهدة الكُمَّل تمنع من الجدل والتمحُّلِ في إثبات وجود الله ووحدانيته قال سبحانه (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (إبراهيم: من الآية ١٠) وعلى المشرك إثبات الزائد على الإله الواحد لا علينا.

تنزيه الحق حتى عن الأحد

وقد قيل التوحيد أن يتحقق أنّ الله عزّ وعلا مبدع الأحد وخالق الواحد وأنّ الواحد عبدٌ من عبيده والأحد حدٌّ من حدوده إذا كان الله عز وجل قد تنزّه عن كل

إسمٍ[1] وعلا عن كلّ صفةٍ، وكلّ مسمّى ألا ترى إنّ الواحد هو أصل الأصول والأعداد وبه تركّب الأزواج والافراد وأنّ العدد خارج عن صفة المعدود وأنّ الأحد هو اسم أول يوم يُعرف من الأيام فيتعالى أن يتسمى به مبدع[2] الأيام..

يقول: والتوحيد أن تتحقق أن الله عز وجل مبدع الأحد أي مكونه على غير مثال وكأنه أراد قديم الميم، وهذا لا ينافي ما ورد في كتب الدين من أن الأحد اسمٌ خاصٌ للمعنى، فإن المعنى منزهٌ عن الاسماء والصفات، وهي واقعةٌ على الاسم وهو سبحانه خالق الواحد الذي هو محدث السيد محمد وإن تتحقق أن الواحد عبدٌ من عبيده، والأحد حدٌ من حدود معرفته، حيث أن المعنى منزه عن كل اسمٍ، وعليّ عن كل صفةٍ، لأنه لو كان له اسمٌ وصفةٌ لكان ذلك الاسم هو الدليل عليه، (وليس عليك

---

[1] إن أسماء الله سبحانه عبارةٌ عما يدل عليه من لفظٍ أو مفهوم أو جوهر عيني، وإطلاق الاسم في الأخبار على الذوات العينية كثيرٌ والفرق بين الاسم والصفة إذا اعتبر في الاسم معنى من المعاني كالفرق بين المشتق ومبدأ الاشتقاق كالعلم والعالم، فإن العلم لا يدخل تحت شرطٍ لأنه مجردٌ قائمٌ بذاته يضم الشروط كلها بخلاف العالم، ولذلك لا يصدق على الذوات الموصوفة به فيقال زيدٌ قائمٌ بذاتهِ يصدق عليه العالم، وذات الباري علمٌ قائمٌ بذاته كما أنه عالمٌ، وللاسم اعتباران الأول كونه إسما ومرآة للمسمى وبهذا الاعتبار لا يكون له وجودٌ مغاير للمسمى، والثاني كونه رقيقة من المسمى ونفسية له، فقولك زيدٌ لا يكون الحكم فيه إلا على المسمى إلا إذا اعتبرنا ألفاظه مثل الكلمة والمركب والأحرف وغير ذلك، فبهذا الاعتبار لا يكون الاسم مظهر للمسمى ولا دالا عليه، والى هذين الاعتبارين أشار سبحانه بقوله: إن هي إلا أسماءٌ، يعني أن الاشياء برمتها دالةٌ على الله، وكل دالٍ على شيء فهو اسم له. ليست مسميات ومنظوراً إليها ومستقلاتٍ مغايرات لله "سميتموها أنتم" يعني أنكم صرتم محجوبين عن المسمى ناظرين الى الاسماء. والناس في هذا النظر الى الاسماء خمسة أقسام ناظرٌ إليها من حيث أنها أسماءٌ لله، غافلا عن وجودها وعن النظر إليها، أو شاعرا بالنظر إليها، وهو الذي يعبد المسمى بإيقاع الاسماء عليه ويكون موحدا، وناظرٌ إليها من حيث أنها مسميات غافلا عن المسمى وهو الذي يعبد الاسم دون المسمى يكون كافرا، وناظرٌ ينظر إليها مستقلاتٍ والى الاسم مستقلا عنها وهو الذي يعبد الاسم والمسمى ويكون مشركا، وناظرٌ ينظر إليها من حيث أنها أسماءٌ غافلا عن نظره إليها وهو المجذوب الذي رُفع عنه القلم ولا حكم له في الكثرات، وناظرٌ ينظر إليها من حيث أنها أسماءٌ شاعرا بنظره وهو الكامل الجامع بين الطرفين، والنظرات الثلاث الأخيرات الأول منها هو الواقع في النشأة الموسوية (وهي مادية بحتة) والثاني الواقع في النشأة العيسوية (وهي روحانية بحتة) والثالث الواقع بالنشأة المحمدية (وهي مادية بحتة) وهي نظرة الكامل والى ذلك أشير بقوله تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) الخ (الفتح: ٢٩) واعتبر ما ذكر من تقسيم الاسم بحيث الكافر والمشرك والمجذوب والكامل، ونشآت الكامل الثلاث بالمرآة فقد تنظر الى المرآة وهيئتها من غير صورةٍ فيها. وقد تنظر إليها من حيث رؤية الصور فقط من غير شعور بها وبشكلها، وقد تنظر إليها من حيث استكمالها وصفائها والى الصورة فيها، وقد تنظر الى عكس الصور فيها فقط شاعرا بنظرك وما ورد في جواب هل الخلق في الله أم الله في الخلق من قوله أخبرني هل أنت في المرآة أم المرآة فيك يُشير الى هذا، وكل ما ذكر من تقسيم السماء على رُتب السلاك لا يخرج عما ذكر من الفناءات الثلاثة وفي الأصيفر فصول إضافية عن الإسم والمسمى.

[2] المبدع المكوّنُ على غير مثالٍ.

غيرك من يدل) وكيف يُسمى. وتعالى الله، بإسمٍ هو سماه وبصفة هو أقامها، ألا ترى أن الواحد هو أصل الأصول والأعداد وبه تتركب الأزواج والأفراد، وأن العدد غير المعدود، والأحد هو أول يوم يُعرفُ من الأيام، فكيف يسمى به مبدع الأيام وحيث عرفت مما تقدم معنى الاسم والمسمى هان عليك أن تعلم أن الاسم إذا أردتَ به ذات المسمى فهو ذات المسمى وإذا أردت به غير المسمى فهو غير المسمى وما نُزِّهَ به الباري عن الاسماء والصفات فهو الحد المجهول:لم يفرقوا بين المسمى واسمه ولغير رسم الاسم لم يتعبدوا.

خفاءُ التوحيد

فدقق فيه فكرك فهو خفيَ لقول الرسول (ص) الشّرك في أمّتي أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الْمسح الأسود.

وإذا كان الشرك خفياً فالتوحيد أخفى وأخفى.

فالواحد وَالْموحّد عبدان لله تعالى مُقرّان في العبودية، فالواحد هو أوّل مُبدع أبدعه الله تعالى بغير زمان وجعله عين الوحدة الْمفيض بلطائف حكمه على العالمين. الروحاني والجسماني. وجعلهما مفعولين تحت أحاطته، ثم سمّاه عقلاً كلياً. وَالْموحّد هو الرسول في زمانه والإمام في عصره وليس له شبيهاً ولا نظيراً ولا شريكاً في منزلته إذا كان الواحد هو الفاعل وَالْموحّد هو الْمفعول به وَالْمبدع جلّ جلاله قد تنَزّه عن كلام الواصفين، إذ هُما من صفات خلقه فتحقق إنّ أسمائه وحجبه وصفاته عبيده. وإنّه تعالى غير مسمّى ولا موصوف وهو منزّه عن الاسم والصفة.

المعنى: يقول: فدقق أيها المؤمن الْمُنَقِبُ عن التوحيد في فكرك ناظراً الى قوله الشركُ في أمتي خفيّ لا يُعرف ولا يُحس، ولعلك نظرت الى ما تقدم آنفاً من تقسيم نظر الناس الى الاسم والمسمى، وكيف أن الإشراك بهذا التقسيم لا يُحسُ إلا بنظرٍ ثاقبٍ ومع خفاء الشرك هذا الخفاء الشديد، فالتوحيد أخفى وأخفى، فالواحد والموحد عبدان لله مقران بالعبودية، لأن الواحد ابتدعه الله على غير مثال وجعله ذات الوحدة التي أفاضها على مكوناته. كما تقدم. وجعل العالمين عالم الشهادة وعالم الغيب مفعولين له فكيف يكون هو الله القديم والموحد هو الرسول الداعي الى الله

وهو الامام في الناس وليس له شبيهٍ ولا مثيل فكيف بمبدعه جل جلالـــه والموحـــد فاعلٌ والموحد مفعولٌ به فكيف يكون فاعل الفعولات مفعولاً به تعالى الله، فتحقـــق بهذا التحقيق. إن حُجُبَ الله أسماؤه وصفاته عبيده وهي جميعاً السيد محمد وهوتعالى لا موصوف ولا مسمى ومنزه عن كل اسم وصفةٍ

قال الأمير:

إذا وصَفَ العشـــاقُ معنـــى جمـــالكم فتنْزِيهُهُ عن كل وصفٍ له وصـــفي

وإن عبَّـــروا بـــاللطف عنـــه فـــإنني أقول مُعيذُ اللطف جَلَّ عن اللطـــف

وإن عرفــــوه بالأســــامي فإنمــــا به للأسامي والكنى تَمَّ لـــي عرفـــي

الصفات والأسماء طريق لا مقصد:

فأنَ التوحيد هو انّ تنفي عن الخالق صفة الْمخلوق الذي لا ينفى عنه صفة الخالق، ولا يجوز في الحكمة نفي ما كان منفيّاً، لأنَ الخالق لم يزل منزّهـــاً عـــن صفة خلقه ولم يزل الْمخلوق منفيّاً عنه صفة الخالق، فان قيل الأسماء والصـــفات زائدة على الذات قلنا هذا هو الشرك بعينه. وأن قيل هي هو قلنـــا لا يجـــوز فـــي الحكمة عبادة اسم ولا صفة، إذ كانا يدلاّن على مسمّى أو موصـــوف فوجـــب ان يكونا طريقاً لامقصداً، لأن كلّ أسمٍ وصفة محدود إذ كانا داخلـــين تحـــت الإحاطـــة والهجاء التي هي حروف أ ب ت ث. الْم تسمع قوله تعالى (إنْ هِـــيَ إِلَّـــا أَسْـــمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) (النجم: من الآية ٢٣).

المعنى: يقول: بعد أن نزه حضرة الحق جل جلاله عن الأحد والواحد، وأنه لا يجوز أن يكون موَحَّداً فيكون مفعولاً به، والموحد هو الفاعل فالتوحيد أن تنفـــي عن الحق الخالق صفة العبد المخلوق، لأن المخلوق المكوّن لا يجـــوز أن يتصـــف بصفة الخالق عز عزه غير أن هذا العبد المخلوق لا تنفى عنه صفات الخـــالق، لأن أمهات الصفات الإلهية الأربعة التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة. كمـــا مـــر. ملازِمةٌ لكل كائنٍ من إفاضات الوحدة على المكونات هذا عدا عـــن غيرهـــا مـــن الصفات التي يتصف بها الإنسان كالرحيم والكرم وما أشبه ومعاني هـــذه الصـــفات

المتجلية بالإنسان هي لله خالصةً، ولذلك لا يُنفى عن المخلوق صفة الخالق لأنــه لا يجوز في الحكمة نفي إلا ما كان منفياً أصلاً، وهذه الصفات غير منفيات، لأنها لله لا لغيره (وقد مر بك أن الإنسان جامعٌ لجميع الجموعات من أعلى درجات الجبــروت الى أسفل دركات الناسوت) ولا يجوز في الحكمة نفي هذه الصفات، فالخالق منــزهٌ عن صفات الخلق كالعجز والموت وما أشبه، فيجب أن تنفي عن المخلــوق صــفة الخالق كما ذكرنا. فإن قيل إن الأسماء والصفات زائدةٌ على الذات قلنــا هــذا هــو الشرك ولزمنا القول بإلهين وآلهة وإن قيل هي الذات قلنا لا يجوز في الحمكة عبادة اسمٍ ولا صفةٍ من حيث أنهما دلالةٌ على مسمىً موصوفٍ فأبطلنــا العبــادة حينئــذٍ، فوجب إذ ذاك أن يكون الاسم والصفة طريقاً مؤديةً الى الله لا غايةً مقصــودةً. لأن كل اسمٍ وصفةٍ محدودان داخلان تحت الإحاطة وتحت حروف الهجاء، قال الله تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا. الخ) (النجم: ٢٣) (ومر شرحها) غير أن هؤلاء السُنة يزعمون أن صفات المعاني التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر زائدةٌ على الذات، بمعنى لو كشف عن المكلفين الحجــاب لرأوهــا خلافــاً للمعتزلة، ويزعمون أن سبب إنكار من أنكرها هو أنهم شهدوا الــذات فــي مــرآة الصفات، ومن المعلوم أن المرآة قد تخفي عن نظر الرائي حالة نظره إليها متعرفــاً على ما يتجلى فيها، فحكموا بعدم وجودها إذ ما كــان موجــوداً يجــب أن يكــون مشهوداً، فحيث لا شهود لا وجود، وقال بعضهم لا أرى بأساً باعتقاد أحــد طرفــي النفي والإثبات ولكن (آل كاشف الغطاء) قال: إن صفات الله منتزعةٌ من حاقِ ذاتــه وحاق حقيقته المقدسة وذاته في اشد ما يكون من الوحدة، والبساطة وهي منشأ تلــك الصفات من غير تكثرٍ أو شيءٍ زائدٍ على الذات وخطَّلَ من قال بالزيادة

والأخبار عن اهل العصمة مستفيضةٌ بذلك، والأشعرية (وما اضلهم) يزعمون أن الله عالمٌ بعلمٍ زائدٍ على ذاته حيٌ بحياةٍ زائدةٍ عليها وهكذا. وقد ذكــر صــاحب (حجة العارف) الصفة والموصوف والاسم والمسمى وفرق بين أسماء الخلق والحق بأن أسماء الحق أشخاصٌ وأسماء الخلق عباراتٌ وقد أتى تحقيق ذلــك بـــ(الــدين والاسلام) لآل كاشف الغطاء.

الحيرة:

وبالجملة ماثَمَّ إلاَّ الحيرة[1] وصورة الحيرة في ذلك إنّ من اثبت أعيان الأسماء والصفات زائدة على الذات المسمّاة والموصوفة، فقد أثبت العدد والكثرة في الله سبحانه، وهو واحد من جميع الوجوه، فكيف يكون هذا؟ وإن قلنا لا يلزم من هذا إثبات العدد علي وجهٍ ما، فثمَّ ما هو أشدَ علينا من العدد وهو أن تكون الذات كاملة بغيرها وكلّ كاملٍ بغيره ناقصٌ[2] في ذاته. ومن نفى أعيان الصفات فرَّ من الكثرة والنقص. لكن تلقّاه أمرٌ آخر وهو أن الحكم لا يقدر من جهة الدليل الذي نصبتموه على معرفة الله تعالى. إن ثبت هذه الأحكام للذات مجرّدة فإنّه إذا ثبت كونه قادراً لنفسه وقع الفعل أزلاً وهو محال ، وإثباته لنفسه قادراً مُحال.

المعنى: يقول بعد أن عرَّفَ أن الله سبحانه لا يجوز أن يُعرف باسمٍ ولا صفةٍ، ولا يعرف بغيرهما، قال وبالجملة ما هناك إلا الحيرة وصورة الحيرة في ذلك أن إثبات الأسماء والصفات على أنها زائدةٌ على الذات التي سميت ووصفت يثبت التعدد والتكثر في الذات الأحدية، وهي واحدةٌ من جميع الوجوه، وإذا قلنا أن الصفة هي الموصوف، والاسم هو المسمى كما تقدم فلا يلزم من هنا التعدد ولا الكثرة في الذات الأحدية على وجهٍ من الوجوه، فهناك ما هو أشد من العدد وهو أن تكون الذات كاملةً بغيرها، وكل كاملٍ بغيره ناقصٌ بنفسه، ومن نفى الصفات نفى الكثرة والنقص في الله سبحانه، لكن تلقاه أمرٌ آخر وهو أن الحكم على وحدانية الله تعالى لا

---

[1] الحيرة مصدر حار يَحَارُ حَيْرَةً وحَيَراً وحَيْراً وحيراناً: نظر الى الشيء فغشى بصره، ولم يهتد لسبيله وسيأتيك تعريفها باصطلاحهم.

[2] قال أرسطوطاليس إن واجب الوجود لذاته عقلٌ لذاته وعاقلٌ معقولٌ لذاته، وأما انه عقلٌ فلأنه غير محجوب ذاته عن ذاته أو بغيره والأول يعقل ذاته ثم من ذاته يعقل العالم دفعةً واحدة من غير احتياج الى انتقالٍ وترددٍ من معقول الى معقول، وإنه ليس يعقل الأشياء على أنها أمورٌ خارجة عنه، فيعقلها منه كحالنا عند المحسوسات، بل يَعقلها من ذاته وليس كونه عاقلا وعقلا بسبب وجود الأشياء المعقولة، حتى يكون وجودها قد جعله بل الأمر بالعكس، أي عقلهُ الأشياء جعلها موجودة، وليس للأول شيء يكمله فهو الكامل لذاته المكمل لغيره فلا يستفيد وجوده من وجودٍ كمالا، ولو كان يعقل الأشياء بواسطة التعلم كحال البشر لكان وجودها متقدما على وجوده، وكان قبوله معرفة الأشياء بالقوةِ والاستعداد لا بالفعل من حيث يكمل بما هو خارجٌ عنه وإذا فرضنا أنه لم يزل ولا يزال موجودا بالفعل فيجب أن يكون له من ذاته الأمر الأكمل الأفضل لا من غيره، وإذا عقل ذاته عقل ما يلزمها لذاتها بالفعل وعقل ما يصدر عنه على ترتيب الصدور عنه وإلا فلم يعقل ذاته بكنهها ولئن كان ليس يعقل بالفعل فما الشيء الكريم له وهو الناقص كماله فيكون حاله كحال النائم ولئن كان يعقل الأشياء من الأشياء فتكون الأشياء متقدمة تتقوم بما يفعله ذاته.

يمكن من جهة هذا الدليل الذي زعمتوه بأن تثبت أحكام النعوت للذات مجردةً عن الاسماء والصفات، لأنه إذا ثبت أنه قادرٌ لنفسه (والقدرة صفةٌ من صفاته) وقع الفعل أزلاً معه وهو لا شك قبل فعله ولا تُعرَفُ القدرة إلا بعد إيجاد الفعل، وذاك مُحالٌ وهذا التحقيق كما تراه قوي الحجة سديد المرمى ، الذي أعطاه إياه هو مشاهداته التي أرته حضرة الحق سبحانه بم لا تسعه الألفاظ ولا التصوير، ومن المجاز البعيد وضيق خناق اللغة ما ينعتون به حضرة الحق سبحانه والذي رأيناه عند الموحدين وغيرهم أن الله كاملٌ بنفسه مكمِّلٌ لغيره كما تقدم عن أرسطاليس.

ثمّ إنّ القلب لا يجد ذلك الجلاء[1] بقياس الشاهد على الغائب لاسيما وقد عرف مآخذ[2] العقول من أين هو ومن أين تركّب براهينها وأدلتها، فالقصور بها منوط[3] والأقدام على هذه الأمور غير حسن الإمكان وكلّ مالا يمكن حصوله إلاّ بالمشاهدة والرؤية والتعريف فحصوله من غير هذا الطريق أفتيات[4]، على المقام وجرأة فالأولى لأصحاب العقول بالموجود وأحكام الصفات ولا سبيل لمعترّض لنفيها ولا لإثباتها، فأنّ العقل أعجز عن أن يقف على مثل هذا بل على اقلّ شيء فما ذلك إلاّ حيرة[5] في حيرة، فلو كان الله ظاهراً لما صحَّ هذا الخلاف. ولو كان الله

---

[1] الجلاء: كشف الأمر وإظهاره.

[2] المأخذ: المنهج جمعُهُ مآخذ ومآخذ الطير مصايدها أي مواضعها التي تؤخذ منها.

[3] منوط: معلق ولعله من ناطتِ الدار أو مأخوذ من قولهم هو منوط بالقوم أي دخيل فيهم.

[4] افتات الكلام ابتدعه وافتات في أمره: مضى عليه ولم يستشر أحدا، فلانٌ لا يفتات عليه أي لا يُفعل شيءٌ دون أمره وتقول لمن أحدث شيئا في أمرك دونك قد افتات عليَّ فيه ومنه قول الحريري، ما تأوهي لعيش فات ولا لدهر افتات.

[5] قال ابن عربي:الحيرة معرفة ذاته تعالىَ بأحد الطريقين: الأدلة العقلية والمشاهدة، فالدليل العقلي يمنع من المشاهدة والدليل السمعي أوما إليها وما صرح وما أدرك العقل بنظره إلا صفات السلوب لا غير، وهي نفي التركيب ونفي الجسم والعرضية ونفي تجليه للحوادث ونفي الشريك ونفي الاحوال ونفي الاحتياج، ويسمى هذا معرفة، والشارع قد نسب الى الله أمورا كالظهور والتجلي والصورة وصف الله بها نفسه تحيلها الأدلة العقلية إلا بتأويل يمكن ان يكون مقصود الشارع ويمكن ألا يكون وقد لزمه الإيمان والتصديق بما وصف به نفسه لقيام الأدلة عنده بصدق هذه الأخبار عنه أنه خبر بها عن نفسه في كتبه مثل (يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله، أينما تولوا فثم وجه الله، ولتصنع على عيني، إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) وما أشبه. أو على ألسنة رسله، فتعارض هذه الأمور مع طلبه معرفة ذات الله تعالىَ والجمع بين الدليلين أوهم في الحيرة، فرجال الحيرة هم الذين نظروا في هذه الدلائل واستقصوها غاية الاستقصاء الى أن أراهم الله ذلك النظر الى العجز والحيرة فيه قال(ص) اللهم زدني فيك تحيرا فإنه كلما زاده الحق علما به زاده تحيرا، لاسيما أهل الكشف لاختلاف الصور عليهم عند الشهود، فهم اعظم حيرة من أصحاب النظر في الأدلة بما لايتقارب، فإذا علمت أن ثم ما لا يُعلم فذلك هو العلم بالله وكان الدليل على العلم بالله عدم العلم به، فإذا فتح الله للعبد باب الانكار وتلاوة القرآن وتفريغ المحل من النظر الى الممكنات

غير ظاهر ما كان الله وما كان إلاّ أنا ولا بدّ من الله، فلا بدّ من الخلاف والله اعلم واحكم.

المعنى: يقول: إن القلب لا يعرف هذا الأمر المبهم بأن يقيس أسماء الله سبحانه وصفاته على أسماء الشياء وصفاتها، وقد عَرَّفَ من أين يؤخذ العقل من الحجج والبراهين والأدلة، فالعقل لا يؤمن إلا بما تعقله وعرفه فالإقدام على هذه الأمور افتياتٌ على الحضرة الإلهية، ولا يمكن معرفة الأسماء الإلهية والصفات الأزلية إلا عن طريق المشاهدة والرؤية، وادعاء حصول هذه المعرفة من غير هذا الطريق تمحّلٌ وافتيات على الذات العلية، فالأولى لأصحاب العقول الوقوف عن القول بأحكام الصفات والأسماء، إذ لا سبيل لمتعرضٍ لنفيها ولا لإثباتها لأن نفيها نفي الذات الأحدية، وإثباتها يوجب الشرك، والعقل أعجز من أن يقف على معرفتها، بل على أقل شيءٍ منها فما كان هذا الاختلاف بين معرفة الذات والأسماء والصفات، لأنه يكون حينئذٍ مرئياً مدركاً، وتعالى الله ولو كان الله ظاهراً ما كان هو الله المنزه عن الحدود والإدراك والرؤية، وما كان الظاهر إلا خلقه الذي هو أسماؤه وصفاته، ولا بد من الله وإلا قلنا بالتعطيل وبطل الوجود، ونعوذ بالله ولا بد حينئذٍ من الخلاف بمعرفة الذات والأسماء والصفات، قال الشاعر:

ما وحَّدَ الواحِدَ من واحِدٍ	إذ كلُّ مَنْ وحَّدَهُ جاحِدُ
توحيدُ مَنْ ينطِقُ عن نعتِهِ	عاريةٌ أبطلها الواحِدُ
توحيدُهُ إياهُ توحيدُهُ	ونعتُ من ينعتُهُ لاحِدُ

والحضور والمراقبة مع طهارة الظاهر بالوقوف عند الحدود المشروعة وغضٍّ البصر عن العورات وغيرهما وإرساله في الأشياء التي تعطيه الاعتبار وتزيل التفكر في نفسه جملة حصل له تجل إلهيّ فوصفه بقدر ما جاءت به الأنباء الإلهية يُطلق الأوصاف إيمانا خاليا من غير تحققٍ لمعانيها، فيكون بحسب ما يعطيه ذلك الأمر، فيتخيل أنه بلغ المقصود فيقوم له تجل آخر بحكم آخر فيكون حكمه فيه حكم الأول، فتتوالى التجليات، فيعلم أن لا نهاية لها ويعلم أن الهوية الإلهية لا يصح أن تتجلى له فيزيد حيرة فيها لذة وحيرة المكاشفين أعظم من حيرة أصحاب النظر فهؤلاء ما برحوا بالأكوان فلهم أن يحاروا، واولئك ارتفعوا عن الأكوان وما بقي لهم مشهودٌ إلا الله فكانت حيرتهم باختلاف التجليات أشد من حيرة النظار، قال الأمير:

واحيرتي عنك إذا لم تزدْ	في حيرتي فيك بنور الدليل

ولكن ابن عربي: قال إن الأسماء الإلهية نُسبٌ، وإضافاتٌ ترجع الى عين واحدةٍ إذ لا يصح هناك كثرةٌ بوجود أعيان فيه، ولو كانت الصفات أعياناً زائدةً على الذات وما هو؛ إلا بها؛ إلهٌ لكانت الألوهية معلولة بها، فلا يخلو من أن تكون هي عين الإله أو لا تكون السماء والصفات أعياناً زائدةً على ذاته، وليس له صفةٌ ثبوتيةٌ إلا صفةٌ واحدةٌ لا يجوز أن يكون له اثنتان فصاعداً، إذ لو كان لكانت ذاته مركبةً منها أو منهن والتركيب في حقه مُحالٌ فإثبات صفةٍ زائدةٍ ثبوتيةٍ على واحدةٍ محالٌ.

خلاصة التنبيه الرابع:

إن الله سبحانه واحدٌ أحدٌ من حيث الذات ومن حيث الاسم، لا اثنان كما زعمت الثنوية ولا ثلاثةٌ كما زعمت النصارى، فلو كان اثنان لكانا إما قادرين وإما عاجزين أو أحدهما قادرٌ والآخر عاجزٌ، ولا بدَّ من إبطال نسبة العجز الى أحدهما لتصح الألوهية، وإن استويا في القدرة فقد اتحدا، فإن بقيا اثنين بعد الاتحاد فلم يكن اتحادٌ وإن لم يبقيا اثنين ثبتت الوحدة، وإن قيل تهادنا هذا لفعل الخير وهذ الفعل الشر فاجتماع الضدين مستحيلٌ بداهةً، ويلزم للمهادنة وجود إله ثالث فوض الى كل ما يشاء له أن يفعل فثبتت الربوبية له دونهما، ولا تكون المهادنة إلا بعد مقاومةٍ فثبت التوحيد وبطل الشرك، والاتحاد مُحالٌ إلا إذا كان بمنزلة ظهور الواحد في مراتب الأعداد، لأن الواحد يرافق مراتب الأعداد كلها لكن يكون للاتحاد حينئذٍ وجهان:

وجهٌ للوحدةِ، ووجهٌ للكثرة في مراتب الأعداد كالكتابة مثلاً، فإنها حركة يد الكاتب حتماً، وبالحقيقة هي أثرُ القدرة القديمة لا المحدثة، لأن الفاعل هو الله فقط، والواحد أصلٌ للأعداد، والأصل متقدم على الفرع، فثبت التوحيد وبطل الشرك، والمشاهدة تمنع من الجدل في الوحدانية، والتوحيد كما قيل؛ أن يتحقق أن الله مبدع الأحدِ وخالق الواحِدِ، وإن الواحد عبدٌ من عبيده والأحد حدٌ من حدود معرفته، فالواحد أصل الأعداد والعدد خارجٌ عن صفة المعدود، والأحد اسم أول يومٍ من الأيام، فما الذي أدخل حضرة الحق في هذه الأشياء. فدقق في فكرك، فالأمر خفيٌ جداً ودقيقٌ كثيراً، قال (ص) الشركُ في أمتي أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، والتوحيد أخفى من الشرك وأخفى، والواحِدُ والموَحِّدُ عبدان لله، الواحد أول مبتدعٍ جعله الله عين الوحدة المـُفاضة على المكونات، والموحِّدُ هو

الرسول الى الخلق، والموحِّدُ فاعلٌ والموحَّدُ مفعولٌ به، فكيف يجوز أن يكون سبحانه موَحَّداً فيكون مفعولاً تعالى الله. فحقيقة التوحيد أن تنفي عن الخالق صفة المخلوق العاجز الذي لا تُنفى عنه صفة الخالق التي بها قيامه وأفاضها عليه من أسمائه الذاتية كالحياة والعلم والإرادة والقدرة، ومن غيرها كالكريم والعليم وما أشبه، فهذه لا يجوز نفيها عن المخلوق وإلا لفني المخلوق وبقيت صفات الخالق فقط، بل يجب إرجاعها الى أصلها، فالخالق منزهٌ عن صفات المخلوق التي هي الأعدام الإمكانية، والمخلوق منفيٌ عنه صفات الخالق التي هي كل ما يقوم به المخلوق. قال احدهم ما معناه تنزّل الله سبحانه عن عروش صفاته ورفيع كبريائه بصفاتك الإمكانية لطفاً منه ورحمةً ومناً، فأعطاك من صفاته وأسمائه ما جعلك سميعاً بصيراً عليماً قديراً ، فمن الحكمة أن تُرجع إليه صفاته التي أعطاك وتسترجع صفاتك منه فلا تنازعه الكبرياء والعظمة ولا العلم والقدرة، فإذا قلنا إن الصفات زائدةً على الذات أشركنا والعياذ بالله كالأشاعرة، وإن قُلنا هي الذات عبدنا الموصوف المسمى وتعالى الله وبالجملة ما ثَمّ إلا الحيرة فمن أثبت أعيان الصفات زائدةً على الذات فقد أثبت الكثرة في الذات، والله واحدٌ من جميع الوجوه، وإذا قلنا الذات هي الصفات فلا يلزم من هنا تكثرٌ تلقنا ما هو أمرٌ وهو ثبوت الاسماء والصفات للذات مجردةً عن المظاهر، فإنه إذا ثبت كونُهُ قادراً لنفسه وقع معه الفعل أزلاً، لأنه لا يثبتُ أنه قادرٌ إلا بعد الفعل وذاك محالٌ، فإثباته قادراً لنفسه مُحالٌ، وهذه المعارف لا تعرف بقياس المشهود من أسماء الذوات وصفاتها، ولا يمكن حصولها إلا بالمشاهدة، وإقحامها من غير هذا الطريق افتياتٌ على مقام الله، فإن العقل أعجز من أن يقف على هذا، وما ذاك إلا حيرةٌ في حيرةٍ، فلو كان الله ظاهراً لما كان الله بعظيم سلطانه وقهره وما كان إلا الأسماء والصفات، وإلا النظر للذات ولا بُدّ من الله وظهوره وحينئذٍ لا بُدّ من الخلاف.

التنبيه الخامس: في إثبات وحدة الباري تعالى وظهوره في المنقول

اعلموا أخواني رحمكم الله تعالى. إن الاستدلال على ذلك في القرآن المجيد كثير منها قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (الأنبياء: من الآية ٢٢)

وقوله تعالى (لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ[1] إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) (النحل: الآية ٥١) فدلّت هذه الآيات على وحدة الباري تعالى.

وأمّا الدليل على أثبات ظهوره تعالى من القرآن المجيد قوله تعالى (شَهِدَ[2] اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (آل عمران: من الآية ١٨) وقوله تعالى(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ الإخلاص:١، ٢) فإن قيل هل هو هوَ قلتُ: لا أله إلاّ هو، وإن قيل كيف أرادته قلتُ: وان يمسَسْكَ الله بضرٌ فلا كاشف له إلاّ هو.

الوحدة والمنقول

وان قيل كيف قدرته؟ قلتُ (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[3] (آل عمران: من الآية ٦).

---

[1] في بيان السعادة لما كان إلهين مشتملاً على الجنس والعدد أكده باثنين إشعاراً بأن النهي عن الاتخاذ هو بالنسبة الى العدد كما فعل بالتثوية لا الى الجنس فإن أخذ الإله مأمورٌ مع وصف الوحدة كما قال: إما هو إله واحدٌ، إثباتا مؤكدا بالوحدة ولم يقل بل اتخذوا إلها واحدا إشعارا بأن كونه إلها ليس بجعل جاعل حتى يؤمر بالإتخاذ، بل هو أمرٌ ثابت أخذ أم لم يؤخذ.

[2] في بيان السعادة أيضا(شهد اللهُ أنهُ لا إله إلا هوَ)، كلام منقطع عن سابقه والشهادة حفظ القضية المشهودة أو ما في حكمها أو الاخبار بها وإخبار الله بالتوحيد لجملة الأشياء عبارة عن خلقها مفطورة على التوحيد واقتضاء التوحيد مع ما يجاورها، وهذا إخبارٌ من الله لها عن توحُدِ صانعها ووحدته وأحديته وإخباره تعالى بالتوحيد لذوي العقول في مقام العلم بخلق الآيات الآفاقية وبجعلها بحيث تدركها العقول الصافية دالة على وحدة خالقها وخصوصا الآيات الكبرى الدالة بالسنة أقوالهم وأحوالهم على التوحيد المشار إليه بقوله تعالى (سنريهمْ آياتِنا في الآفاق) وبإنشاء الآيات الأنفسية وجعلها دالةٍ على وجود الحق وصفاته المشار إليه بقوله (سنريهمْ آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهمْ حتى يتبيّن لهمْ أنهُ الحقَ) (فصلت: من الآية ٥٣) وفي مقام المشاهدة بظهوره تعالى في كل شيء المشار إليه بقوله تعالى (أولمْ يكفِ بربكَ أنهُ على كل شيْءٍ شهيدٌ) (فصلت: من الآية ٥٣).

[3] في بيان السعادة: لا اختصاص للأرحام بالأرحام الجسمانية فإن النفوس الحيوانية والبشرية أرحام اللطيفة السيارة الإنسانية وهي التي بها تتوجه الأشياء الى غاياتها وكمالاتها، وبها يتوجه الإنسان الى الآخرة وبها يتوجه الله الى الأشياء والى الإنسان وهي المسماة بالمدد الساري، فتلك اللطيفة بوجهٍ وجهُ الله وبوجهٍ وجهُ الاشياء، وهي التي يكون خطاب الله متوجها إليها والمراتب العالية للنفس الإنسانية كل بوجهٍ رَحِمٌ للأعلى منها ولذلك فسّرَ البطنُ فيما ورد من ان الإنسان سعيدٌ في بطن أمه بالولاية، فالإنسان ما لم يدخل تحت الولاية التكليفية بالبيعة الخاصة حالهُ حال النطفة المستقرة في الرحم ولا تظهر السعادة والشقاوة إلا بعد الدخول في الولاية، ولذلك كان عليٌ قسيم الجنة والنار ومن لم يدخل في الولاية لا يخرج من الدنيا إلا بعد عرض الولاية عليه، وظهور علي نديه حتى ينكر أو يقبل فيشقى أو يسعدُ. روي أن الله يبعث ملكين خلاقين يخلقان في الأرحام ما شاء الله يقحمان بطن المرأة من الى الرحم وفي النطفة الروح المنقولة من أصلاب الرجال الى أرحام النساء فينفخان فيها روح الحياة ويصوران البدن بإذن الله، ثم يوحي الله إليهما أن اكتبا قضائي عليه واشترطا لي البداء، فينظران فإذا اللوح المحفوظ يقرع جبهة أمه فيملي أحدهما ويكتب الآخر ثم يجعلان الكتاب بين عينيه. قال الشارح في آخر هذا الخبر ما معناه إقحام الملكين من فم

وإن قيل كيف علمه؟ قلتُ: (وَعِنْدَهُ مفاتِحُ الْغَيْب لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ[1] (الأنعام: من الآية ٥٩).

وإن قيل كيف حياته؟ قلتُ: (هُو الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا إِلَهَ إِلَّا هُو) (سورة البقرة: من الآية ٢٥٥)

وإن قيل كيف تدبيره قلت: (ولا تَدْعُ معَ اللَّهِ إِلهاً آخرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[2] (سورة القصص: من الآية ٨٨) ناقص

وإن قيل كيف ملكه؟ قلتُ: (ربُّ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[3]) (المزمل: من الآية ٩).

وإن قيل كيف عسكره؟ قلتُ: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) (سورة المدثر: من الآية ٣١).

وإن قيل كيف إحسانه؟ قلتُ: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ) (سورة الزمر: من الآية ٣٦).

وإن قيل كيف لطفه؟ قلتُ: قال لرسوله الْمكرّم (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ[4]) (الأنعام: الآية ٥٢)

المرآة كنايةٌ عن دخولهما من الجهة الغيبية التي بها بقاء الأم وإلا فالملك خارج عن الجهات وكتابة القضاء والقدر كناية عن استخراج ما أودع فيه بالقوة عن محلها التي هي بالفعل الذي سيكون منه. فالقوة تتأثر بآثار المحل الذي هي فيه واشتراط البداء لله إن معنى البداء أن يستوجب معاقبة ما على فعل ما فيكتب عليه العقاب فإن فعل ما يكفرْ فعلته بتوفيق الله مُحي عنه العقاب فيقال بدا لله وكذلك إن فُعل حسنة ما يستوجب عليها إثابة ما فيكتب له الثواب عليها فيفعل ما يوجب محو تلك الحسنة فتمحى فيقال بدا لله. وهذا هو لوحال محو والإثبات (يمحو الله ما يشاء ويثبت) فاشتراط البداء يكون معناه إن ما أودع في الانسان بالقوة يتأثر من الأسباب الخارجية فتصرفه عما أودع فيه من خير وشر فيبدو لله به.

[1] المَفاتح جمع مفتَح بمعنى الخزن أو مفتِح بالكسر بمعنى المفتاح

[2] جاء شرحها في بيان السعادة لا تدع مع الله إلها آخر من الأصنام والكواكب والأهوية ولا تدع مع عليٍ في ولايته وليا آخر.

[3] التوصيف بالمشرق والمغرب للإشعار بوجه الحكم.

[4] جاء في بيان السعادة: ولا تطرد الذين يدعون ربهم في الولاية يعني ادع الطالب للدين ولا تطرد الداخل فيه بقبول ولاية عليٍّ والبيعة الولانية معه، فإنك بُعثت لدعوة الخلق إليه لا لطردهم عنه ولا تطرد عن نفسك الذين يدعون ربهم في الولاية لا يريدون من دعاء غير وجه الرب، ووجه كل شيء بحسب التكوين فما يكون به توجههم الى الله هو ملكوتهم المثالي أو ما فوقه بحسب مرتبة الداعي، وهذا معنى الوجه في المربوب، وأما في الرب لما كان سبحانه متوجها الى الخلق للتكميل

وإن قيل كيف عزّته قلتُ: (وما قدرُوا اللّه حـقّ قـدره والـأرضُ جميعـاً قبضتُهُ[1]) (سورة الزمر: من الآية ٦٧)

وإن قيل هل ينسب إلى الزوجة والولد حضرته؟ (لوْ أراد اللّهُ أنْ يتّخذ ولـداً لاصطفى ممّا يخلُقُ ما يشاءُ سُبْحانهُ) (سورة الزمر: من الآية ٤).

وإن قيل إنّا عاجزون فبأي وسيلة نطلب فضله قلت: (وهُو الّذي يُنزّلُ الغيْث منْ بعْد ما قنطُوا وينْشُرُ رحْمتهُ[2]). (سورة الشورى: من الآية ٢٨)

وإن قيل إنّا مذنبون فكيف نطلب عفوه؟ قلتُ: وأنيبُوا إلى ربّكُـمْ وأسْـلمُوا لهُ[3]) (سورة الزمر: من الآية ٥٤)

وإن قيل إنّا جاهلون فكيف نذكره قلتُ: (قُلْ إنّ صلاتي ونُسُـكي ومحيـاي ومماتي للّه ربّ العالمين) (سورة الأنعام: ١٦٢) لاشريك له[4].

كان وجهه الى الخلق ما يتوجه إليهم به وما يتوجه الى الخلق هو ملكوته أيضاً، وفي هذا دليل على ما قالت العرفاء العظام من أن السالك ينبغي أن يكون دائم الفكر ودائـم الحضـور. فـإن الفكـر والحضور عندهم التفكير في ملكوت الرب والحضور عنده وغاية تلقين الشيخ الذكر للمريد ودعاء المريد بالذكر المأخوذ هو حصول وجه الرب نقل عن الصادق: وقت تكبيرة الاحرام، تذكر رسول الله واجعل واحداً من الأئمة نصب عينيك، وفي الأصغر معرفة مواجهة الله من كـل جهـة. قـال الأمير:

للحـــق فــــي كـــل وجـــه	للخلـــــق وجـــــة منيـــــرُ
خـــاف علــــى كـــل أعمــــى	منـــــه يـــــراه البصـــــيرُ

[1] جاء في بيان السعادة أيضاً: ما قدروا علياً أو ما قدروا الولاية حق قدره ولمـا كـان المقصـود التعريض بالأمة عطف بيان حالهم على إشراكه(ص) كأنه قال ما قدروا الله حق قدره. لأنه لا يمكن قدر الولاية غاية الأمر أن الأنبياء خرجوا من بعض الحدود البشرية والإنسانية وغيرهم ما خرجوا، والذات الأحدية وكذلك المشيئة التي يعبر عنها بالولاية التي هي علوية على مطلقـة مـن الحدود والمحدود لا يقدر على إدراك المطلق.

[2] هو الذي ينزل المطر النافع للإغاثة من الجدب ويسمى المطر باسم الرحمة أو المـراد الرحمة سواء أكانت مطراً أو غيره فيكون تعميماً بعد تخصيص.

[3] جاء في بيان السعادة: أنيبوا الى ربكم وأسلموا له:
أنيبوا الى ربكم المضاف الذي هو علي. والإنابة إليه ليست إلا بالحضور إليه بمعرفته بالنورانية الذي هو الحضور عند الله والمعرفة بالله، وأسلموا بالخروج من أنـانيتكم وقصـوركم ولـيس إلا الحضور عنده.

[4] إن صلاتي ونسكي اهتماماً بالخلاص تعميماً بعد تخصيص وتأكيد لما يفهم التزاماً فإنه (ص) إذا لم يكن في أفعاله وأوصافه شريكاً لله لم يكن في العالم شريكٌ له لأن رؤية الشريك تقتضـي السـنخية بين الرائي والمرئي الذي هو العالم الذي فيه شريكٌ السنخية تقتضي الشريك لله في وجوده وكـون الشريك في وجوده يقتضي الشريك في صفته.

وإن قيل كثرت سيئاتنا فكيف نرجوا برّه قلتُ: (غافر الذّنب وقابل التّوب شديد العقاب ذي الطّول لا إله إلّا هُو[1] (غافر: من الآية ٣) وكثيرٌ من هذه الآيات ممّا يدلّ عليه السيد الرسول منه السلام بالإشارات بلفظة هو[2] مثل قوله تعالى (الله لاإله إلاّ هو الحي القيّوم) ومثل قوله (هو الذّي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ) ومثل قوله (وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرّحمن الرّحيم) فإن هو من المضمرات وهو أعرف المعارف لا يُخصّ بها إلاّ حاضراً موجوداً ومعروفاً ظاهراً يسمع ويرى يدلّ عليه قوله (ﷺ) لموسى وهارون (إنّني معكما أسمعُ وأرى) (سورة طه: من الآية ٤٦) وكذلك قوله حكاية عن إبراهيم الخليل (ﷺ) في إنكاره على أبيه (إذْ قَالَ لِأبِيهِ يَا أَبتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يسمَعُ ولا يُبْصرُ ولا يُغْني عنك شيئًا) (سورة مريم: ٤٢) فنسبه إلى الجهل فلّتها إشارة تغني عن العبارة والله الهادي والمرشد لاربَّ سواهُ.

---

[1] جمع تعالى في أوصافه بين الجمال والجمالية والقهرية واللطيفية والحقيقة والإضافية يوهم تعدداً وكثرةً في الموجودات نفى الكثرة وأثبت التوحيد.

[2] إن هو ضمير للمفرد المذكر الغائب وفي تعريفهم (الهو هو) لفظٌ مركبٌ من هو هو جُعل اسماً معرّفاً باللام ومعناه الاتحاد بالذات. قال الحافظ هو على سبعةِ أوجهٍ:

أولا: إن الاسم مشتق أو علمٌ أو إشارةٌ والاسم المشتق كليّ لا يمنع من وقوع الشركة فيه، والاسم العلم قائمٌ مقام الإشارة فهو فرعٌ عليها، والإشارة أصل والأصل أعظم من الفرع. فقولك هو أعظم الأسماء كلها.

ثانيا: إن الحق سبحانه فردٌ لا يمكن نعته بصفةٍ وإلا نُفيت الفردانية والإخبار عنه بعين ذاته، وذاك محل فجميع الأسماء المشتقة عن الأنباء عن ذاته المقدسة، وأما لفظ هو فإنه ينبئ عن كنه المخصوصة المبرأة من جميع جهات الكثرة فاسم هو لوصوله الى كنه الصمدية أشرف الأسماء.

ثالثا: كالصفات المشتقة لا تعرف إلا دالةً على الصفات، والصفات لا تعرف إلا بإضافةٍ الى المخلوقات، وأما لفظ هو فإنه يدل عليه من حيث هو هو وهذا الاسم يوصل الى الحق ويقطع عن الخلق.

رابعا: إن الاسماء المشتقة دالةً على الصفات، ولفظُ هو دالٌ على الموصوف، والموصوف أشرف من الصفة وذلك لأن ذات الباري سبحانه ما كمُلت بالصفات بل هي لغاية الكمال استلزمت صفات الكمال، فلفظ هو يوصل الى ينبوع العزة.

خامسا: إن لفظ هو مركب من حرفين هاءٍ وواوٍ، والهاء أصل الواو (فهو) حرفٌ واحدٌ يدل على الواحدِ الحق سبحانه

سادسا: إن الهاء أول المخارج والواو آخرها (فهو) الأول والآخر، والهاء باطن المخارج والواو ظاهر ساتر المخارج فهو الباطن والظاهر.

سابعا: إن هذا الحرف الذي وُضع لتعريف ذات الحق غير معلومٍ والحقيقة غير معلومةٍ وذات الحق سبحانه أولى بالتنزية عن الكيفية، فمنه إليك قوله هو ومنك إليه قولك هو. أقول ولعل من هذا قول عبدالله بن سبأ لأمير المؤمنين أنت هو. قال أمير المؤمنين: ومن هو.

المعنــى: يقول: بعد أن أستشهد بتلك الآيات التي يتضمن جميعها لفظ هو: إن هو أعرفُ المعارف وإن كان من المضمرات ولا يُخَصُّ بها إلا حاضــرٌ موجــودٌ وذلك لأن هو يشار به الى مقام الغيب لتعيُّنِهِ في الأذهان أوادعاء تعينه، وهــو وإن كان ضميراً علمٌ واسمٌ لمقام الغيب مجرداً عن جميع الاعتبارات حتــى اعتبــارات التعين بخلاف جميع الأسماء، فإنها اسمٌ للذات باعتبار جميع الصفات. فالهاء من هو تنبيهٌ على معنى ثابتٍ، والواو إشارةٌ الى الغائب فلذلك هي أعرف المعارف.

التنبيه السادس: وجوب المعرفة في إثبات ظهور المعنى القديم بذاته لخلقه كخلقه

اعلموا أخواني رحمكم الله إنّ الله (ﷻ) ما أوجد العالم والجــنّ والأنــس إلاّ ليعبدوه، ومحال أن يعبدوه قبل معرفته. وقال الله تعالى(وما خلقتُ الجنّ والأنس إلاّ ليعبدونِ[1] أي ليعرفونِ. ولا فوز في الآخرة إلاّ بمعرفة الله تعالى.

فبان لكم وجه الحكمة في حال المْعرفة ووجوبها، وإنّ إيجاد الخلق بســببها لاعن عبث ولا عن حاجة تتعلَق به تعالى، لما ذكرناه من وجوب المْعرفــة علــى الخلق لفوزهم بمعرفة خالقهم الظّاهر بينهم بقدرته القاهرة الباطن عنهم بحكمتــه الباهرة.

---

[1] جاء شرح هذه الآية الكريمة في بيان السعادة: إن الله تعالى كان غيباً مطلقاً لم يكن منه خبــرٌ ولا رسمٌ ولا اسمٌ فأحبَّ أن يتجلى فيُعرف كما في الحديث القدسي كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعــرف فخلقت الخلق لكي أعرف. فخلق الخلق لأن يتجلى عليهم فيعرفوه ولا يتجلى عليهم إلا إذا صــاروا خارجين من أنانياتهم ولا يخرجون بأنانياتهم إلا بارتياض النفوس بما قرره الله تعالى لذلك وليس إلا العبادات الشرعية، وأيضا لا يخرجون من أنانياتهم إلا إذا صاروا عبيدا له خــاجين مــن عبوديــة أنفسهم وليس المقصود من العبادات ولا العبدية إلا أن يصيروا عارفين له متصلين به منتهين إليــه فالمقصود من قوله إلا ليعبدون إلا ليعرفوني لكنه أداة بهذه العبارة للإشعار بأن المعرفة لا تكون إلا بالعبادة أو بالعبدية. عن الصادق قال:

خرج علي بن الحسين فقال: أيها الناس إن الله تعالى ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفــوه عبدوه، واستغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه.

فقال له رجل ما معرفة الله بأبي أنت وأمي؟

معرفة أهل كل زمان إمام زمانهم. قلت وإذا نظرت الى قوله: فخلق الخلــق لأن يتجلــى علــيهم ليعرفوه، ولا يتجلى عليهم إلا إذا صاروا خارجين من أنانياتهم وجدت به نقصاً فاضحاً لأنــه أكــد التجلي للعالم ليعرفوه، وحصر رؤية التجلي بأهل الرياضة فقط، فمن لم يكن من أهل الرياضة فمــا الحجة عليه، وما اورده عن زين العابدين دليل قاطعٌ مهما تأوّلوا:

أراك تســأل عــن نجــدٍ وأنــت بهــا   وعــن تهامــة هــذا فعــل مــتهم

ظهوره بذاته

ولمّا أوجب عليهم معرفته بذاته لم يجز في الحكمة والعدل أن يظهر بغير ذاته لئلا يحول عن كيانه وتكون المْعرفة بغير ذاته فيكون المْعروف غيره.

لكون القديم لا يظهر في المْحدث، وأن كان ذلك كذلك ووجب ظهوره بذاته ليُعرَفْ فيُعبَدْ. لم يجز في الحكمة الإلهية ظهوره بذاته الأزليّة كشفاً لكونه لا يثبت لها شيء[1] في الوجود من المْوجودات. لأنّ الشيء من كونه شيء في المْوجودات ولأن الشيء هو من المْتكثرات التي هي المْراتب قال الله تعالى (كلّ شيءٍ هالك إلاّ وجهه[2] وهو الوجود والذات.

الحق والباطل

فإذا ظهر حكم وحدة الوجود وأحديّة الذات لا تقدر الكثرة على ظهورحكمٍ لها في حال أنقهارها للوحدة. وإذا ظهر الحقّ[3] زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا.

---

[1] تقدم أن الشيء يُطلقُ ويساوقُ الوجود من أعلاه الى أسفله.

[2] جاء في بيان السعادة إلا وجهه أي وجه الله أو وجه ذلك الشيء وإن كان رجوع الضمير الى الله جاز أن يكون وجه الله الذي به يتوجه الى الأشياء، وأن يكون وجه الشيء الذي يتوجه به الى الله يعني كل شيءٍ هالكٌ إلا وجه ذلك الشيء الذي يتوجه به الى الله، فتكون لأدنى ملابسةٍ. اعلم أن الوجه اسمٌ لما يُتوجَّه به ولا اختصاص له بوجه البدن، وأن في كل شيءٍ لطيفةً إلهيةً غيبيةً هي مقومةٌ لذلك الشيء ومُبقيتهُ ومُشخصةٌ له، وهي فاعليته تعالى وعلمه وقضاؤه وتلك اللطيفة هي تحفظه وتربيه وتبلغه الى كماله الخاص به إن لم يعقه عائق، وهذه اللطيفة هي التي بها تتوجه الأشياء الى غاياها وكمالاتها الخاصة بها. وبها يتوجه الأنسان الى الآخرة والى الله تعالى والى خلفائه، وبها يتوجه الله الى الأشياء والى الإنسان فتلك اللطيفة بوجهٍ وجه الأشياء وبوجهٍ وجه الله، ولما كانت تلك اللطيفة هي المسماة بالولاية التكوينية المعبر عنها بالحبل من الله وهي ما بها توَجَّهُ الأشياء تكويناً، وللإنسان توجه آخر تكليفي وذاك التوجه التكليفي لا يكون إلا بالولاية التكليفية المعبر عنها بالحبل من الناس، لأنها لا تحصل إلا بواسطة المظاهر البشرية بالبيعة الخاصة الولائية، وبها يدخل الإيمان في القلب وتحصل نسبة الأبوة في الدين أي الولاية التكليفية أو الحاصل بالولاية التكليفية وبالأنبياء والأولياء وبكل مُطيعٍ لله ورسوله، وقد فسر وجه الله في أخبار كثيرةٍ بما ذكرنا. إذا علِمْتَ هذا فاعلم أن تحديد الوجود في الموجودات وتعيينه اعتباريٌ محضٌ، لأنها لا وجود لها، وإنما الوجود والبقاء لتلك اللطيفة بالذات، وللحدود والتعيُنات بالعرض والأشياء المتكثرة الممتازة التي هي تلك الحدود هالكةٌ غير موجودةٍ من الأزل الى الأبد، وتلك اللطيفة موجودةٌ من الأبد الى الأزل، فالباقي من كل شيءٍ هو تلك اللطيفة والهالك كل ما سواها من الحدود والإعتبارات، وهذا معنى قوله (لا يثبت لها شيءٌ في الوجود في الموجودات من كونه شيئا الخ).

[3] الحق من أسمائه تعالى وهو الموجود حقيقةً، المتحقق وجوده وإلهيته، والباطل ضد الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص وربما أراد بالحق الحق المخلوق به وهو المشيئة. والباطل التعينات والماهيات وإن الله بمضمون قوله تعالى (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) (سورة المائدة: من

المعنى: يقول: لما أوجب الله سبحانه على عباده معرفته بذاته ولا تجوز معرفته بذاته وإلا يكون زائلاً عن كيانه وتكون المعرفة التي كلف بها عباده وخلقهم لأجلها بغير ذاته وبطل حكم فبي عرفوني، ويكون المعروف غيره والمعبود سواه، وكذلك لم يجز في الحكمة الإلهية ظهوره بذاته كشفاً فيحترق ما دونه ويتلاشى. قال سبحانه: كل شيءٍ هالكٌ، وهي المراتب الزائلات من الأعراض والمهيات إلا وجهه وهو الوجود الواجب في المكونات، وهو الذات الأحدية فإذا ظهر حكم الوجود وأحدية الذات بإرجاع الخطوط الى مباديها والحروف الى نقطتها لا تُقدر الكثرة على ظهور حكمٍ لها في حال انقهارها للوحدة العظمى. إذ لا وجود للأشياء مع وجوده ولا ظهور لها مع ظهوره وعلى تقدير ظهورها ووجودها فلا وجود لها من ذاتها:

من لا وجودَ لذاتهِ من ذاتِه فوجودُهُ لولاهُ عينُ مُحالِ

وهذه هي رتبة الجمع عند الصوفية، فلم يبقى إلا رأي السيد أبي عبدالله عن مواليه الكرام ظهر من حيث هو فرأيناه من حيث نحن. ولو ظهرَ المعبودُ في حدِّ ذاتِهِ تبادرت الأجسام محترقاتٍ.

أهل التوحيد طائفتان

وقال الرسول (ص) أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد{ألا كلّ شيء ماخلا الله باطل} أي عدمٌ، إذ الوجود والعدم نقيضان وهما لا يجتمعان. أعلم إنّ أهل التّوحيد طائفتان الأولى ذكرت إنّ هذا الوجود جوهرٌ[١] بسيط شعاع لا يقع به لمس ولا يُدرك بشيء من الحواس وإنّما تراه من حيث أنت فإذا جئته بالحقيقة لم تجد شيئاً مدروكاً ولا محسوساً. وقالوا هذه الصورة تشابه السراب تُعاينُ ببصرِ الطبيعة

الآية ٦٤) على سبيل الاستمرار يطرد بإضافته فالشراقية بطلان التعينات والمهيات وبطلان القوى والنقائص والاستعدادات، وبفنيه، وكما أنه يطرد بخلقه سماوات الأرواح وأراضي الأشباح بطلان الماهيات، بها يقذف الحق عليها ابتداء، كذلك يطرد ذلك عنها استمرارا وأنها من انفسها في فناء لا بقاء لوجودها آنين، ومن موجدها في بقاءٍ بسبب تجدد إفاضات الوجود عليها، وكما يطرد بخلقتها البطلان ابتداءً واستمرارا عن المهيات يطرد بخلقتها البطلان والنقائص عن القوى والاستعدادات التي تكون في عالم الأكوان.

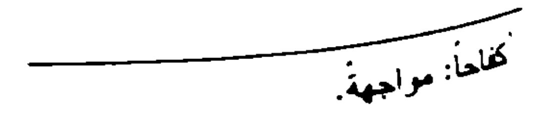
[١] الجوهر: ضد العرض وهو ما قيامه بنفسه وتقدم الحديث عنه وسيأتي.

فإذا جئتَ بدليل العقل وفكرة الحقّ فإذا جئته يذهل العقل وإذا بدل ونظـرت بعـين اليقين لم تجد شيئاً يدرك ولا صورةً تلمس بل قوّة لاهوتيّةً أزليةً.

المعنى: يقول مستدلاً على الوحدة والظهور بقوله(ص) أصدق كلمـةٍ قالهـا العرب قول لبيدٍ ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل، والابطل ما لا ثبات له عند الفحص وهو عدمٌ والوجود والعدم نقيضان، والعدم لا شيء، فالوجود كل شيءٍ وهو حضرة الحق سبحانه كما تقدم في تعريف الوجود الوجود والحق والباطل، فأهل التوحيد في تعريف الوجود قسمان: قسمٌ لا يرى الوجود شيئاً مدركاً فهو كالسراب يُرى بالبصر الطبيعي كالماء، فإذا جئته ذهل لبك لأن الذي رأيته كالماء لم تجده شيئاً، ومن نظـر بعين اليقين والبصيرة لم يجد هذا الظهور الوجودي شيئاً يُردك ولا صورةً تلمس بل قوة لاهوتيةٌ ازليةٌ، وأنت تعلم شرح الموحدين لقوله سبحانه (أو كسراب بقيعةٍ) الخ. وهل أراد بما ذكر مطلق الوجود الساري في الموجودات، لأن كل ما ظهر في عالم الشهادة فائضٌ عن عالم الغيب، وكل ما برز في عالم الملكوت فهو فائض عن بحر الجبروت، فلا وجود للأشياء إلا منه ولا قيام لها إلا به ولا نسبة لها معه إذ هي عدم محضٌ، وعلى توهم وجودها فهي حادثةٌ فانيةٌ ولا نسبة للوجود مع العدم ولا للحادث مع القديم، ولا ينافي هذا ما أراده من إثبات الوجود العيني، لا بل ما أراده برأي هذه الطائفة الأولى لأنهم أهل كشفٍ وشهودٍ، وهذه هي الحقيقة بعينيها والصورة المرئية (في الأصيفر) كل الوجود مع انفراد الذات عن الأسماء والصفات قال الأمير:

لمغيب قلبـي فـي هـوالكم مشـهدُ كـلُّ البريـةِ مطلـقٌ ومقيَّـدِ

وقالت الطائفة الثانية: إنّ الباري جلّ جلاله علم ضعف الإنسان وقلّة صبره على مُعاينة مالم يحتمِلْ عقله، وعلِم عجزه عن إدراك ما ليس بينه وبينهم مغايرةً ولا مجانسةً، ألم يبلغكم ما جرى للسبعين من بني أسرائيل الذين إختارهم موسـى، واختيار موسى هو اختيار الله تعالى لمّا طلبوا رؤية الحقّ جهرة، وسماع كلامـه كفاحاً[1] مجرّداً عن المظاهر كيف أخذتهم الرجفة وماتوا جميعاً. فلما سأل موسـى


[1] كفاحاً: مواجهةً.

ربّه (ﷻ) فيهم أمَرَهُ برش الْماء عليهم. وكان ذلك يوم النوروز فعاشوا وأيضاً لمـا طلب موسى الرؤية من الله في الْمناجات حيثُ قال:

(رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً[1]) (سورة الأعراف: من الآية ١٤٣)، وكان التجلي من نور اللاهوت دون الناسوت بمقدار شراك النعل. وقيل إنّما بدا له لمعة من نور قائمة من قوائم العرش على ماتقل، فلم يثبت موسى وهو الاسم الأعظم. وخرّ موسى صعِقاً فكيف حال من هو دونه إذا ظهر الحقّ بلاهوتيته وذاتيته كشفاً.

إذ لو ظهر بذاته كشفاً لتلاشى كلّ شيء لعظمة إشراق ضوء شعاع نور اللاهوت، ولم يجز ذلك في الحكمة الإلهية ولا في الرحمة الرحمانيّة[2] تعالى الله عن ذلك.

إيناس الخلق بالصورة

وقد علِمَ أنّه لا يُستطاع النظر إلاّ بحدّ الإقتدار[3]، فوجبت الحكمة الربانيّة (الظهور) لتأنيس الخلق بالصورة البشرية رحمةً منه لهم وإشفاقاً منه عليهم.

المعنى: والطائفة الثانية من اهل التوحيد قالت إن الباري علِمَ ضعف الإنسان عما لا يحتمل، وعلِمَ عجزه عن ما لايغايره في الحقائق الوجوبية من جهة عقله الوجوبي وعجزه حتى عما يجانسه في البشرية، لأن الإنسان علمه يقصر كنهاً

---

[1] صَعِقاً: مغشياً عليه.

[2] الرحمة الرحمانية هي التي لا تختصِ بشيءٍ دون شيءٍ وبحالٍ دونِ حال وبجهةٍ دون جهةٍ؛ بخلاف الرحمةِ الرحيميةِ فإنها مختصةٌ بالإنسان، ومن كان مثله سالكا الى الرحمن فالأرواح العالية وجودهم رحمةٌ رحمانيةٌ رحمةٌ رحيميةٌ ولا تمايز بين الرحمتين هناك، إذ لا يتميز جهة غضب فيهم والأرواح الخبيثة قد يتصفون بالرحمة الرحيمية، لكن الأغلبية منهم متصفون بالغضب، وذلك أن الرحمة الرحمانية عبارة عن إفاضة الوجودِ على الأشياء وإتقانها وإكمالها بالكمالات بفطرتها، وهذا عامّ لجميعِ الأشياء أخروية كانت أو دنيوية أناسي كانت أو غير أناسي. ولذلك قال (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (سورة طه: ٥) وفسروه باستواء نسبته الى الجليل والحقير وورد يا رحمن الدنيا والآخرة، والرحمة الرحيمية عبارة عن إفاضة الكمالات الاختيارية المرضية على المختارين من الإنس والجن، ولذلك ورد أن الرحمن والرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من صاحبه، ولذلك أيضا جاز أن يتصف الإنسان بالرحيم ولا يتصف بالرحمن.

[3] مصدر اقتدر على الأمر قوي. وفي نسخةٍ الى حد الاقتدار، والأولى أولى.

وحقيقةً عن أتفه الأشياء وأقلها، ولذلك أوجبت الحكمة الإلهية ظهور الله لهم كهم، وقص علينا مجتزئاً تثبيتاً لما قاله ما جرى للسبعين رجلاً من بني اسرائيل الذين اختارهم موسى، واختيار موسى هو اختيار الله لما أخبر قومه أن الله كلمه وقربه قالوا لا نؤمن لك حتى نسمع كلامه، فسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء لأن الله أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه:

وفي اقترابي لها منها سمعت ندا عن جانبي ومن خلفي ومن قُبُلي

فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً، فأخذتهم الصاعقة فماتوا فسأل الله فأحياهم، فقالوا لو سألت ربك أن يُريك تنظر إليه فتخبرنا فنعرفه، فقال إن الله لا يُرى ولا يُعرف إلا بآياته، فقالوا لن نؤمن لك حتى تسأله، فأوحى الله إليه أن سلني ما سألوك . فقال موسى: ربي أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني. فتجلى الله للجبل بآيةٍ من آياته، وروي أنه بدت له لمعةٌ من نور قائمةٍ من قوائم العرش، فلم يثبت لها موسى وهو الإسم الأعظم والحجاب الأقدم، فكيف حال من هو دونه إذا تجلى الله سبحانه بلاهوتيته كشفاً بدون حجاب، إذن لتلاشى كل شيءٍ لعظمة الإشراق، ولذلك لم يجز في الحكمة الإلهية ولا في الرحمة الرحمانية ظهوره بنوره الذي هو نوره، ولأنه لا يُستطاع النظر من الانسان إلا بِحدِ اقتداره على الرؤية والنظر أوجبت الحكمة الإلهية الظهور بالصورة البشرية رحمةً منه بخلقه لأن رؤية النور المجرد فوق استطاعتهم قال الأمير:

حكاني على طور التجلي صفاؤها فكانت لعيني في اجتلا العين جلوتي
فما شهِدَتْهُ العين معنىً فذاتها ومن هيئةٍ فهي المثال لهيئتي

الظهور تأنيساً وتلبيساً

ولكني أقول: وبالله التوفيق إنّه لمّا وجب أولاً ظهور المعنى بذاته ليعبدوه وحده بلا شريك لكونه يستحيل غيبته عن خلقه كما يستحيل عدمه، وجب في

الحكمة الإلهية أن يظهر لكلِّ جنسٍ كجنسه تأنيساً للمؤمنين وتلبيساً على الجاحدين المُنكرين، لأنّه القادر على الإطلاق فلا يعجزه شيء من الأشياء، فهو مع كلِّ شيء بصورة ذلك الشيء، ولا صورة له ولا قيّدته صورة ما ولم يكن مع كلِّ شيء إلاَّ معها فقد تعالى الله عن ذلك، بل هو عين كلِّ شيء سوى تقييد الشيء وتعيينه، فان هذا لا يجوز الإشارة إليه لأنّه لم تقيّده صورة قط.

وفي هذا خبرٌ روته الثقاة عن مولانا عزّ عزّه إنّه قال: لو أراد الله أظهار أمره لما جهله أحد، ولو أراد ستره لما عرفه أحد، ولكن أظهره مستوراً وستره ظاهراً.

المعنى: وبعد أن شرح قول الطائفة الثانية بأنه لا يمكن أن يُرى إلا متجلياً قال: ولكني أقول إنه لما وجب ظهور المعنى بذاته ليُعرف فيُعبد بذاته لكونه يستحيل عليه أن يغيب كما يستحيل عليه أن يعدم، لأن ما غاب فلم يُرَ يوشك ألا يكون شيئاً، وجب في الحكمة الإلهية أيضاً أن ظهر لكل جنسٍ من الأجناس كصفته تأنيساً للمؤمنين ليعرفوه فيعبدوه فيفوزوا بعبادته وتلبيساً على الكافرين ليحق عليهم العذاب بما اكتسبوا، فهو سبحانه صاحب القدرة المطلقة التي لا تتقيد بصورة ظاهرٌ مع كل شيءٍ بصورة ذلك الشيء، ولم يتقيد بصورةٍ واحدةٍ لأنه إن كان مع كل شيء بصورته فهو جامع الصور، وجامع الصور لا صورة له ولا يتقيد بصورة من جميع الصور البواقي دونها، وهو محال لأنه الصورة الجامعة للصور لا بل هو سبحانه عينُ كل شيءٍ وحقيقته بالوجوب الإلهي الساري في المكونات، إلا أنه لا يجوز أن يجوز أن يُعيَّنَ بشيء من الأشياء فيُحصر ويحدَّ تعالى الله، فبطلت الإشارة حينئذٍ لأن الإشارة لا تكون إلا لشيءٍ مُعين. فلو أراد الله سبحانه إظهارا أمر بربوبيته للجميع لما جهله أحدٌ بما أبدى من معاجز وقدر، ولو أراد ستره عن الجميع لما عرفه بما أبدى من العجز أحدٌ، ولكنه ظهر بالمعجز والقدر مستوراً بإظهاره العجز والصور، غير أنك إذا حددت بصر الإيمان تجده في كل شيءٍ ومع كل شيءٍ، وقبل كل شيءٍ وبعد كل شيءٍ، وفوق كل شيءٍ، وتحت كل شيء، ومحيطاً بكل شيء، وقريباً من كل شيء، بقرب كل هو وصفهُ وبحيطةٍ هي نعته، فبعُد عن الضرفية والحدود وعن الأماكن والجهات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بقوله الأول والآخر والظاهر والباطن وهو هو، هو كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما كان عليه

فأهل الحدود إنما يشهدون الكون دون المكوّن، وأهل السير من المريدين يشـــهدون المكوّن ثم الكون:

لقد ظهرت فما تخفـــى علـــى أحـــدٍ إلا علـــى أكمـــةٍ لايعـــرف القمـــرا
لكن بطنت بمـــا أظهـــرت محتجبـــاً وكيف يُعرفُ من بـــالعزة اســـتترا

العجز والمعجز

وجعل للظهور علامة وللسرعلامة، فالقدرة علامة الظهور والعجز علامـــة الستر، فالكافر لا يعتبر العجز قدرة ويجعل القدرة سحراً، وَالْمؤمن يعتبـــر العجـــز قدرة، فإذا علمتم ذلك وتحققتم إنّ القدرة هي علامة الظهور كما ذكرنا لا غيرهـــا، فأعلموا إنّ العجز من القادر قدرة، إذ لو كان الْمنزّه عندنا غير متمكّن من الظهور بالعجز لم يكن قادراً من حيث الظهور بالعجز، فما يكون قادراً من هذه الجهة ولو كان يكفي القادر في ثبوت القدرة له أنّه قـــادر بـــالقوّة[1] لا بالفعـــل علـــى بعـــض الْمقدورات، لكانت قدرته في بعض الْمراتب ليست بالفعل هذا، إذا أستمرَّ علـــى أن تكون قدرته على ذلك الظهور، الذي نزّه عنه قدرةٌ بالقوّة أبداً. لكنّه يسوق ماوقّت إلى ماقدّر، فيعطي الأشياء وأوقات الأشياء، ويظهر بالقدرة والعجز يتفصّـــل ذلـــك فيما لايتناهى تفصيلاً غير متناهٍ، فصحَّ إنّ القدرة الكاملة هي التي تقتضي ظهـــور القادر الكامل بالعجز وَالْمعجز، ظهوراً يشهد إنّ القادر قادرٌ على أن يظهر بـــالعجز وَالْمعجز، فالمولى عزّ عزّه أظهر العجز كما أظهر الْمعجز لكمال قدرته، والخلـــق الممزوج رأوا ذلك عجزاً من حيث عجزهم، وأهل الصفوة والبصائر رأوا ذلك قدرة وحكمة، من حيث درجاتهم ومنازلهم سلام الله عليهم.

فالمحوا إخواني هذه النكته الواضحة الخفيّة، فإنها سرَ الأيمان، وهـــي أول درجة من معارج اللاّزم التقيّة ولا يدركها إلاّ من هو صافي الألمعيّة.

المعنى: يقول : جعل الله لظهورك علامةً، وهي القدرة ولستره علامة وهـــي العجز، والكافر يعتبر القدرة سحراً. فإذا تحقق أن القدرة علامة الظهور، فاعلموا أن

[1] القوة هي الاستعداد الموجود بالنفس لتعلّمِ علمٍ ما فإذا تعلمته صارت القوة فعلاً.

إظهار العجز من القادر قدرةٌ، إذ لو كان الذي نزهناه عن العجز غير قـادرٍ علـى إظهار العجز على نفسه لم يكن قادراً من هذه الجهة، بل كان قادراً من وجهٍ عـاجز من وجهٍ، ولو كان يكفي ثبوت القدرة له أنه قادرٌ بالقوة علـى إظهـار الفعـل دون إخراجه الى حيز الفعل، لكانت قدرته في بعض مراتب القدرة قوةً واستعداداً بـدون فعل، أي كان عدم إظهار العجز عجزاً، فالأشياء التي يريد سبحانه فعلهـا يعطيهـا أوقاتها التي قدرها لها ويعطي أوقات الأشياء التي يريد بها الفعل التقدير الذي قدره للفعل بها، فيظهر سبحانه بالقدرة والعجز في حينهما يتفضل ذلك الإعطاء للأشـياء وأوقات الأشياء عجزاً ومعجزاً فيما لا يتناهى تفصيلاً غير متناهٍ، لأنـه سـبحانه لا يزال على مر الدهور يظهر بالعجز في حينه وبالقدرة في حينها، فصح أن القـدرة الكاملة هي التي تقتضي ظهور القادر الكامل بالعجز والمعجز، ظهـوراً يشـهد أن القادر قادرٌ على إظهارها جميعاً، فالولى عز عزه أظهر العجـز فـي كثيـر مـن المواطن، كما أظهر المعجز لكمال قدرته على إظهار الحالين، والممزوجـون رأوا ذلك عجزاً من حيث عجزهم وأهل الصفوة رأوا ذلك قدرةً، فـألمحوا هـذه النكتـة الواضحة أتم الوضوح بأن العجز من القادر قدرةٌ، الخفية أتم الخفاء، لأن العاجز لا يجوز أن يكون قادراً، فهذه النكتة أول درجةٍ من سلّمِ التقية، ولا يدركها إلا من كان صافي الألمعية، ومن لم يعتقد أن العجز من القادر قدرةٌ أثبت أن القادرعاجزٌ فيكون خرج من الدين. قال الأمير:

آمنـــت بـــالمعجز والعجـــز	ففـــزت بالمطلـــب والكنـــز
وأصبح السائب عن كـل محـروز	مـــن الأكـــوان فـــي حـــرزي

قال جلال الدين العجز والمعجز الباب والحجـاب لأنهمـا محـل الصـفات والنعوت والاستقرار والثبوت.

الظهور بالصورة

ودليل آخر هو ماورد في كتاب الأسوس «إنّ الباري جلّت قدرته لمّـا أراد امتحان العالم النوراني -وهو أعلم بهم- ظهر لهم بصورة طفلٍ صغير ثم بصـورة

شاب شديد مفتول السبال، ثم بصورة شيخ كبير، واظهر فيهم قدرة واحدة في الأحوال الثلاثة فلما اختلفت عليهم الصور ولم تختلف عليهم القدر قالوا له أظهر بما شئت كيف شئت فأنت أنت». ذلك بتوفيقه لهم ألا تَراهم كيف ثبتوا على معرفته بالقدرة لا يبالون بإختلاف الصور وظهوره في العجز والقدرة.

ودليل آخر وهو ماورد في كتاب الله (ﷻ) انّ الله (ﷻ) تجلى لموسى (الﷺ) مخاطباً إيّاه من الشجرة والنار فقال سبحانه تعالى (فلمّا أتاها نُودي منَ شاطئ الوادِ الأيمنِ في البُقعة المُباركة من الشّجرة أنْ يا مُوسى إنّي أنا اللّهُ ربُّ العالَمين)[1] (سورة القصص: ٣٠) وقال سبحانه (فلمّا جاءها نودي أنْ بُورِكَ منْ في النّار ومَنْ حولَها وسُبْحانَ اللّه ربِّ العالمين) (سورة النمل: ٨) يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم وقوله سبحان الله يعني من أن يكون منحصراً ظهوره حينئذٍ وقبله وبعده في ذلك التلبيس وفي غيره من الصور وغير الصور. وقوله ياموسى إنّه. أي الذي دعاك.

ودليل آخر وهو ما ورد في الخبر النبوي الصحيح أن رسول الله (ص) قال «رأيتُ ربي في أحسن صورة».

وفي الصحيح أيضاً إنّ الله جلّت قدرته يتجلّى يوم القيامة في صور متنوّعة متعدّدة، ويتحول من صورةٍ أدنى إلى صورة غيرها بالعكس. وذلك سبب ظهوره بحسب العلامات التي بينه وبين عباده، التي هي عبارة عن ظنونهم الإعتقاديّة فيه. كما قال الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي المُؤمن بي، وذلك في مقتضى مشيئته وعلمه وحكمه، وفي روايةٍ أخرى «فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفونه بها فيقول أنا ربّكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتّى يأتينا ربّنا فيأتيهم الله في صورته التي يعرفونها فيقول أنا ربّكم فيقولون أنت ربّنا سبحان ربّنا»... والحديث بطوله.

[1] ذكر أن موسى أقبل نحو النار يقتبس منها فإذا شجرةٌ ونارٌ تلتهب عليها. فلما ذهب نحو النار يقتبس منها أهوت إليه ففزع منها وعدا ورجعت النار الى الشجرة، وهكذا ثلاثاً، فناداه الله يا موسى إنني أنا الله رب العالمين. قال موسى فما الدليل على ذلك. قال ما بيمينك؟ قال عصاي قال ألقها... الخ.. قالوا لم يكن خوفه من النار نقصاً ولا من الحية، بل الخوف في هذه الحال برجوعه الى الوحدة وانسلاخه من الكثرات واحتفاظه بمقام بشريته يدل على كماله وقوة نفسه وحق البشرية الخوف من النار المحرقة والحية المؤذية، وحفظ حقوق الكثرات في مثل هذه الحال من أتم الدلائل على الكمال.

المعنى: يقول: مستشهداً على ظهوره سبحانه بما في الأسوس من تجليه للعالم، وأنه ظهر للملائكة الروحانيين وأمكنهم من النظر إليه بلطف ذواتهم، فوصفوه بما رأوه وما ورد عن النبي من إثبات تجليه كما في الصحيح وغيره. والرواية الأخيرة وردت في صحيح مسلم وفي تعليق النووي عليه وغيره من الإصحاحات وفي رسالة الأسفار لابن عربي وفي شرحها للجيلي. وحُجبُه ما أعظمها وأقواها وأوضحها وأجلاها على إثبات الظهور البشري.

نفي الحلول

فقد بان بأنّه تعالى يتلبَس بأيَ لباسٍ شاء وفي أي صورةٍ شاء ممّا يُعرفُ وممّا يُنكرُ من غير حلولٍ[1] ولا اتحاد نعوذ بالله من ذلك. فأنهما من أنواع الأجسام وهما منّا في حقّه باطل لتقدّمه تعالى عليهما.

وأما المْعقول في حلول الشيء في غير المْحلَ فإن المْحلَ أي الحال تبعاً لذلك المُحلَّ[2] في أمرٍ من الأمور وواجب الوجود لذاته يمتنع أن يكون تبعاً لغيره، فوجب أن يمتنع عليه الحلول وقد برهنّا أنَ الإتحاد محال[3].

المعنى: يقول: لقد بأن لكم فيما تقدم أنه سبحانه يتلبس من هذه الموجودات بأي لباس شاء في أي صورة شاء مما يُعرف كالظهور البشري والنوري، ومما يُنكر، كتجليه بالأشياء كلها مما به قوامها، وذلك الظهور من غير حلولٍ بالأشياء ولا اتحاد بها، وتعالى الله بل إنه سبحانه يغير ولا يتغير بتقلب القلوب والأبصار، فإن الحلول والاتحاد خاصان بالأجسام، والله سبحانه منزه عن الأجسام ومتقدم عليها، وأما المعقول بأن يحل الشيء بمحل آخر، فإن الحال في محلٍ لا بد أن يكون تبعاً لذلك المحل في أمر من الأمور، كالسائل يُحفظ بالأواني، والجماد يستقر في مكانٍ والحيوان يأوي الى ما يقيه الحر والبرد، فالسائل تبع للآنية لحفظه، والجماد تبعٌ للمكان لاستقراره، والحيوان لوقايته وهكذا، وواجب الوجوب محالٌ عليه أن يكون

[1] الحلول مصدر حل بالمكان نزل به وفي اصطلاح العلماء اختصاص شيءٍ بشيء بحيث تكون الإشارة الى أحدهما عين الإشارة الى الآخر، ويزعم، أن الحلولية فرقة من المتصوفة وهم أصحاب المنصور بن الحلاج.

[2] المحل اسم مفعول من اجله بالمكان جعله يُحِلَهُ.

[3] مصدر تحد الشيئان صار واحجا كامتزاج الماء بالماء.

تبعاً لشيء من الأشياء، وقد برهن عن الاتحاد أنه محالٌ فيما تقدم عندما تكلم عن الوحدة ورد القائلين بالاثنية، وطبيعي أن الشيء لا يتحد بالشيء إلا إذا كان من جنسه ونوعه، كاتحاد الماء بالماء والخمر بالخمر. ومن حججهم على نفي الحلول أنه لا وجود للأشياء مع وجود الله، والحلول يقتضي وجود السوى (الغير) حتى يحل فيه معنى الربوبية، والفرض أن السوى عدم فلا يتصور الحلول: ونزهه عن حكم الحلول فماله سوى وإلى توحيده الأمر راجعُ. وتقدم قوله: مؤمن السوى لا يتصل بحضرة الحق.

وممّا يدلّ أيضاً على نفي اعتقاد الحلول على القائلين بالتجلّيات الإلهيّة في الصوَر قوله منه السلام «إنّ الله جلّ وعلا خلق أدم على مثال صورته».

وفي روايةٍ أخرى على صورة الرحمن وليس المْراد بها صورة الذات، لأنّ الذات عريّة عن الْمادّة ولا صورة لها إلاّ من حيث التجلّي فقط، كما تجلّى جبرائيل (عليه السلام) في صورة دحية وغيرها من الصورة البشرية كتمثله للأعرابي ولمريم (عليها السلام) بشراً سويّا، حتّى إنّ الرسول الأعظم رآه مراراً كثيرة في صوَر مختلفة وما رآه في صورته الحقيقيّة إلاّ مرتين -على ما نقل- وأنّ تمثله في صورة دحية يعني إنّ ذاته انقلبت صورة دحية، بل يعني أنّه ظهر بتلك الصورة للسيد الرسول منه السلام مؤدّياً عن جبريل ما أوحى الله إليه، وكان جبرائيل حالاً في ظهوره عند أداء الوحي بصورة دحية عند الرسول، وكان دحية في منزله والرسول يرى جبرائيل يؤدي الوحي، وغيره من الصحابة يرى دحية يرعى للرسول حقّ صحبته، فلو كان ظهور جبرائيل على صورة دحية عند أداء الوحي على طريق الحلول لكان دحية في تلك الحالة غائباً عن منزله حاضراً بين يدي الرسول ورئياً الرسول كلتاهما في حالة واحدة. دحية في تلك الحالة في منزله، والرسول يرى جبريل في صورته يؤدّي الوحي على خلاف ما يرى غيره كأنّه دحية.

ففي أصحّ الرؤيتين دلالة تشير إلى نفي اعتقاد الحلول من هؤلاء السادات، وهي رؤية السيّد الرسول إنّ الْمرئي هو جبرائيل في صورة ممثّلة لا هو دحية فإن جبرائيل منزّه عن الصورة الحسيّة، لأنّه الروح الأمين الذي جعل الله له في خلقه هذه الصورة التي يظهر بها في أي صورةٍ شاء، فإذا ثبتَ وصحّ ووقع أن يظهر ملك مخلوق حيث شاء بأيّ صفةٍ شاء، فمشيئة الله تعالى أولى بالإطلاق من قيد

الصورة وقيدِ عدمِ الصورة، بحيث يظهر إن شاء في الصورة وإن شاء في غير الصورة من غير حلولٍ ولا تشبيه أصلاً.

المعنى: ومما يدل على نفي الحلول قول النبي: «إن الله خلق آدم على صورته أو على صورة الرحمن»، والمراد التجلي لأن الذات ليس لها صورةٌ كتجلي جبرائيل بصورة دحية وبغير صورة دحية، كتجليه للأعرابي وكتمثيله لمريم(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً) (سورة مريم: من الآية ١٧) وقد رآه النبي بصورٍ مختلفةٍ وما رآه بصورته الحقيقية إلا مرتين، وتمثل جبرائيل كصورة دحية عند أداء الوحي للنبي ودحية في منزله وبين صحبه والرسول يراه جبرائيل والناس يرونه دحية (إذا رأيتم دحية عندي فلا تطيلوا الجلوس)، فهذا يدل دلالة قطعية على نفي، لأنه لو كان حالاً به لما جاز وجود الصورتين صورة دحية وصورة جبرائيل حالاً بدحية، وكذلك لا يجوز أن يحل جبرائيل بدحية في حال أن دحية في منزله أو بين صحبه وهو عند النبي يؤدي الوحي، ففي أصح الرؤيتين (وهما رؤية النبي) جبريل بعينه، وصورته ورؤية الناس إياه بصورة دحية وأصحهما رؤية النبي. دلالة تشير الى نفي الحلول ومع هذا فجبريل منزه عن الصورة الحسية لأنه الروح الأمين قال الفارض:

ولستُ على غيبٍ أحيلُكَ لا ولا … على مستحيلٍ موجبٍ سلب حيلتي
وكيف وباسم الحقِّ ظلَّ تحققي … تكون أراجيفُ الضلالِ مخيفتي
وها دحيةٌ وافى الأمين نبيَّنا … بصورته في بدء وحي النبوة
أجبريل قُل لي كان دحية إذ بدا … لمُهدي الهدى في صورةٍ بشرية
وفي علمه عن حاضريه مزيَّة … بماهية المرئي من غير مرية
يرى ملكاً يوحي إليه وغيره … يرى رجلاً يُدعى إليه بصحبة
ولي في أتمِّ الرؤيتين دلالةٌ … تنزه عن رأي الحلول عقيدتي

فإذا جاز التصوُّرُ لملك مخلوقٍ بأي صورةٍ شاء فالله سبحانه أولى بالإطلاق من قيد الصورة ومن قيد عدم الصورة.

المرتبة الجامعة

ولا يكون ظهوره ومشيئته مقيّداً ولا محصوراً حال ظهوره في الصورة بها وفيها، ولا مقيّداً حال ظهوره بغير الصورة، ولا منحصراً في الصورة، بل يكون جامعاً لم يَزَلْ ولم يزَلْ بينهما مع عدم انحصاره في مفهوم ذلك الجمع أيضاً، فإنَّ مقامات الكشف[1] في التوحيد إمّا أن يكون كشف ظاهريّة الحق، أو كشف باطنيّته، أو كشف ألوهيّته الجامعة، أو كشف التنزيه عن الحصر في هذه المرتبة الجامعة، أو كشف التنزيه عن التنزيه الذي يقتضي التمييز عن الامتياز[2] عن الجمعيّة، فإنّه سبحانه مع هذا التمييز والتنزيه عنه له أن يظهر في هذه المقامات، ويتميّز فيها جمعاً وفرداً، فإذا جاز ووقع أن يكون لملكٍ مخلوق قدرة التلبيس بأي صورةٍ شاء بلا معنى الحلول فيه جاز وصحَ أيضاً أن يتلبس الحقَ سبحانه تعالى بصورة القائلين بالتجليات بعد فناء أنانيتهم في توحيده. فأفهموا ذلك فإنّه من أخصّ أسرار الأيمان وأجلّها، فتمسكوا به فهو العروة الوثقى التي هي حقيقة الأيمان في معرفة الرحمن[3].

المعنى: يقول: لا يكون ظهور الله سبحانه ومشيئته في ظهوره مقيداً في الصورة التي يكون ظاهراً بها، ولا محصوراً بغيرها من الصور، بل يكون في حال

---

[1] كشف الشيء يكشفه كشفاً ومُكاشفةً رفع عنه ما يواريه، والكشوف عند السالكين كثيرةٌ كشف عالم الحس وهو أن تعلم ما يفعل الناس في بيوتهم ثم كِشف عالم الخيال والفرق بين كشف عالم الحس وبين عالم الخيال إذا رأيت صورةَ شخص أو فعلا من أفعال الخلق أن تغلق عينيك، فإن بقي لك الكشف فهو في خيالك ثم الكشف المعدني والنباتي بأن تعرف خواصهما ثم الكشف عن عالم الحيوان أن تسلم عليك وتعرفك، ثم الكشف عن سريان الحياة السببية في الأحياء ثم كشوف التجليات الإلهيّة من الأدنى الى الأعلى

[2] الإمتياز مصدر امتاز كانماز نمياز اً واستماز استمازةَ كلّ منهما انفصل عن صاحبه وانعزل.

[3] العروة كل ما يؤخذ باليد من خلقه، ويقال ذلك أوثق غرى الإيمان والصحابة غرى الإسلام وعندهم العروة الوثقى الولاية التي هي عبارة عن البيعة الخاصة، والبيعة وإن كانت محسوسة فالاتصال المراد منها لا يدرك بالابصار، ولا يتعقل بالعقول وذلك أن الإنسان من تولده يزداد جوهر نفسه متجها الى الإنسانية وكلما فعل فعلا يؤدي الى الانسانية صار اسما لذلك الفعل وتذوب أفعاله السابقة بذلك الفعل فإذا بلغ مقام عقله يصبح قابلا لتصرف الشيطان والرحمن ويكون متصرفا بجهة احدهما برد الولاية وقبولها فإن قبلها أثمرت فعلياته طهارة كالنحلة بالتأبير والفستق بالتلقيح والين بالأنفخة (الروبة) ويصير فعله معقودا بالولاية تتحقق نسبة الأبوة والبنوة بين التابع والمتبوع والأخوة بين الأتباع، ولذلك قال عيسى أنا ابن الله، ولكون الأفعال والفعليات مهما كانت فهي بدون الولاية قشور بلا لب ورد: لوأن عبدا عبدالله تحت الميزاب قائما ليله صائما نهاره ولم يكن له ولاية ولي الأمر لأكبه الله على منخريه بالنار ولكون الولاية عبارة عن الأعمال البدنية جعلت قرينة الحدود ولكونها اصل الكل ورد في الخبر أنها مفتاحهن.

تجريده من الصورة وفي حال ظهوره بها جامعاً للإثنين المتباينين: الظهور والبطون، ولم يزل كشفُ الحُجُبِ للسالكين في توحيده دائماً أبداً كلما رُفِعَ حجابٌ تجلى آخر، إما كشف ظاهرية الحق التي هي ظهوره للخلق كالخلق وهو التشبيه، وإما كشف باطنيته التي هي بطونه عن الجميع في غيبه المنيع أو كشف ألوهيته الجامعة بين الحق والخلق، كما تقدم عند قوله العبد الحق والحق الخلق (ومن هنا تعلمُ كيف أن المرتبة الإلهية هي اليقين الثاني) (أي هي التجلي بمرتبة الخالق لأهل مرتبة اليقين الثاني)، أو الجامعة بين البطون والظهور معاً، أو كشف التنزيه عن الحصر في رُتبتي البطون والظهور والحق والخلق، أو كشف التنزيه عن التنزيه، لأنه إذا نُزه سبحانه مثلاً عن البطون والظهور كان هذا التنزيه تحديداً، فيجب حينئذٍ التنزيه عن هذا التنزيه الذي يقتضيك أن تفرزه وتفرده عن الإفراز عن ألوهيته الجامعة بين البطون والظهور والتنزيه والتشبيه، وهو سبحانه مع الإفراز، له أن يظهر في جميع مقامات الظهور التي ذُكرت والتي لم تذكر، وله أن يتميز في كل واحدٍ منها، وله أن يجمع بينها في آنٍ واحدٍ، فإذا كان يجوز لملك مخلوقٍ أن يستطيع الظهور بأي صورةٍ شاء بلا حلول بتلك الصورة، جاز لله سبحانه أن يتجلى بصورةٍ الذين يقولون بتجليه بعد فنائهم بتوحيده:

ألــيس قُلــتُمْ إن إبلــيس لــه ... تصرُّفٌ فكيــف مــن أنشــأ الــورى

فافهموا ذلك فإنه أخص أسرار الإيمان وهو العروة الوثقى التي هي حقيقة الإيقان في معرفة الرحمن. قال الأمير:

أنــا فــي هواهــا مُشــهَدٌ ومغيــبُ ... فأعجب لكوني؛ واصــفٌ ومجــرِّدُ
ومنــــزةٌ ومشــــبِهٌ وموحــــدٌ ... ومعــــدِّدٌ ومقــــربٌ ومُبعَّــــدُ

التجلي لأهل الأكوان

ودليل أخر: وهو مِمَا ورد في الآثار إنَ الله جلّت قدرته لمّا تجلى لبني آدم يوم الأظلّة وأشهدهم على أنفسهم بعد اعترافهم وتعريفهم بالربوبيّة كما نطق به

التنزيل (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ[1] مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) (سورة الأعراف: من الآية ١٧٢) فكان هو المتجلي بلا واسطة، وهو تعالى لم يزل متجلياً يراه أهل خاصته في الأكوان الستة. وهي الكون النوراني والكون الجوهري والكون الهوائي والكون المائي والكون الناري والكون الترابي، فهو متجلياً يراه كلّ شخصٍ بما يستحقّ من رؤيته إلى أن ظهر لهم في البشرية الناسوتيّة بالصورة المرئيّة، فهو سبحانه لم يزل مشاهداً في جميع الأكوار والأدوار لايتغيّر ولا يحول ولا يزول عن كيانه فهو ظاهرٌ في البشرية كما هو ظاهرٌ في النورانيّة.

جمع الانسان للأكوان الستة

فلمّا خلق الله تعالى آدم (عليه السلام) من ترابٍ وجعله طيناً لازباً[2] ثم حمأً[3] مسنوناً[4] ثم جعله صلصالاً[5] كالفخّار ونفخ فيه من روحه، وجعل فيه من كلّ كون جزءاً، فالجزء الذي فيه من الكون النوراني نور بصره الذي يبصر به كلّ شيء، ومن الكون الجوهري قلبه وهو بلا عينين ولا أذنين ولا فم، بل هو جوهر يدرك كلّ شيء ويحيط به وهو ملك الجسد.

---

[1] إن معنى آدم ليس محصوراً في أبي البشر فقط بل يقال آدم الملكي وهو آدمنا، وآدم الملكوتي، وآدم الجبروتي، وآدم اللاهوتي. وذلك لأن لكل من هؤلاء الأوادم أبناء من نوعه فقد مر عليك أن لكل عالم من العوالم مثالاً بالعالم الذي فوقه كان تكوينه عنه فكل ما في عالمنا عالم الطبع له صورة ومثال بنحو من التفضيل في عالم المثال بحيث لو رآه راءٍ لقال هو هو بعينه، ولعالم المثال حقيقة ومثال في عالم العقول العرضية وله حقائق أيضاً في عالم العقول الطولية بنحو أبسط وأتم مما في هذا العالم بحسب الترتيب التعليمي من حيث الصعود من الأدنى الى الأعلى، ويعبر عن كل عالم بالذر بالنسبة لما فوقه الذي هو آدمه، وكل عالم أحق باسم آدم من الذي دونه لأن يكون بالتولد أكثر منه فآدم اللاهوتي الذي يعبر عنه بالحقيقة المحمدية والحق المخلوق به وغير ذلك بحسب أفعاله أحق باسم آدم من الجبروتي والجبروتي أحق باسم آدم الملكوتي الخ... وبنو آدم كما مر. في كل مرتبةٍ هم المنتسبون اليه أي الكائنون عنه حتى تصل الى الانسان الذي هو العالم الصغير فبنوه المدارك والقوى للعقل أقبل فأقبل أي الى الدنيا والدار السفلى فتوجه عن الحق للعالم الأسفل، فكان المنظور إليه في كل مرتبةٍ هو ظهرها، قالل تعالى(وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم) الخ (الأعراف، ١٧٢) هذا بحسب سلسلة النزول بالتكوين وأما بحسب سلسلة الصعود لا يخفى. وبعدما علمت أن الأشياء والأسماع على حقائقها اللغوية، بل الأحق بحقائقها عالم الطبع فلا حاجة الى تأويلات المفسرين وتكلفاتهم ومجازاتهم.

[2] لازبا: لاصقاً مشتدا.

[3] الحما: الطين الأسود.

[4] المسنون: مفعول من سن الطين عملهُ فخاراً.

[5] الصلصال: الطين الحرُ خلِط بالرمل.

ومن الكون الهوائي أنفاسه التي تتردد في جسده، وهو هواءٌ داخل خارج قابضٌ باسط باردٌ ممتزج معتدل.

ومن الكون المائي رطوبة جسده وليونته وتعطّسه ودموعه وبصاقه ومخاطه وبوله وعذرته[1] وغائطه.

ومن الكون الناري في طباعه الأربع من سائر جسده، وهي تنضج مأكله ومشاربه وتنفذها بالحرارة وتسلّس جسده وتسوّي أعضائه، وكلّما حلَّ شيء في جسده أخرج حرارة ناريّة.

ومن الكون الترابي جسده ولحمه وعروقه وجلده وشعره، وهذا كلّه في كلّما دبّ ودرج.

وفي العارفين الكون السابع، وهو الرجعة البيضاء والكرّة الزهراء وكون رؤية أهل خاصّته في الأكوان الستّة دليلاً على إثبات ظهور المعنى بالصورة التي ظهرت للبشر كالبشر، ليصحَّ الوجود ويثبت للعيان ولا يحول ولا يزول وإنما وصفنا هذه الأكوان الستّة أبداً حتّى يصحَّ وجوده ولو لم يكن كذلك لم يصحّ وجوده.

المعنى: يقول : ولما خلق الله آدم من تراب ونفخ فيه من روحه، بان جعل فيه الحياة، وأهّله لمعرفته، جعل فيه من كل كونٍ من الأكوان الستة جزءًا يقوم بواجبه من قيام البدن المشترك فيما بينها، وتلك الأكوان تشمل كل ذي روحٍ، وخصّ الإنسان بالكون السابع، وهو المسمى قدس المعرفة، وهو العقل يعرف به المظاهر الإلهية. وقد تعرف الأكوان الستة من ذكره تنزل الوجود، وذكره الطبيعة المطلقة والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة، وقد تكلمنا عنها بما تفهمه تماماً إذا رجعت إليه وتفهمه أيضاً من قول الناسخ البغدادي:

خمسٌ ولكنهم بالفعل أربعةٌ   كلٌ بصاحبه بالمزج مُنعقِدُ
وبانفرادِ تراهم غير ذي جسدِ   وباجتماع تراهم كلهم جسَدُ

[1] العذرة: الغائط.

قال الأمير:

وفي الخمسة الأكوان ما زلت سالكاً — الى كونها المائي وهو عُبابُ
وفي كونها النوري شاهدت نارها — بغير حجابٍ والمثال حجابُ

وقد مر بك من عجيب تركيب البدن مالا تحتاج الى إعادته، وعن القلب كلامٌ مستقصىً، فارجع إليهما إن شئت.

التفضيل بالظهور

وسئل مولانا الصادق منه السلام من أين يظهر الحقَ؟.

قال:من بين الخلق ولكن أكثرهم لا يعلمون فإن من اشتداد ظهوره في نوره بحيث تضعف الأدراكات عنه، فيسمَى ذلك الظهور حجاباً[1].

وقال موسى الكاظم منه الرحمة: أوَل شيء كلَف الله عباده به قال لهم لا تنكروني في أي صورةٍ ظهرت، فظهر في الصورة البشرية فأنكروه. وإنَما ظهر لهم كهم رحمةً منه وتفضَلاً ومنَةً وطولاً[2] وجوداً وعدلاً وإشفاقاً عليهم، إذ قد علم منهم أن ليس باستطاعتهم أن يثبتوا له إذا ظهر من حيث هو، فتلطَف بهم كما تلطَف لأهل النور، ولو ظهر لهم بكمال نورانيَته لأطفأ الأنوار وأعمى الأبصار وأحرق كلَ الكون، ما علا وما سفل وما بينهما، وكان غير جائز بالحكمة ولا ثابت في العدل، لأن النور الحقيقي هو يدرك به ولا يُدرك لأنَه عين الذات من حيث تجرَدها عن النسب والإضافات.

المعنى: يقول : مستشهداً على إثبات التجلي بالصورة الأينية، بقول الإمام جعفرٍ، يظهر الحق من بين خلقه بدون أن يتغير عن كيانه، فيشتد ظهوره بنوره بحيث تضعف الإدراكات المتوجهة إليه عن النظر الى ذلك النور القاهر، فينعكس ناظرها إليها فيكون ضعفها عن استجلاء النور حجاباً كثيفا.

---

[1] الحجاب كل ما حال بين شيئين والحجاب عند أهل الحقيقة هو شدة الظهور بإشراق النور فتمتنع الأبصار عن رؤيته سبحانه فيرجع نور الناظر إليه فيرى صورته ومثله فكيف يُتصور أن يحجبه شيءٌ وهو الذي أظهر كل شيء وظهر بكل شيءٍ وفي كل شيءٍ وقبل كل شيءٍ ومن كل شيءٍ.

[2] الطول الامتنان والإحسان.

مشهودةٌ لا يراها فـي الأنـام بِهـا　　خلقٌ وقد شوهِدَتْ بين الخلائق بي

وقال الكاظم: أول ما كلف الله عباده أن لا ينكروه في أي صورةٍ ظهر وظهر فأنكروه، وإنما ظهر لهم بهم رحمةً وامتناناً، ولو ظهر بنورانيتـه لأطفـأ الأنـوار (مراتب عالم النور) وأعمى الأبصار، فـأحرق الجميـع، فاضـمحلت المكونـات واحترقت من نور السُبُحات. قال ابن عربي بعد أن قسم الحُجُب:

وأما حجب العناية وهي حجب الإشفاق على الخلق من الإحراق، فهي الحجب التي تمنع السبحات الوجهية ما أدركه البصر من الخلق، والسبحات أنوار ذاتية بيننا وبينها حجاب الأسماء الإلهية، والسبحات في العموم باللسان الشامل أنوار التنزيه.

النور المجرد لا يُرى

وهذا لمّا سئل الرسول هل رأيت ربك قـال: (نـورٌ أنّـى أراه)، أي النـور المجرد[1] لا يمكن رؤيته. وكذلك أشار الحقّ في التنزيل لمّا ذكر نوره فـي مراتـب المظاهر فقال تعالى (الله نور السمٰوات والأرض)[2]، فلما فرغ مـن ذكـر مراتـب التمثيل[3] قال (نورٌ على نور)، فأحد النورين هو الضياء والآخر هو النور المطلـق

---

[1] جَرَّد المر من لباسه عراه، والنور المجرد كنايةٌ عن تعريته من لباس التعيُّنات.

[2] قد مر بك أن السماوات لا اختصاص لها بالأفلاك الطبيعية والكرات العلوية وما سوى ذلك بل كل ما فيه علو وفاعليةٍ بالنسبة الى ما دونه فهو سماءٌ بالنسبة إليه والأرض اسمٌ لما فيه تسفل وقبـول. وكذلك السماوات والأرض اسمان للموجود منهما الممتاز بتعين السماوي والأرضي أو اسمان لنفس مهياتهما من دون اعتبار الوجود معهما. فإذا علمت أن السماوات والأرض لا تخصص لهما صـح أن يقال أن الله بحسب مظهره الذي هو العقل الكلي أو الروح الكلي الذي هو رب النوع الإنسـاني نور السماوات والارض بالوجوه المذكورة من تعدد السماوات والارض، أو بحسب مظهره الذي هو عالم المثال نور السماوات والارض أو بحسب مظاهره التي هي لطائف الولاية والنبوة والرسـالة نور السماوات والارض في العالم الكبير أو في العالم الصغير بالوجوه السابقة أو بحسب مظهـره الذي هو ضياء الشمس نور السماوات والارض الطبيعيتين بالمعنى المدرك لكل أحـدٍ أو بحسـب مظهره الذي هو مثال أوليائه(ع) الظاهرين في صدور السالكين نور السماوات والارض في العـالم الصغير إن لم يكن ذاك المثال قويا على إنارة الأرواح أيضاً أو بحسب مظهره الـذي هـو القـوة الواهمة، والمتخيلة والخيال، أو بحسب مظهره الذي هو المدارك الباطنة أو المدارك الظاهرة. يعني أن كل رتبةٍ عاليةٍ سماءٌ للرتبة التي هي دونها وتلك الرتبة أرضها ويتجلى الله لأهل تلـك الرتبـة فتشرق بنوره هي وأرضها، ومن هنا تعلمُ شرح الشيخ للسماوات السبع والأرضين السبع.

[3] مراتب التمثيل: المشكاة والمصباح والزجاجة. مثّل سبحانه نوره الساري في مراتب المظاهر في تنزلات الوجود بالمفاعيل التي ظهرت عن نوره كما تعلم بمشكاة فيها مصباحٌ المصباح في زجاجة.

الأصلي الأحدي، ولهذا تمَمَ فقال (يهدي الله لنوره من يشاء)، أي يهدي الله بنوره الظاهر المتعيّن في المظاهر والساري فيهما، إلى نوره المطلق الأصلي الأحدي.

ولمّا سُئِلَ بن عبّاس عن رؤية الرسول لربه تعالى أخبر إنّه رآه، فأخبر بقول عائشة وقولها عن رسول الله (ص) وقد سألته عن رؤية ربّه (ﷻ) وهو قوله «نورٌ أنّى أرآه» فراجع السائل أبن عباس فقال له: ويَحك ذاك إذا تجلّى في نوره الذي هو نوره. أي إنّما تتعذر الرؤية والإدراك باعتبار تجرد الذات عن المظاهر والنسب والإضافات. أمّا في الظاهر فمن وراء حجابيّة المراتب فالإدراك ممكن كما قيل شعراً.

كالشّمسِ يَمنعُك اجتلاءَك نورُها ... فإذا اكتسَتْ برقيقِ غيمٍ أمكنا

المعنى: ولما عرّفَ عن عدم إمكان رؤية الحق بكمال نورانيته قال مستشهداً بما سُئل به النبي هل رأيت ربك؟

قال: نورٌ أنى أراهُ. أي أنه نورٌ مجردٌ لا تمكنُ رؤيته، ولمَا ذكر من امتناع رؤيته سبحانه مجرداً عن المظاهر أشار سبحانه بقوله (اللَّهُ نُورُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) الخ. يعني تجليه سبحانه من وراء حجاب للتمكن من الرؤية، فلما فرغ سبحانه من ذكر مراتب تمثيل نوره بظهوره من وراء المشكاة

الزجاجة كانها كوكب دريّ فتجلى الله سبحانه بغلافٍ في جوف غلاف، غلاف علوي في جوف غلافٍ سفلي لكل من المراتب لئلا يكون متجليا بحقيقته فتحترق المكونات من سطوع السبحات وظهوره سبحانه لكل رتبةٍ بصورة تلك الرتبة فإذا أريد بالنور (بقوله سبحانه نور على نور) تجلي المشيئة كانت الشجرة الذات العلية والمصباح نفس المشيئة والزجاجة عالم الأرواح مطلقا والمشكاة عالم الطبع. وإذا أريد بالنور العقول كانت الشجرة مطلق عالم المشيئة والزجاجة عالم النفوس والمشكاة عالم الطبع وإذا أريد بالنور عالم النفوس كانت الشجرة المشيئة والعقول والمادة الأولى والزجاجة عالم البرزخ والمشكاة عالم الطبع، وإذا أريد بالنور الولاية أو النبوة أو الرسالة أو الإسلام أو الإيمان أو الروح أو العقل أو القلب أو النفس البشرية أو مثال الشيخ، كان تطبيق سائر الأجزاء ظاهرا كما إذا قلنا: إذا كان النور الولاية كانت الشجرة صاحب الولاية والزجاجة علمه وهدايته والمشكاة عقل الموالي مثلا وتلك المظاهر جميعها نورٌ على نور في شدة الإضاءة في صفاء الزيت وصفاء الزجاجة وجمع المشكاة لنوره لأن المشيئة وجودٌ مطلق مقومٌ لجميع الموجودات المقيدة ووارد عليها وجميع ذلك يدل على أن جميع تلك الأنوار مظاهر تجلي فعله سبحانه، يتجلى لكل رتبةٍ من ورائها ومن وراء ورائها (غلاف في جوف غلاف) وكل هذه الوجوه أرادها المؤلف كما يتضح من كلامه بقوله (يهدي الله لنوره المتعين في المظاهر والساري فيها) وهذا التحقيق والذي قبله مختصران من بيان السعادة.

والزجاجة والمصباح. كما مر قال« نورٌ على نورٍ»، أي هذه الأنوار نورٌ على نورٍ، فأحد النورين المذكورين هو الضياء المنبعث عن النور المطلق الأحدي، والآخر هو النور الأحدي، يهدي الله بنوره (أي الضياء) الذي كانت عنه الأنوار جميعها مُجردها وبسيطها وعرضيها إلى معرفة نوره الذاتي المطلق. قال ابن عباس لسائل سأله هل رأى رسول الله ربه: قال نعم.

وأنكرت عائشة الرؤية بحديث عن رسول(ص) وقيل (إنها أنكرت الرؤية متأولةً) فقال ابن عباس: إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، أي بذاته كشفاً لا تمكن رؤيته. أي أن رؤية الذات الأحدية مجردةً عن الأسماء والصفات والنسب والإضافات لا تمكن، أما بالتجلي في المظاهر فالإدراك ممكن لكل ذات:

محجوبةٌ يُظهرها حجابها كالشمس يجلوها على الطرف الطفل

وما ذكر من تعدد السماوات، وأن لكل سماءٍ مشكاةً ومصباحاً وزجاجةً للتمكن من المشاهدة، وذاك هو التجلي لكل عالمٍ بشاكلته، ولئلا يبقى عليه أسمائه وصفاته، فنوره الساري في المظاهر جميعها جوهريها وعرضيها هو ضياء نوره المطلق الأحدي، وليس ضياء النور غير النور من حيث رتبة الجمع، وهو غيره من حيث رتبة الفرق.

النور والضياء والظلمة

وإلى مثل هذا أشار الرسول (ﷺ) في بيان الرؤية الجنانيّة[1] المشبّهة برؤية الشمس[2] والقمر، فأخبر عن أهل الجنّة أنهم يرون ربّهم وإنّه ليس بينه وبينهم

---

[1] الجنانية نسبةً الى الجنان يدل على ذلك ما بعده خلافاً لما في سائر النُسخ كما قال الشيخ عبد الهادي حيدر.

[2] الشمس الحقيقية التي هي حقيقة شمس عالم الطبع هذه نزلت عن مقام غيبها، وظهرت بفعل الباري تعالى الذي هو المشيئة، ثم نزلت وظهرت بالنفوس في مراتبها، ثم ظهرت بعالم الطبع بصورة هذه الشمس المحسوسة، وكما أن هذه الشمس حركتها كروية دورية، وبكرويتها وبدورتها يظهر الليل والنهار هذين كذلك الشمس الحقيقية حركتها في كل عوالمها كروية لكن كروية معنوية لا محسوسة، فإن كل عالم من العوالم مشتمل علي قوسي الصعود والهبوط. وقد مر بك أن للعوالم مثالا صاعدا وهو أن تبتدئ من هنا فصاعدا رتبة رتبة الى عالم المشيئة ومثالا نازلا بالعكس أي أن تبتدئ من هناك) وكل مرتبةٍ لها هاتان الجهتان: جهةٌ صاعدةٌ وهي الجهة العلوية وجهةٌ نازلةٌ وهي الجهة السفلية، ولها وسط بين تينك الجهتين وهو حقيقة تلك المرتبة كماعند الرداد، فبعد وصول النور الى الوسط الذي هو أواسط قوس النزول يختفي تدريجيا وعند ذلك يكون الليل بحسب ذلك

حجاباً إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن، فنبّه على بقاء الرتبة الحجابيّة وهي رتبة المظهر.

وإذ قد نبّهتكم على إثبات النور الحقيقي إنّه يدرك به وهو لا يُدْرَكْ. والضياء يُدرك ويُدْرك به، والظلمة تُدرَك ولا يُدرك بها، ولكلّ واحد من هذه الثلاثة شرفٌ يخصّه.

فشرف النور الحقيقي من حيث الأوليّة والأصالة[1]، إذ هو سبب إنكشاف كلّ مستور. وشرف الظلمة هو إنّه باتصال النور الحقيقي بها يتأتّى[2] إدراك النور مع تعذّر ذلك قبل الاتصال. وشرف الضياء هو من حيث الجمع بالذات بين الأمرين واستلزام ذلك حيازة الشرفين. وللنور الحقيقي ثلاث مراتب أخرى:

أحداهما المُدركة للوجود المَحض المُطلق الحقيقي. والثانية مشاركة مالزم الحقيقي المُطلق أيضاً. والثالثة اختصاصه بالجمع الذي وراء الظهور والظهار.

المعنى: يقول: وإلى مثل ذكر فيما سبق من أن الإدراك ممكن بالتجليات فقط، فقد أشار (ص) في بيان إمكان الرؤية بصفة الشمس والقمر مظهري الجلال والجمال بقوله: أن أهل الجنة يرون ربهم وليس بينه وبينهم حجابٌ إلا رداء الكبرياء (المظهر الجلالي)، فدل بقوله : رداء الكبرياء على وجهه، على بقاء رتبة المظهر الذي هو الاحتجاب، فالاحتجاب مظهرٌ، وإذ قد نبهنا أن النور الحقيقي يُدركُ به ولا يُدرك فلنعلم أن الظلمة تُدرَكُ ولا يُدركُ بها، فهي ضد النور، وإن الضياء جامع بين النور والظلمة يُدرك به ويَدرك، ولكل واحدٍ من الثلاثة النور والضياء والظلمة شرفٌ يخَصُّه، فشرف النور أنه أصل الأنوار وشرف الظلمة هو أنه لولا اتصال

العالم وبعد ذلك يرتقي تدريجياً الى اواسط قوس الصعود وحين شروعه بالظهور يكون النهار بحسب ذلك العالم ايضاً يعني أن الدورة كروية كما هي هنا مع هذه الشمس، فعند إشراق الشمس على الجهة العلوية من كل مرتبةٍ دائرة دورتها الى أن تشرق على الجهة العلوية من كل مرتبة دائرة دورتها الى أن تشرق على الجهة السفلية يكون الليل صار عند الجهة العلوية بحسب تلك المرتبة لا كما عندنا، وهذه هي الليالي المقسوم بها القرآن الكريم لا ليالي الشيخ حبيب عيد وبكيان الليل عندالجهة العلوية يكون النهار عند الجهة السفلية وهكذا ولا اختصاص لليل النهار بعالم الطبع وليل كل عالم ونهاره بحسبه وكذلك يجب أن يكون ولعل هذا هو معنى تعدد الشموس والأقمار في الأخبار (عن بيان السعادة باختصار).

[1] الأصالة: الأصل الشريف الجيد، والراي الجائد.

[2] تأتّى الأمر تهيأ له وسهلت طريقته.

النور بها لا يتسنى إدراكه، لأن النور المجرد لا يُرى، وشَرَفُ الضياء هو جمعه بين النور والظلمة يدرك به ويدرك.

ما ظاهرٌ إلا ويغربُ شخصهُ عن باطن من غير ما إنكار
كالنور يستره الضياء وإن غدا مع ستره ستراً لذات الباري

وللنور الحقيقي الأول ثلاث مراتب أُخر:

الأولى: هي المدركة للوجود المحض إذ لولاه لم يُدركْ.

الثانية:مشاركته للوجود من حيث الإطلاق والتعيين.

الثالثة:جمعه بين ظهور الأشياء وإظهاره إياها، أي النور الحقيقي المطلق من قيد التعينات تستشرق به العقول والأفهام، فتُدرِكُ الوجود الذي به قيام الموجودات. وقد مر بك أن الوجود حقيقةٌ واحدةٌ لا تكثر فيها ذات مراتب عديدةٍ بحسب مراتب الموجودات، ولا النور الحقيقي لم يدرك الوجود، والوجود يشارك النور بعدم التقيد، فيكون حقيقةً واحدةً كالوجود متعيناً مع كل ذاتٍ في الموجودات مع إطلاقه عن التعين في شيءٍ من الأشياء محسوسةً كانت أم معقولةً، وبه ظهرت الأشياء الموجودة، أي علة إيجادها وإظهارها تُرى به وتعُرف به.

اتحاد العلم والوجود والنور

فأمّا وجه اتّحاد العلم مع الوجود والنور فهو من جهة أنّ كلاًّ منهما من شأنه كشف المستور، وأمّا الكشف الخصوصي بالوجود فهو من جهة أنّ الوجود لمّا كان واحداً في الأصل وعرضت له التعدّدات المختلفة فقد عُلِمَ أنّ ثمّة معدّات متفاوتة القبول، فصار الوجود من هذا الوجه سبباً لمعرفة الماهيّات المعدومة. إذ لولاه لم يُعلم أنّ ثمّة ماهيات أصلاً. وأما العلم فيكشف الماهيّات المعدومة قبل الكشف الوجودي، ويعرف بكيفيّة قبولها للوجود وتوابع ذلك من بقاءٍ وفناء وتركيبٍ وبساطة وغير ذلك من اللوازم. وأمّا كشف النور فهو متأخر عن الكشف

الوجودي، لكنه يشترك الوجود والعلم والنور ولا تميّز بينهم في إنّ كلاً واحد من حيث وحدته وإطلاقه. ولا يُدرك ولا يُرى بل لا تعدد بينهم في الحضرة الأحديّة الذاتيّة، ويتميّز الوجود عن العلم بكون الْمعلومات تعدد العلم من حيث الكائنات في مرتبة العلم لا غير خلاف الوجود. فإنّ الْمعلومات تعدّدت وظهرت للمدارك. وأما الفرق بين النور الحقيقي الوجود الْمحض، فهو من جهة أنّ الوجود يظهر للمدارك بقابليّة الْمعلومات الْمعدودة الْمتعيّنة في علم الحقّ والنور الْمحض الذي لا يمكن إدراكه إلاّ في مظهرِ موجودِ لايُغاير وجود الحقّ تعالى.

المعنى: وإنما ظهر الحقّ تعالى بالصورة لإثبات وجوده وعيانه وتيقنه. لأن مالا يقع عليه اسم الظهور يوشك أن لا يكون شيئاً. بل إنّما الصّورة التي ظهرت للخلق هي هو إثباتاً لوجوده، وإنما نظر العالم اليه من حيث شاكلتهم. كالناظر إلى الْمرآة ينظر إلى نفسه، وإنّما ظهر إلى عالمه بالصورة الْمرئيّة الْمؤانسة الْمجانسة بالأسماء والصفات. واحتجب بالأب والأمّ، وأظهر أكل الطعام وشرب الشراب، من حيث ناسوتية العالم ليقرب إلى عقولهم، ولو أظهر للعالم لاهوتيته لم يثبتوا رؤيته، وإنّما ظهر كذلك ليجانس الخلق، وهو يتعالى ويجلّ عن ذلك كلّه، وإنّما أورى ذلك الظهور إثباتاً لحجّته، فيحتجّ عليهم بنفسه. فهو باطن وأن ظهر، وهو ظاهر وإن بطن، حاضرٌ في غيّبته غائبٌ في حضوره لشدّة نوره. فمن كان الحقّ مرآته يرى ظلمة الكون من وراء نور مرآة الحقّ، وتكون ذاته دائم الْمشاهدة وإليه الإشارة بأنّه أبيض الوجه في الدارين، ومن كان العقل مرآته يرى ظلمة الكون بنور مرآة الحقّ. فالأول هو الْمتقرّب بالفرائض، والثاني هو الْمتقرّب بالنوافل.

ودليل آخر في امتناع ظهور الذات الْمقدّسة مُجرّداً عن الْمظاهر مِما ورد في الخبر الصحيح: إنّ لله سبعين حجاب من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سبحات نور وجهه عباده وما أدركه أحد من خلقه.

اعلموا إخواني رحمكم الله: إنّ كل موجود ظاهر بالوجود من خلف سبعين حجاب من نور وهي حجب الصفات الإلَهيّة، ومن ظلمة وهي حجب الصفات الكونيّة ستة وأربعون، منها صفات إلهيّة نورانيّة، وإحدى وعشرون منها صفات كونيّة ظلمانيّة.

والنور الوجودي المُطلق الرحماني يسمّى وجهاً باعتبارين، باعتبار مواجهة جميع الحقائق الكونيّة. وباعتبار مواجهة كل حقيقة غيرها، بأثرٍ وشعاعٍ مضافٍ إليها منه، فإنه مرآة يتجلّى ويتراءى لكل حقيقة نفسها، وغيرها من وراءه، فكان هو المُواجه لكل شيء، والسبحات هي أنوار ذاته، وأما البصر الإلهي فهو عبارة عن تعيين نور وجوديّ يتعلّق بهيئةٍ معنويّة أو صورةٍ أو بضوء شعاع معنويّ أو صوري أو صبغة معنويّة أو صوريّة بواسطةٍ أو بغير واسطة، فباعتبار تعلّق هذا النور بواحدة أو فاعليّة أُضيف إلى اليمين، وباعتبار تعلّقه بكثرة أو قابليّة نسب إلى اليسار. فنقول: لولا إنّ نور وجوده الوجهي الطالع من مطلع إسم الله المُشتمل على جميع الأسماء والصفات محتَجباً بهذه الصفات السبعين المُذكورة، وكانت هذه الحجب مرتفعة، ولو تجلّى ذلك النور بكشف هذه الحجب لأحرقت سطوة هذا النور الوجهي وقوّة غلبة سناه التي هي قوّة سجيّته وسلطنة واحدة وجلالها، وغلب إطلاق جلالها كل نسبة وإضافة وكثرة منسوب إليها فعل أو قبول أو أفعال يدركها نور بصره تعالى، ويلحق ذلك المُدرك بسلب النسب والإضافات عنه إمّا إلى عدمٍ محض وإمّا إلى وجود يجب.

فاقتضت تلك الحكمة البالغة إسبال تلك الحجب على الدوام، وإمداد الخلائق من ورائها بما يقتضي أحكام أعداد أدوارها من أفعالها وآثارها، لبقاء المُوجودات المُدركة ببصره تعالى، ولا تخترق فيفنى العالم بالكليّة، وهذا على تقدير رجوع ضمير بصره إلى الحقّ تعالى. ومن هنا بالتبعيض، وأمّا على تقدير عود الضمير إلى الخلق فمن فيه للتبيين، فمعناه إنّ كلّ سالك ينطلق عن قيد أنانيّته الوهميّة المُحدثة له ويتخلّص من قيد المُراتب الوهميّة الخلقيّة، ويؤهّل للحصول على تجلٍ من تجليّات النور الوجهي المُطلق، ولو انكشفت هذه الحجب السبعون المُذكورة عمّا بينه وبين النور الوجهي لأحرقت أشعّة وحدة هذا التجلّي الوجهي كل كثرة ونسبة وإضافة كان يدركها بصر السالك قبل هذا التجلّي، بحيث لم يقع نظره إلاّ على وجه كل شيء وهو المُوجود الواحد، فكان شاهداً ببصره الظاهر إنّ كلّ شيء هالك، وهي المُراتب الخلقيّة -إلاّ وجهه- الذي هو الوجود المُواجه لكلّ شيء، وإنّ الحكم والتأثير في كل شيء ليس إلاّ له، وإليه مرجع كلّ شيء، ولا حول ولا قوّة إلاّ له وبه، وعلى هذا التقدير الأول ترتفع الحجب أصلاً، وعلى الثاني ترتفع عن نظر

السالك الشاهد حال شهوده التجلّي الظاهري، فافهموا وما فهمكم إلاّ بالله العلي العظيم، فلو ظهرت ذاته المقدّسة بدون الاحتجاب بهذه الصفات لاحترقت المراتب وأهاليها بشدّة سطوع أنوار جمالها وجلالها وتلاشت بالكليّة والله العليم الخبير.

التنبيه السابع: في بيان حكمة ظهور الحجاب بالبشرية للأمة لهم.

اعلموا أخواني رحمكم الله أنّ أشدّ حجاب يحجب الخلق عن معرفة أولياء الله تعالى وأنبيائه ورسله منهم السلام رؤية المماثلة والمشاكلة والمجانسة، وهو حجاب عظيم قد حجب الله تعالى به الأكثرين من الأوّلين والآخرين كما قال الله تعالى حكاية عنهم (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) (سورة المؤمنون: من الآية ٣٣) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) (سورة المؤمنون: ٣٤) ثم قالوا كما حكى الله عنهم بقوله (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ، وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (سورة الأنعام ٨: ٩) يعني من هذه القمص البشريّة. وكذلك قال الله تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً، قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً) (سورة الإسراء٩٤: ٩٥)

فالسيّد الرسول هو الناطق بالآيات والمعجزات المشير إلى مولاه العين بالدلالات، وهو الاسم الأعظم والحجاب الأكرم والنفس المحذّرة والعين الناظرة والجنب الحريز والذكر العزيز، والعرش الرفيع والكرسي الواسع والعقل الكلّي الفعّال الذي ظاهره الرسالة وباطنه الجلالة. إخترعه معناه من نور ذاته وحركه من النور بعد سكونه، فهو الواحد الذي أبداه الأحد مولاه لإيجاد موجوداته وهو ظاهر صفاته وباطن كلماته، إن ظهر معناه أشهده ظهوره وإن بطن أخفاه تحت تلألؤ نوره، فهو قديم بالنور محدث بالظهور لا هو هو فيكون معه إلهاً ثانياً ولا هو غيره فيكون عنه منفصلاً بائناً. يدعو إلى مولاه وينبّه إلى معناه. فهو الأول في الإيجاد والآخر بعد نفاد الأعداد. الظاهر على كل شيء بوجود الفيض والإمداد. يعلم الأشياء فلا يغرب عن علمه مثقال ذرّةٍ إلى آخر الآباد وهو رب العباد.

يدلّ على ما ورد في قوله (ﷺ) (إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم) وقوله تعالى: (قُل اللّهُمّ فاطر السّماوات والأرض عالم الغيب والشّهادة أنت تحكُم بين عبادك في ماكانوا فيه يختلفون) (سورة الزمر: ٤٦) وهو الحجّة للحقّ على الخلق والرسول الناطق بالصدق لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسول فكلّ رسول ظهر في كلّ جيلٍ وملّةٍ فهو هو بلا شبه ولا ريب بدليل قوله تعالى (هذا نذيرٌ من النذر الأولى) وقوله تعالى (لا نفرّق بين أحدٍ من رسله)، وقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه) وإنّما اقتضت الحكمة الإلهيّة أيضاً بأن يظهر لهم كهم ليفهموا عنه ما يوحى إليهم من معالم الدين كما قال الله تعالى (لمّا ظنّوه بشراً واستخفّوه) فقالوا (أبشراً منّا واحداً نتّبعه إنّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعُر) أي تعب وعناء في النار إلى يوم القيامة، وذلك أنّ الباري تعالى أوجد الموم من مادّتين، روحانيّة نورانيّة وجسمانيّة بشريّة، فيقابل بروحانيّته عالم الروحانيّين و{يلاقي} ويقابل بمادّة بشريّته عالم البشر، فيكون معهم ويكون هو كهم كما قال تعالى (قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم) فيجانسهم ويشاكلهم بما يماثلهم، لأنّه لو برز إليهم في هيئته الروحانيّة لما أطاقوا مقابلته ولم يفهموا عنه ما يوحى إليه ولهذا منّ الله عليهم بقوله(لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم) قوله: (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم) ليثبت به عند التجلّي صفات الربوبيّة ويطيق به مشاهدة الحضرة الإلهيّة ويتلقّى به أنوار الأسرار الفردانيّة ويسمع به خطاب الإشارات القدسيّة، وينشق به عطرة النفحات الروحانيّة ويعرج به إلى المقامات العاليّة. وهو المشار إليه بقوله: لست كأحدكم، إذ معناه ليس كمثله شيء ولا يحيط به شيءٌ فردٌ أحدٌ صمدٌ لا في شيءٍ ولا من شيءٍ ولا على شيءٍ ولا قائمٌ بشيءٍ ولا مفتقرٌ إلى شيءٍ، ولا هيكلاً ولا شبحاً ولا صورةً ولا جسماً ولا محيّزاً ولا مكيّفاً ولا مؤلّفاً ولا مركّباً (ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير)، فهذا بياناً كافياً وشرحاً شافياً فيما اقتضته الحكمة في إرسال الرسل في أوقاتٍ متعدّدةٍ، وظهر لهم كهم بالصّورة البشريّة (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وبه ثقتي وعليه توكّلي.

القاعدة الثانية . في بيان إثبات وجوب المعرفة بالله تعالى على الإنسان العاقل البالغ الرشد

التنبيه الأول: في بيان السبب الموجب لإيجاد الخلق

أعلموا أخواني رحمكم الله إنّه قد ورد في الخبر المشهور إنّ داوود النبي منه السلام سئل ربّ العزّة فقال يا ربّ لم خلقت الخلق؟

فقال: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً فتعرفت إليهم فبي عرفوني. وقال الله تعالى (وما خلقت الجنّ والأنس إلاّ ليعبدون) أي ليعرفون. فدان نلك سبباً لفوزهم بالجنّة ونجاتهم من النار ولها قال الله تعالى (أفحسبتم إنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم ألينا لا ترجعون)؟ فكانت الحكمة الإلهية في إيجاد الخلق للمعرفة بقدرته الباهرة من الصورة المرئيّة الظاهرة لا عن حاجة منه في إيجادهم ولا عن عبثٍ لأنّه تعالى بذاته غنيّ عن أسمائه وصفاته، فهو منزّة عن العبث إذ الحكمة لا تقتضيه. فأوجد الخلق وأمرهم بالعلم به فقال لأول موجود أخترعهُ فأعلم أنه لا أله إلاّ هو. وكذلك إنقسم الوجود إلى عالم ومعلوم وعارفٍ ومعروف.

وشاهدٍ ومشهود وعابدٍ ومعبود وقديم وحادث ولو لم يخلق الله تعالى الكون ما كملت مراتب الوجود وتقاسيمه وهو سبحانه لم يزل كاملاً كيانه قبل الظهور للكون بذاته وبعد ظهوره بصفاته.

فبان بهذا أنّ الحكمة في الإيجاد إنما هي لما نكرناه من وجوب معرفتهم لباريهم لنجاتهم وفوزهم.

وكذلك تواترت الرسل مبشرين ومنذرين وبما أخذ عليهم من العهد مذكرين. قال تعالى (وذكّر إنّ الذكرى تنفع المؤمنين).

وقال تبارك وتعالى (إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً)، وإنّما أمر الله سبحانه وتعالى بالتذكير لما سبق من إقرارهم لمّا اخذ العهد عليهم بقوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا

بلى)، فاقروا كلّهم باختيارهم من غير أكــراه ولا أجبــار فثبتــت علــيهم الحجّــة باعترافهم إقراراً بألسنتهم. فمنهم من آمن بقلبه ومنهم من كفر، فلم يوافق قلبــه لسانه، فالمؤمن لا يزال مؤمناً والكافر لا يزال كافراً لقوله تعالى (إنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن).

وقد روِي عن مولانا أنّ الشاهد عليهم هو العقل الكليّ وهــو الْمــيم وهــو الاسم الأعظم الذي أوجدهم بإذن مولاهم الأزل الأحد وهو الحاكم غداً.

فالمؤمن من أطمئنّ قلبه بالأيمان وراقــب الحــق فــي معاملــة الأخــوان بالإحسان. والكافر من جحد بعد الإقرار وثبتت عليه الحجّة فشقي بالإنكار، حيث لم يدخل الأيمان في قلبه، لكن أقرّ باللسان، والدليل على ذلك قولــه تعــالى (قالــت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولمّا يدخل الأيمان فــي قلــوبكم) فأبان الله تعالى الفرق بين الإسلام والأيمان بأحسن بيان. فبالإســلام حقــن دمّــه وبالإيمان آمن الولوج (في سلسلة ذرعها سبعون ذراعــاً) لا يــدخل الجنّــة هــو وأمثاله حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط، كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب عدلاً من الله شاملاً وحكماً نافذاً بالعدلِ كاملاً (وما ظلمناهم ولكــن كانوا أنفسهم يظلمون)، وأمّا من آمن وعمل صالحاً فهو كما وصفه الله تعالى (إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تتنزّل علــيهم الْملائكــة ألاّ تخــافوا ولا تحزنــوا وابشروا بالجنّة التي كنتم توعدون)، فبالإيّمان والاستقامة خصّهم الله بالرضــوان وأباحهم النعيم في الجنان. فأشرق نور العقل بواسطة النفس على الْمؤمنين فثبــت على الإقرار بالإيمان، وحجب عن الكافر بجحده بعد الإقرار فــزاغ وضــلّ. عــدلاً شاملاً وحكماً لازماً، فقال الله تعالى (يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظّالمين ويفعلُ الله ما يشاء)، فهذه الْمشيئة هي التي سبقت، وهي الْمشار إليها بقوله الحقّ (ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك لقضي بيــنهم) وهو إنّه لما مزج العالمين النوري والظلمي بالحكمة التامّة قــبض بيمينــه وقــال هؤلاء للجنّة ولا أبالي، وقبض بشماله وقال هؤلاء للنار ولا أبالي.

هكذا ورد في الظاهر والباطن، لأنّ الْمؤمن لو خلص من مزاج الظلمة لمــا هفا ولا بدت منه السيئات، والكافر لو لم يكن فيه من ممازجة النور لما تنسك ولا أطاع.

كذا ورد في كلام مولانا عزّ عزّه ظاهراً في نهج البلاغة فقال: إنّما بدء وقوع الفتن آراء تبتدع وأهواء تتبع، يستولى عليها رجالٌ على غير دين الله ويحكم فيها بغير كتاب الله، فلو إنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخفى على المرتادين، ولو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث، فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجوا الذين سبقت لهم منّا الحسنى، فبان لك المراد والحكمة في الممازجة بما أوضحه مولانا عزّ عزّه بأوجز بيان وأحسن لفظٍ وتبيان.

فغاية الإنسان التخليّص من الممازجة وتمييز القبضتين حتّى تنفرد هذه بعالمها وهذه بعالمها، وكما قال الله تعالى (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)، فمن بقي عليه شيء أو فيه من المزجة شيء حتّى مات عليه لم يحشر يوم القيامة من الآمنين. وأمّا من تميّز هنا في أحدى القبضتين انقلب إلى الدّار الآخرة إلى نعيمٍ أو إلى عذابٍ، فأنّه قد تخلّص فيعرف كلّ عالم حظّه من مشيئته من غير امتزاج والله اعلم.

التنبيه الثاني: في بيان تتمّة السبب الموجب الحقّ إيجاد الخلق

اعلموا أخواني رحمكم الله وإنّ الحقّ تعالى هو النور، والنور لا يمكن أن يرى في النور، فكمال رؤية النور موقوف على مقابلة الظلمة، ولا شك أنّ الوجود المحض لا يتعيّن بالنور ويتعقل في مقابلته للعدم المضادّ له، فإنّ للعدم تعيناً في التعقّل لا محالة، وله الظلمة، كما أنّ الوجود له النور، ولهذا يوصف الممكن بالظلمة، وأنّه يتنور بالوجود فيظهر. فظلمته من أحد وجهيه الذي يلي العدم وكلّ نقصٍ يلحق الممكن ويوصف فإنما ذلك من أحكام نسبته العدميّة. وإليه الإشارة بقول الرسول (ص) «إنّ الله خلق الخلق في ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره». وقوله خلق هاهنا، بمعنى قدّر فأنّ التقدير سابق للإيجاد، ورشّ النور كناية عن إفاضة الوجود على الممكنات، فمن أصابه شيء من ذلك النّور اهتدى، والرّش عمومي والإصابة تخصيص، فالرّش من الدّقائق الممتدّة من الاسم، والإصابة هي الإلهام للدقائق التّي تترقّى بها، وغير المخصص غفل عنها حتّى قطعها، فبقي في

ظلمته الهوان غير مخاطب لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل، فمن سالك بالنّفوس ومن سالك بالعقول ومن سالك بالأسرار، وهو الأخصُّ والأحقّ بالتّبعيّة، فإذ قد تقرّر هذا فنقول: العدم هو ماتعيّن في مقابلته للوجود كالمرآة له، والمتعيّن بين الطرفين هو حقيقة عالم المثال والضياء هو صفته الذاتيّة، ثمّ سرى هذا الحكم في كلّ متوسط بين شيئين، إنّه إذا كانت نسبته إلى أحد الطرفين أقوى من نسبته إلى الطرف الآخر أحقُّ أن يوصف بما يوصف به الطرف الغالب، ويسمّى باسمه.

ألا ترى انّه لمّا كان عالم الأرواح وما فوقه من عالم الأسماء والصفات موصوفاً بالنوريّة والوجود الأبدي كانت صورة عالم الكون والفساد موصوفةً بالكدورة والظلمة، لكونها في مقابلة عالم الأرواح الذي هو عالم النور، وإذا فهمتم ذلك فاعلموا إنّ المتعلق بحبّ الحقّ إيجاد العالم إنّما موجبه موجب حبّ كمال رؤية الحقّ نفسه جملةً من حيث مرتبة وحدته، وتفصيلاً من حيث ظهوره في بيوته. ولمّا كانت المراتب من وجهٍ محصورة في الظهور والبطون والاعتدال والانحراف المعنوييّن، ثمّ والروحانيين، ثم والمثاليّين، والحسييّن، وكمال الجمع ونقصانه أقتضى الأمر استمرار حكم الظهور والإظهار بالإيجاد، واستمرار وجود الانحراف والاعتدال والنقص والكمال للإكمال، بحسب المواطن والمراتب. والمواطن خصوصيّاتها، وخصوصيّات القوابل كالهيئات الاجتماعية والأحوال والتركيبات المتعلّقة في الصّور والأمزجة والتضعيفات العدديّة الدائمة الحكم المتناهيّة الآجال، ولما وجبت المعرفة على كلّ ذي لبٍّ وعقل . تعيّن عليه النظر والطلب في معرفة معبوده الظاهر بذاته، فمتى عرفه بدلائله صحّت عبادته واستقامة طريقته، فإنّ من لا يعرف فكيف يعبد؟! وقد نبّه سبحانه وتعالى وندبَ على هذا فقال عزّ من قائل (والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا)، وقد أوضح الله تعالى السبيل إليه ودلّ سبحانه عليه وأرشد إلى علاماته وأيقظ الغافل من سنة سباته فقال (ﷻ) (إنّ الله عنده علم السّاعة وينزّل الغيث ويعلمُ مافي الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت إنّ الله عليمٌ خبير). فهذه خمس أمارات لوجود الباري تعالى هي له خاصّةً لا يقدر غيره عليها، ودلّنا بها عليه وأرشدنا بإظهارها منه إليه وقد ذكرها الشيخ السيّد أبو عبد الله الحسين ابن حمدان الخصيبي رفع الله درجته وثبّتنا على مقالته حيث يقول شعراً:

خمسـةُ أشـياء بهـا الله أنفـرد ليعرف الخلق من الفـرد الصـمد

إلى آخر الأبيات وقد أورد الشيخ أبو الفتح محمّد بن الحسن البغدادي صاحب الرسالة المصريّة قدّس الله روحه في رسالته بإسناده عن ثقاةٍ إنّ مولانا عزّ عزّه علم بهذه الخمسة في وقائع جرت محقّقة بلا شكّ ولا لبس وإنّه أحيا النفس وردّ الشمس، وهما الأيتان اللّتان أحتجّ بهما الخليل إبراهيم (عليه السلام) على ضدّه النمـرود لعنـه الله فاحجبه وافحمه لمّا حاجّه كما أخبر الله (عز وجل) فقال:

(إذ قال إبراهيم ربّي الذّي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فأنّ الله يأتي بالشّمس من المشرق فأتي بها من المغرب فبهت الذّي كفر والله لا يهـدي القوم الظّالمين)، لأنّه لايأتي بها من المغرب إلاّ الذي يأتي بها من المشرق وهو ربّ الأرباب ومعتق الرقاب وهازم الأحزاب الذي هو في السماء إله وفي الأرض إمام.

وقد نقل عن الثقات إنّ مولانا عزّ عزّه فعل ذلك وردّ الشمس مـن مغربهـا فعادت مرّات عدّة في أماكن مشهورة مذكورة في كتب الشيعة وأهل التوحيـد، ولا غرو فإنّه قد اجتمع الجم الغفير من اليهود والنصارى والمسلمين مع وقوع الاختلاف بينهم على أنّ المولى يوشع ابن نون ردّ الشمس في محاربته للعمالقة وقد كان ذلـك يوم الجمعة وقد مالت الشمس إلى الغروب، وقد أشرف الحصن على الفتح له فهـمّ أصحابه بإبطال القتال لدخول يوم السبت.

فدعا الله تعالى كما ذكر، فردّ عليه الشمس بيضاء نقيّة حتّى فـتح الحصـن وملك المدينة وقهر العمالقة، ثمّ غربت وهذا ثابت باطناً وظاهراً غير مدفوع.

فإذا ثبتَ ذلك ليوشع ابن نون وصي موسى ابن عمران (عليه السلام) فلا غـرو أنّ يثبت لمولانا عليّ عزّ عزّه، على زعم من زعم إنّه في الظـاهر وصـي الرسـول وصاحب الباطن، فصاحب القدرة هو يوشع أبن نون، وإن اختلفت الصورتان فالقدرة واحدة لم تختلف، هذا مذهب العارفين الذين عرفوا القدرة بالقادر فـأثبتوا الصّـورة لإثبات القدرة، إذ لاقدرة إلاّ من صورة، ومتى ظهرت القدرة وجب نفـي الصّـورة

عن صاحب القدرة، لأنّ من هذه قدرته ليست هذه صورته قطّ، لأنّها صورة الإنسان العاجز .

والمولى جلّ جلاله منزّهٌ أنّ ينحصر في صورةٍ معيّنة كما سبق، بل الصّور كلّها له ولا صورة له، وهذا هو اعتقاد الْمحقّين البالغين في الْمعرفة ذوي البصائر الْمنيرة، الذين قاربوا الخلاص من هذه القمص البشريّة الحقيرة إلى عالم الصفا في جوار عالم السريرة.

وفي هذا خبر ورد عن مولانا عليّ الرضى منه السلام إنّه قال: إنّ الذي عاينتموه بأبصاركم من هذه الصورة هو الله بإضافته إلى إظهار القدرة، وليس هو الله تعالى بإضافته إلى هذه الصورة، لأنّ من تلك صورته على الحقيقة لا يستطيع أن يظهر الْمعجز، ومن أظهر الْمعجز فليست تلك صورته على الحقيقة بل صورة الإنسان العاجز.

وقال أيضاً منه السلام «إن الذي عاينتموه بأبصاركم إنّما ظهر بحسب ما أنتم لأنّكم لا تقدرون أن تنظروا إلى خلافكم».

وفي هذا خبر آخر رواه الشيخ أبو الحسن علي بن عيسى الجسري قدّسه الله عن أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي نضّر الله وجهه قال دخلوا جماعة من الْمؤمنين على أبي عبد الله يسألون عمّا أشكل عليهم من الْمعرفة.

قال: من نفى ما رأى وأثبت ما علم وعبد من وجد فذلك البالغ في التوحيد. فتحيّر القوم فيما سمعوه من قوله ولم يفهموا.

فلمّا عادوا عليه من الغد قال: لقد أوفدكم الله إلى وليّه ليرشدكم أليه. فأعادوا عليه السؤال فأجابهم بما تقدّم في الأمس.

فقالوا يا سيّدنا ماذا ننفي وماذا نثبت ومن نعبد، فهذه تقاسيم ثلاثة في شيء واحد.

فقال: من نفى ماراى من الصورة البشريّة، وأثبت ماعلم من القدرة الإلهية، وعبدَ القادرَ الظاهرَ بالقدرة، فهو البالغ في التوحيد، لأنّ القدرة لاتفارق القادر طرفة عين، فدع الأين ولا تطلبه بالعين، فلا أثر بعد عين.

يؤيّد هذا ما رواه زادان مولى سلمان قال: رأيت مولاي عزّ عارفوه بين الصّفا والْمروة يسبّح ويقول سبحان من ظهر ولم يخفى عن أحدٍ ظهوره. فقلتُ يامولاي أنت الكلّ ولمن تسبّح.

فقال: يازادان إذا رأيت الصمت فأقضي على غيري وإذا رأيت النطق فانفِ عنّي الصفة وإذا رأيت القدرة فأنا الله ربّ العالمين.

وقال مولانا الصادق منه السلام: أنفوا عنّا مارأيتم من التخاطيط والصّور، واثبتوا لنا ماعرفتم من الإشارات والقدر، فمن نفى مانظر وأثبت ماعرف فأولائك أصحاب أمير الْمؤمنين حقّاً.

وقال الْمفضّل قلتُ لمولاي الصادق منه السلام: يامولاي قلتَ لي الصّورة الْمرئيّة ليست كليّة الباري ولا الباري سواها فكيف لي بعلم ذلك.

قال يامفضّل: الصّورة قميص الظهور ومعدن الإشارة، وألسن العبارة قدرة قدير ونور منير حجبكم بها عنه ودلّكم منها عليه، فصاحب الصّورة يخطئ ويصيب وصاحب القدرة مصيب لا يخطئ، فمن وقف على هذه الأخبار الجامعة وتحقّقها بعلمه كرؤية العين فمعرفته صحيحة وقريحته بالفهم خير قريحة وكان من الفائزين الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون.

وقد ورد عن مولانا الصادق منه السلام إنّه قال: علمنا صعبٌ مستصعب. ثمّ فسّرها فقال الصعب الإقرار بالصّورة، والْمستصعب إفراد الْمعنى عن الصّورة، فإنّ ذلك هو الأيمان بالله والتوحيد الخالص. أمّا ضعفاء الْمؤمنين وفقهم الله فمبلغهم من العلم أن يثبتوا الصّورة وينفوا التصّوير عنها. هذا من الواجب الذي لابدّ منه. ومن لم يكن كذلك كان مشركاً بالله (ﷻ) ودخل في زمرة من ذمهم الله تعالى في كتابه العزيز فقال عزّ من قائل (وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون) والشرك بالله أكبر الكبائر نعوذ بالله منه.

وقال مولانا عزّ عزّه في نهج البلاغة في أوّل الكتاب: أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الخلاص له وكمال الخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة إنّها غير الْموصوف وشهادة كلّ موصوف إنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه،

ومن ثنّاه فقد جزّأه ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار أليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيما فقد ضمّنه، ومن قال علامَ فقد أخلى منه كائنٌ لاعن حدث موجود لاعن عدم مع كلّ شيء، لابمقارنة وغير كلّ شيء لابمزايلة فاعلٌ لا بمعنى الحركات والآلة. فهذا هو التوحيد الخالص المنزّه عن الشرك وقول أهل الإفك البريء من التشبيه والتعطيل والزّخاريف والأباطيل، فمن عدل عنه هوى في هاويةِ هواه ووقع في شرك الشرك فاوبقه وارداه، ولم تبلغ درجةَ علمه إلى هذه المنزلة كشهاب الأبله وأمثاله من المجسّمة الحشويّة المشبّهة الصّورةَ الحسيّة المعيّنة، فهو من عوام المؤمنين الضعفاء المساكين فلا بدّ له من إقراره بإثبات الصّورة من غير الحصر فيها فإنّ من حصره فيها فهو كافرٌ مشرك. لامؤمنٌ ولا موحّد ولا بدّ من نفي التصوير لأنّه لايليق بصاحب القدرة لكونه علّة الأشياء وفاعلها فلا يعود معلولاً ومفعولاً.

التنبيه الثالث: في بيان مراتب المؤمنين

أعلموا أخواني وفّقكم الله لفهم هذه المعاني فإنّه محض الإيمان وزبدة التوحيد وخلاصة الخلاص وما بعده لطالب الحقّ مطلب في الحقيقة بل هي حقيقة الحقائق وأقوم المناهج والطرائق فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال وما بعد التوحيد إلاّ الشرك والوبال. نعوذ بالله من الشرك بعد التوحيد ومن الضلال بعد الهدى ومن أتباع هوى النفس الأمّارة بالسوء فهو عين الردى لقوله تعالى (افرأيت من أتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون) إنّ في المؤمنين عواماً وخواصّاً وخواص الخواصّ كما إنّ كذلك في المسلمين سواءً بسواء كما قال الله تعالى (وفوق كلّ ذي علمٍ عليم) وتفاوت معرفتهم بقدر علمهم. فأمّا عوامهم فقد بيّناهم أنّهم لابد من إقرارهم بإثبات الصورة المعنويّة الأينيّة ونفي التصوير ويقنع منهم بذلك.

وأمّا خواصّهم فأنّه يجب عليهم الإقرار بإثبات الصّورة المعنويّة الأينيّة التي أظهرت القدرة الباهرة بالكيان في كلّ دهر وأوان ونفي الصّورة الأينيّة التي يحويها المكان وتدركها الأبصار بالعيان عند أظهار القدرة التي أعجزت الأنس

والجنّ في الأمكان لأن من هذه قدرته ليست هذه صورته على الحقيقة فهذا هو الأيمان.

وأمّا خواصّ الخواص فإنّهم ينزهون الحقّ جلّ جلاله عن الصورة والتصوير في كلّ حين وأوان وعن الغيبة والحضور في كلّ دهر وزمان وأنّه الحي الدائم السرمدي لم يزل عن كيانه وإن ظهر لعيانه فهو أبداً على حاله لم يحل عمّا كان وإنّما غيّبَ الأبصار وقلّب القلوب والأفكار كما شاء فرأت غيبةً وحضور وحجباً وظهور والمعنى القديم سبحانه تعالى مازال ولا حال.

ومتى اختفى وغاب حتّى يظهر.

يؤيّد ذلك ويوضحه ماروي عن مولانا عز عزّه إنّه سئل وهو على منبر عظمته فقيل له: أين كان الله قبل السموات والأرض؟.

فقال: بحيث هو بعد خلق الكون لا يعدم في الأزمان فالكون جميعه يتجدّد في كلّ أوان ويتبدّل دائماً وهو سبحانه تعالى لا يحول ولا يزول ولا يتبدّل.

وقد ورد عن بعض الحكماء الإلهيين إنّه قال: إنّ الحسّيات معابر إلى العقليات فإنّ عالم الشهادة مثالٌ لعالم الغيب فكلّما في عالم الملكوت فهو غائب عنّا لا نفهمه ولا نصل إلى علمه إلاّ بمثاله في عالمنا الذي نشاهده ونعقله فنعلم حينئذٍ معاني ما غاب بما حضر لطفاً من الباري جلّت قدرته ولولا ذلك لم نفهم تلك الأسرار ولم نعقل تلك الأنوار فلله الحمد والمنّة على ما هدانا إليه ودلّنا به منه عليه فنسأله المزيد من فضله ونعمته فقد أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة أمّا الظاهرة فبالإسلام وأمّا الباطنة فبالإيمان. وله الشكر منّا دائماً أبداً ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

فصل فيمن زعم أن الله ظاهر بذاته تستحيل غيبته

فإن اعترض معترض علينا وقال: أنتم زعمتم بأنّ الله (ﷻ) ظاهر بذاته تستحيل غيبته كما يستحيل عدمه ونحن الآن لا نرى ولا نشاهد شيئاً فكيف هذا وهما ضدّان لا يجتمعان حضورٌ وغيبة ظهورٌ وخفاء.

قلنا: لقد أوردت ما أشكل عليك فالجواب عنه سهل بتوفيق الله. اعلم أيها الأخ المعترض وفقك الله لمرضاته وطاعته وأوصلك بهدايته إلى حقيقة معرفته أنّ

الباري تعالى ظاهراً أبداً موجودٌ سرمد لا يحجبه شيء لعظمة كبريائه فلو حجبه شيء كان ذلك الشيء أكبر منه، وذلك مدفوعٌ عقلاً وشرعاً، لأنّ الله أكبر من أن يقال له أكبر منه شيء، ومن بعض صفاته النور، وهو منوّر النور، وبالنور يظهر كل مستور، فكيف يمكن إخفاء النور، وإنّما خفي عن المحجوبين بعين ما ظهر للمشاهدين له لشدّة ظهوره وإفراط إشراق نوره، وإنّما المحجوبون هم المغيّبون عنه بذنوبهم التي رانت على قلوبهم فأغشت أبصارهم، ولولا ذلك لشاهدت باريها فإنّه تعالى بالإجماع يُرى بالآخرة.

وقد قال في حق بعض الخلق بقوله تعالى (كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون) ولم يقل أنّ ربّهم محتجب عنهم، بل تحجبهم عنه ذنوبهم، فقد ثبت أنّه تعالى منير الأنوار ومثال المحجوب مثال الخفّاش في الشمس المشرقة على الآفاق بالعدل، وهو لضعف بصره لا يراها، وكذلك كل ما ليس فيه صفاء واستعداد لقبول إشراقها من كلّ كثيفٍ مظلم في ذاته كالحجر والمدر والجدران فإنّه لا ينير ولا يؤثّر فيه الإشراق ولا ينتفع بإشراقها عليه، والعلّة فيه لا في الشمس لإظلام ذاته وعدم قبوله ولعدم استعداده، وأمّا ما كان صافياً مستعداً لقبول نورها كالمياه الصافيّة والمرآة الصقيلة والجواهر النقيّة كالزّجاج والبلّور وغيرهما ممّا صفا وراق فإنّه يضيء ويستنير لقبوله الإشراق.

وهكذا القلوب متى صفت صفت ومتى حارت حلكت، فتوهّم الجاهل الغبي أنّه تعالى استحال، لا والله الذي يعلم السرّ والجهر ليس الأمر كذلك. بل هو كما ذكرنا بلا شبهٍ ولا تشبيه ولا ريبٍ ولا تمويه، ألستم تعلمون وتعقلون أنّ الغدير الصافي ماؤه ترى به هيئة السماء بكواكبها وقمرها ويكادون يختلفون على ذلك لولا أنّ عقولهم تنفيه وتتحقّق أنّ ذلك الماء لصفائه يحاكيه والعلّة في الناظر لا في المنظور لما بيّنّاه من رين الذنوب على القلوب كما قيل شعرا:

ليس فيه علّة تنقصه إنّما العلّة في الطّرف العمى

وقد ورد من كلام مولانا عزّ عزّه أنّه قال لبعض الجاحدين:{إن عميت فالشمس طالعةٌ} ولقد أحسن من قال شعراً:

ما ضرّ شمس الضحى بالأفق طالعــة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ولقد ورد عن مولانا صاحب العسكر علينـــا ســـلامه بروايـــة أبـــي ســـعيد قال:سألت مولانا الحسن العسكري منه السلام هل يحتجب الله عن خلقه ؟.

قال:سبحانه بل تحجبهم عنه ذنوبهم. أقرأ قوله تعالى (كلاّ إنّهم عن ربّهـم يومئذٍ لمحجوبون) ولم يقل ربّهم محتجب عنهم.

قال قلت: فقد روي عن آبائك أنّهم قالوا أنّ الله احتجب عن خلقه بخلقه؟

قال: نعم يروننا عند إظهار القدرة لا يقدرون على نظر سوانا، ونحن منالون في عيونهم بصورنا وليس ذلك لجميعهم بل لأهل الجحود، فأمّا المؤمنون لا يرونا صورة ولكن يرونا نوراً وقدرة.

قال قلت: يا سيّدي هل يرى الله أحدٌ قال إذا شاء عرّف نفسه من شاء. قال قلت: يا سيّدي هل يحتجب الرب بشيء؟

قال لا شيء أكبر منه فيستره ولكن تحجب الخلق عنه الخطيئة.

وقال مولانا الحسن بن علي منه السلام: إنّ لنا منزلة من الله إذا كنّا بها كنّا نحن هو ولسنا هو. وإذا لم نكن بها كان هو كما هو ونحن كما نحن.

وقال مولانا عزّ عزّه: إنّ لي منزلة لم تخطر على قلب بشر ولم تُحـط بهـا الفِكَرُ قالوا: هي الربوبيّة؟. قال: إنّ الربوبيّة لتخطر على قلب بشر. وقــال بعـض العارفين شعراً:

ومـا احتجــب الله عـــن خلقـــه ولكـــنّهم حَجبـــوا بالـــذّنوب
ولـــو أنّهـــم آمنـــوا واتّقـــوا لصـــاروا ملائكـــةً فـــي الغيـــوب

فافهموا أخواني وفقكم الله هذه الألفاظ والمعاني وتحققوا بعقولكم مضمون عباراتها ومكنون إشاراتها بلا تواني لتلحقوا بأولي الألباب في نيل الأماني والله يوفقنا لمرضاته ويلهمنا آداء مفترضاته إنه وليّ التوفيق.

(القاعدة الثالثة)

في بيان معرفة الإنسان نفسه ووجوبها عليه إذ بمعرفتها يعرف ربّه

وفيها تنبيهان

التنبيه الأول: في بيان معرفة أول ما يلزم الإنسان من معرفة نفسه.

اعلموا أخواني أطلعكم الله على حقائق ذواتكم وأوقفكم على دقائق أسمائكم وصفاتكم أنّ السادة المتقادمين من المؤمنين عليهم سلام الله أجمعين اختلفوا في معرفة أول ما يلزم الإنسان، فقال قوم أول ما يلزم الإنسان معرفة نفسه، وقال قوم أول ما يلزم الإنسان معرفة ربّه، وليس بين هذين القولين منافاة فإنهم عنوا بالأول من حيث الترتيب الصناعي، والثاني من حيث الشرف والفضل فإن معرفة الله جلّ جلاله أعظم الأشياء وأجلّ العلوم وألطفها. ولمّا كانت نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه وأول دليلٍ يستدل بمعرفتها على ربّه تعالى فيفوز لديه، كانت أولى أن يجتهد في معرفتها فهي معراجه إلى ما فوقها، وهي أول باب عالم الملكوت. وقد قيل ما أنزل الله تعالى كتاباً إلاّ فيه يا أيّها الإنسان اعرف نفسك تعرف ربك.

وقد قال السيّد الرسول (ص) رمزاً إلى تعليم السلوك طريق المعرفة: أبدأ بنفسك ثم بمن تعول.

وقال (ﷺ): أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه.

وقال (ﷺ): من عرف نفسه عرف ربّه.

وقال (ﷺ): أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خشيةً فذكر معرفته لربّه بلفظة التفضيل المبالغة، إذ تقول العرب فلان عارف بالشيء وفلان أعرف منه، فدلّنا بقوله أنا أعرفكم بالله على أنّ غيره عارف بربّه تعالى ولم يمنع منها أحداً، لكنّه نبّهنا على أنّه في أعلى درجات المعرفة لمكان التفاوت في درجات المعرفة، لا في

عين المعرفة، وقيل وجِدَ على باب مدينة حرّان مكتوب بالقلم السرياني من عـرف نفسه تألّه، وأما معنى قوله أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه فله وجوه كثيـرة ذكرهـا الشيخ أبو القاسم الراغب في كتابه الموسوم بكتاب النَشأتين وقع الاختيـار منهـا والاقتصار على ثلاث وجوه:

أولها: إن الإنسان عالم صغير أبدعه الباري من حيث الحجم والمقدار لا من حيث الكمال والأقدار، وجمع فيه ما في العالم الكبير علوية وسفلية مثاليّه وعقليّه وحسية، فهو كالنسخة المختصّة أو كالزّبد من المخيض أو كالدهن من الشحم، بل هو مظهر سرّ الوجود وزبدَة امتخاض الكون، وعلى وجوده معوّل سرّ التضـمين بما فيه من سرّ التضمين وقلتُ نظماً في ذلك:

وفي نشأة الإنســان مــن كــلّ عــالم	من الأفق الأعلى إلى منتهـى الأرض
فمن سرّ فـيض العقـل قـوّة عقلـه	ومن فيض ذات النفس ذاتٌ له ترضي
وقــوّة روح الحـسّ روحٌ لجســمهِ	ليبلغ في المحسوس لمساً من النبض
وللقلـبِ تصـريفٌ لسـرٍّ لطيفـه	يصرّفه في الجمع بعضاً إلـى بعـض
وتركيـب جسـمٍ بالطبـائع ألّفـت	يقوم بها عمقا من الطول والعـرض
تناهى به التركيـب فـي كـلّ مظهـر	ليقضي به حكم المظاهر مـا يقضـي
فمـن رام يستقصـي العـوالم كلّهـا	ليشهد مافيها من الرفـع والخفـض
يشـاهد آيـات النهـى قـد تجمّعـت	تكاد تردّ الطّرف خاسِ مـن الغمـض

فمن أحبَّ معرفة ما في العالم الكبير من القدرة الإلهية والحكمة الربانيّة فكّر فيما أبدعه الله تعالى في نفسه وهيكله من القوّة التي أودعها بارئه تعـالى فيـه، فإنّها حجّةٌ عليه ودليل واضح فيه من باريه تعالى هادٍ له به إليه. فمن علم ذلـك وتحقّقه قاده ذلك إلى معرفة الحقّ سبحانه وهداه إلى المقالة بالصدق فعرف ربّـه بمعرفة نفسه، واستدلّ بنور عقله على نفي ما في حكم حسّه، وتحقّق إنّ ذلك هـو سرّ الله تعالى في الإنسان، وبه يكون الإنسان إنسـاناً، ولأجلـه أمـر الله تعـالى الملائكة بالسجود لآدم لمّا خصّه به فحينئذٍ تحقق عرفاناً، ولذلك سخّر الله له مافي السموات وما في الأرض جميعاً وجعل طاعتهم لـه كطـاعتهم لـه حتمـا لازمـا

كالفرض، فمن عرف ذلك فقد عرف مولاه وأطاعه على قدر معرفته واتّقاه حقّ تقاته، فذلك هو العارف الذي هو عبد الله أكرمه واجتباه واختصّه بنور العقل وحباه كما قال الله تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم) فما كرّمهم إلاّ بالعقل لا سواه.

فإنّ العقل هو الهادي إلى معرفة الله، إذ بالْمعرفة النجاة من النار، لأن الإنسان أبدعه الله سبحانه مستصلحاً للدارين، لأنّه تعالى أبدع الْملائكة من عالم النور عقلاً بلا شهوة، وخلق الحيوان من عالم الظلمة شهوة بلا عقل، فلم يكن عالم الْملائكة يصلحون للحرث والنسل وعمارة الدار، ولم يكن عالم الحيوان يصلحون لمعرفة الله.

فأبدع الله الإنسان من عالم الْمزاج بينهما ففيه النور والظلمة، وهو مجموع العالمين يعرف الله تعالى بنوره، فبذلك يشابه الْملائكة.

ويصلح للحرث والنسل فيما يشابه الحيوان، وقد نبّه الله تعالى على هذا الْمعنى بقوله (الله وليّ الذّين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور، والذّين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات، أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون)

فبان بهذا ما أشرنا إليه من معنى قوله أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه، فإنّ من عرف نفسه بما فيها من مجموع العالمين فقد عرف بذلك قدرة الله تعالى في إبداعه الكونين، وانّه الواحد ربّ الْمشرقين وربّ الْمغربين لا إله إلاّ هو سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيرا، فمن عرف نفسه بهذه الْمعرفة وأطاع عقله هداه. ومن عصى عقله واتبع هواه أضلّه وأعماه وكان ممن ذمّهم الله بقوله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون) فإنّ الإنسان ملكٌ بالقوّة وشيطانٌ بالقوّة لما فيه من النور والظلمة، فمن استنار عقله بطاعة ربّهِ وعمل صالحاً شارك الْملائكة بمعرفته ولحق بهم بطاعته وصار ملكاً بالعقل والفعل، ومن غلبت عليه شقوته وأطاع هواه أرداه كما قال الله تعالى في كتابه (إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا)، فقد بان إنّ الإنسان هو الصّراط بين الجنّة والنّار وبين عالم النور

وهو العقل وبين عالم الظلمة وهو الحسّ فافهم ذلك ترشد، وأطعه تسعد، والله المْرشد والْمسدد لاربّ سواه.

الوجه الثاني: قوله منه السلام من عرف نفسه من حيث إنّها روحانيَة لطيفة قرنت بجسدٍ جسمانيَ كثيف وهما متضادّان واجتماعهما من العجب يضرّها ما ينفعه وينفعها ما يضرّه، ولا هي داخلة فيه ولا خارجة عنه ولا متصلة به ولا منفصلة عنه، لأنّها جوهر بسيط فردٌ غير متحيّز ولا متجزيء وأنّما هي حاملةٍ له وليس هو حامل لها وهي مدبرةٌ لأمورهِ لاهو مدبّرٌ لها، كراكب الدّابة إنّ أحسن سياستها وسار بها على الطريق الواضح أمن العثّار، وإن ساسته تقحّمت به في الْمهالك وأوردته الْمتالف، فمن عرف نفسه بهذه الْمعرفةِ عرف ربّه الذي لايخلوا منه مكان أبداً، وأيضاً إنّه يعرف مايفنى ويموت وهو الجسد، وما يبقى ولا يموت وهي الروح، فإنّ كلّ شيءٍ يعود إلى ما منه بدا، فما كان من التراب عاد إليه وما هو من النور يعود إليه، لقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) فبمعرفته لنفسه ومما بدت ويعرف جسده ومما تركّب ويعرف الجامع بينها فيهتدي لعبادة ربّه.

الوجه الثالث: إنّ من عرف نفسه بالعبوديّة عرف ربّه بالربوبيّة فإنّ نفسه أعدل شاهدٍ على وحدانيّة الله تعالى لقربها منه، وأصدق رائدٍ يخبر عنه لبعدها عن التهمة، فإذا برئت من حولها وقوّتها وتحقّقت عجزها عن اجتلاب منافعها واجتناب مضارّها علمت إن لها صانعاً يدبّرها وحكيماً يتصرّف فيها بمشيئته لا ريب في وجوده ولا شكّ في وحدانيّته، فوصلت على معرفة ربّها بالتّحقيق ودانت له بحكم التصديق بدليل قوله تعالى (سنريهم آياتنا) أي الدلالة علينا (في الأفاق) وهو ماعدا الإنسان (وفي أنفسهم) أي الإنسان وقوله تعالى (وفي الأرض آياتٌ للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فنبّه (ﷺ) على معرفته بمعرفتنا أنفسنا لطفاً منه ورحمةً بنا وذمٍّ بطريق التوبيخ من نسي ربّه فقال عزّ من قائل (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) هذا بحكم الارتباط وبالجملة معرفة كيفيّة النفس على ماهي عليه لا تدخل تحت الإدراك النظري ولقد أحسن القائل شعراً

كيفِيَة النّفس ليس الْمرء يدركها ... فكيف كيفيَة الجبار في القدم
ذاك الذي خلق الأشياء مبتدعاً ... فكيف يدركه مستحدث النسم

وقال بعض العارفين شعراً في هذا المعنى:

العجــز عــن درك الـــدرّاك إدراكُ والبحث عن سرّ ذات الله إشــراكُ
وفي ســرائر همّــات الــورى همــم عن الذي فيه من جــنٍ وأمــلاكُ
يهدي إليه الــذي منــه إليــه هــدىً مســتدركاً ولــيَ الله مــدراكِ

فالحذر ثمّ الحذر من أن يتوهم أحدٌ من ضعفاء المؤمنين إنّ النفس هي الرب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل العبدُ عبدٌ والربُّ ربٌّ وكيف لا يميّز العاقل بين العلّة والمعلول والقديم والمحدث والواجب والممكن والصانع والمصنوع، فإنّ ذلك فساد الدين وهدمه وعدولٌ عن الحقّ، لقد باءَ بسخطٍ من الله وأشركَ به من يعبد من دون الله ما ليس به علمٌ ولم يميّز بين الخالق والمخلوق ودلَّ على جهله وكفاه بذلك إثماً مبيناً.

التنبيه الثاني: في بيان وحدة نفس الإنسان.

إعلموا إخواني -رحمكم الله- إنّ حقيقة نفس الإنسان التي هي خاصتّه التي بها امتاز عن سائر الحيوانات، هي حقيقةٌ واحدةٌ مقدسةٌ عن الاختلاف والكثرة في ذاتها، وانّ جميع مايطرأ عليها ليس إلاّ من المزاج المعبّر عنه بالاستعداد والقبول وإنّما هو بحسب الاستعداد والقبول، فإنّ النفس المنفوخة فهي نفسٌ من روحٍ طاهرة مضافة إلى الحضرة الإلهية المشارُ إليها بقوله تعالى (فإذا سويّته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)! فليس مايطرأ عليها إلاّ من المزاج، ولقد أشار إلى هذا المعنى بعض المحقّين نظماً:

الــروحُ واحــدةٌ والنشــؤ مختلــفٌ في صورة الجسم كان النفخُ فاعتبروا
في الجسم كان اختلاف النشئ فاعتمــدوا على الذي قلتــه فــي ذاك واذكــروا
فإنّــه العلــم لاريــبٌ يداخلــهُ الشمس تعــرف مــا قلنــاه والقمــرُ

ألا ترون إلى نور الشمس وهو على صفة واحدة فيضرب في الزجاجات المختلفة الألوان فينعكس فيها فيظهر ألوان ما عليها الزجاجات في رؤيا العين والنور في عينه واحدٌ ما تغيّرَ، وذلك التحويل في السلافة، فالزجاجات القلوب، والألوان الاعتقادات، والمتجلي الحقّ سبحانه لم يتغيّر، ولكن هكذا يرى أصحاب العقائد لاختلاف عقائدهم، فافهموا المثل فإنّه قد جلّ وكذلك النفس واحدةً لاكما يظنّ كثيرٌ ممن يدّعي المعرفة، ولا علم له بها، وهي المثابة والمعاقبة (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت).

فإن أطاعت أمر العقل وأذعنت وأطمئنّت بذكر الله وشهوده وأحسنت وعملت صالحاً كانت موسومة بالمطمئنّة.

وإن عصت وأساءت واتبعت هواها وهوت في هاوية وزرها من ذراها بمشتهاها كانت موسومةً بالأمارة بالسوء.

وأن خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً وجاهدت هواها وغلبت مرّةً وغُلبت أخرى كانت لوّامةً.

والكلّ نفسٌ واحدةٌ، فاختلاف أسمائها باختلاف أحوالها وأفعالها وأوصافها، والمطيع بفعله هو العاصي بفعله، فتغيّر اسمه بحسب تغيير فعله، والذات لم تتغيّر، ولقد دلّ القرآن المجيد على ذلك فقال (ونفسٍ وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد افلحَ من زكّاها، وقد خاب من دسّاها)، وكما إنّ ليس في الوجود إلهان ولا في السماء شمسان، فكذلك إن ليس في الإنسان نفسان، فتحقّقوا ذلك إخواني.

وإنّما لم نذكر ماعداها من النامية والمعدنيّة والهاضميّة والحيوانيّة وغيرها لأنّها فروعٌ وجنودٌ وقوى لهذه النفس الناطقة بالوحدانية التي هي الأصل، وهي التي استخلفها العقل على سياسة الجسد، قال الله تعالى (إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً) فهي تقوم مقامه في عمارة الأرض بحسن السياسة وخرابها بسوء التدبير، إليه مرجعها وإيابها وعليّه في الآخرة حسابها، (فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره)، وقد سمّاها بعض الصوفيّة روحاً وغير ذلك ولا اعتبار باختلاف الألفاظ فإنّ معناهما واحدٌ عند المحقّين، ولا مشاحّة في اختلاف الاسم إذا فهم المسمّى، وإنما سميت نفساً لأنّها أنفس مافي الإنسان، وقد نطق

القرآن المجيد بذلك في موضع المدح (يا أيتها النفس المطمئنة أرجعي إلى ربك راضية مرضية)، وقال في موضع الذم: إنّ النفس لأمارة بالسوء، وقال في حالتها المتوسطة المسماة بلسان القرآن المجيد باللوامة، فقال سبحانه وتعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) وهي التي تجاهدهوا فتارةً تعصيه وتارةً تطيعهُ إلاّ إنّ لها اجر المجاهدين في سبيل الله.

وقد روي عن رسول الله (ص) أنّه قال في بعض الأيام وقد رجع من بعض الغزوات رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فقيل وما هو؟ قال (ص): جهاد النفس ولهذا المعنى أقسم الله (ﷻ) بمخالفتها هواها، وأمّا تسميتها بالروح فكذلك نطق القرآن العزيز (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) فالإشارة باختلاف الألفاظ إلى الجوهر الناطق مع الهيكل الإنساني الذي كرّمه الله تعالى بالعقل فاستخلفه، فهو كالنائب عنه إن قام بأوامره وانتهي عن نواهيه ذكى وطاب، وأن أساء وعصى ولم يحسن شقي وخاب، (ذلك بما قدّمت يداك وإنّ الله ليس بظلّام للعبيد) ولقد أحسن الشيخ الرئيس أبو علي محمد ابن سينا البخاري حيث يقول:

هذّب النفس بالعلوم لترقى — وترى الكلّ فهي للكلّ بيت
إنّما النفس كالزجاجة — والعقل سراجٌ وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنّك حيٌّ — وإذا أظلمت فإنّك ميت

(القاعدة الرابعة)

في بيان حقيقة الإيمان ومراتبه وصورته وروحه ومقامه ودرجاته وما يجب على المؤمنين من حقوق بعضهم على بعض

التنبيه الأوّل: في بيان حقيقة الإيمان لغةً وحقيقةً.

أيّدكم الله بروحٍ منه وأمدكم ببصيرةٍ من لدنه، إنّ الإيمان لغةً عبارة عن التصديق، وهو قد يكون مع الشهود المصدّق به وقد يكون مع الغيبة عنه، فهو

في الحقيقة عبارة عن نورٍ حاصل من قبل الله (ﷻ) من حيث اسمه المؤمن الرحيم والهادي، والنور لإزالة ظلمة الهوى والطبع قابل لكلما يرد من الله تعالى عليه بواسطة الرسول (ﷺ) من دين وشرع ونحوهما، فيستحق حامله المذكور بواسطة قبوله الأمان من سخط الله تعالى، فسمّى بهذا الوصف والحكم الخاص إيماناً وتصديقاً، وعلى التحقيق إنّما هو أول اعتقاد من العلم الحاصل من طريق السمع المتعلق بالديّن والشّرع وحداني النعت من غير اعتبار تأييد بدليل برهان عقلي أو سمعي أو كشفي فإذا تأيّد بشيء من ذلك صار علماً وإيقاناً وخرج عن كونه أيماناً.

وقال بعض العارفين «من علم أمراً وهو غير مصدّق بأنّ الأمر على ما علمه فليس بمؤمن شرعاً حتّى يقرّ به لقول المخبر لا لدليله». فذلك المقرّ المصدّق هو المؤمن. وذلك التصديق هو الإيمان، ثم إنّ محل هذا النور يختلف بحسب رقّة حجب العادة والطبع الحائلة بين النفس والقلب وبين قبولها الدين والشّرع، وبحسب كثافتها، فمهما رقّت الحجب وشفّت يرى هذا النور إمّا في ضمن إخبار مخبّر صادق عن الله (ﷻ) وأمّا منه بطريق السمع غالباً، ويخلص إلى القلب فيتلقّاه القلب بالقبول، وذلك يكون نفس التصديق الذي محلّه القلب، وهذا نظرٌ كلّيَ والطرق التّي يستند إليها إيمان المؤمنين على ثلاث أنحاء:

الفرقة الأولى: طريق العموم وهي التقليد الذي هو العقد الجازم المطابق من غير دليل.

الفرقة الثانية: قيام الدليل والبرهان، وهذا طريق أرباب الأفكار والنظر.

الفرقة الثالثة: وهم الذين استند أيمانهم إلى شهودٍ وعيان، وهم الراسخون في العلم، وهذا طريق أهل الله تعالى. ولهذا قال بعضهم «إنّا لننظر إلى الله ببصر الأيمان والإيقان فاغنانا بذلك عن الدليل والبرهان. وإنّا لا نرى أحداً من الخلق حلّ في الوجود سوى الموجود فإن كان ولا بدّ فهم كالهواء في الهباء إن فتّشته لم تجد شيئاً».

وأعلموا أخواني أيّدكم الله تعالى إنّ أهل الشهود والعيان يقولون لأرباب الدليل والبرهان كيف تستدلّون على وجود الله (ﷻ) بما هو مفتقر في وجوده إليه.

ومتى غاب حتّى يحتاج إلى دليل يدلّ عليه، ومتى فقد حتّى تكون الآثار هي التي توصله إليه، أيكون لغيره من الظهور ما ليس له حتّى يكون هو المظهر له، أليس له سبحانه تعالى سبق الوجودين، فكما له سبق الوجودين كذلك ينبغي أن يكون له سبق الشهودين، وكما هو الموجود الأوّل كذلك ينبغي أن يكون هو المشهود الأوّل، ثم يقولون أهو أقربُ أليكم أم الدليل منكم، وهو إليكم أقرب، فكيف يوصل ما هو عنكم أبعد إلى ما هو منكم أقرب، أليس من شرط الدليل أن يكون أجلى من المدلول حتّى يوصل إليه، وكذلك من أجل ظهوره وخفاء المدلول كان أولى بأن يدلّ عليه. وأيّ شيء اظهر منه سبحانه، فهو الظاهر قبل وجود المظاهر، بل هو الظاهر الذي خفيت لأجل ظهوره المظاهر، ثم يقولون أليس وجودكم غنيّاً عن إقامة دليل يدلّ عليه، أو أثر يوصل إليه، قالوا بلى، فقالوا أيكون وجودكم غنيّاً عن الدليل ولا يكون وجوده غنيّاً عن الدليل.

التنبيه الثاني في مراتب الإيمان وصورته وروحه.

أعلموا أخواني رحمكم الله إنّ للإيمان مراتب وصورة وروحاً، فأمّا مراتبه فهي ثلاثة:

<u>المرتبة الأولى:</u> الفراسة أي التوسم، وهي عبارة عن خاطر يهجم على القلب فينفي الشكّ ويقع الظنّ بشرط الاتفاق، وقال رسول الله (ص) اتّقوا فراسة المؤمن فانّه ينظر بنور الله تعالى، وقال الله تعالى (إنّ في ذلك لآياتٍ للمتوسمين) أي المتفرسين.

<u>والمرتبة الثانية:</u> هي المكاشفة وهي عبارة عن تجلٍّ في القلب ينفي الصور اللائحة للقلب، والأعراض المشتغلة، وذلك بشرط التحقيق ولزوم العلم والعمل بغير غيبة. وذلك إن الإيمان إذا تزايد كشفه بإخلاص الأعمال انتقل من الفراسة إلى الكشف، وتلك الفراسة واقعة على ما برز من الحسّ ومن خاطر أو حركة أوغير ذلك، والمكاشفة في ظهور الأشياء في القلب قبل وقوعها، وهي أتمّ من الفراسة وأخرى إن الفراسة مؤقّتة والمكاشفة دائمة.

<u>والمرتبة الثالثة:</u> المشاهدة وهي عبارة عن نور يستضيء به السرّ، فينفى عن الأكوان ويغرق في بحار الحال والوجود، وذلك بشرط الحفظ ومراعاة الأدب في الحفظ والعلم وترك الخروج عن الحقّ قولاً وفعلاً والثبوت في الحضور عن فناء الغيبة، فذلك صاحب التمكين، فهذه حقيقة الأيمان وهي العقود التي أمر الله (ﷻ) بالوفاء بها بقوله الحقّ (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)

وهذه آخر مراتب الإيمان في السلوك وينتقل السالك في هذه المسالك من هذا المقام إلى مرتبة العيان، وهي آخر مرتبة الإحسان، وهو مقام من يرى الله في كلّ شيءٍ عين كلّ شيء سوى تقييد الشيء وتعيينه، وذلك أنّ أنوار الإيمان إذا قويت أضاء بها السر والعقل، بل جميع عوالم الإنسان وأضاء الملكوت لإضاءة العقل، فيرى لطائف الملكوت وعرف الدار الآخرة، وذلك هو المشار إليه بقول مولانا عزّ عزّه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، أي لو رفع الحجاب المسدل على أبصار الجمهور ما ازددت يقيناً، لأنّ ذلك الحجاب مرفوعٌ، عنّي وأمّا صورة الإيمان وروحه.

فاعلموا أخواني رحمكم الله أنّ للإيمان صورةً وروحاً، ولكل واحدة منهما صفتان، ولكلّ صفة حكمان، فصفة صورة الإيمان هي المعبّر عنها بقول مولانا: الإيمان إقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان وله شرطان معنويّان عليهما تتوقّف صحّة الإقرار والعمل، وهما النيّة والإخلاص لله تعالى، إذ بهما يثبت الانقياد المحقّق والتمييز بين المؤمن والمنافق، ولهذين الشرطين حكمان أحدهما زماني والآخر مكاني، فالزماني كأوقات الصلاة وموسمي الحج والصوم ونحو ذلك، والمكاني كاستقبال القبلة ووجوب اجتناب الصلاة في البيع المصوّرة والمواضع النجسة، ونحو ذلك، والحج يجمع أحكام الزمان والمكان، وأمّا روح الإيمان الذي هو التصديق ولوازمه فنقول: التصديق الإيماني ينقسم إلى قسمين تصديق إجمالي وهو تصديق المخبر الصادق على وجهٍ كلّي إمّا بأمرٍ يجده في نفسه دون سبب خارجي أو يكون الموجب له آية أو معجزة.

والقسم الآخر تصديق تفصيلي من حيث الحكم على إفراد أخبار المخبَر الصادق، وما يتضمّنه من الأمور المحكوم بوقوعها.

التنبيه الثالث: في بيان مقامات المؤمنين السالكين إلى الله تعالى.

اعلموا أخواني رحمكم الله أنّ مقامات الْمؤمنين في السلوك إلى الله تعـالى ثلاثة :

أولها: القيام بحقيقة الخدمة لله (ﷻ)

وأوسطها:الزيادة من تلاوة القرآن وهي السكينة التي أنزلها الله (ﷻ) فـي قلوب الْمؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وهذه السكينة هي الفهم في كتـاب الله (ﷻ) بزيادة انشراح الباطن بأنوار الْمواهب اللدنيّات، وزيادة الإيمان إنّما هي بمـا يتّضح للقلوب من دلائل الحق ولا يكشف دلائل الحق إلاّ النور، فإذاً السكينة هـي نورٌ يجمع قوّةً لأنّ القوّة في الدّين من ثمرات اليقين واليقين من زيـادة الإيمـان وزيادة الإيمان هي السكينة، فإذاً السكينة سبب القوّة في الدّين وهي قوّة في نـور الفطرة وأعلاها خشية القلب ووقوفه في الوجل والشفقة والاستغراق في الْمناجاة، إلى أن ينزّل الله تعالى عليه أنوار الأمن والطمأنينة الخاتمة لمن يشاء من عبـاده وذلك قوله تعالى (إنّما الْمؤمنون الذّين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم إذا تليت علـيهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكّلون)، فمن نقَص من هذه الدرجات شيئاً تحجب عنه أنوار الإيمان بالقدر التي لم يعرف بها الإيمان، فإن أكمـل العلامـات أطعـم صاحبه وأسقاه من غير طعامٍ ملموس وسرابٍ محسوس، ولكل موقت بل من شيءٍ يخصّ الله به قلوب الْمؤمنين، وتلك حقيقة تسلك بالإيمان والْمتابعـة الْمحمّديّـة، وهذا ميراث محمّدي لقوله منه السلام: أبيت عند ربّي فيطعمني ويسقيني.

وروي عن مولانا الصادق منه السلام أنّه قال: الإيمان إقرار باللسان صدقاً، وتصديق بالقلب إيقاناً، وعمل بالجوارح إخلاصاً.

وقال الله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صـالحاً ولا يشـرك بعبادة ربّه أحدا) وقال الله تعالى (إلاّ الذّين آمنوا وعملوا الصّالحات فلهم أجرٌ غير ممنون) وقال تعالى (إنّ الذّين آمنوا وعملوا الصّالحات كانت لهم جنّات الفـردوس نُزُلاً).

وفي القرآن كثير من الآيات لم يذكر الْمؤمنين والإيمان إلاّ ونعتهم بالعمل الصالح، وهو العمل الواقع بمقتضى العلم النافع وهو العلم الصادق لنا الْمحكم للحكم الإلهي والشرع الْمحمّدي، فصحّ وثبت أنّ الإيمان شجرة والعلم ورقها والعمل ثمرها، وإذا لم تكن الشجرة ذات ورقٍ ولا وثمر فهي حطبٌ وكانت النار أولى بها كما ذكر والله الهادي والْمرشد لا ربّ سواه.

التنبيه الرّابع: في بيان درجات الإيمان.

اعلموا أخواني أيّدكم الله تعالى أنّ درجات الإيمان سبعٌ:

أولها درجات الامتحان ثم الإخلاص ثم الاختصاص ثم النجابة ثم النقابة ثم الأيتام ثم الأبواب فأول درجات الْمؤمن أن يكون ممتحناً ثم مخلصاً ثم مختصّاً ثم نجيباً ثم نقيباً ثم يتيماً ثم باباً ولكل درجة من هذه الدرجات سبع درجات إلى أن ينتهي إلى السابع وهي بمنزلة السلّم يصعد فيه مرقاة بعد مرقاة فلا يقولنّ صاحب الدرجة الثانيّة لصاحب الدرجة الأولى لست على شيء حتى ينتهي إلى السابع.

فقد روي عن مولانا الصادق منه السلام أنّه قال لعبد العزيز القراطيسي@: يا عبد العزيز الإيمان سبع درجات وهي بمنزلة السلّم والخبر بكماله، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفقٍ يرفعك الله، ولا تحمّله ما لا يطيق فتكسره، فإنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره.

وعن مولانا العالم منه السلام وإليه التسليم قال: الإيمان درجات والْمعرفة درجات فلا يحمل على صاحب الدرجة الأولى صاحب الدرجة الثانية، ولا على الثانية صاحب الدرجة الثالثة، ولا يعطين أحدٌ شيناً من العلم إلاّ على مقدار ما يحتمله فإنّ القلوب أوعية وخيرها أوعاها.

التنبيه الخامس: في بيان معرفة السبب الموصل الذي هو عبارة عن الظاهر من حقوق الأخوان بعضهم على بعض.

اعلموا أخواني وفقكم الله إنّه قد ورد عن مولانا الصادق منه السلام انّه قال: دخلتُ على مولانا الصادق منه السلام فشاهدته في أبهى صورة، فوقفتُ بين يديه ماثلاً أتوقع الإذن بالجلوس فقال لي: يامفضّل. قلت: لبيك ياسيّدي ومولاي.

فقال: سل عمّا دخلت لأجله، فبادرتُ بالسؤال موافقاً له كأنّي لذلك قصدت.

فقلتُ: جعلتُ فداك مالحقّ المستحقّ للإخوان على الأخوان.

فقال يامفضّل: بمشيئة الله نطقت وبتوفيقه أستقمت أتدري يامفضّل ما سئلت؟

فقلتُ:جعلتُ فداك سئلتُ عن الظاهر من حقوق الأخوان بعضهم على بعض.

فقال: يا مفضّل أسمع وعِ، وكن بكلّك حاضري وأعلم إنّي أستخلصتك لمكنون سرّي، فتنطق بلساني بلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

فقال السيّد الصادق منه السلام يامفضّل إنّ القديم الأزل لمّا شاء أن يظهر حجاب ذاته أخترع نوراً لابائناً عنه مفتوقاً ولا ملصقاً مرتوقاً، أقامه من نفسه نورا مخترعاً له شعاع يتوقّد، فقال (ﷻ) له (أعرفني وكن لي حجاباً) فنطق النور بالتسبيح والتقديس والتهليل.

وقال أنت أنت لاشبه لك أقمتني من نفسك بقدرتك ظاهري نورك، وباطني نفسك. فأمدّه الله بالسبب الموصول، وفوّض أليه إرادة المشيئة بكن، فأقام الحجاب أنواراً من شعاعه المتوقد له حجباً، ولها شعاع يتوقّد، وقال اعرفوا الأزل القديم وكونوا لي حجباً، فقامت الحجب فنطقت الأنوار بالتقديس والتهليل، ثم قالت هو هو بلا نهاية أقامك حجاباً لذاته، وفوّض إليك إرادة المشيئة بكن، فأقمتنا حجباً لظاهرك ندلّ على معنويّة باطنك، فأمدّها الحجاب بالسبب الموصول، وفوّض إليها إرادة المشيئة بلا كن، فالتفاضل بين الخلق إنّما هو بالأمر الحقّ المعبّر عنه بكن، فشخص كن أمرّ ربّاني لتحقّقه، فيكون عنه ما شاء، وآخر غير محقّق ليس له ذلك، وإن كان قد ساواه في الإنشاء ثم أوجد من شعاع الأنوار أنّواراً أقامها أبواباً للحجب، وقال لها اعرفوا الأزل القديم والحجب فتقطّعت ونطقت بلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. الذي منه أقامنا المعنى جلّ وعظم أبواباً لحجبه، ثم قدّست

الأزل القديم ولها شعاعٌ يتوقَد، فأمدَها المعنى الأكبر بالسبب الموصـول، وفـوَض إليه إرادة المشيئة بلا كن، ثم شبح أرواحاً من الشعاع المتشعَب عن الأنوار أنوار الأبواب، فأوَجدها ملائكة مقصورٌ عليها الشعاع النوراني هـي أرواح المـؤمنين، فألزمها الإيمان وأمدَها بالسبب الموصول، ثم قال لها أعرفوا الأزل القديم والحجب والأبواب، فانقطعت الأرواح ونطقت بلا حول ولا قوَة إلاّ بالله العلي العظيم توفيقاً، ونسألك الهداية وعرفان الأزل القديم بلا نهايةٍ، الذي اخترع النور وأقـام الحجـب والأبواب، ثم غشى الجميع بالنور، وقدَس الأزلي نفسه، فقدَسه النـور والحجـب والأبواب وأرواح المؤمنين، بما قدس به الأزل نفسه، فخلق مـن نـور تقديسـه وتقديسهم حظيرة القدس، ثم أوجد الكلَ في تلك الحضـيرة وأمـرهم أن يقدسـوه ويسبَحوه ويعظَموه، فلم يزالوا كذلك ينطقون بما أمرهم به ألفيّ عام من أعوام الله (ﷻ). وكلَما نطقوا بتقديس وتمجيد وتعظيم خلق الله تعالى من ذلك نوراً سـاطعاً، حتَى انقضى مراد مشيئته في ذلك، ثمّ عقد تلك الأنوار وجسَمها بكن المراد، وأوَجد في الحظيرة عموداً تحت العرش موصولة به الأسباب على مراتبها متعلَقة بالعمود على قدر قربها من نور الحجاب، موصولة بأنوار الحجب والأبـواب والمـؤمنين، يؤدَي أوَل إلى ثاني وثاني إلى ثالث، فذلك السبب الموصل يا مفضَل بـين النـور والحجب والأبواب والمؤمنين .

قلتُ جعلتُ فداك مولاي لقد عرَفتني ما لم اعـرف مـن بـاطن التوحيـد، وصورَت لي محل المؤمنين من الأبواب، ومحل الأبواب من الحجب، ومحل الحجب من النور، ومحل النور من الأزل القديم، الذي لاشيء يحجبه ولا مثلٌ له.

فقال مولاي الصادق منه السلام: يا مفضَل فبهذا السبب الموصل أوجب الله تعالى للمؤمن على المؤمن المفترض من الحقوق، يا مفضَل الم تسمع وأنا أقـول إذا واصل المؤمن أخاه المؤمن فقد أتصل بشعاع الله، وقد قلت بنور الله، يا مفضَل إن السبب الموصول هو النور الممازج للأنوار، فإذا واصل المؤمن أخاه المـؤمن استضاء السبب والتمع بشعاعٍ زائد فيه، فيجذبه العمود بالنورانيَة إلى عنصره.

فلا يزال المؤمن يصل أخاه المؤمن حتَى يتجاوز سببه سبب الباب، فيصير وليّاً بين الحجب والأبواب، فيكون في أعلى مرتبةٍ من مراتب المـؤمنين بالشـعاع الزائد فيه وفي الأسباب.

فقلتُ:جعلتُ فداك هذا الْمؤمن الذي يصل أخاه الْمؤمن فما حال من عاقه وقصّر بحقّه.

قال:يا مفضّل أعيذك بالله من ذلك، إنّ الْمؤمن إذا عاقّ أخاه وقصّر بحقّه الْم بالسبب الْموصول به ظلمة تكبه على وجهه، فلم يزل على انكبابه حتّى يصفيّه التمحيص.

قلت: سيدي ومولاي وما التمحيص؟ قال مصائب في نفسه وأهله وولده.

قلت:جعلتُ فداك فما حال الْمقاطع أخاه الْمؤمن وَالْمواصل عدوّه الناصبي.

فقال:يا مفضّل إذا عدل الْمؤمن بين الناصبي وبين أخيه الْمؤمن، فقد أشرك بالله لمساواته بين الْمؤمن والناصبي، وإذا واصل الناصبي وقطع أخاه الْمؤمن فقد كفر وأشرك بالله، لأنّه قد رفع من وضعه الله تعالى ووضع من رفعه الله وضادد الله وخالفه في حكمته.

قلت:جعلتُ فداك فما حال من فعل ذلك؟.

قال: يا مفضّل يركس ولا يطهّره إلاّ بالتصفية في التكريرات بِالْمصائب الْموبقات.

فقلتُ:وما هي؟

قال إزالة الطائف عن سمعه وبصره وغير ذلك، يا مفضّل أنظر فإنّك ترى العجب.

قلتُ:جعلتُ فداك رأيتُ من هو أعمى أبكم مقعد؟

قال:ذلك هو بعينه، ولو قد رأيّته في كرّةٍ أخرى لرأيته أسوأ حال.

قلتُ:آمنت وسلّمت، وقد أثلجت صدري وفؤادي وعرفّتني ما لم اعرفه، فاخبرني عن كميّة عروج الْمؤمن إلى السماء وهبوطه إلى الأرض إلى أن يخلص فكم يهبط إلى الأرض؟

قال: في إحدى وعشرين كرّة.

قلتُ:وكم مقدار هذه الكرّات من السنين؟

قال ألف سنة وسبع وسبعين سنة وسبع ساعات، يكرُ الْمؤمن فيها إحدى وعشرين كرّة، وذلك أنّ لكلّ مائة سنة من هذه السنين كرّتين، فإذا عاش في كرّةٍ أكثر من خمسين سنة فإنّه ينقص من عمره في الكرّة الثانية على مقدار ما زاد على الخمسين في الكرّة الأولى، وإذا عاش في الكرّة الأولى أقلّ من خمسين سنة زيد في عمره في الكرّة الثانية على مقدار ما نقص، وربّما كانت له كرتين فيعيش فيهما مائة سنة أو اقلّ من ذلك مما زاد على الْمئة، فإنّه يجري به نقصان الكرتين، وأما جملة الكرّات فلا تزيد على أكثر ممّا ذكرت لك.

قال: وسألته عن العاهات والنوازل والفقر؟

فقال: أما العاهات والآفات فهي لامّات في الْمؤمن فيما يضمره ويفعله بالْمؤمنين، فيما يتحققه ولم يؤثّر، فيطهّره الله به، وكلّ فعل الله بالْمؤمن فهو من خيرٍ له ونظراً، جميلاً وربّما فعل به ذلك عاجلاً، وربّما كان آجلاً، وأما العاهات والنوازل التي تنزل بالكافر فتجتاحه وأهله وولده فيما فعله بِالْمؤمنين، وارتكبه من اذاهم، ولا يثاب على ذلك ولا يؤجر، والنوازل بِالْمؤمنين كفّارات وطهارات وبالكافرين ذلّة وانتقام وافتقار.

وسألته عن قلّة الْمؤمنين وكثرة الكافرين؟.

فقال: إن الْمؤمن إذا انتهى وصفى صعد إلى السماء، وصار مع الْملائكة، وإنّ الكافر يمسخ فيبقى في الأرض لأنّه ليس في السماء مسخ.

وسألته عن أرواح الْمؤمنين العارفين إذا ماتوا أين يكونوا؟

قال:في صفة طيور بيض في ظلّ العرش، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة لا يصعدون إلى السماء، حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط.

قلتُ:جعلتُ فداك ما الْمقام الْمحمود الذي أقامه الْمؤمن لأخيه فاستوجب من الله الْمزيد في العلم والحلم وَالْمعرفة والأهل وَالْمال والأولاد؟ فقال يا مفضل بفضل الله نطقت، وبتوفيقه سألت، يكون ذلك إذا واصل الْمؤمن أخاه ولم يستأثر عليه شيئاً ممّا حواه ملكه.

فقلتُ: أوليس امرأته ممّا حواه ملكه.

فقال: لا لأن الملك المقصور عليه التحظير الذي لا يعد له إلاّ بالإباحة بالتحليل، هو ما ذكرت، والملك ما يمكن إباحته، ولا يمكن إباحة ذلك إلاّ بالتحليل. وهو ان يطلّقها لم تحرم على أخيه وزال التحظير. فأمّا ملك السريّة والسراري فلا حرجَ عليه في إيثاره أخاه إذا وهبها له. أما سمعت قول الله تعالى في كتابه (فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً).

قلتُ:بلى جعلتُ فداك.

قال يا مفضّل: المؤمن لا يستأثر على أخيه المؤمن إلاّ بما حظّرَ عليه من التحريم. فإن استأثر عليه الجاه الله في كرّته إليه للمجازات وعاقبهُ بالتمحيص.

يا مفضّل: إنّ المؤمن أخو المؤمن في الدين، وعقده في اليقين، ونسبته في النور والرحمة، وشكله بالنور، والسبب الموصول لا يستأثر عليه بسمعه ولا بصره ولا لسانه ولا قلبه ولا يده ولا رجله ولا جاهه.

قلتُ:جُعلتُ فداك يا مولاي كيف يواسيه بما ذكرت من جوارحه ولا يتجزأ؟

فقال يامفضّل: إذا رآه لا يصرف بصره عنه إلى غيره ولا يملّ حديثه ويذكره بلسانه، ويردّ الغيبة عنه ولا يبطش بيده إلاّ معه، ولا يسعى برجله في حاجة أحدٍ سواه، ويمدّه بقلبه وهمّه، وإنّ للمؤمن على أخيه المؤمن ستّةَ خصال حقوق واجبات ثلاثة ظاهرات وثلاثة باطنات،

- فأما الظواهر: فإذا أقبل يجلّه ويطلق له بشره ويرفعه على عدوّه.
- والثانية أن لا يخيّبه في كلّ قصد له إلاّ عن عجزٍ عظيم.
- والثالثة الزيارة له وأن لا يكسل عن زيارته في حال سقمه وصحته.

وأمّا البواطن :

- فيردّ عنه الغيبة ويدعوا له آناء الليل مع من يشاركه فيه من علمه.

- والثانية أن يمحَض له النصح ولا يميل عنه وله ومنه.
- والثالثة يخلص له الودَ ولا يتهمه بشيء، فإن تهمه بشيء ذاب أيمانه كما يذوب الملح في الماء.

واعلم يا مفضَل إنَ بقضاء حوائج المؤمن يرقى المؤمن إلى درجات النعيم في الدنيا والآخرة.

يا مفضل صل أخاك المؤمن وزيَنه وأمنه غيبك، تكون منه ويكون منك، ولا تقطعه ولا تقبَح فعله فيضمحل إيمانك.

وأعلم أنَ الله (ﷻ) يباهي بالواصل آخاه المؤمن الملائكة، فارغب فيما أحبَه وندبَ إليه. قال الله (ﷻ) (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

قال المفضَل ثم أطرق مولانا برأسه ولقد ملكتني بهتة الحيرة، ثم رفع رأسه فإذا البيت قد أضاء واشرق بنوره فغشي على بصري، فإذا أنا بشاب قد أخذ بيدي وهو راجع القهقرى، فقال: إنَ هذا وقت الزوال فرجعتُ القهقرى مستبصراً وأنا أقول آمنت وصدَقتُ. ثم قلتُ للشاب من أنت قال: أنا أخوك المؤمن جرى سببي بسببك، قلتُ بماذا فوضع يده على صدري وتنحَى عنَي، فإذا كلَما قاله مولاي الصادق منه السلام قد وعيَته وزالت عنَي بهتة الحيرة.

فقلتُ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فإذا بصوت مولاي معي يقول: قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون. والحمد لله ربَ العالمين.

الخاتمة في بيان شروط الإيمان

إعلموا إخواني وفقكم الله تعالى إنَ شرط الإيمان عشرُ خصال تَجمعها لفظة مكارم الأخلاق:

(١) أولُها الصدق: لقول مولانا الصادق (منه السلام) الكذب مُجانب الأيمان، وهو عبارة عن مطابقة ما في الذهن لما في الخارج.

وقيل هو عبارة عن تواطؤ المرء باللسان الذي هو الآلة المعبّرة عمّا في ضميره وما يُخبر به وعنه، حتّى لا يصير أمراً واجباً في ضميره مسلوباً بلسانه ولا مسلوباً بضميره واجباً بلسانه، فيزيل بذلك الأمور عن حقائقها أو يبطل به أحكاماً يكون تعلقها به.

وقيل: الصّدق هو الأخبار عن الشيء بما هو عليه في نفسه.

(٢) وثانيها الصبر: لقول السيّد الرسول (ﷺ وآله): الصّبر من الإيْمان كالرأس من الجسد.

(٣) وثالثها المروءة: لقوله (ﷺ): لا دين لِمن لا مروءة له، وهو اسمٌ مشتقّ من المروة، وهو نعت آدم (ﷺ)، وبنية وطبيعتهم التي طبعوا عليها، وهي همّة في قلوبهم خصّ الله تعالى بها آدم (ﷺ)، وبنيه الراشدين بهذه السجيّة وجبلهم على هذه الطبيعة غير مكتسبة، بل خلق الله تلك الطبائع مع خلقهم إكراماً لهم، فميّزهم بها عن سائر الخلق وهي ثمرة شجرة العقل والطباع الحسان وهي حسب آدم ونسبه ونعته، يوجد ذلك في البر والفاجر من ذريّته مقسوماً فيهم مَجبولاً، ألا إنّ الغالب من ذلك في المؤمنين.

فلم تَجد بعد المعرفة بالله تعالى أفضل من المروءة، فهي أشرف الطبائع وأعظمها وأكرمها في الدنيا والآخرة، ولَم تك فضيلة آدم (ﷺ) من طريق الجسم، فإن البهائم والسباع والنبات والجماد، تشارك آدم وبنيه في الجسميّة، وإنّما فضيلة آدم وبنيه الأكملين من قبل المروءة التي هي ثَمرة شجرة العقل التي بها يعامل الله تعالى آدم بِما يليق بجماله وكماله، ويعامل خلقه بِما يليق بهم، وهي الإنسانية التي ركّبت فيه وفي أهل الكمال من بنيه ولو لَم يكن من الله (ﷻ) على الخلق بالمروءة والأخلاق الجميلة ما استوجب الفضيلة على الخلق أجمع، وتلك الأخلاق هي: العلم، والحلم، والكرم، والحياء، والسخاء، والجود، والإيثار، والمواساة، والعدل، والإنصاف، والوفاء.

(٤) ورابعها الحياء: لقوله (منه السّلام) الحياء شعبة من الإيْمان، وهو عبارة عن انحصار النفس والروح والقلب، وانقباضها من ظهور القبيح، وهي من فروع المروءة والتقوى وأثرها وغايتها المتعلّقة بترك القبائح الشرعيّة والعرفيّة.

(٥) وخامسها حسن الخلق: لقوله (ﷺ) حسّنوا أخلاقكم.

وقال أوّل ما يوضع في الْميزان حُسن الخُلق فجعله من الأيْمان والأعمال، وهو الجود والفتوّة والعفو والصّفح واحتمال الأذى مع القدرة على الجزاء والتمكّن منه، والصّبر على الأذى من الخلق وبسط الوجه.

(٦) وسادسها: التواضع: لقوله (ﷺ) من تواضع لله رفعه الله ومن تكبّر وضعه الله.

والتواضع هو عبارة عن حسن الأدب مع الحقّ ومع الخلق:

أما حسن الأدب مع الحقّ: فهو أن يتّضع العبد وينزل عن رأيه وعوائده في الخدمة، وعن رؤية حقّه في الصحبة، وعن رسْمه في الْمشاهدة.

وكيفيّة هذا النزول: أن يَخدم الحقّ تعالى ويعبده بما أمره به بِمقتضى ما أمره به، لا على ما يراه من رأيه، وَالْمقصود لا يعبد الله تعالى إلاّ بِمقتضى العلم الظاهر، ويكون في العبادة خالياً من رأيه وعقله، وان يَخرج نفسه من عوائده التي تناقض الخدمة، مثل كثرة الأكل والنوم، ومصاحبة من يشغله عن الخدمة، ولا يرى لنفسه حقّاً على الله تعالى لأجل عمله، فإنّ صحبة العبد مع خدمة الحقّ توجب عليه الأدب.

ومن جُملة الآداب: أن لا يطلب من الله تعالى حقاً أوجبه على نفسه له، ولا يطلب حقوقه من الناس، وأن يرضى بِما رضي به الحقّ تعالى لنفسه، ولا يقاطع من الْمؤمنين أخاً، وأن لا يرى له عليه حقاً، وأن يقبل من الْمعتذر معاذيره مطلقاً سواء أكان صادقاً أم كاذب، مُحقاً أو مبطلاً، فقد قيل شعراً:

أقبل معاذير من يأتيك معتذرا | إن برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره | وقد أجلّك من يعصيك مستترا

وأن لا يعارض الْمنقول من الكتاب والسنّة بمعقول يُخالف حكم الكتاب والسنّة، وأن يقبل أدلّة العلم الشرعي ولا يتهمها، وذلك هو مَحض الإيْمان، ولا

يَجد في باطنه إلى مُخالفة الشرع طريقاً، ولا يصحّ له ذلك إلاّ بأن يعتقد إنّ نَجاتــه في العلم الشرعي والعمل بِمقتضاه، وأن يقبل حجّة الله تعالى عليــه مُجــرّداً مــن الممانعة، بل بمحض الأيمان، ويعلم إنّه إذا فعل ذلك أتضح له بعد العمل الصــالح بِمقتضى العلم النافع ما كان قد أشكل من وجهِ قيام الحجّة عليه لله تعالى، فإنّ مثل هذا العمل، مثل نور يَجلوا ظلمة الجهل.

وكذلك قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق:٣).

وقال تبارك وتعالى ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ (الأنفال:٢٩)، أي نوراً تفرقون به بين الحقّ والباطل وبين الحجّة الواجبة والمعترضات الكاذبة، فكل مــن قبل حجّة الله تعالى أيماناً، بيّنها الله تعالى له عياناً إذا عملَ عمل أهل التقوى كمــا قال الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٢).

ومن ترك رسْمه - أي ذاته - لتقيها الحقيقة، كان الحقّ عِوَضَــه، وهــذا القسم من التواضع ذاتي غير مكتسب، لأن التجلي نور، والنــور ينفــي الظلمــة، والرسم كلّه ظلمة، فهي تنفر من النور ضرورة وتنعدم به حقيقــة، وفــي حقيقــة الجمع راجع القهقرى بالأمر الإلهي، فإنه لا تتحرك ذرّة إلاّ بإذنه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف:٢١).

وأمّا حسن الأدب مع الخلق: فهو رعاية الاعتدال المتوسط بين الكبر الــذي هو رفع الإنسان نفسه فوق قدره، وبين الضعة التي هي وضــع الإنســان نفســه بِمنزلة تزري به وتفضي إلى تضييع حقّه، فيقيم كلّ أحد على مقدار ما عنده مــن نفسه من القدر، وليقيم نفسه عند كلّ احد مقداراً يعلم إنّهم يقيمونه فيه، ويَحفــظ حدّه ولا يتمنّى فوق قدره ولا ينزل إلاّ في منزلته عندهم لا عند نفسه، فــإن مــن اقتصر على قدره ولا ينزل إلاّ في منزلته كان أبقى لجمال وجهه ويريح ويستريح.

وليس التواضع بتنكيس الرأس وانحناء الظهر والقيام كمــا تفعلــه عامــة الأعجام مقابلة الجهل، فإن ذلك كلّه تَمليق، والتمكّن في الرئاسة وحبّهــا، وإنّمــا التواضع ما ذكرناه، فإذا رأيتم عارفاً ينكّس رأسه وينحني لصاحب دينــي أو دنيــا فإنّما يفعل ذلك لِمشاهدات جلال جبروت إلهي يَجب له التواضع.

فلمّا العارفون أصحاب المكاشفة من المؤمنين، فإنّهم لا يرون في الوجود إلاّ الله تعالى وصفاته وأفعاله بالله تعالى بمقتضى قوله تعالى (بي يسمع وبي يبصر).

فما رآه سواه وقال (ﷺ): أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل.

والباطل عدم بلا شكّ، والوجود كلمة حقّ بلا ريب، فما تواضع العارف لمن تواضع إلاّ لحقٍ وجوديّ باطنه عدم وهو عين المخلوق، فالحقّ تعالى هو مشهودهم في كلّ شيء يرونه بخلاف الجاهل، فإنّه لا يرى إلاّ عين المخلوق لا وجه الخالق، فإنّ كل شيءٍ هالك وهو عين المخلوق لا وجه الخالق.

وقد ورد عن مولانا الصادق منه السلام إنّه قال: التواضع أشرف الأدب، والأدب صورة العقل، فمن لا أدب له لا عقل له، ومن لا تواضع له لا أدب له.

وقال (ﷺ): أدب الدين قبل الدين، فمن لا أدب له لا دين له، والحمد المرشد إلى سبيل الهداية.

(٧) وسابعها اليقين: وفيه يقوم الإيمان وهو عبارة عن سكون الفهم واستقراره وطمأنينته لزوال التردّد والشكّ والوهم والظّن، وهو مأخوذ من قولهم: يقن الماء في الحوض، إذا استقرّ فيه وسكن.

وهذا الاستقرار والسكون إذا أضيف إلى العقل يقال له: علم اليقين. وإذا أضيف إلى الروح النّاطق الآمر يقال له: حقّ اليقين. وإذا أضيف إلى القلب الحقيقي يقال له: عين اليقين. وإذا أضيف إلى السّر يقال له: حقيقة حقّ اليقين.

فاليقين أمر واحد، وبإضافته إلى أهل المراتب المتنوّعة يضاف إليها ما يَختصّ بأهل كل رتبة من علمٍ، وحقٍ، وعينٍ، وحقيقة، وأرباب الكمال يَجمعون جَميع ذلك.

فعلم اليقين: هو درجة الضعفاء من المؤمنين المقلّدين.

وحقّ اليقين: هو درجة المستبصرين المكاشفين.

وعين اليقين: هو درجة العارفين البالغين المْشاهدين الذين عـاينوا الحـقَ فعرفوه عياناً، وتَحققوا صدق ما نقل إليهم فعبدوه إيقاناً.

وحقيقة حق اليقين: هو درجة العبد الكلّي الفاني عن أبيه بسيّده فناءً كليّـاً مُحقَقاً الغائب عن أبيه فيه غيباً كليّاً، وهي غاية المْراتب، فالثلاثة كتابيّة وهو قوله تعالى ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)... ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِـينِ ﴾ (التكـاثر:٧)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (الواقعة:٩٥).

والرابعة سنيّة وهي مأخوذة من قوله (ﷺ) للحارث: إنّ لكلّ حقّ حقيقـة، فما حقيقة إيْمانك؟ فهذه الحقيقة بها يُختبر العبد المْحقّق نفسه فـي دعـواه فـي معرفة علم اليقين وحقّه وعينه وحقيقة حقّه.

تأمل ترشد، واختبر تسعد، ولله درّ القائل شعراً:

تسائل عن علـم اليقـيْن وحـقّه ... وعن عينه كما تفـوز بصـدقه
تأمّـل بعيْن الفكـر تَحـظَ بعلمـه ... وتدرك من العيْن مـن بعـد حقّـه
فعلم الْهدى يهدي إلَى الْحقّ نـوره ... فيشـهد عيْن الْحقّ فْـي مسـتحقّه
فهذا هـو الإيْمان صـدقاً مُحقّقـاً ... بلا مـريَةٍ تلهيك عن فتق رتـقه
تَمسك بهذا فـهو عـيْن عيـانه ... وليس سـواه الْحقّ فانْهض بِحقّـه

فاعلموا أخواني أيّدكم الله تعالى إن مثل علم اليقين كمثل مُخبرٍ صادق أخبر أنّ زيداً في الدار، فصدّقه.

ومثل حقّ اليقين كمثل من سَمع صوت زيد فتحقّقه بعد تصديقه الْمخبر له.

ومثل عين اليقين كمثل من عاين زيداً وقد رآه من الدار معاينةً بعد إخبـار الْمخبر له وسماع صوته، فثبت إيْمانه بالعيان وتضاعف الإيقان. فهذا ما أبان عنه لسان القرآن.

وأمّا ما أبان عنه الحديث فلا يقال إلاّ مشافهةً ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْـبٌ أَوْ أَلْقَـى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:٣٧).

(٨) وثامنها الحبّ في الله والبغض في الله: قال الله تعالى ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٢).

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١). فمن أتى بالشرط استحقّ المشروط، ومن وفى ما عليه استحقّ ما له، ومن أحبّ الله اتّبع حبيبه، ومن اتّبع حبيبه كان من أحباب الله ودخل في زمرة من قال الله تعالى فيهم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤).

(٩) وتاسعها برّ الأخوان: فلقد ورد في الخبر الصحيح إنّ برّ الأخوان كفّارة من عمل الشيطان.

والبرّ قسمان: مساواة ليس فيها تفضيل، ومؤاساة بقدر الإمكان فمن كان له التوسّم فهو ممّن أوجب الله عليه المساواة، وفي هذا خبر أورده صاحب كتاب السبعين في الباب الرابع والعشرين بإسناده عن ثقاته مرفوعاً إلى المفضّل بن عمر (عليه السلام) قال: جاء رجل إلى مولانا الصادق منه السلام أكبر من عرفه فقال يا مولاي أقسم مالي بين إخواني مساواة؟ فقال له ألك التوسّم، فقال وما التوسّم؟ قال الفراسة، وهو أن ترى المؤمن يظهر الكفر فتعلم أنّه مؤمن، وترى الكافر يظهر الإيمان فتعلم أنه كافر، قال لا قال اذهب فآسي ولا تساوي، فليس عليك مساواة وبرّ المؤمن هو صلة الرحم، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله.

وقال (عليه السلام) حكاية عن ربّه (عز وجل): أنا الله الرحمن خلقت الرحم وشققتُ لها أسماً من إسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته.

وقال (عليه السلام): الرحمة شجنة من الرحمن وقال (عليه السلام): إنّ الله خلق الخلق حتّى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقوق الرحمن.

فقال: مهِ. قالت: هذا مقام العائذ من القطيعة.

قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك. قالت: بلى ذلك.

فاعلموا إخواني وفّقكم الله تعالى لمرضاته وأداء مفترضاته، إنّ في هذه الأخبار أسرار عظيمة وعلوماً غزيرة جمّة، ومسائل كليّة معرفتها مهمّة، أولها معرفة حقيقة الرحم ومعرفة كونها شجنة من الرحمن، ومعرفة اشتقاق إسم لها من الرحمن، ومعرفة لما كانت الرحم معلّقة بالعرش، ومعرفة صلتها وقطعها، ومعرفة حقوق الرحمن، ومعرفة قيامها المُشار إليه بقولها هذا مقام العائذ من القطيعة.

ومعرفة إجابة الحقّ لها في عين ما طلبته سبحانه، وهو معرفة دعائها من كونها معلّقة بالعرش، ومعرفة أحكامها، وكل هذه أسرار لم يسطّر شيء منها في كتب أهل التوحيد{العلوم} الباطنة ولا الظاهرة، وهذا الضعيف يشير إلى حقائقها بلسانٍ جامع بين الإجمال والتّفصيل، تحدثّاً بنعم الله وشكراً على ما أنعم به عليّ وأطلعني عليه، وأوضحها لديّ ورزقني المُشاركة مع أكمل خلقه في الإطّلاع على هذه الأسرار واستجلاء هذه العلوم المُكنونة عن الأغيار.

فأقول: بتأييد الله تعالى: أمّا الرحم فهو اسمٌ لحقيقة الطبيعة، والطبيعة عبارة عن حقيقة جامعة بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. بمعنى أنّها عين كل واحدة من الأربعة من غير مضادة، وليس كلّ واحدة من الأربعة من كلّ وجهٍ عينها، بل من بعض الوجوه.

ولمّا أنّها معلّقٌ بالعرش فذلك من حيث أنّ جميع الأجسام المُوجودة عند المُحقّقين طبيعة واحدة والعرش أولها.

وبهذا وردت الأخبار الشرعيّة في أمر الجنّة وغيرها وشهدت بصحّة ذلك مكاشفات الكمّل قاطبة.

ولمّا أنّها شجنة من الرحمن، فمن أجل أنّ الرحمة نفس الوجود لأنّها هي التي وسعت كلّ شيء، فإنّه ما ثَمّ شيء وسع كلّ شيء، إلاّ الوجود فإنّه وسع كلّ شيء، حتّى المُسمّى بالعدم فإنّ له من حيث تعيّنه في التعقّل، والحكم عليه بأنّه بمقابلة الوجود المُحقّق، وتعيّنه ضرباً من الوجود وتعيّناً في التعقّل كتعقّل الوجود المُحقّق وتعيّنه غير أنّ الفرق بين التعيّنين، هو أنّ التعيّن الوجودي له تحقّق في نفسه مع قطع النظر عن تعيّنه في تعقّل كل متعقّل كائن من كان.

ثم اعلموا أنَ الرحمة لمّا كانت أسماً للوجود على ما تقرّر، فالرحمن اسمٌ للحقّ تعالى من كونه عين الوجود، وأمّا أنّها شجنة من الرحمن فذلك من أجل أنَ الْموجودات تنقسم إلى ظاهرٍ وباطن، فالأجسام هي صور ظاهر الوجود، والأرواح تعيّنات باطن الوجود، والعرش مقام الانقسام. فافهموا، وأمّا كون الرحم أخذت بحقوق الرحمن فهو من أجل أنَ الرحمن الذي هو عبارة عن تجلّي الوجود الربّاني الشامل عالم الأرواح وَالْمعاني والأجسام، وله من وجهٍ درجة البيان أي البيت أيضاً، بالنسبة إلى الرحم فله العلوّ، وعلى النصف الأول من صورة الحضرة الإلهيّة، ولهذا كانت الرحم معلّقة بالعرش، فإنَ العرش هو عالم الأجسام وَالْمحيط بجميع الصور الظاهرة، وبه تميّز ما ظهر عن ما بطن، والحقوا الذي هو مشدّ الآزار مبدي النصف الثاني النازل الْمستور بالآزار، الذي هو عالم الطبيعة ومحل أستار الحقّ في التجليّات الخصيصة بالطبيعة، ولهذا جهلتها الْملائكة الْمأمورة بالسجود لآدم، ونفرت من نشأتها الطبيعيّة وذمّتها وأثنت على نفسها.

وأمّا استعاذتها من القطيعة فهو من أجل شعورها بالتّمييز الذي عرض لها من عالم الأرواح، وحضرة النفس الرحماني الذي هو مقام القرب التّام الربّاني، فتألّمت من حالة البعد بعد القرب، وخافت من انقطاع الإمداد الربّاني بسبب الفصل الذي شعرت به، فنبّهها الحقّ تعالى في عين إجابته سبحانه لدعائها على استمرار الإمداد الذاتيّات، فسُرّت بذلك واطمأنت واستبشرت بإجابة الحقّ في عين ما سألت، وأمّا دعائها لمن وصلها، والدعاء على من قطعها، فوصلها هو بمعرفة مكانتها وتفخيم قدرها، إذ لولا الْمزاج الحاصل من أركانها لم يظهر تعيين الروح الإنساني، ولا أمكنه الجمع بين العلم بالكليّات والجزئيّات، بل كان عالم الروح الإنساني بالكليّات أيضاً، مستهلكاً كما أخبر الحقّ تعالى عن ذلك بقوله(والله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً..... الآية) فبالنشأة الطبيعيّة وما أودع الحقّ فيها من الخواص والأحكام والكمالات الرّوحانيّة والطبيعيّة.

وبهذا الجمع توصّل إلى تحقيق الْمرتبة البرزخيّة الْمحيطة بأحكام الوجوب والإمكان، فكملت له الْمضاهات وصحّت له الْمحاذاة، فظهر بصورة الحضرة الإلهيّة وصورة العلم إتماماً ظاهراً وباطناً، فهذا بعض خواصّ وصلها التي أمكن ذكره، وأمّا قطعها الذي أخبر الحقّ تعالى أنّه يقطع من قطعها فهو بازدرائها والجهل

بمكانتها، وبخسها حقّها، فإنّه من بخسها حقّها وازدراها فقد بخس حقّ الله وجهل ما أودع الله فيها من خواصّ الأسماء، التي هي من حيث هي تسند الرحم إلى الحقّ وترتبط به، إذ لولا علوّ مكانتها عند الحق لم يخبرها الحقّ حال الإجابة بقوله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته، ومن جملة الازدراء والقطع مذمّة متأخّري الحكماء لها ووصفها بالظلمة والكدورة وطلب الخلاص من أحكامها والانسلاخ من صفاتها.

فلو علموا إنّ ذلك متعذّر وإنّ كلّ كمالٍ يخلص بعد مفارقة النشأة الطبيعيّة فهو من نتائج مصاحبة الروح للمزاج الطّبيعي وثمراته، وإنّ الْمفارقة إنّما ينتقل من صور الطّبيعة إلى العوالم التي هي مظاهر لطائفها، وفي تلك العوالم يأتي العموم السّعداء ورؤية الحقّ الْموعود بها في الشريعة الْمخبّر عنها إنّها أعظم نعم الله على أهل الجنّة، فحقيقةٌ تتوقّف مشاهدة الحقّ عليها كيف يجوز أن يُزدرى بها وتُذمّ وتهجو، وإنّما حال الخصوص من الله تعالى كمال الكمّل من متدانيهم، فإنّهم إن فازوا شهدوا الحقّ ومعرفة الحقيقة هنا، فإنّه تيسّر لهم بمعرفة هذه النشأة الطبيعيّة حتّى التجلّي الذاتي الأبدي الذي لا حجاب معه ولا مستقر للكمال دونه. فإنه باتفاق الكمال لم يحصل له ذلك إلاّ في هذه النشأة الطبيعيّة الحسيّة، ولا يحصل له بعد الْمفارقة وإليه الإشارة بقوله منه السلام إذا مات ابن آدم أنقطع عمله... وبقوله (ﷺ) في وصف أهل الجنّة : لايستتر الربّ عنهم ولا يحتجب... وإلى هذا أشار بعض العارفين بقوله لبعض تلاميذه : يابني إذا سريت بفكرك في عالم الْمعاني انحجب حسك عن التلذّذ بِالْمغاني، وإذا سرى حسّك في الْمغنى انحجب سرك عن مشاهدة الْمعنى، فالبقاء مع الحسّ أولى في الآخرة والأولى، وسيبدوا لك شرف الحسّ عند الرؤية في جنّة الْمنيّة وأنشد بعضهم شعراً

ياهاجي الصّور التي ظهرت له	حيناً فملّ بديع حسن ظهورها
لو أنّها استترت لطال بكاؤه	ونحيبه شوقاً لحسن سفورها
ألف الظهور فقال هنّ كثائفٌ	وكثيفها هو من تكاثر نورها

وأمّا قيامها ودعاؤها فعبارة عن توجهها الذاتي بصورة الافتقار إلى الحقّ، فإنّ الحقّ سمّي توجهه إلى الخلق بالْمراد قياماً، فقال تعالى (أفمن هو قائمٌ على كلّ نفسٍ بما كسبت).

فاعلموا ذلك يا أخواني وتدبّروا ما أدرجت لكم في شرح هذه الأخبار الشريفة الْمشتملة على هذه العلوم العليّة والأسرار الخفيّة تفوزوا وتفلحوا إن شاء الله تعالى، وعليكم يا أخواني بصلة إخوانكم الْمؤمنين وإكرامهم وتوقيرهم واحترامهم ونصرهم وإعزازهم وستر عوراتهم وسدّ جوعاتهم ومسامحتهم والسعي في قضاء حاجاتهم وترك غيباتهم والاجتهاد في نجاح مقاصدهم.

فحقّ الْمؤمن حقّ الله، من أقام فقد أدّى ما فرض الله عليه، ومن قصّر في حقّه ففي حق الله قصّر.

وقد ورد أن أخاك ربّك فاعبد ربّك أي بخدمته تصل إلى ربك، لأنّ في ذلك مرضاة الله، وقد قال الله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها)

وقال السيّد الرسول (ﷺ) كما تدين تدان وكما تزرع تحصد.

وعن مولانا جعفر الصادق منه السلام قال: الْمؤمن اخو الْمؤمن لأمّه وأبيه أبوه النور وأمه الرحمة، وقد ورد في الخبر إنّ صلة الرحم تزيد العمر قيل هو برّ الأخوان وافتقادهم بما ييسّر الله تعالى.

وقد روى صاحب كتاب السبعين في الباب الثامن والثلاثين منه إنّ العامّة روت عن السيّد الرسول (ﷺ) إنّه قال عن الله سبحانه تعالى: الْم أجيئكم جائعاً فلم تطعموني، الْم أجيئكم عطشاناً فلم تسقوني، فقيل كيف تجوع وتعطش وأنت ربّ العزّة فيقول: جائكم وليٌّ لي وإذا جاءكم وليّي فقد جئتكم أنا.

وفي كتاب نهج البلاغة عن مولانا أمير الْمؤمنين عزّ عزّه ظاهراً لكميل: ياكميل مر أهلك يروحوا في كسب الْمكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع الأصوات سمعه مامن عبدٍ أودع قلب مؤمن سروراً إلاّ وخلق الله من ذلك السرور لطفاً، فإذا نزلت بذلك العبد نازلةٌ جرى إليها كالسيل في انحداره حتّى يطردها عنه كما تطّرد غريبة الإبل، ثم قال إذا ملّقتم فتاجروا الله بالصدقة.

(١٠) وعاشرها التقوى: الجامعة لكمال الأوصاف الحاوية لمكارم الأخلاق وهي الختام، وقد كان يجب تقديم هذا الوصف وإنّما أُخّر ليكون ختامه مسكٌ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ووجه آخر وهو إن الله (ﷻ) قرن البر بالتقوى فقال عزّ من قائل (وتعاونوا على البرّ والتقوى)، فلما ذكرنا البر تاسعاً أتينا بذكر التقوى عاشراً لشرفها، وقد أمر الله تعالى بالتقوى في كثير من آيات القرآن المجيد منها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته)، ثمّ خفّف عنهم لمّا علم عجزهم فقال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم)، وقال تعالى (ومن يتقي الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقد قال بعضهم في هذا المعنى نظماً:

بتقوى الإله نجى من نجى وفاز وأدرك ما قد رجى
ومن يتّقي الله يجعل له كما قال من أمره مخرجا
ويرزقه من حيث لا يحتسب وإن ضاق أمر به فرّجا

وقد روي عن الرسول (ص) إنه قال ثلاث مهلكات وثلاث منجيات ثم أبان عن شرحها فقال:

أما المهلكات فشحّ مطاع وهوىً متّبع وإعجاب المرء بنفسه.

وأما المنجيات فهي تقوى الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضى والغضب فجمع علينا سلامه مكارم الأخلاق ومساويها في ستة كلمات، وهذه الستة هي معنى الآية في قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون).

واعلموا إخواني أيدكم الله بتأييده ويجعلكم من أكرم عبيده، إن الحقوق ثلاثة حقّ الله (ﷻ). وحقّ الخلق. وحق النفس. أما حق الله تعالى فهو أن تعبدوا ولا تشركوا به شيئاً.

وأما حق الخلق فهو كفّ الأذى عنهم ما لم يأمر به شرعاً من إقامة حدٌ وصنائع المعروف معهم على الاستطاعة والإيثار ما لم ينهي عنه شرعاً فإنّه لا سبيل لموافقة الغرض إلا بلسان الشرع.

وأما حقّ النفس فهو أن لا تسلكوا بها من الطرق، إلاّ الطريق الـذي فيـه سعادتها ونجاتها، وإن أبت فلجهلٍ قال بها وسوء طبع، فإنّ الـنفس الأبيّـة إنّمـا يحملها على إتيان الأخلاق الفاضلة ديناً أو مروءةً، فالجهل يضادّ الدين فإن الـدين علم من علوم الله، وسوء الطبع يضاد المروءة، وهاهنا حقّ رابع حـقّ المـؤمن على المؤمن وهو أن ينظر إلى كمال استعداد أخيه المؤمن، فإنّه باب الاسـتحقاق وعتبة رحمة الجوّاد الخلاّق ومجرى هداية الاسم الهـادي بالاتفـاق، وهـو مـن التفضيل الإلهي، وذلك لأن الاستعداد هو تفضيل الحقّ للعبد المستعد لذلك الكمال لا من ذات المستعد فقط بل من المكان والزمان والعوارض اللاّحقة لـذلك المسـتعدّ، فإن مجموع ذلك هو الاستعداد، فيه يقع التفضيل، والحقّ تعالى لايظلم الناس شيئاً، فمن كان استعداده للكمال ظهر كاملاً، ومن دونه إمّا متوسط وإمّا متأخر، ومن كان متوسطاً كان متوسطاً ومن كان متأخراً كان متأخراً (فطرة الله التّي فطـر النّـاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم)، فعلى المؤمن أن ينظر إلى ظاهر مابدى فيعلم إنّه الظاهر الحقّ، فمن كان أفضل كان هو الذي فضّـله الحـقّ، فيجـب أن يعترف له بالتفضيل عليه فيدخل تحت أحكامه، فإنّه ربّه بمقدار ما به فضّله فـإن فضّل أحدهما على الآخر من وجهٍ، وفضّل الآخر من وجه، فهو ربّه مـن الوجـه الذي فضّله به فإنّ الربوبيّة لا تتقيّد بمرتبة واحدة، وإنما هـي حكـمٌ دائـر فـي الأطوار، فحيث تحقق ظهوره من أطوارها فظهرت فيه وجب على عبد تلك القدرة التي ظهرت فيها الربوبيّة أن يعبدها عبادةً مساويةً لما ظهرت به مـن الربوبيّـة، وإن لم يفعل ذلك كان كافراً بربّه تعالى من حيث تلك الحضرة، ولا ينفعه مع كفره بتلك الحضرة إنّه يؤمن بربه تعالى من حضرةٍ أخرى، لأنّه من تلك الحضرة منعّماً ومن هذه الحضرة معذّبا، فيجتمع في حقّه أن يكون منعّماً معذباً في وقـتٍ واحـد، ولا يُقال كيف يجمع الضدان، فإنما نقول إنّهما اجتمعا لتخالف الاعتبـارين، ومـن فرّط في العدل كان ظالماً وبقدر ماهو به ظالماً يعاقب جزاءً وفاقاً.

فاعتبروا يا إخواني كمال الاستعداد الذي هو باب الاسـتحقاق بالتفضـيل، فحيث كان يلزمكم له التعظيم والتبجيل فإن وجدتم محل التعظيم فعظّموه، وإن أتاكم جاهل فعظّموه، وإن أبى فاحرموه، ومعنى التحريم له اجتماعكم بـه فيمـا يوجـب السكوت أو التكليم، فإنّه من الذين حرموا قال الله تعالى (حرّمت عليكم الميتة والدم

ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلاّ ما ذكيتم) أي إلاّ من هديتم وأرشدتم إلى الحقّ وباطن الشرع للآية. والميتة إشارة إلى الذين لا استعداد لهم لشهود ظهور المعنى بذاته لخلقه كخلقه.

والدم إشارة إلى أهل الغضب فإن الغضب غليان دم القلب ولحم الخنزير إشارة إلى الذين لا غيرة لهم على أنفسهم، وما أهل لغير الله به إشارة إلى أهل الرياء (الذين لعنهم الله فاصمّهم وأعمى أبصارهم) فلم يسمعوا خطاباً (كأنَ على قلوب أقفالها) (فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن (فإنّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (سورة الحج: من الآية ٤٦) القلوب التي في الصدور) والمنخنقة إشارةُ إلى الذين اختنقوا بتكليف ما لا يطاق، والموقوذة إشارةٌ إلى الذين فسدت أمزجتهم بالرياضة المفرطة من غير دليل مرشدٍ عارفٍ بالتربية والسلوك، والمتردية إشارة إلى الذين وقعوا في شبهةٍ منعتهم التوجه إلى الله تعالى. والنطيحة إشارة إلى الذين أضلّهم غيرهم بوجهٍ من الوجوه، وما أكل السبع إشارة إلى الذين تركوا شيخاً عارفاً بالتربية والسلوك لمّا رأوا شيخاً ظاهراً عليه أثار العبادة والتخشع، ويكون له سماطاً ممدوداً، وهو جاهل، فمالوا إلى تقليده دون الشيخ الأول العارف، وأمّا قوله تعالى (إلاّ ما ذكّيتم) فإنّ معناه إلا ما خلصتموه مما وقع فيه من النقص بالهداية والإرشاد إلى الحقّ والحقيقة والكمال، وعلى هذا التقدير فلا تنسبوا ربّكم إلى النقص بوجه من الوجوه، وإذا رأيتم من فضّله الله تعالى عليكم ولو في رتبةٍ ناقصة يجب عليكم أنّ تفضلوه على من هو دونه تفضيلاً مساوياً لاستحقاقه إن أمكن معرفة استحقاقه، وإلاّ بقدر الإمكان. ولله درّ القائل شعراً:

لا تضع من عظيم قدرٍ وإن كنت مشارٍ إليه بالتعظيم
فالكبير العظيم يصغر قدراً بالتجرّي على الكبير العظيم
ولع الخمر بالعقول رمى الخمر بتجيسها وبالتحريم

رسالة

تحفَة الرّوح والإنسْ في معرفة الرّوح والنّفسْ

الحمد لله الذي تجلًى الأسرار الموحدينْ بذات مقدَّسة عـن الأينيّـة وتجلّـى لقلوب الموحدينِ بعظمةٍ مُنزّهةٍ عن الكيفيّة وتعرّف إلى نفوسْ العارفين بوجود منزّهٍ عن الكميّة وتحقّق إلى الباب الموقنين بحقيقةٍ متعالية عن الكمية. وسقى من مشـرع التحقيق أرواح المؤمنين بأقداح البراهين العقليّة والأدلة النقليّة.

فلم يكرعِ منَ الزُلال. الرّوي مَن عَرِف التوحيد غير المتقـين مـن الشـركْ والثنوية. فسبحانه منْ واحدِ توحّد في أزل الآزال بأحكام الأحديّة وتباركَ من فـردِ تفرّد في العزّ والجلال بنعوتْ الصّمديّة وتعالى بعلوّ أحذيته عن الجنس فـلا يحـوم حَولَ سرداق كبريائه سؤال الماهيّة وتقدس بسموّ صمديته عن النوع.

فلا يرتمي سهم الوهم الرحمن عزّته الإلهية والصلاة التي هي الصّلة علـى ذاتْ محمّد ذي المعالي العقليّة والحسيّة وعلى آل ذويْ المراتـب القدسـيّة وعلـى أصحاب أولي المقامات السّنيّة وعلى أتباعه ذوي المكارم والأخلاق الرضيّة. وعلى ورثته أربابْ المناقب الشريفة العلويّة. وبعد. فهذه إخواني كلمات عرفانيّة ونكتـاتِ وجدانيّة وإشاراتِ عرشيّة وتلويحاتِ لوحيّة. سُطِّرت بأقلام شـهوديّة علـى أوراق وجوديّة. وسمّيت بتحفة الرّوح والأنسْ في معرفة الرّوح والنّفس ورتّبتْ على مقدمة وثلاث تنبيهات.

مقدّمة الرّسالة: في بيان ما أُطلق عليه لفظة الروح.

اعلموا إخواني: أطلعكم الله على حقائق الكتاب المسطور وأوقفكمِ على رقائق الرق المَنشور. إنّ لفظ الروح يُطلقُ على معانٍ مختلفة متباينة شتّى. لكلّ عبارة منها مَعنىً. فيُطلقُ ويُراد به الملائكة الكروبيّون المهيمون في طاعة الله عزّ وجلْ وهـم طائفة ليس عندهم علم ولا شهود إلاّ جلال الله عزّ وجل. لا يعرفون إن الله تعـالى خلق خلقاً سواهم لإشتغالهمْ به تعالى عمّا سواه فهم هـائمونْ فـي شـهود جـلال

ونظيرهمْ مِنَ البشر الأفراد الخارجون عنْ دائرة الأقطابْ. المشارُ إليهمْ بقوله عليه الصلاة والسلامْ فيما "رَوَى" إبن عباس. إنّ رسول الله "ص" خرج ذاتَ يوم على قوم يتفكرُون فقالَ: ما بالكم لا تتكلّمون؟ فقالوا: نفتكرُ في خلق الله. قالَ فكذلكَ فافعلوا. تفكرّوا في خلق الله ولا تتفكروا فيه. فإنّ بهذا المغربْ أرضاً بيضاء بياضها نورها مسيرَة الشمس فيها أربعون يوماً بها خلقٌ من خلق الله تعالى لم يقضوا الله طرفةَ عين. قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟

قال ما يدرون خلُقَ الشيطان أمْ لا؟

قالوا: من وُلد آدم همْ. قال ما يدرون خُلِقَ آدم أم لا. ورُويَ عن الإمام جعفرِ بنْ محمّد الصّادق إنّه قال: مِنْ وراء عالمكم هَذا الستّة وثلاثون ألف عالمْ في كلّ عالم ستةَ وثلاثون ألف مدينة. في كلٍّ مدينة ستَّة وثلاثون ألفْ بابْ على كلِّ باب ستةَ وثلاثون ألف نفسْ منفوسة لا يعلمون إنّ الله خلق آدم ولا ذريَّته. همْ أعرفْ بنا وأطوع منْ أحدكم لهواه وهم على ذلك لا يعلمون إنّ الله خَلَقَ خلقاً ولا أنزل كتاباً.

قلتُ هذانْ الحديثَان يطولُ فيهما نظر الناظر ولا يستوفي العارف بخار المعرفة التي أفاضها الله تعالى عليهْم وإن عمَّروا عِمْرُ نوح. ويطلق ويُراد به الملائكة المسخّرة الذين هم عماد السموات والأرضْ لا يعصون الله بما أمرهم ويفعلون بما يُؤمرون. سخّرهم الله عزّ وجلّ إلى الإنسان في جميع مصالحه دنياً. وبرزخاً. وآخرةً. ويُطلقُ ويُرادُ به الأرواح المدبِّرة لأجسامنا التي قضى الله عليها الموتْ وسخّر بعضها لبعض فالأرواح المهيمة حائرة.

والأرواحِ المسخّرةَ ذاكرة. والأرواح المدبّرة ناهيَة وآمرة. ويطلق ويُراد به الروح الذي يُنفخُ منه عند كمال تسوية الخلق. وهو الروح الذي سُئلَ عنه رسول الله "ص" فلم يجبْ عنه حتّى نزلَ عليه قوله تعالى "ويسألونكَ عن الروُح قل الرّوح من أمر ربّي... " وقيل هو ملَكٌ عظيمْ يقومُ وحدَهُ يوم القيامَة صفّاً صفّاً. والملائكة صفّاً صفّاً وَاعلم: إنّ حرفْ "من" هُنا. لتبيين الجنسْ لا للتبعيض يبيّنْ به إنَّ الذي يَصلحُ للمكلَّفْ أنْ يطّلعَ عليهْ مِنْ حقيقة هذه الرُوح هو أنْ يعلمْ إنّ هناك شيء من عالم الأمر لا من عالم الخلق.

وعَالم الأمرْ: هو عالم ما صَدَر عَنْ الله تعالى بغيْر واسطةٍ إلاّ بمشافهة الأمر الرَّبانيْ الوحداني. وهو السَّببْ الثاني بالإضافة إلى وجود المطلق. والسَّببْ الأوَّل بالإضافة إلى الوجود المقيَّد فهوَ أوَّلٌ في المُبدعات.

وعَالمُ الخلقْ: هوَ كلُّ ما صدَر عنهُ تعالى عند سبب متَقدَّمْ مِنْ غيرْ مشافهَة الأمر العزيز قال الله تعالى "ألا لهُ الخلقُ والأمر تبارك الله ربُّ العالمين".

ولامْ "لهُ" هُنا بمعنى منهُ وليسَتْ للمُلكْ. بل بمعنى الصِّفَة. كما يُقال: "لهُ خيلٌ وجمال ودارٌ وعقار ومقَام لهُ دونَ مقام. فافهمْ وما فهمكَ إلاّ بالله. ونسبة هذا الروح إلى البدَنْ كنسبة المُلكْ إلى دارِ مملكتْه فهوَ الحاكم والآمر والنَّاهي. والقلبْ كالمنزل الخاص لهُ والأعضاء "الحواسْ الظاهرة والباطنة" كما الخدمْ لهُ ينهضون عند إشارته ويسكنون عند سكونه والعقل كالوزير له والشَّهوة كالخادم الموَكل بما يحتاجُ إليه منزلهُ منَ المأكول والمشروبْ. ومرمَّمة مما تشعَّث وإصلاح مما تهدَّم.

والغضَبْ كالحاجبْ الذي إليه السياسة وإصلاح دار مملكته ليذلَّ أعدائه ويعزُّ أوليائه. سُئلَ شيخنا شيخ الطريقة وإمام الحقيقَة "جنيد السَّائح" البغدادي قدَّسهُ الله عن حقيقة الروح. فقال: إنَّهُ موجودٍ استأثر الله بعلمه ولم يطلعْ عليه أحدٍ من خلقه. فلا يجوز العبارة عنهُ بأكثر من أنَّه موجودٌ أمري لأنَّه لم يَرد الشَّرع بالإذن في ذلك إلاَّ أنَّه منْ أمرُ ربي. وسُئِلَ الشيخ الكامل صدر الدين محمَّد بن اسحاق الملطي قدَّسه الله عن الروح. فقال: الروح عبارة عن حصَّة من مطلق الوجود منصبغةً بأحكام الحياة بالعلم والإرادة والقدرة على وجه السَّلطنة فيها للحياة. وبالجملة فلا ممكن لأحدٍ أن يُعرَفْ الروح بأكثر ممَّا عرَّفنا الله تعالى في كتابه العَزيز وهي كافيةٌ لمنْ لهُ فطنة وافيَة. ويُطلق ويُرادبه النُور الذي يجده أهل الله عزَّ وجلَّ عند الإنقطاع إليه بالهممْ والعبادة. وهوَ نور موهبٌ من حضرة الربوبية لا منْ غيرها من الحضراتْ وأصلهُ من الروح الأمريَ الذي لم يوجدُ عن خلق وهوُ النفسْ الرحماني المشار إليه بقوله عليه السلام.

إني لأجدُ نفس الرحمن من قِبَل اليُمن ... اليُمنُ: في العالمِ الأكبر عبارة عن العرش الذي عليْه استوى الرحمن وفي العالم الصَّغير: هوَ عبارةٌ عن العرش الذي عليه الله وهو قلبْ العبد المؤمن المستغرق في الشهود الذي لا يلوي إلى شيء وذلك

لأنَّه محوٌ في وجوده تعالى لا يشهد غيرهُ ولا يرى سواه وهاهنا نكتــه وجدانيَّــه... وهو إنَّ أويسْ القَــرُني "رض" كان في ناحيةِ اليمَن منْ قبيلة يُقال لها القرن ولم يكنْ له اجتماعٌ حسنٌ مع رسول الله "ص" وكانت أمّه تكرهُ مفارقته إيَّاها..

ولم تأذن له بالهجرة إلى رسول الله "ص" فكان لأجــل ذلــك دائــم التلهُّــف والتحسُّر والتولُّه والتحيُّر.. فيُظَنُّ به جنونٌ وكان كلّما حنّتْ طبيعتــه الثــائرة إلــى مُشاهدة الحضرة النبويَّة وتنوير مشكاته بأنوار الطلعَة المحمَّديَّة وهمَّت نفسُه القاهرة على حصول الملاطفة الأحمديَّة عاقهُ رضاها عنْ التوجُّه إليْه ومنعتهُ صلة الــرحمْ عنْ المثول بين يديْه مع ما كانت قوَّتهُ الرُّوحانية حاكمةٌ بإنَّ الأرواح متلاقيــة وإن تباينتْ الأبدانْ.. متناجيةٌ وإنْ تباعدتْ البلدان وكانــت قوَّتــه الطبيعيَّــة ودغدغتــه الوهميَّة تتواجدُ على حصُول المشاهدة الشخصيَّة البدنيَّة.. وتتهالكُ علــى وصــول الملاطفة الأنسيَّة. وتزعمُ إنَّ بذلكَ سكون البلبال وركونْ ذلك الخيال – إستقرار تلك المخيّلة تمام الإتصال فكان في تلك الحال يخطُر ذكرهُ بقلبْ رســول الله "ص"ممــا يؤدِّيه إلى شهود وجه الحقّ في تلك القواطع المانعَة والموانع العائقة. فيجــد بــذلك النَّفسْ الرحماني..

حياة طيبة ويحصلُ في قلبه سكينةٌ نوريَّة فيسكن "رض" عنْ تلــك الحركــة الشوقيَّة الموجبَة لمفارقة الله فيعودُ إلى خدمتها وقد ارتفع عنه حجاب ظلمة المســافة الحسيَّة لظهور نور النفحات القدسيَّة المشرق على قلبه بواسطة ذكر رسول الله "ص" عن هذا النُور الرَّباني والسرّ الإلهي بالنَّفس الرحماني فإنّ به صار من ضار حيّاً إذ النَّفس الرحماني هو الحياة السَّارية في الموجودات لأنَّه حركةُ وجوْدِهِ به وفيْه ومنــهُ تتعيَّن الموجوداتْ كلّها. وهذا النُور هو المشارُ إليه بقوله تعالى:

"وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما هو تحت كسبك ولا تعلّق لك خــاطرٌ بتحصيله ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نســاء من عبادنا.. "

فأوليس ومنْ كان على قلبه وقدسه أي تقلبه في الأحوال والأعمال هو ممَّــن شاء من عباده فلا مانع من أنْ يُقال لهم عند حصول ذلك النَّفس الرحماني وإشــراق ذلك النور الربَّاني وظهور ذلك السرّ الإلهي...

"فلانٌ.. صاحبُ نفسٍ أو ذو روحٍ أو.. حيٌ. وقد التحق بالأحياء وهو المُشار إليه بقوله تعالى

"أو من كان ميّتاً فأحييناهُ وجعلنا له نور يمشي به في الناس.. " وقوله تعالى "ومن لم يجعل الله له نور فما له من نور.. " فكان يجعل الله" لم يضفهُ إلى الإكتساب بل هو عطاء الملكُ الوهاب ويُطلق ويراد به "البُخار" المتولِّد من لطيفات الأخلاط الأربعة وهو ما احتوى عليه تجاويف القلب الصنوبريْ..

والرُّوح: هو ما روَّح هذا الرُّوح وما دخل في آلة التنفُّس بالإنقباض وخرجَ بالإنبساط وهذا الرُّوح.. ميثوث في الهواء والمواضع الحاليَّة من العالم الأكبر كإنبثاث الرُّوح في المواضع الحاليَّة من القلب والعروق الضَّربة في أنحاء الجسم المتشعِّبة فيه وإليه الإشارة بقوله "ص"..

"لا تسبُّوا الرِّيح فإنَّها من نفس الرحمن" أيَ فإنَّها ممّن نفَّس الله بها عن عباده ومن هنا.. قيل:

"الرّوح" باطن مصورِّ الصُّوَر لأنَّه نفسْ.. والصُّورة جزء لمن صوَّرها إذ نفخ فيها روحاً فإنّه فيها منه.. ويُطلق ويراد به النَّفس النَّاطقة وهي القوَّة الإلهية السَّارية من قلَّة العالم الأكبر إلى قلة العالم الأصغر المتَّصلة بنا الغير منفصلة من عالمها الممدَّة بما يكون قبل كونه. التي هي دون سائر الأشياء.. تعطينا معرفة العلم بالعلويَّات الكلِّيات والسُّفليات الجزئيات وإن كان في عالمنا للجزئيَّات شريك من الحواس. فهي المتوحِّدة بإعلامنا أمر الكلِّيات بغير توسُّط الحواس وهذه المعرفة قد تصل إلينا بالعقول الصَّافية دفعة وبالرؤيا الصادقة أخرى عند إطلاع ما يخصُّنا منها إلى ما حولنا ونتذكر ما في طبعها علمه ومن الأكياس..

من ينظر إنَّها ممّا سيكون من قبل كونه والفرق بين الرُّوح البخاري - والروح الإلهي المُسمَّى بالنَّفس الناطقة إنَّ الرُّوح: جسمٌ لطيف.. والنَّفس الناطقة ليست بجسم والروح يحويه الجسم. والنَّفس لا ينهاجم والرُّوح: إذا فارق الجسد بطلَ.. والنفس الناطقة: إذا فارقت الجسد أعني إذا فسد مجال البدن بالكليَّة بطلتْ أفعالها من البدن ولم تبطُلِ هي في ذاتها.. لأنها جوهرٌ روحاني في غير جسم ولا جسمانيّ وليست ذات محلٍ، ولا ضدَّ لها ولا مُزاحمْ..

ومُبدعها دائم فتدوم به وليس بينها وبين البدن إلاّ علاقة عرضيَّة شوقيَّة. ولا يبطل ببطلانه الجوهر والنفسُ الناطقة: تحرّك البدن وتنيله الحسّ والحياة بتوسُّط الرُوح والرُوح تفعل ذلك بغير توسُّط.. والنفسُ الناطقة تحرك البدن وتنيله الحسّ والحياة فإنّها أوّل علّة لذلك وفاعلة فيه والرُّوح تفعل ذلك وهي علّة ثانية.. فالرَوح إذاً علّة قريبة لحياة البدن وحسّه وحركته وباقي أفعاله.. والنَّفس الناطقة علة بعيدة لذلك..

وذلك إنّ الإنسان لمّا كان مركّباً من أجزاء صلبة: وهي الفعظام والأعصاب والعروق وما اشبه ذلك.. ومن أعضاء رطبة وهي الأخلاط الأربعة أعني الدمَ والبلغم والمرَّة الصفراء والمرَّة السَّوداء أو من الرُوح الذي في تجويف القلب والدماغ والشريانات والأعصاب. ولأنّ الرُوح أرقّ هذه الأجزاء وألطفها وأصفاها كان ذلك أشدُّ قبولاً لفعال النّاطقة من سائر أجزاء البدن وعلى قدر ذلك من رقته ولطفه وصفائه قبل منْ فعال النَّاطقة وكذلك قالت الفلاسفة:

إنَّ قول النَّفس تماميَّةٌ لمزاج البدن كما إنَّها تمام لجسم طبيعيّ آليّ ذي حياة بالقوَّة.

وهي في الجسم بمنزلة الصُورة في الهيولى. والجسم للنَّفس النَّاطقة كالهيولى للصُورة فمن كان مزاج بدنه في غاية الإستواء صفا ومن قصَّر مزاج بدنه أعني الأعضاء التي فيها الرُوح عن الإعتدال المخصوص بها قصَّر أيضاً الرُوح عمَّا يجب له من الرقَّة واللّطف والصَّفاء كما قصَّرت أفعال النَّفس فيه لتلك العلة ولذا صارت قوَّة النَّفس في الصّبيان ناقصة ضعيفة..

وكذلك في الأمم التي غُلبَ على أمزجتها الحَرّ والبرد كالزنج والصَّقالبة وما ناسَبَ بهاتيْن الأمتيْن ولذلك أيضاً اختلفت أفعال النَّفس فصارت في الروح الذي في القلب الحياة والتنفُّس والقبض فقط إذ ذلك الرُوح أقرب الأرواح إلى الهواء وأقلُّها رقَّة ولطفاً وصفاءً ثم الرُوح الذي في تجويف مقدَّم الدّماغ صار فيه الحسْ والتخيُّل لما ناله منْ زيادة الرقَّة واللُّطف والصَّفاء الذي في تجويفات القلبْ.

ثمَّ الرُوح الذي في مؤخَّر الدّماغ صار فيه الذكر والحفظ لما يحتاج في ذلك إلى فضل الرقَّة واللّطف والصَّفاء. على ما تقدمه من الأرواح إذا كان يريد أنْ يذكر

أشياء قد قضت وبعد عهدها.. فهذا ما أردنا إبرازهُ في هذه المقدّمة والله الموفق للصوَّاب والهادي إلى وحدة العقل الوهَّابْ..

التنبيه الأول: في بيان معرفة النَّفس الإنسانيَّة عقلاً ونقلاً

... اعلموا إخواني: حققكم الله بحقائق ذواتكم واطلعكم على رقائق أسمائكم وصفاتكم.. إنَّ النَّفس الإنسانيَّة هي حقيقة واحدةٌ بالذات متكثِّرة بالأمثلة والصِّفات فبإعتبارات يعبَّرُ عنها بعبارات فتُسمَّى تارةً روحاً أمريّاً وتارة لطيفةً مدركة وتارةً كلمةً طيّبة وتارةً كلمةً جامعة فاصلة وتارةً نفساً مطيعة وتارة نفساً ناطقة وتارةً عقلاً ولبَّاً ونُهىً وحجراً وغريزةً. وإنْ كانَ كل واحد منْ هذه الألفاظ يُطلقُ على معنىً مشتركْ بينَه وبينْ تلكَ المعاني. إذ القوم قد يطلقون على القلبْ الرُّوح وبالعكس ويريدون بالرُّوح تسميَة الفلاسفة نفساً ناطقة ويسمُّونَه روحاً أيضاً.

وأمَّا النفس فعند الصوفيَّة هي الأوصافْ المذمومَة. والرُّوح هي الأوصاف المحمودة ولا أربٌ لنا في الألفاظ، وإنَّما المقصود المعنى ولا مشاحةَ في الألفاظ والأسماء والألقابْ إذا فُهِمَ المعنى ولله درُّ القائل شعراً

عباراتنا شتّى وحسنك واحدُ وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشيرُ

وأمَّا الدليل العقلي على إنَّ النَّفسُ الإنسانيَّة التيْ هي خاصيَّة الإنسان واحدةٌ لا اختلاف فيها بالحقيقة والذات، بل بالأخلاق والصِّفات التي هي مِن توابع مزاج البدَنْ وهي مِنَ العوارض العارضة لذات النفس هو إنَّ النفوس كلَّها فاضت من مبدأ واحد بسيط.

وهو المسمَّى عند الحكماء بالعقل الأخير الفعَّال الواهب للصُّوَر وهو لا تركيبَ فيهْ ولا اختلاف ويستحيل أن يكونَ في النفوس الفائضة منهُ اختلاف بالحقيقة لأنَّ إتحاد العِلَّة علة إتحاد المعلول كما عرفوا من أنَّ القاعدة القطعيَّة المشهورة إنَّ الواحد لنْ يصيرَ مصدراً لاثنين مختلفين قط، وأيضاً لو اختلفت النفوس بالذات حتى كانت كالجنس وامتازت الأنواع بالفصول.

كان كل نوع منها مركّباَ من جنس وفصل وقد برهنًا على امتنـــاع التركيــب والانقسام فيها، ولو كانت كلُّها أيضاً من نوع واحد لامتازت الأشخاص بـــالخواصْ والصفات فيلزمُ ما ذكر من استحالة التركيب باعتبار النّوع لا باعتبار الصّــفات لأنْ نقولُ عروضْ الصّفات الخارجيّة لا تركّب في الذات، إذ الصّفة لا تدخل في حقيقــة الذاتْ، أما الفصول الذاتيّة المميّزة بين الأنواع فهيَ داخلةٌ في الذات مركّبــة لهـا، فالفَصل هو الفَصلْ في هذا الفَصل.

وأمّا الدّليل النّقلي فكثير، منهُ قوله تعالى: "هو الذيْ خلقكم منْ نَفْسٍ واحــدة" فهذه الآية دلَّت على مبدأ كلّ النفوس واحداً، وقد عرفتم إنّ إتحاد المصدر دليل إتّحاد المصَادر ومنه قوله تعالى: "ما خلقكمْ وبعثكمْ إلا كنَفسٍ واحدة" فهذه الآية دلّتْ علــى اتحاد المَبدأ والمعاد للنفوس الإنسانيَّة، ومنهُ قوله "ص" كل مولود يُولد على الفطـــرة فأبواه يُهوّدانه ويُنصِّرانه ويمجِّسانه، فهذا الحديث دلَّ على أنَّ النفوس الإنسانيِّة كلُّها مفطورة فطرةً واحدَة..

إلاّ إنّ رزائل الأخلاق والعاداتْ ومساوىء الأفعال والإعتقاداتْ ممَّا يُنجِّســها ويخرجها عنْ طهارتها ونضارتها كتهوُّدْ أبويْه وتنصرهما.. وتمجُّسهما.. فثُبتَ بهذه البراهين العقليّة والأدلَّةُ النقليّة إنّ حقيقة الإنسان هي حقيقـــةٌ واحـــدة مقدَّســة عـــنْ الإختلاف في ذاتها، وإنّ جميع ما يطرأ عليها ليس إلاّ مِنَ المـــزاج المعبَّــر عنـــهُ بالإستعداد وهو بابْ رحمة الملكُ الجوّاد.

والقبول إنّما هُوَ بحسبْ الاستعداد فإنّ النّفس منفوخة فهيَ نفــسٌ مـــنْ روح طاهرْ مضافْ إلى الحضرةَ المقدَّسَة المشار إليها بقوله تعالى "فإذا سَوَّيْته ونفختُ فيه من روحي... " فليس ما يطرأ عليها إلاَّ المزاج وللشيخ الكبر "محي الدين بن محمد العربي" بهذا المعنى نظما وهو هذا الرّوح واحدةٌ والنّشأ مختلفٌ في صورة الجســم كان الأمر فاعتبروا في الجسم كانَ اختلافُ النَّفس فاعتمدوا على الذي قلتهُ فـــي ذاكَ واذكروا فإنّه العلمُ لا ريبٌ يُداخلهُ الشمسُ تعرفُ ما قلناهُ والقَمرْ

معناه إنّ نور الشمس هُوَ على صفة واحدة فيضربُ فـــي الزجـــاج المتلـــوّنْ فيعكَسْ فيظهر فيه ألوان ما عليه الزُجاج في رأي العين والنور فب عينَه ما تغيَّـــر، فأفهموا المثل فإنّه قد جلَّ، وكذلكَ التحوُّل والتَّمثيل فاعلمه وهو المشار إليهما بقولـــه

"ص" أوّل ما خلقَ الله العقل فقال له أقبل فأقبَلْ، ثم قال له أدبرْ فأدبَر، فهو المستفيد لتوحُّدهِ المقيَّد.

فبوجهه الذي يلي عالم الحكمة كان يظهرْ للرُسل عليهم الصّلاة والسّلام ويلقي أيّ القوَّة الجبروتيَّة إليهم الوحي من الشعائر والشرائع لمصلحة سكان عالم الحكمة.

فينطلقُ للرُسلْ لسانان، لسانُ الموعَظة ولسان المجادلة، تبيِّنُ لنفوسِ خامرها الإباء والإستغصاء حتى تفيئُ إلى أمر الله فتحتوي كلمة الدَّعوَة عليهمْ فعلى هذا المعنى إذاً قول مولانا أمير المؤمنين "مَنْ عرفَ نفسهُ فقد عرفَ ربَّه" وهي فصلُ الخطاب، "كأنَّ مَن عرف نفسهُ عرفَ غيبهُ ومَنْ عرفَ غيبهُ فقد عرفَ غيبْ الحقّوما فيه من الملائكة والعلوم والعرش والكرسي والقلم واللَّوح، قيل العَرش عقلْ ونفسْ وهباء وجسمْ، والجملةُ اليوم أربعة وغداً ثمانية وهم: اسرافيل وآدم وهما للصُّورَة وجبريل ومحمَّد وهُما للأرواح، وميكائيل وإبراهيم وهما للأرزاقْ، ومالك ورضوان وهما للوعد والوعيد، ومَنْ عرفَ غيب الحق عرفَ جبريل، ومن عرف جبريل عرفَ حَمَلةُ العرش ومَنْ عرف الحَملة عرفَ الأسماء والصِّفات بقدر استعداده.

ويَعرفُ كل ذلكَ بوجهه الَّذي يلي عالم الغيبْ. ومن عرفَ وجه نفسه الباطنة الذي هوَ عالم الشهادة عرفَ نفسَهُ الظاهرة ومَنْ عرف نفسه الظاهرة عرفَ شهادتهُ ومن عرفَ شهادته عرف شهادة الحقْ وما فيها منَ المكوِّنات، ومن عرف المكوِّنات عرفَ الأخلاق، ومن عرف الأخلاق عرف آدمْ عليه السَّلام والصلاة من الله عزَّ وجلْ، ومن عرف آدم عرفَ النبي الأميْ عليه السَّلام ومن عرف النبيُ الأميْ عرف سائر الأنبياء، ومن عرف سائر الأنبياء عرف الله عزَّ وجلْ.

ينبوع الوجود ومُفيض الخير والحياة والحاصِلْ: إنَّ مَنْ عرف نفسه حقَّ معرفتها لا يُخفى عليه شيءٌ لا في الأرضِ ولا في السَّماء ولا يجهلُ شيءٌ لا في الدنيا ولا في الآخرة سوى الأمور التي تتعلّق بظاهر الدنيا فلا يَعرفُ أكثرها ويجهل أغلبُها، كما رُويَ عن النَّبي في حديث "تأبير النَّخل" إنَّه قال:"ما أرى تركَكمُ تأبيرهُ مضرَّة تحصَل لهُ، فتركوا تأبير النَّخل ففسَدت ثماره فقالوا لهُ يا رسول الله فسدتْ الثمارْ، فقال لهم أنتم أعلم بأمر دنياكم وأنا أعلم بأمر ديني".

فكانوا أعلم بهذه ولم يَقدح ذلك في كون الرسول "ص" أعظمُ قدراً مـنْ كـلِّ البشر فكذلكَ حكمُ مَنْ عرفَ الله، أمَّا بعد، مَعرفةَ نفسه بالصُّورة أو بالنقيض أو قبل معرفة كل شيء، فإنَّهُ لا يلزم أن يكون له التقدُّم في كلِّ شيء وفي كلِّ مرتبَة فـإنَّ نظر المقدَّم إلى التقدُّم في رتبَة المعرفة بالله عزَّ وجلَّ هناكَ مقصدهم ومَطلبهمْ، وأما حوادث الأكوان فلا تَعلُّقَ لخواطرهم بها، وكـذلكَ فـي تـرجيح رسـول الله، رأي الفاروق على رأي الصدِّيق في قصَّة أسارى بدر وهي مشهورة.

مع إنَّ "الصديق" أفضلَ منهُ ولم يقدح ذلكَ في كونه ترجُّح عليـه الفـاروقُ فمهما اطَّلع الإنسان على هذه الموازنة التي بينَ الإنسان وبين الحقِّ والعالمَ انكشفتْ لهُ سر قوله "ص" إنَّ الله خلقَ آدمَ على صورتِه وبينَ قوله:"كنتُ سمعَه وبصرهُ... " "الحديث" ولما كان باطن الإنسان على صورة حقائق الأسماء الآلهيَّـة مـن الحيـاة والعلم والإرادة والقدرة والسَّمع والبصر والكلام.

قال تعالى:"كنتُ سمعه وبصره... " ولو كان ظاهر جسمْ الإنسان على صورة الحقِّ لقال: كنتُ عينه وأذنهُ ففرَّق بين الصُّورتين، فصورته الظَّاهرة من حقائق العلمْ وصُورهُ، وصورتهُ الباطنة على صورته تعالى، وسيأتي تفصيلهُ إنشاء الله إن شـاء الله تعالى. والمراد بهذه الصُّورة "الصُّورة المعنويَّة" وهي إشارةً إلى المضاهاتَ التي ذكرناها، فعلى ما ذكر، ليس غيركَ يا عين الوجود فافهمْ تلكَ من أهل الشهود.

ويرجع الجميع إلى الذاتَ والصِّفاتَ والأفعال، إذ إليه يرجع الأمر كلُّه كشـفاً وحقيقةً.

فانظروا إخواني إلى حقيقة ذاتَ النَّفسْ الإنسانيَّة وصفاتها وأفعالها لتنكشـف لكمْ هذه المضاهات المذكورة في الحديث النَّبويِّ ولولاها لم يقـدر الإنسـان علـى التَّرقي من معرفة نفسه إلى معرفة ربِّه، ولولا إنَّ الله تعالى جمع في الإنسان ما هو مثال جملة العالم حتَّى كأنَّه نسخة مختصرة منه، وكأنَّه ربٌّ في عالمه متعرِّفَ لمـا عرف العالم ولا التصرُّفَ الإلهي ولا الربوبيَّة العالم حضرة الربوبيَّـة. وحضـرة الإلهيَّة وأنت من جملته.

ولهذا يُقالَ: الكامل يرى الكونَ كلُّهُ ويرى السدرة عنده وجملـة الكـونْ، ولا الفعل ولا العلم ولا الإرادة ولا القدرة ولا سائر الصِّفات الإلهية... فصارت الـنفسْ

بمضاهاتها وموازنتها مرقاةَ ربِّها، فحقيقة ذاتها قائمة بذاتها ليستْ بعرضٍ ولا جسم ولا هيَ متحيِّزة ولا تحلُّ المكان والجهة ولا هي متَّصلةً بالبدنْ والعالم، ولا هي منفصلة عنهُ ولا هي داخلةٌ في أجسام العالم والبدن.

ولا خارجةَ عنه وهذه كلُّها صفاتُ ذات الإله تعالى وتقدّس ولا توجبُ المثليّة لإنّ الإشتراكَ في السّلوبْ لا يوجب الإشتراك في الماهيّة لأنّ كل ماهيّتين مختلفتين بسيطتين فلا بُدَّ وأن يشتركا في سلبٍ، كل ما عداهُما عنهما، وأمّا الصّفات، فقد خُلِقَتْ فيه عالمةً مريدةً قادرةً سميعةً بصيرةً متكلّمةً. والله تعالى كذلكَ، وأمّا الأفعال فمبدأ فعل الإنسان هو إرادةٍ يُظهر أثرها أوّلاً في القلب فيسري منه أثراً بواسطة الرّوح الرّوحاني الذي هو بخارٌ لطيف في تجويف القلب إلى الدّماغ فيسري منهُ أثراً إلى الأعصاب إلى أوتار، الرّباطات المتعلقة بالعضل فتنجذبُ الأوتار فتتحركُ بها الأصبع فيتحرك بالأصبع القلم وبالعلم وبالقلم المداد مثلها فتحدثُ منه صورةً على القرطاسْ بما يريد كتابتهُ على الوجه المتصوّر في خزانة التخيّل فإنه ما لم تتصوّرْ في خياله صُورة المكتوب أوّلاً لا يمكن إحداثه على البياض ثانياً، ومَنْ استقرى أفعال الله تعالى وكيفيّة إحداثه النّبات والحيوان على الأرضْ بواسطة تحريكُ السّمواتْ والكواكبْ وذلك بطاعة الملائكة في تحريك السمواتْ علمنا إنّ تصرُّفنا في عالمنا أعني أبداننا، يشبه تصرُّفُ الحقُّ تعالى في العالم الأكبر، وهي مثله وانكشف لنا إنّ نسبة شكل القلبْ إلى تصرُّفنا يشبه العرش ونسبة الدّماغ نسبة الكرسي والحواس كالملائكة الذين يطيعون طبعاً ولا يستطيعون خلافاً والأعصاب كالسّمواتْ والقدرة في الاصبع كالطبيعة المسخّرة الذكورة في الأجساد، والمداد كالعناصر التي هي أمّهاتُ المركّباتْ في قبول الجمع والتركيبْ والتفرقة ومراة التخييل كاللّوح المحفوظ فسبحان منْ أوجدهْ بجوده وصمد فردانيّته في وجوده عند التجلّي الذّاتي والكشفْ الوجودي، فرأى في ذلك التجلّي نفسة بنفسه وعاد العدد إلى أبده فأوّل كمال الإنسان هو معرفته ربه بربّه، فمن عرف نفسه بهذه الأحوال والإعتبارات عرف ربّه بجميع الأسماء والصّفات ومنْ جهل هذه الإمتيازاتْ والنّسبْ والإضافات جهل حالهُ ووقتهُ ومقامه ونفسهُ ووُجودهُ وموجدهُ ومشهوده ومعبودهُ.

والجهل قسمان: جهلٌ حقيقيّ وهو المطلوب لأنّه جهلٌ لا ضدُّ لهُ.. وهو أن يجهل ما سواهُ تعالى لإستغراقه إيّاه تعالى وذلك هو يقينٌ سرمدي وهو من جملة

الشهود الحقّ إذ ليسَ لغيره تعالى ثبوتٌ ولا وجود ولا نور أصلاً .. فالمعرفة هي وجود جهلْ الإنسان عند قيام علم الله.. فهوَ العارفْ وهو المعروف فالإنسان جاهلٌ به منْ حيث عينه وعارفٌ به من حيث "هُوَ.. هُوَ"

فالمعرفة هي المعرفة بالجهل الحقيقيّ الذي لا ضدَّ لهُ وهو فقد ما سِواه في الشهود هذا..

وأمَّا العلم الذي لا ضدَّ لهُ فهوَ شهود الوجود ولا ضدَّ للوجود عند أهل الشهود.. فإنْ قيلَ العَدم ضدَّ الوجود.. قلنا: الوجود الذي العدم ضدَّه. هو الذي تقولُ الأفكار إنَّه عرضٌ للماهيَّة وذلكَ عندهمْ عرضٌ للماهيَّة وذلكَ عندهمْ عرضٌ فضدَّه عدم عروضه وأمَّا ما يفهمُه أهل الشهود والكشف من الوجودْ فهوَ الذي يشتملُ الثُّبوت أيضاً بكل اعتبار فيدخل فيه العدم الإضافيّ..

لأنَّه موجودٌ في الذهنْ.. وأمَّا العدم الصِّرفْ: وهو ما لا كانٍ قط ولا يكون أبداً ولا دخلَ في ذهنْ فذاكَ لا يُقالُ لهُ ذاكَ إذ لا حقيقة هُناكْ تستحقّ أنْ يُشار إليها بوهمْ فكيفَ يستحقّ أنْ يثبتْ حتى يكون ضداً للوجودْ.. هذا باطلٌ..

والقسمْ الثاني مِنَ الجهل وهُوَ الذي ضدّهُ العلم وهو حجابٌ لأنَّه عدم إدراك ممَّنْ شأنَه أن يُدركْ وهوَ عدم العلمْ بالحقّ.. مع اعتقاد نقيضه وهوَ الجهل بالجهلْ نعوذ بالله منهُ وهوَ عدم وجود سرّ شهود "كان الله ولا شيءٍ معَهُ.. " على اعتقاد نقيضَهُ لأنَّ صاحبَهُ يثبتُ لنفسِه وجوداً مع وجود الحقّ تعالى وهذا هُوَ الجهل المركَّب والغرور والحمق وهوَ الدَّاء العضال أعني الأطباءُ وعجزوا عن مُعالجته حتّى قال عيسى عليه السَّلام: كلٌ داء ذاويتَهُ إلاّ الأحمق فإنَّه أعياني وهاهُنا إشارة عرشيَّة: وهي أنَّ حقيقةَ الإنسان التي هي خاصيَّته التي بها تمَّتْ الخلافة والإمتياز عنْ سائر الموجودات هي نورٌ إلهيّ وجوديّ ذاتي وحداني بسيط..

لا يوصفُ بالشهادة وهو المُشار إليه بقوله "صلعم" فيما رواه جابرٌ بن عبد الله الأنصاري "رض.. " إنَّه قال سألتُ رسول الله "ص" عنْ أوَّل شيء خلق الله تعالى قال "ص" وهُوَ نور نبيكَ يا جابرْ خلقَه ثمَّ خلقَ منهُ كل خيْر وخلقَ بعدَهُ كلَّ شيء

وحينَ خلقه أقامهُ قدَّامهُ في مقام القربْ اثنى عشر ألف سنة ثمَّ جعله أربعَـةَ أقسام فخلق العرش من قسْم.. وحملة العرش من قسمْ وخزانة الكرسي مـنْ قسـمْ.. وأقام القسمْ الرابع في مقام الحبّ.. إثنى عشر ألف سنة ثمَّ جعلهُ أربعةَ أقسام:

فخلق "القلمْ" من قسمْ "واللَّوح" من قسمْ "والجنَّة" من قسمْ وأقامَ بعـدَها القسـمْ الرابع بمقام "الخوفْ" إثنى عشر ألف سنة.. ثمَّ جعلهُ أربعة أجزاء فخلق "الملائكـةَ" من جزء وخلقَ "الشمس" من جزء وخلقَ "القمر والكواكب" من جزء وأقـام الجـزء الرابع في مقام "الرَّجاء" إثنى عشر ألف سنة ثمَّ جعلهُ أربعةَ أجزاء.. فخلقَ "العقـل" من جزء.. "والعلم والحلم" من جزء "والعصمةَ والتوفيقَ" من جزء.. وأقـامَ الجـزء الرابع بمقام الحياة إثنى عشر ألف سنة ثمَّ نظر إليْه فترشَحَ النور عرقاً فقطَرتْ منه مائة ألفْ وعشرونَ وأربعة آلاف قطرةٌ من النُّور فخلقَ الله من كلِّ قطرة روح نبيٍّ أو رسول ثمَّ تنفَّستْ أرواح الأنبياء فخلقَ الله منْ أنفاسهمْ نور الأوليـاء والسُّـعداء والشُّهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامةَ..

فالعرش والكرسي منْ نوري.. والكروبيّونْ والرُّوحانيونْ منَ الملائكـة مـن نوري. والجنَّة وما فيها منَ النعيمْ منْ نوري.. وملائكة السَّبع سماوات مـن نتـائج نوري.. ثمَّ خلق الله إثنى عشر ألفْ حجاباً فأقام نوريْ وهوَ الجزء الرَّابع فـي كـلِّ حجابْ ألف سنة وهي مقامات العبوديَّة وهي حجابْ الكرامَة.. وحجـابْ السَّـعادة.. وحجاب الهيبَة وحجاب الرَّحمَة وحجابْ السَّـكينة.. وحجـاب الصَّـبر.. وحجـاب الصدق.. وحجابْ اليقين.. فتَباد الله ذلك النُّور في كلِّ حجابْ ألفْ سنة..

فلمَّا خرج النُّور منَ الحُجب ركَّبهُ الله في الأرض فكان يضيء منها ما بـين المشرق والمغربْ كالسراج في البيتْ المظلم ثمَّ خلقَ الله آدم منَ الأرض وركَّبَ فيه النُّور وقد رُويَ: أيضاً عنه "صلعم" قال: أوَّل ما خلقَ الله "القلم" وأول ما خلـقَ الله اللَّوح "الحديث".. إلخ.. معناه إنَّ الله اقتَطع قطعةً منْ نوره بسيطةً لا صورةَ فيها أي أوجدَ العالم وجود شبح فسوَّى لا روح فيه فكان كمرآة غير مجلوَّة.. ومنْ هذا.. كلام الشيخ الأكبر ومنْ شأن الحكم الإلهي إنَّه ما سوَّى محلاً إلاَّ ولا بُـدَّ أنْ يقبـل روحاً.. إلهيّاً عبَر منه بالنَّفخ فيه..

فكانَ القلم الأعلى كالشَّبح المسوَّى.. أي المستعدّ لأن يظهر فيه روح يخصُّهُ.. وتلكَ الرُّوح هي اللّوح المحفوظ والحكمْ الذي يتعيَّن في القابل نفس حصوله في تلك الحالة وهو تقدُّر إلهي هوَ المسمَّى بالنَّفخ وليسَ إلاّ حصول الإستعداد لقبول التجلّي المسمَّى نفخاً وذلك هوَ تجلٍ دائم لم يزل وما بقي إلاّ قابل.. والقابل لا يكون إلاّ منْ فيض الله رحمةً إيجاديَّة فالأمر كلُّه ابتداؤه منهُ وإليه انتهاؤه وإليه يرجع الأمر كلُّه.

التّنبيه الثّاني
في بيانْ ظهور نور الحقّ في العالم الأكبر والعالم الأصغر وترتيبهما ومراتبهما

اعلموا إخواني: أطلعكم الله على أنوار وجوده وأوقفكم على أسرار وجوده إنّ الحق تعالى لمَّا قالَ منَ الحضرة الذاتيَّة بلسان حالٍ ذاتيّ لنورٍ منْ أنوار قدسِه نورٍ واحد بسيط لا يوصَفُ بالنهاية "كنْ" أوَّلاً لا آخر.

حصلَ لهُ منْ قوله "كنْ" تعيَّنَ فقط لا أكثر منْ ذلك لتُحقَّقَ فيه الأوَّليَّة..

ولو كان فيه أكثر منْ حقيقَة ذلكَ التَّعيين لكانتْ الأوَّليَّة لإحداهما دون الآخر أو يكون كلٌ واحدٍ منهما أوَّلاً فيكون القول منه تعالى لإثنيْن لا لواحد.. فإذاً ما حصلَ لذلك النُّور إلاّ تعيُّنه فقط. لكنَّ حقيقة الأوليَّة تستدعي آخر وإلاّ لم تُحقق الأوَّليَّة ولا بدَّ منها ليظهر حكم "كنْ" فحصل لذلك النُّور بالتَّعيُّن المذكور أنْ يتميَّز عنْ بقيَّة الأنوار وإنَّ فيه قابليَّةً للظهور بصورة ثانٍ يكونْ لأوَّليَّة ذلك آخراً كما قلنا..

فتعيَّن ذلك تعيُّنا آخر فكان كونْ آخر غيرهُ.. فسُمِّيَ النُّور في مرتبة التعيُّن الأوَّل "قلماً أعلى" وسُمِّيَ هوَ بعينَه في مرتبة التَّعيُّن الثاني "لوحاً" محفوظاً لكنَّ التَّعيُّن الأوَّل الذي هوَ العلمْ الأعلى.. شهدَ في قول.. الحق تعالى لهُ "كنْ" أولاً لا آخراً.. بمعنى تهيَّأ لظهور اللّوح منكَ.. فقالتْ ذاته بلسان الحال سمعاً وطاعةً..

فإنَّ القول في تلك المراتب ليسَ إلاّ بلسانْ الأحوال.. فقول الحقّ لهُ تهيَّأ.. هوَ المعنى الذي عبَّر عنه بإنَّه قال لهُ: اكتبْ.. فكتبَ أو قال لهُ أقبل فأقبل وأدبر فأدبرَ فقال تعالى: وعزَّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً هو أكرم عليَّ منكَ فيكَ آخذ وبكَ أعطي.. فذلكَ التعبير منه هو قبول صُوَر العالم..

ويُرى معنى ذلك التهيُؤ المذكور في اللّوح المحفوظ.. فكانت تهيئته.. تسوية أخرى فقَبِلَ اللّوح بهذه التّسويَة المختصَّة به روحاً .. هيَ مادَّة الجسم قبل صورته فسُمِّيَتْ كتابَة معنويَّة من ذلك القلم الأعلى في اللّوح المحفوظ.

ثمَّ ظهرتْ حروفُ تلكَ الكتابَة جسماً فكانتْ هذه الكُراتْ وهيَ أكوان حَصلتْ كلّها من معنويَّة قوله وتعالى "كنْ".. وبمعنويَّة "كنْ" حَصلَ المدَد منَ القلمْ الأعلى فيضاً مُستمرَّ أكانَ اللّوح المحفوظ يقلهُ في ذاتِه ثمَّ يسترسل منْ ذاته في ذات المادَّة المذكورة.. فلمَّا حَصلَ لتلكَ المادَّة الجمود الذي به صَارت أجراماً جسميَّة اقتضى اليَبسْ الحاصلْ لها منْ جهة.. الحقيقة الجسميَّة أنْ لا تقبل تلكَ المادَّة في ذواتها كلُّهُ بل مقدار ما يدومُ لها وجودَها به فقط فبقيَ ما في المدَد..

يطلبُ النفوذ في حقيقة الجسمْ فمنعَهُ الجسمُ ذلكَ لجمودهِ فقهرَ المدَد بقوَّتِهِ فأدرا الأفلاك ومخَّضها مخضاً فاندَفعَ منْها كل جزء إلى مُشابهِهِ..

فأخذتْ كلّ كُرة ما ناسَبها وبقيَ الثقل السَّخيف فاندفع إلى الوسط كما استدارتْ عليْه الأفلاك فكانتْ منه الأرض لكنَّ الأرض لمَّا اندفعَتْ إلى حقيقة الوسَط استصحبتْ بعض اللّطائف وهيَ كثيفَة فاقتضى الحال أن ينفصلَ منها ما يلائمها ما هوَ أقربُ إلى شبهها في الكثافة..

فكانتْ البحار فتميَّزتْ البحار عنها إلاّ إنَّ الماء وُجدَ في ذاته ما هوَ.. ألطفُ منه فلم يمكنْ أن يبقى معَهُ فتصعَّدَ بخاراً وهوَ الهواء إلاّ إنَّ فيه بعضَ كثافة الماء. فتميَّزَ منْ ذلك البخار ما كانَ كثيفاً يشبهُ الماء فدفعَته الرِّياح التي هي في الحقيقة هَواء إلاّ إنَّها مندَفِعَة فجَمَّعتْ ذلكْ وانكشفَ الذي يشبه الماء فانضمَّ بعضَهُ إلى بَعض فازدادَ كثافة ألحقته بالماء فيْ الكثافة فنزلَ أمطاراً فلحقَ أو.. فالتحقَ بكُرة الماء وكان قد انكشفَ من الأرض بعضها..

فأصابَ ذلكَ البعض منَ الأمطار ما رأيتْ واستمرَّ الحال فكلّما.. كثفَ منَ الهواء بواسطة ما يصعَد إليْه انعكسَ أمطاراً.. ثمَّ إنَّ ذلكَ الهواء رُقيَ منهُ لطيف إلى سَطح المقعَّر منْ باطن السَّماء الدُّنيا وامتدَّ لسَخافته ودقَّته وقربَ فلكْ القَمر منهُ فَسُمِّيَ ناراً لذلكَ الإمتداد الذي حَصلَ لهُ فحصلَ فيْ باطن سماء الدُّنيا أربعَة أفلاكْ

سمَّاها الحكماء "ناراً وهواءً وماءً وتُراباً.. " هذا ومَدد القلمُ الأعلى متَّصلٌ.. وكلَّما اتَّصلَ دوران الأفلاكْ..

وكانت في الأفلاكْ أجزاء هي أصغى جوهر فيْ الجُسيميَّة منْ بقيَّة الأجسَام الفلكيَّة فكانت هيَ الكواكبْ وبصَفاء جوهرها صارت لها أشعَّة.. فوقعتْ الأشعَّة على سَطح الأرض وسَطح السماء فأثَّرت في الماء فصعَد البخار منَ البحارْ وأثَّر في التُّرابْ تسخينَهُ فقط.. فسرَتْ حرارة ذلكَ المدَدْ ممَّا أودعَهُ الله في القلمْ الأعلى.. فتكوَّنَ في باطن الأرض أكوان أربعَة أكثفها الجماد المعدنيّ فتحرَّكتْ المعادنْ بالحركة الإيجاديَّة في بطنْ الأرض ومَنعتها الكثافَة أنْ تشقَّ الأرض وتخرج منها.. إلاّ النَّار.. والكونْ الثاني فيْ النَّباتْ فإنَّه تكوَّنَ تحتَ الأرض ولم تكنْ فيه كثافة المعدَنْ ولا بلغ منَ اللَّطافة ما يفضِّله عنْ الأرض.. فشقَّ الأرض وخرجَ إلى الهواء.. لكنْ بقيَ رأسهُ في الأرض فاغتذى برأسه منها وجسمَهُ كلَّه في الهواء.. والكون الثالث: وهوَ "الحيوانْ" فإنَّه تكوَّنَ في بطنْ الأرض وتحرَّكَ فيه كما تحرَّكَ المعدن والنَّباتْ بالحركة الإيجاديَّة.. وزادَ على النَّباتْ بأنَّه شقَّ الأرض كما شقَّها النَّباتْ..

وخرجَ منها كما خرج النَّباتْ وحَصلتْ له زيادةٌ.. وهي الإنتقال من مكان إلى مكانْ فوق سَطح الأرض وتخلَّصَ رأسهُ منَ الأرض لكنْ مكا بَعُدَ رأسهُ عنها بل بقي مكبوباً منحنياً فاغتذى منْ وجه الأرضْ وشربَ الماء كما شربَ النَّبات.. والكونْ الرابع.. هوَ آدم عليه الصَّلاة والسَّلام فإنَّه تكوَّنَ أرضاً تحتَ الأرض وتحرَّكَ كما تحرَّكتْ الأكوان الثلاثة وزاد عليها إنَّه تخلَّصَ رأسهُ تخلُّصاً كاملاً فانتصبَ وانتهى إليه الإيجاد..

فأعطاه القلم معناه وهو لطيفتهُ ألذُّ وأكثر المعبَّر عنها بعبارات مختلفة باعتبارات متباينة. فتارةً يعبَّرُ عنها بالعقلْ.. وتارةً بالرُّوح. وهوَ الذي به يتنفَّس كل شيء.. وهو بدء الأسماء الكونيَّة.. وأوَّل الخلق وأوَّل الأحياء وكل منْ تنفَّس بهذه الرَّوح فإنَّه أصل الخقة وتارةً النَّفس النَّاطقة لأنَّها القلم.. بالفعل.. ولمَّا كانَ القلم الأعلى إنَّما هوَ قلمْ لأنَّه كاتبْ والكتابَة نطق كان الإنسان هوَ القلم الأسفل فكانَ ناطقاً كنطق القلم الأعلى إلاَّ إنَّ القلمْ الأعلى نطقة معنوي باطني..

وكانَ الإنسانْ في آخر السّلسلة التي بين جسمهُ وبين القلم الأعلى فكانَ مقابلاً لنطق المقابل لهُ فكانَ نطق المقابل معنويًا .. فوجبَ أن يكونْ نطق الإنسان لفظيًا فنطق بالحرفْ والصَّوت..

إشارة عرشيَّة

وهي إنَّ القلم الأعلى أشرفْ منَ الإنسان إلاّ أنَّ الإنسانْ أكمل منهُ وذلكَ إنَّ القلمُ الأعلى فَصلْ ما ضمنَهُ. فكان ذلكَ التفصيل هوَ الإنسان فالإنسان هو القلم بوجه أكمل والقلمْ هوَ حقيقة الأشياء كلّها، لكنْ بالقوَّة. والإنسان هو حقيقة ما بالقلمْ ولكنْ بالفعل فالإنسان هو القلم بالفعل كما كانَ القلم إنساناً بالقوَّة، ولسنا نعني بالإنسان هنا صورة معيَّنة، ثمَّ أعطاه اللّوح المحفوظ حقيقة وهي نفسه العاقلة لأنَّها هي التي تفعل الكتابة وهيَ العلوم وأعطى حقيقة المادَّة وصورته الجسميَّة، وحقيقة الأركان الأربعة وهي "النّار، والهواء، والتراب، والماء.. " ذلك هيَ الصَّفراء التي في جسمِه..

المشابهة للنّار في الحرارة واليبوسَة والدَّم الذي هو بمشابهة للهواء في حرارته ورطوبته، والبلغم الذي هوَ مشابهٌ للماء في برودته ورطوبتِه والسَّوداء التي هي مشابهة للشرابْ في برودته ويبوسته. وفيه ما يُشابه المولداْ منها وهيَ الثلاثة، ففيه العظمْ كالمعادنْ والنّبات كالشّعر والحيوان كجسمه المحسّ ففيه صُوَر العالم الكبيرْ مجملةً، وأمَّا ما منحه الله تعالى منَ المعانيْ والصّفات فلا نهاية لها..

وبالجملة فلو تقصَّيْنا آثار هذه الحقيقة المسمَّاة "الإنسانيَّة" تتبَّعنا خصائصها وصفاتها، وشؤونها وأطلقنا عليها منْ ذلك ألقاباً وأسماءً لما وسعها مجلّدات وهي كلمة من كلمات الله تعالى التي تنفذ البحار ولا تنفذ وهي كما قال الله تعالى "ولو إنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحرُ يمدُّهُ من بعده سبعةُ أبحُرٍ ما نفذتْ كلمات الله.. " وذلك لأنَّ كلَّ قطرة لا تتجاوز أنْ تكتبَ معنى نفسُها من جهةٍ إنَّها كلمةٌ منْ كلمات الله فإذاً لو تضاعفتْ البحور إلى غير نهاية لما تجاوز قطرها حدَّ أنفسها، من جهة أنَّها كلماتْ.

والوجود نفسُه رقٌ منشور، والموجودات به كلماتٌ مكتوبة والإنسان منها كاتبٌ مكتوبْ وقد عبَّر أيضاً عنْ حقيقة الإنسان الذي هو الإنسان الكامل بالمفيض الأوّل والممدّ الأوّل والمعلم الأوّل والخليفة الأوّل. والرّوح الكليٌ والإنسانْ المعنويّ

والإمام المبين والكتاب المخصّ فيه كلُّ شيء واللّوح المكتوب فيه من كلِّ شيء موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيء ومرآة الحقّ ومركز دائرة الكون والكلمة الكبرى الجامعة الفاصلة..

وبالجملة هوَ مجمَع الحضراتْ الأسمائيَّة وحقيقة الحقائق، والمرتبةَ الجامعة بعدَ ترقيه إلى الحضرة التي هي حضرة الحضراتْ وهو المستحقّ أنْ يكونَ موصوفاً بصفاته تعالى فهو حيٌّ عالم مريد قادر سميع بصير متكلِّمْ إذا قد ظهرَ الحقَ تعالى منْ ظهوره بهذه الأسماء ظهوراً بالفعل فإن شئتَ أنْ تجعلْ الحقيقة هي حياته وعلمهِ وإرادته وقدرته وظهورهِ وسمعه وبصره..

بمقتضى قوله تعالى "كنتُ سمعَه وبصرَهُ" "الحديث" وإنْ شئتَ فاعكسْ فيه "رأى وسمعَ" "الجزئيات وكانَ ولا شيءٍ معَهُ، حين فنيَ بالذات بمقتضى قوله تعالى "وما رميتَ إذْ رميتْ ولكنَّ الله رمى.. " ومنْ باب "جعْتُ فلمْ تطعمْني" ونحو ذلك، وتلخيص هذا كلِّه إنَّ الحقَّ تعالى توجَّه إلى الإيجاد توجُّهاً واحداً فأخذتْ الممكناتْ أعني المقدورات قبل تصرُّف القدرة فيها تتعيَّن في وجوده تعالى من حين ذلك التوجُّه مُبدئاً أولاً ويعلم وإلى أنْ يشاء الله في المستقبل وذلك التَّعيين..

يتفضّلْ في وجوده أبداً تتعطَّف فيه أسبابه على مسبِّباته ومسبِّباته على أسبابه. ومعلولاته على عُلله، وعُلله على مَعلولاته ويتسَاوى في الإسناد إليه تعالى السَّابق والمسبوق. واللاَّحق والملحوق وهوَ واحدٌ للجميع تلقَّاه كل ممكنْ باستعداده فقبلَ منه ما يُليقُ بإمدَاده... فإنْ قيل: فالممكنْ القابل قبلَ الوجود كيفَ يتحقَّقُ في الشُّهود، قلنا: هي قوى في الجوْد، الإلهيّ لا "هُوَ" غيرُه..

بعد كونه ولا هي غيره قبل كونها، مثاله المعلوم في العلمْ، وقولنا: أيضاً إنَّ الممكانتْ تتلقى الوجود باستعداداتْ متفاوتة وغير ذلكَ مجازٌ للتَّقرُّبْ منَ الأفهام وإلاَّ فإنَّ القابل قوَّة في المقبول. والتَّوجُّه الوحداني إلى الأوَّل الذاتيِّ والإرادة مع وحدانيَّتِهِ أعطى كلَّ شيءٍ خلقَهُ ثمَّ هَدى حتى استوفى حقَّه. ومنْ جملة هذا الإعطاء تفاعُل الجزئيَّاتْ بعضِها في بعض فيعتقدُ المحجوب إنَّ الجزئيَّاتْ هي التي فعلتْ وانفعلتْ ولا والله بل بالنور الأوَّل الواحد هوَذا يتفضلْ..

تلويحٌ لوَحيٍ

وهوَ إنَّ الغلط الواقع على المحجوبين هوَ منْ اعتقادهم خلاف الواقع فإنَّ الفعل الحقيقيَ وهوَ المَصدر يُسمَّى مفعولاً مُطلقاً عند النُحاة، فالعالم هو كذلكَ مفعولٌ مُطلق لله تعالى فمنْ جعلهُ مفعولاً به حقيقةً وقع في الشركْ الخفيُ بل والجليَ..

فإذاً العالم بأمره علويَّة وسفليَّة روحانيَّة وجسمانيَّة. طبيعيَّة ومعنويَّة. بسيطة وتخطيطيَّة مفعولٌ مطلق بالنسبة إلى الله تعالى، وأمَّا باعتبار نسبة بعضه إلى بعض ففيه المفعول به والمفعول فيه والمفعول منْ أجله والمفعول معَهُ وغير ذلكَ منَ الإعتبارات.

وفعل الله وِحدانيَ للجميعِ فهي كلَّها ليست غير حركة إيجاده، فهي.. كلَّها حركةٌ لا غير بالنِسبة إليها وبالنظر إلى بعضها عند بعض ففيها الحركة والمتحرِّك والمُحرِّك وأنواعٍ كثيرة..

والممكنُ في ذاته هوَ فعل منْ أفعال صفَةٍ للمخلوق وهذا هوَ الحق الواضح في مقام شهود الأسماء وأمَّا في الحضرة الذاتيَّة.

فهوَ صِفَة الأعيانْ الذاتيَّة منْ جهة إنَّها صُوَر العلم الأزلي الإلهيَ منْ حيث لا تُغايرْ الصِّفة الموصوف لأنَّه ليس شيءٌ خارجاً عنْ الذات فأمَّا كونهُ صِفَة للحق تعالى فإنْ الامكان منهُ يشتقُ لهُ الفعل الذي هوَ أمكنَهُ. يمكنهُ. إمكاناً كما تقول، يمكنكَ أنْ تفعل كذا أي لا تقدر عليْه..

وأمَّا كونهُ صفةً للأعيان الثابتة فمعناه إنَ حال المقدور مثلاً هو الذي أمكنكَ من نفسه حتى فعلت إيجاده وإيجاد صفاته. إلاَّ إنَّ القابل في التحقيق هو الفاعل في التحقيق هو الفاعل لفعالية الفاعل ولجميع مما يَصدر منَ الفاعل منَ الأفعال.. فإذاً حصول التسويَة منَ اللَّه تعالى لكنْ بالعين الثابتة والتَّسوية الحاصلة مع الفاعلة في الفاعل للنُّفخ.. أن ينفخ النُّفخ الذي به يحصل المقبول للقابل وإنما ظهرَ الممكن من جهة سلب القدمية عن الوجود الآلهيٌ فهو واجبٌ بالغير أعني أن كل ما في الإمكان لا بد أن يظهره الحق تعالى في الوجود فهو في نفس الأمر واجبٌ. إلاَّ أنَّ بغيره لا بنفسه بإعتبار أحادية الجميع.. إذ الأعيان الثابتة هي معلومات الذات والمعلوم مع

العلم في الذات.. وعلمه تعالى ليس مغايراً لذاته فليسَ إلاَّ هوَ فإذا لا واجب غيره ولا ممكن سواه فإن الوُجود الواجبي الإلهي قدرٌ شامل لجميع أشتات المجودات والأعيان كلها بإعتبار إنَّ لها نوعاً منَ الثبوت والثبوت لا يكون منسوباً لغره في الوجود. فالذي يقع في الإشتراك نظر المحقق ليس إلاَّ الوجود وهوَ واحدٌ وليسَ معهُ غيرهُ..

فمن عرفَ وحدانية الوجود عرف إنَّ نفس رؤيته نفسه.. هو عين رؤيته ربذه تعالى.. وقد قال"ص":"المؤمن مرآة المؤمن"فمعناه.. إنَّ وجود الحق تعالى كالمرآة يظهر فيه نفس المشاهد وذات المُشاهد كالمرآة تظهرُ فيها أسماؤه تعالى فإذن المشهود لا يكون إلاَّ للوجود أو لمعاينة وهي الأعيان الثابتة المذكوره التي هي صُوَر عليه تعالى.. وأنما(لعدم المخص):وهوَ لا شيئ من كلِّ وجه فلا يشهدُ ولا عنهُ عبارةٌ إلاَّ مجازاً للضرورة.. وها هنا تلويحٌ لوحيٌ آخر..

تلويحٌ لوحيٌ آخر:

وهو إن المعارف ظلال صور.. الموجودات تثبت في صقال مرآتية النفس عند المقابلة الصحيحة..

وتحقيق بقوة الإشراف وعنده تكون صحة الإدراك وليست في الخارج عن الذهن.. وإنما هي أمثلة الوجود الخارجي وتفهم من الألفاظ بحسب الإصطلاح. فحقيقة المعاني وجود ظلّي لطيف وهو في الحقيقة تبعٌ لذي الصورة. فلا صورة الاَّ لمعنى..

ولا معنى إلا تبعٌ لصورة. وكل معنى لا يتبع صورة حقيقية فليس بمعنى ولا يجوز إطلاق المعنى إلا مجازاً أو توهماً إذا فهم هذا.. فنقول:حقيقة الوجود البسيط تطور إلى الجسم.. وكمل بعد الجسمية كحالات كثيرة حتى بلغ إلى هذا الطور الأكمل المسمى بالإنسانية وليس هو الجسم

بل الجسم صورة من صورة معين على بلوغه كحالاته بقواه الظاهرة والباطنة فإذا إنفصل عن الجسم إنفصل علماً بمروره على الأطوار المركبة التي تركب فيها وإنما يعلمُ ذاته ولم يحتج في قوامه لذاته إلى الجسم لحصول العلم له من

ذاته وبعبارة أخرى:هو ذات وجود جزئي باختصاصه بالجسم فإذا فارق الجسم عالماً قرُب عن أن يكون محيطاً بكثير لا يحصى بشيء ولا يقف عند جزء وبعبارة أخرى: هو وجود نشأ مع الجسم قليلاً.. قليلاً وكمُل به وفيه ومنه. وليس بجسم كثيف ولا تظن إن قوة في جسم فيصعب عليك بقاء القوة بعد فناء القوى بها وإنما هو وجود علمي روحاني بالذات من طبعه أن يحرك ما سواه بحركته وليت حركته كحركة الأجسام من كل وجه.. وبعبارة أخرى:هو جوهر بسيط كمل بتردده في الأطوار فعلم ذاته بكماله.

وأدرك تنوع المعلومات وإختلاف تطوراته وأحواله.. وبعبارة أخرى هو جوهر الوجود البسيط اتصل بصورة الجسم.. معناه كان جسماً طبيعياً على غير كمال فيه بالقوّة بل كان فيه أول كمال حيواني وهو الحس والحركة وقبل ذلك هو للنمو وجمع القوة الطبيعية حتى كان هذا الكمال.. بالعلم الباقي الذي لا يختص بشيئ يبيد ويزيل.. ففارق هذه الصورة العنصرية وترقى عنها مكتفياً بذاته فتحقق جوهره بقوة روحانية.. وبعبارة أخرى..

هو الوجود البسيط كمل بالعلم في الجسم. هو لا يدرك بالحواس الجسمانية للطافته وبساطته. وكلما قرب الشيئ من الكثافة ناسب أن يعلم ويحاط به ولا يجهل ويقرب من الموات والسفل والحسن والإنفعال وبعبارة أخرى:هو وجود عقلي علمي روحاني بل هو المتكيف بجميعها أدرك ذاته بواسطة الجسم الذي هو آلته.

وانفصل عالماً تاماً.. "قوله وتعالى""والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئ""الآية"..

فالعقل الفعال أفاض الحياة مع القوة التي أفاضها على جسم الإنسان في أول نشأته.. لكنها إفاضة ساذجة لا علم.. أي الإدراك إلى إبانة ولا يلزم من كون العقل دراكاً في أول النشأة حكمة من الله تعالى"فافهم"فالمفاوض من أول النشأة درّاك بالقوة إلى أن يصير درّاكاً بالفعل. وهذه نفوس الكمل بتوسطه تلحق بمراكزها وتحن إلى حيزها وتشتغل بالإبتهاج بذاتها ملتزة به عند إدراك شرفها بعلمها هكذا ابداً لإستحالة العدم.

ولأنه بسيط فلا ينفك إنما تنفك المركبات. وقد إنفك مركبه وهو الجسم فبقي الفرد حماه اللّه من كدر الأغبار وأعاده إلى حفرة نور الأنوار ولي في هذا المعنى نظماً:

تـذكرت العهـد القـديم بلعلـع فهفـت لمعنـى لا يـتم لمـدعي
وبـان لهـا بـان الحمـى وإراكـه ولاحت لها الأقمار من كـلّ مطلـع
فـلا تغـد لاهـا قـد تبـيّن عزرهـا وقـد لاح وجـد لا يصـان ببرقـع
أشار لها الإطـلاق مـن حيـث ذاتـه فهامـت بفـرد فـي وجـود منـوّع
فيا نسمات الدوح عـن أيمـن الحمـى أديمـي لنـا مـن نشـكر المتطـوع
فربمـا ينفـك قيـد علائقـي فيسرح طرفي فـي الجمـال الممنـع
فلو زالت الأغيار لا إسـتعان الهـدى ولم لا.. ووجه الحسن غيـر مبرقـع

·وارد رباني·

إعلموا إخواني:أتحفكم اللّه بموارد الغيوب وألحقكم برداء شواهد القلوب.. إني لمّا قدمت من أرض الحجاز سنة"٦٨٣"وكانت الوقفة يوم الجمعة وكان أمير ركب الديار المصرية "الباشقردي"وأمير الشام "عز الدين بن عز الدين الكـردي.. "إلـى مدينة دمشق "حرمها اللّه"سكنت جبـل قاسـيون وأخّـرت مغـارة تعـرف"بـابن الشام"وجلست فيها على نية الخلوة فارغ من المطعم والمشرب مجموع الهمة متوجهاً إلى الحق تعالى ذاكراً له بإسم الأعظم وهواللّه، لأنه دليل الذات الجامعـة للصـفات الآلهية كلّها لا يشذ منها شيئ وسائر الأسماء لا تدل على آحادهـا إلاّ علـى آحـاد المعاني وهو أخص أسمائه تعالى إذ لا يطلقه أحد على غيره تعـالى لا حقيقـة ولا مجازاً ولهذا توصف سائر الأسماء بإنها اسم اللّه وتعرف على كنه المعاني الآلهية. واخص بها. وهو أشهر وأظهر فاستغنى عن التعريف بغيره وعرف غيره بالإضافة إليه، مستغرق القلب والهمة به لا أرى غيره ولا إلتفت غلى سـواه ولا أرجـو ولا أخاف إلا غياه إذ هو الموجود الحقيقي وكل ما سوّاه فان وهالك وباطل إلا به تعالى وكنت أرى نفسي أوّل هالك باطل فبينما أنا ذاكر مثاله في الذكر منتظر ما يرد علي من خزائن جوده وأنوار وجوده وأسرار شهوده.. إذ هتف ويقول:يـا مسـكين هـو القريب منك وأنت البعيد عنه..

هو القريب منك بالعينية وأنت بعيد عنه بوهمة الغيرة. وإنما تطور فيك لتكمل ويكمل فيك لا لتحتجب بوهمية التعدد لديك من إدراك حقيقة التوحيد فيك هو عبد كل شيئ بجوهر ذاته لا بكليته.. إذ الكلية لا تستولي عليه ارجعوها للحصر وإفتقار الحصر إليه لا يحمل أثقال التكليف إلا الأساس الأنانية لا يحجبك عن إدراك كمال الوجود فيك إلا إستيلاء سلطان الغيبة عليك لولا ظهورك في الحجاب امّا ظهر الحجاب.. فحجابه عند العارف به كنز يطلب عنده فسبحان من ظهر بذاته فأدرك على نبوغ صفاته.

إذا ظهر نور الذات وجدت الأسماء والصفات. ليس شيئ يدم الذات بل بحاكم التوحيد في التحقيق. نظر إلى النسب والإضافات.. التوحيد الوقوف مع الذات بجوهرها والتحقيق المنتهي في وحدانية الذات في أطوارها لو تحققت ذلك لما عدلت عنها طلباً للخارج.. كن معدكاً المعلوم يحققك به من تمسك بعروة التوحيد ماشياً على قانون التحقيق إتسع عليه امجال ولم يعزُه المقال:ما دمت تطلب الوصول إليه فإنت محجوب عنه بتوّهم الإنفصال منه.. بقاؤك بك عين فنائك.. وفنائك به عين بقائك..

حجبت بصورته عن إدراك حقيقته لولا وقوفك عند حدودك لمّا تخلّفت عن شهودك. تحقق جوهرك وأنعم فيه نظرك ودع أولك وآخرك فبأولك الوهمي تقصر عن شهودك وبوقوفك مع آخرك تقع في حصر وجودك. إن اعترضك عارض الشك فاطلبه فيه.. فكل ما يقطعك عنه فهو الباطن. ولا يؤيسك تنكره فهو الظاهر والحق ورائها وهماله مظاهر فسبحان من ظهر في ذات ذلك الحجاب عند المعارف واحتجب فيما به ظهر عن المحجوب عنه"تم الوارد الرباني"

نصيحة:

عليك بالصدق في التوجه إلى اللّه تعالى من حيث لا يعلم هو نفسه لا من حيثية خاصة ولا على نحو مخصوص فإن العبد إذا توجّه إلى سيّده بصدق أقبل عليه وتولاه بحفظه وإنما طول المدة للتواريخ.. والمربي قد وقف عى كل موطن قد شاهد حقيقة كل مشهد. كي لا ترد الجملة الكلّية على الجزء الصغير فلا وجود حينئذ للمحدث في تجلّي القديم.. غهو في كلّ نفس وحال سار وفيه ذاهب منه إليه.

لا يشاهد سواه ولا يتجلّى بغير إياه اسهر باطنه واراح ظاهره فلا نوم ولا إفاقة. وجود في عدم وعدم في وجود.. وحياة في مماة وممات في حياة فهناك تثبت له أول الشهادة. نبقي كل شيئ حين لا الـه فإن إعتنى به الجناب السنى المحمدي"ص"رجع إلى حقيقة المشهود..

فتمت الشهادة ولم يرى إلا اللّه فسبحان المتطول المنان.. اقتطع قوم إليه فهم بنوره سائرون في العالم الكلّي العلوي والجزئي والسفلي..

غائبون عن أعين المتشبهين بهم فلا سبيل إلى رؤيتهم بغيرالفناء ولا الى معرفتهم بسوى أمثالهم وهذه أوائل أحوالهم:. آوانا الله اليه أجمعين بمنّه وكرمه.. ولا بدّ لكلّ من أراد الخلاص من شرّ نفسه والفوز بأنوار قدسه من استاذٍ عارفٍ بوجوده ليوصلهُ إلى مقصوده أو جذبةٍ إلهيَّة من عين جوده تأخذه من وجوده وتفنيه في شهودِه عن شهوده ولي في هذا المعنى نظماً وهو هذا. إذا المرء لم يلبس رداءً من التـُقى على يد أستاذ خبير بنفسه. يريه رعونات النفوس وكيدها. ويشهده المحجوب عنه بحسِّه. ويبدى له المكنون من سرٍّ كونه. وتجلى له الكائنات في خان إنسه. ولم يكُ مجذوباً على يدٍّ قدرةٍ وتحفظه الألطاف من عين لبسه ويحسن منه الخلق والخلق والرضى ويرفع معناه بإيناع غرسه. فذاك لعمري ناقص الحظ عاجز يريد سبيلاً وهو يأتي بعكسه. أقلُّ مبادي القوم أن تكُ هكذا ومن جاء بالبهتان راح ببخسه.

التنبيه الثالث وهو الخاتمة.. في بيان حقيقة العلم

إعلموا إخواني: أطلعكم الله على خفيَّات علمه وأشرف بكم على جليات حكمه إنَّ العلم هو إدراك المدرك على ما هو عليه في نفسه إنْ كان "ممّا" يمكن إدراكه. وأما ما يمتنع دركه.. فلا دركه هو دركه.. كما قال العجز عن درك الدراك هو الإدراك وقال تعالى:"وما قدّر الله حقّ قدره " أي ما عرفوا الله حق معرفته كما قال أبو الحسن النوري..

معرفة حق وهي إثبات الوحدانية على ما برز من الصفات ومعرفة حقيقية وهي ما لا سبيل إليها لامتناع الصّمدانيّة وتحقيق الربوبيّة.. فالمعرفة تتعلّق من كل معروف بحق وحقيقة. فالحق من مدارك العقول من جهة الدليل والحقيقة من مدارك

الكشف والمشاهدة وليس ثمّ مدرك ثالث "البتة" ولهذا قال حارثه:" أنا مـؤمنٌ حقـاً" فأتى بالمدرك الأول وكان عنده مزيداً بالمدرك الثاني ولكن سكت عنه.. فقال النّبيّ فما حقيقة إيمانك.. يرى إنّه كان عنده المدرك الثاني.. فأجابه بالإستشراف والإطلاع والكشف. فقال النبيّ عرفتَ فالزم..

فلا تصحُ المعرفة بالشيء على الكمال إلاّ بهاتين المعرفتيْن.. الحق والحقيقـة فإذاً أخبر الله تعالى بأننا عاجزون عن إدراك حقّ قدره.. وليس القـدر هاهنـا إلاّ المعرفة بما يقتضيه مقام الألوهيَّة من التعظيم ونحن قد عجزنا عنه فأحرى أن نعجز عن معرفة ذاته تجلّت وتعالت علوّاً كبيرا فلمّا عاين القوم هذه العظمة والجلال وقدر ما هم بالتقصير.. فعرفوا أنه ليس في وسع المحدث أن يقدِّر قدر القـديم لأنّ ذلـك موقوفاً على ضربٍ من المناسبة الحقيقية ولا مناسبة فتاهوا في مفاوز الحيرة لهـذه العظمة والجلال وقالُوا ليس في الوجود إلاّ الله تعالى وصفاته غيـر زائـده علـى ذاته..

فصار معناه ما ثمّ إلاّ الوجود ومعاينةً وهي المسمّاة بالمراتـب عنـد قـوم وبالماهيات عند قوم. وبالأعيان الثابتة عند قوم. وهي حقائق الموجودات وهي غير مجهولة إذ حقيقة الحقّ منزّهةً عن الجهل والتأثر وما ثمّ أمرٌ ثالـث غيـر الحـقّ والأعيان ولا أثر لشيءٍ في شيءٍ بل الأشياء هي المؤثرة في أنفسها لأنّ ثمّ حقيقـة مؤثّرةً في حقيقةٍ غيرها وكذلك ليس شيء يمدُّ شيء غيره بل مدد يصل من باطن الشيء إلى ظاهره والتجلي النوري الوجودي يظهر ذلك وليس الإظهار..

بتأثير في حقيقة ما أظهر.. فالنّسب هي المؤثرة بعضها في بعض بمعنـى أنّ بعضها سبباً لإنشاء البعض وظهور علمه في الحقيقة التي هي محتوهـا ولا أثـر للأعيان الثابتة مع كونها مرآة في التجلي الوجودي الإلهي إلاّ من حيـث الظهـور المتعدّد الكامل في غيب ذلك المتجلي فهو أثر في نسبة الظهور التي هي شرط فـي الإظهار. والحقّ تعالى أن يكون متأثراً من غيره وتتعالى حقائق الكائنات أن تكـون من حيث حقائقها متأثرة..

فإنّها من هذا الوجه في ذوق الكمال عين شؤون الحقّ فلا جائز أن يؤثر فيها غيره فلا أثر لمرآة من حيث هي مرآة في حقيقة المنطبع فيها والأعيان الثابتة هـي

معاني معلومات الله تعالى وهي لا تتناهى كما إنّ العلم بها لا يتناهى وفي وجود العلم الذاتي الإلهي هي أعيان متاميزة وليس كل معنى منها كلها. بل كلّ معنى منها صوراً جزئياته إلى غير نهاية بقيت تلك المعاني كلها في التمثيل سلاسل وكل كعب من السلسلة مثلاً هو صورة مثالية من صور العلم الإلهي متميّزاً ولا شيء فيها يسبق شيء فإنّ العلم الإلهي..

لا يدخل تحت الزمان ودقائق جزئيّة الجميع هو من صور العلم الإلهي فالماضي والمستقبل كلاهما للعلم الإلهي حاضراً ..

والتجرّد من جملة صور علمه تعالى مفصّلاً بأزمنة أزلاً وأبداً .. ولولا إحاطة العلم القديم الأزلي بهذه الممكنات لم يكن لها قبل ظهورها في الأعيان ثبوت لكنّ العلم المحيط أكسبها وجوداً علميّاً أزليّاً وأبداً .. فإنّ العلم الإلهي..

مدركٌ للماضي الذي وقع منها والمستقبل الذي لم يقع فيها. ولوقوعه إذا وقع ممّا لا بدّ من وقوعه ولما يمتنع.. وقوعه منها إذا استمرّ امتناعه ولما الوجود وقوعه من الممتنع إن لو وقع.

كيف كان يقع.. إدراكاً واحداً ولا يدخل تحت الزمان. بل الزمان وما فيه تحته فعلم الله بالكون إنه سيكون هو عين علمه.. إنّه قد كان علماً أزليّاً أبديّاً .. واحداً لا ينقسم. وإذا كانت نقطة المركز التي لا تنقسم موازية لكلّ نقطة في المحيط ولم تتكثر بكثرة الموازيات فعلم الله..

أحرى أن لا يتكثّر بكثرة المعلومات. والعلم يثبت ثبات المعلوم ويتغيّر بتغيّره والحقّ تعالى لا يتغير. فالعلم به لا يتغيّر والعلم تابع للمعلوم وليس له فيه أثر بل المعلوم في العلم أثر فيعطيه من نفسه ما هو عليه في عينه. والعلم لا يعطي المعلوم زيادة في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أحواله. فأحوال.. الأعيان الثابتة لاتتبدل عمّا غلبت عليه إذ الحقائق لا تتبدّل وهي كلمات الله. قال الله تعالى:"لا تبديل لكلمات الله".. فإذا علم العبد. أي انكشف له من عينه الثابتة وانتقالات الأحوال عليها إلى ما لا يتناها كان علمه بنفسه بمنزلة علم الله به..

لاتّحاد المعدن. لأن الحقّ تعالى يأخذ علمه بالأعيان الثابتة منها لإنّ علمه تابع لمعلومته. وكذلك هذا العبد إنّما يأخذ العلم المفصّل من المعلوم وكلّمن علمه

صحيح. إنّما يأخذ علمه من معلومه.. فإن قيل إذا حصل لعبدٍ من العبيد علم عينه الثّابتة وعلم ما يكون عليه في حال الوجود والحق تعالى هو يعلم الأعيان الثّابتة منها لأنّ علمه تابع لمعلومه وكذلك هذا.. العبد إنّما يأخذ العلم المفصّل من العلم وكل من علمه صحيح إنما يأخذ علمه من معلومه..

فإن قيل إذا حصل لعبد من العبيد علم عينه الثابتة وعلم ما يكون عليه في حل الوجد والحق تعالى هو يعلم الأعيان الثابتة.. أيضاً مثل هذا العبد بعينه فما الفرق بين علم الله وعلم هذا العبد.. قلنا لمّا سبقت عناية الله لهذا العبد بإن يعلم هذا العلم صار علمه مستفاداً والحقّ تعالى علمه ذاتياً أزلياً أبدياً.. فأفترق علم الله تعالى من علم هذا العبد. وإذا كان العلم الستفاد من وجود المعلوم يسمّى علماً وهو علم العبد.. كيف لا تسمّي الصّفة الإلهية التي هي ينبوع الموجودات كلّها علماً..

لا بل الحقّ أن لا يطلق اسم العلم إلاّ عليها فإن أطلق على غيرها فبالمجاز المحض وبالتوسّع البعيد والإشتراك الصّرف فإنّ العلم ثمّة عين المعلوم والصّفة عين الموصوف وليست زائدة على الذات.. فإنّ المعلوم. أمّا ذات كمالها بنفسها.. وأمّا ذات فرض انّ جميع ما للألى بنفسها.. فلهذا مع الصّفات صرّح العقل حاكماً بأنالألى أتمّ لعدم إفتقارها في كمالها فالذّات المستغنية عن الزّئد أتمّ وأكمل من المفتقرة إليها.. فإذا العلم ليس هو إلاّ كمال الذات من حيث هي ذات أو هو كمال الوجود من حيث هو وجود ولا يوجب تكثراً..

فإذا الحق تعالى هو المستحق لكلّ كمال غير مكثّر كالحياة والعلم والإدارة ةالقدرة وغيرها من صفات الكمال وهو المعطى لكلّ كماله.. ولا يمكن أن يكون يعطي الكمال القاصر عنه فيكون المستفيد أشرف من المقيد وهذا محال فالعلم إذاً إمّا حضور ذات مفارقة في ذات مفارقة أو هو عدم غيبتها عنها وهذا أتمّ لأنّه يعمّ إدراك الشيء لذاته وغيره إذ الشيء لا يحصر لنفسه ولكن لا يغيب عنها. والحق تعالى هو غائب عن ذاته ولوازم ذاته. فهو عالم وعالميّته بذاته هي ذاته مع عدم الغيبة والتجرّد وعن المادّة.

وهما سلبيان وهو الوجود البحث والأشياء حاضرة له على إضافة مبدئيّة تسليطية لأنّ الكل لازم ذاته فلا تغيب عنه ذاته ولا لازم ذاته وعدم غيبتع عن ذاته

ولوازمه مع التجرّد عن المادّة هو إدراكه تعالى وإذ ليس في الوجود إلاّ ذاته ولوازم ذاته فهو بكلّ شيء محيط علماً ولا يحاط به علماً.. فإذاً العلم الإلهي ليس بصفة زائدة على الذّات المقدّسة الإلهيّة ولا هو منطبع في المعلوم لأنّ العدم المطلق معلوم. والعدم ليس بشيء حتى ينطبع فيه شيء. ولا شيء ينطبع في الشيء. ولا العدم شيء ينطبع في شيء وهو ان تعلّق أيضاً فإنّه لا يتعلق الشّيء بلا شيء فالعلم بالله تعالى محال وسواه مجاب.. إذا فهم هذا فنقول العلم أكبر من يحيط به فهم العلماء أو تدركه عقول العقلاء. وبراهين هذا المطلوب كثيره منها قصة موسى عليه السّلام والخضر"ع" تبع جلالة قدر موسى "عَ" بما خصَّه الله به من الكلام والنبوَّة والرسالة والوحي فقد ذكر الله في المحكم الناطق على لسان نبيِّه الصَّادق "صَلعمْ" عجز موسى عن إدراك علمُ عبدٍ من عباده إذ قال سبحانه وتعالى:" فوجدا عبداً من عبادنا أتيناه رحمة وعلَّمناه من لدنًا علما.. " حتى سأله موسى "ع" فقال: هل أتبعك على أن تعلمني ممّا علمتُ رشدا. " مع تأييد موسى "ع" وشرفه وعصمَته من الإنكار عليه وقال عليه الصَّلاة والسَّلام "نحن معاشر الأنبياء:"أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم "وهو معنى قوله تعالى "وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغا.. " أيْ خاطبهم على قدر عقولهم فالناس ليسوا في المواهب سواء فلا ينبغي لأحَدٍ أنْ يظن إنًه يحتوي على جميع العلوم حتى يُخطئ برأيه كلام أهل الله تعالى وخاصيَّته ويكفِّرهمْ ويزيدُ معهم وهُوَ مقصر عن ممارسة أحوالهم ومنازلة حقائقهم بل لو سُئِلَ أحد من المنكرين عن مجرَّد إصطلاح القوم الذي تواطؤا عليه في عباتهم ما عرفه فكيف ينبغي له أن يتكلّم بما لم يحكم أصوله بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله فلِما تحاجُون بما ليس لكم به علم "رُبَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه" وربَّ حاملُ فقهٍ إلى من هو أفقه منه فربَّما صحَّ عند القوم من باب الكشف عن قائله صحيحاً والكشف أقوى من الإدراك في الجملة فهو مِنَ النقل فما أحسن من سلَّم واستسلم واشتغل بنفسه فمن غلط بعلم من العلوم فليسأل أهله "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" وكذلك من يقع في يده كتابٌ من كتب القوم فلا يظنُّ إنَّه يفهمه ما لم يُسلِّم لهم ومن سلَّم لا بدَّ أن يجني ثمرة التسليم. فقد قيل:"من قعد مع الصُّوفية يعني أهل الأسرار والحقائق وخالفهم بشيئ يتحققون منه نزع الله نور الإيمان من قلبه. فعلم الحقائق ثمرة العلوم كلّها ونهاية العلوم فغاية جميع العلوم إلى علم الحقائق فإذا انتهى إليها وقع في بحرٍ لا غاية له. ويقال علم القلوب وعلم المعارف وعلم الأسرار وعلم الباطن وعلم

التصوُّف والعلوم كلها علوم الله فلا ينكر شيئٍ منها بهذا الإعتبار قال الشيخ الخاتمي نظماً

عقــــدَ الخلائــــق الإلــــه عقائـــداً   وأنا اعتقدت جميع مـــا اعتقـــدوه

فعلم الحقائق هو المهيمن على جميع العلوم والمحيط بها وقوله:"أنا اعتقـــدت الجميع لإنَّ كل طور من أطوار المخالفين فهو عنده في شهوده ظهور من ظهورات الحق تعالى فيثبته من حيث الظهور المشهود له لا من حيث إدراكهم فإنَّ إدراكهـــم محجوب وإلى الجهل وإن وافق العلم منسوب لكن يصدق عند المحقق أن يقال إنَّهـــم أصابوا أو يصدقُ أن يقال أخطأوا أما الإصابة فلمصادفة ظهور الحقيقة من ظهورهم بمبلغهم فإنَّها الظاهرة بكل مبلغ وأمَّا الخطَّاء فلأنهم لم يشهدوا جهـــة الإصـــابة ولا باشروا فيما قالوه بردُ اليقين ولا ظهرت عليهم بشاشة التحقيق وإن هم إلاَّ يظنـــون وإن هم إلاَّ يخرصون إنَّ الظنُّ لا يغني من الحق شيئاً فأعرض عن من تولَّى عـــن ذكرنا ولمْ يَردْ إلاَّ الحياة الدُّنيا ذلك مبلغهم من العلم وإذا اجتمعت العلـــوم الشـــرعيَّة والحقيقيَّة في واحدٍ فهو الإمام الكامل والقطبْ والحجَّة والداعي إلى المنهج والمحجَّة ولإحاطته باستعدادات الموجودات يَحدو بكلّ أحدٍ إلى وطنه فيسلكُ بكلٍ أحـــدٍ علـــى طريق استعداده الخاص به ويخاطب كل واحد على قدر عقله فإذا رأى مريـــداً فـــي مشهود ذاتيْ سمَّاه بعبد الله إذ هو مقام من رأى بصفات يُقال لها ذات مـــن حيثيَّـــة جمعها وصفاتٌ من حيث تفرقها والحق تعالى من وراء الضدينْ رؤية واحدة يتَّحـــدُ فيها الرائي والمرئي فيرى اسمهُ عين مسمَّاه وصفتهُ عين موصوفة فإنَّ من منْ رأى الاسم والصِّفة غيرة تعالى لم تصحُ له النسبة إليه بالعبوديَّة الذاتيَّة أمَّا إذا شهد الحقّ تعالى عن الأسماء والصِّفات بظهور أحديَّة الذات صحَّت له العبودية الذاتية التي هي الحرية الحقيقية التي هي عدم تقيُّد الباطن بشيئ سوى الحقٌ تعالى مطلقاً من حيـــث هو.. وخلاصة هذه الحريَّة أن لا يصدر عن صاحبها في حقِّه ولا في غيـــره فعـــلٌ لأجل نفسه ولا لأجل غيره بل الله وحده بمعرفةٍ تامَّةٍ وحضور تامْ وإذا رأى مريـــداً في مشهدٍ وجوديْ سمَّاه بعبد الرحمن إذ الرَّحمة هي وجود ما بدا لأنَّ ظهـــور مـــا ظهرْ إنَّما كان بالرَّحمة الإيجاديَّة وقد علمت إنَّه ما ثمَّ إلاَّ الوجود ومراتبه وقد اقتسمَهُ هذان الإسمان فأخذ الاسم الله المراتب وأخذ الرحمن الوجود ولما كان الله جامعاً لكل

شيئ وكان الرحمن جامعاً لحقائق العالم وما يكونُ فيه وهذا قيل: "رحمن الدنيا والآخرة" ولهذا قيل لهم "أدعو الله أو أدعو الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى" وإنّما لم يقل فلهما "لإتحادهما في المدلوليّة" فهما اسمان علمان للحق تعالى ثم إنّ دُعائهم إنّما هُوَ تعلّقهم بالحق تعالى لمنافعهم على قدر معارفهم وهي عند اسمه الرّحمن وهذا السم الرّحمن يتضمّن جميع الأسماء الحسنى إلاّ الله فإنّه له الأسماء الحسنى والرّحمن وما يتضمّنه من الأسماء يتضمّنه الاسم الله فكل من ينادي الله تعالى فإنّما ينادي منه الرّحمن خاصّةً وينادي من الرحمن الاسم الذي تطلبه الحقيقةَ الدّاعية إلى الدُّعاء وإذا رأى الكامل مريداً مشهده من مرتبة أخرى من مراتب الأسماء الجزئيّة سمّاه بذلك الاسم المناسب لمقامه ومشهده "كعبد الواحد وعبد اللطيف وعبد الجبّار وغير ذلك". جعلنا الله وإيّاكم ممّنْ يُدعى في حضرة الجميع بعبد الجامع إذ هي حضرة الذّاتَ الجامعة للأسماء والصّفات والأفعال والذّوات.

وصيّة

وأمّا الوصيّةَ الموعود بها فاعلموا إخواني سلكَ الله بكم طريق المروءة وأشهدكم حقيقةَ الحضرة لمّا ساقَ بيَ التقدير الإلهيّ إلى بلاد أذربيجان فصادفتُ في قرية من قراها تُعرَفُ "بكنجاخان" أيْ رؤية الروح. شيخاً يُقال له محمّد بنُ الصّديق بن محمّد قدّس الله سرّه. وكان رجلاً موفّقاً للتصريف في أبناء النّوع ملكوهم ورعيّتهم مؤمنهم وكافرهم لا يُخالفه أحدٌ فيما يأمرهم به وينهاهم عنه وكان يتصرّفُ في باطنهم أحوالاً وأبداناً أحكاماً وآراءً بقانون شرعي حكميّ وتفهيم لدنيّ إلهيْ كان يعبّر بلسان أبناء السُّبيل عمّا أودعَ في سورة التنزيل وينطق بلسان أبناء السبيل والطريق عمّا أودع في سرّه من التحقيق.

وكان يعطي كلَّ ذي حقّ حقّهُ على بصيرةٍ غير هائبْ لإعتراض منتقدٍ فأخذني بكلتا يديه وأقامني تحت تصريفه بين يديه منذ تسع سنين فلمّا أذن لي بالسّفر إلى بلاد الشّام ودار الإسلام وصّاني بهذه الوصيّة بلغته فغيّرتها أنا بالعربيّة قال قدّس الله سرّهُ: يا حبيبي عليكَ بالتمسّكْ بعروة المروءةَ في جميع حركاتك وسكناتك عادةً وعبادةً. فإنّها صبغة جامعة لكمال الإنسانيّة وهي نعتُ أبيكْ آدم في ذلكْ لأنّها اسم اشتقّت من المرء وهي لفظةٌ وُضِعت لِمعان كثيرة واقعة على محاسن جمّة من مكارم الأخلاق وممادح الأوصاف. قد جمعت مناقب الأنبياء والأولياء وخصائص

السَّادات والكبراء وخصال الملوك والوزراء وهي همَّةٌ من قلوب الأشراف من بني آدم وليس بعد مقام المعرفة التَّامة مقام أعلى من مقام المروءة وهو المقام المسمَّى بالتصوُّفْ الذي هُوَ حسن الخُلُقْ وأدنى مرتبة المروءة الاشتغال بالله عن كل ما سواه عبودةً وأعلاه الفناء في الفردانيَّة وهي حضرة الجمَع أعني حضرة الذَّات المقدَّسة الَّتي تستغرق الأسماء والصِّفات والمروءة فضل الإنسان على سائر المخلوقات ملكاً وفلكاً وجميع العبادات الدينيَّة والأخلاق الرضيَّة المرضيَّة نتيجة المروءة ولولاها لم يحفظ أحدٌ جوارحهُ عن الرزائل اللهم أحفظنا بحفظكْ الَّذي لا يُرامْ وأكنفنا بكنفكْ الَّذي لا يُضام وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله الأطهار وقدَّس الله أوليائه الأبرار.

رسالة الأذكار
الموصلة لحضرة نور الأنوار

"بسم الله الرحمن الرحيم"

صلّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّمْ

يقول الفقير من الفقير إلى الفقير حسن بن حمزة بن محمَّد الشيرازي الصُوفي المعروف بالشرف البلانسي أدار الله كؤوس عقار مَدام دوام حبِّه ونكره على قلبه وروحه وعقله وسرِّه وسقاه تصديق تحقيق رقيق قربه وبرّه بأبريقْ طريق بريق عرفهِ ونكرهِ على سماع أنغام أنعام أوتار آثار أنوار أمراج أمواج بحر الوجود وبرِّه

"بسم الله الرحمن الرحيم"

الحمد لله الَّذي روَّحَ القلوب بسماع كلامه الَّذي هو الضياء والنُّور جلاءً للكروب وشفاءً للصُّدور يزيد في الخلق ما يشاء من حسن النَّغمْ والأصواتْ ويهدي مَنْ يشاء إلى عجائب ما فيها منَ المعاني والصِّفات تهتزُّ بشوقه الشعائر وترتاح وتطمئنُّ بذكره القلوب والأرواح قصَّر بصَر العارفين على ملاحظة قدس حضرته ووقفها على مشاهدة عجائب قدرته صرَّف إليه ضمائرهم وأفكارهم وحجبَ عن غيره بصائرهم وابصارهم فيه سماعهم وإليه استماعهم شُغِلَتْ عما سواه أبصارهم وأسماعهم فهم الَّذين أخذهم الله عن جميع الأغيار وجعل قلوبهم خزائن الأسرار ومعادن جواهر الإنكار والأفكار. أحمدُه على ما خصَّ أوليائه بألطاف المشاهدات وأضاف الكاشفات بعد العبور على طريق المكابدات والمجاهدات وأصلِّي على سيِّد السَّادات ومقدِّم الكائنات ومشرِّع الأسماء والصفات محمَّد ذي المعجزات الباهرات والدلائل والآيات وعلى آله ذوي الحجج الواضحات وعلى أصحابه الأنجم الزاهرات وعلى إخوانه الشموس المشرقات وسلِّم تسليماً كثيراً

أمَّا بَعد فقد التمسَ مني بعض إخواني في الدين وأخذاني في طلب حقّ اليقين وأقراني في سلوك الطريق وخلاني على التحقيق أن أكتبَ له رسالةً موجزة وعجالةً مختصرةً تشتمل على ما حصل لي في خلوتي من إنكاري ومناجاتي بأنواع الأسماء الإلهيَّة المناسبة لأحوال أصحاب الهداية وارباب التوسُّط وأهل النهاية وسماً ورسماً وعلماً وحكماً ومعرفةً وذوقاً وشوقاً ووجداً وعشقاً وكشفاً وشهوداً وحقيقةً ووجوداً.

من الأحوال الغريبة والآثار العجيبة والأنوار الشريفة والأسماء اللَّطيفة فأشفعتُه بمُلتَمسه وأظفرته بموجب مقترحه ومقتبسه وسميتّها رسالة الإنكار الموصلة إلى حضرة نور الأنوار

ورتبتّها على:مقدمة وأنوار وخاتمة وأسرار.

تنبّه الغافلين وتوقظ النائمين وتهيِّج شوق الطالبين وتحرّك بلابل العاشقين وتحثُ ركاب السَّالكين حتى توردهم شارع اليقين وتوصلهم إلى رتبة العارفين الواقفين فيصبحون من الفائزين الفرحين المستبشرين المبتهجين بحضرة جلال رب العالمين.

المقدمة: في بيان وحدانية الله تعالى

اعلمْ أيَّدك الله برَوح منه وأمدك بنورٍ من لدنه. إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وصف نفسه في القرآن المجيد بنوعين من الصِّفات الإلهية أحدهما: "الإجلال" وهو إشارة إلى الصِّفات السلبية، والثاني: "الإكرام" وهو إشارةً إلى الصِّفات الثبوتية الإضافية فقال سبحانه وتعالى: "تباركَ اسمُ ربكَ ذو الجلال والإكرام" والإلهية هي حقيقة جامعة للازم السَّلب والإيجابْ إذ الكلُّ مستندٌ إليه تعالى ومحتاجٌ إليه وهو مستغنٍ عن الكلّ. وما كان كذلكَ كانَ واحداً مطلقاً وإلاَّ كان محتاجاً إلى أجزائه. فالإلهيَّة من حيث "هي، هي" تقتضي الوحدة والوحدة لا تقتضي الإلهية. وأما الذات المقدَّسة الأحدية فهي حقيقة أحدية تكون عنها الكثرة والوحدة ولا يصحُّ هذا إلاَّ في جناب الحقِّ سبحانه وتعالى خاصَّة.

وأمَّا في قضية العقل فلا يصدر عن الواحد إلاَّ واحداً أبداً وأمَّا الذاتْ الأحديَّة فهي حقيقة أحدية تكون عنها الكثرة والوحدة في حكم الشهود لأنَّ أحديَّة الحق سبحانه خارجة عن حكم العقل وطوره فلا تدخل تحت الحكمْ. فكيف يدخلُ تحت الحكم مَنْ خلق الحكم والحاكم هيهاتْ ليس للعقل الأحدية أبداً والحق تعالى قد تُعقل به الأحديَّة وقد يُنقل بالإضافة لأنَّ الكلّ له وبه ومنه وإليه "وهُوَ إذ هُوَ" عين الكلُّ لا كلية جمع بل هُوَ حقيقة أحديَّة تكوَّن عنها الكثرة والوحدة فالأحدية والصَّمديَّة لله الواحد الأحد القهَّار جلَّ جلاله وعظمتَهُ وعزَّتْ أفضاله وهُوَ فوق مقادير العقول بدليل قوله وتعالى.

"وهو القاهر فوق عبادهْ وهو الحكيم الخبير" فمعرفته سبحانه لا تكون إلاّ بالعجز عن معرفته إذ ليس كمثله شيئ فقول القائل: ليس كذا وليس كذا مع كونه يثبت له تعالى ما أثبته لنفسه إيماناً لا من جهة عقله ونظره فليس يعقله إلاّ القبول منه فيما يرجع إليه. فهو الرحمن الرحيم الربُّ الملك القدوس السَّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبَّار المتكبِّر الحيْ العالم المريد القادر القاهر الجوَّاد المقسط الحكيم والخالق والبارئ والمصوِّر.

فهذه وأمثالها من الصِّفات أخبرنا بها عن نفسهُ فنحن نؤمن بذلك كلّهُ عن نفسه فنحن نؤمن بذلك كلّه كما علمه بذلكْ. لا على تأويلٍ منًّا لذلك فإنَّه ليس كمثلهُ شيئ وهو السميع البصير. فلا يضبطه العقل ولا النَّاظر فما لنا من العلم به تعالى من طريق الإثبات إلاَّ ما أوصلهُ إلينا في كتبه وصحفه وعلى ألسنة أنبيائه المترجمين عنه ليس غير ذلك ونسبة هذه الأسماء وغيرها إليه تعالى غيرُ معلومةٍ عندنا فإنَّ المعرفة بالنسبة إلى أمرٍ ما موقوفة إلى علم المنسوب إليه وعلمنا المنسوب إليه ليس بحاصل فعلمنا بهذه النِّسبة الحاصلة ليس بحاصل فإنَّ كلٌ ما لا يمكن حصوله إلاَّ بالوهب الإلهيْ من طريق الكشف والشهود والمشاهدة والرؤية والتعريف الربَّاني والتَّعليم الرَّحمانيْ فحصوله مِنْ غير هذا الطريق محالوقد عرفت مأخذ العقل من أين تركيب براهينها وأدلَّتها فالقصور بها منوط والإقدام على هذه الأمور غير حسنٍ فلا سبيل للتعرُّضْ لنفي الصِّفات ولا لإثباتها إلاَّ "إيماناً" بل والمشاهد والمكاشف والرَّائي كلَّهم يضربون في حديدٍ بارد فالأولى لأصحاب العقول وأهل النظر بالفكر والوجود الوقوف والإقرار بأحكام الصِّفاتْ فإنَّ مَن أثبت أعيان الصِّفات زائدةً على الذات المقدَّسة الموصوفة بها فقد أثبتَ العدد والكثرة في الله سبحانهُ وهُوَ تعالى واحدٌ من جميع الوجوه فلا يقال لا يلزم مِنْ هذا إثباتْ العدد على وجه ما فإنَّا نقول: ثَمَّ ما هو أشدُّ عليهم مِنَ العَدد والكثرة وهو إنْ تكون الذَّات المقدَّسة كاملة بغيرها إذ كلّ كامل بغيره ناقصْ في ذاته. تعالى الله الواحد الأحَد عَنْ أن يكون كاملاً بغيره وأما مَنْ نفى أعيانها خوفاً مِنْ مثل هذين المقامينْ أمَّا الكثرة وأمَّا العَدد يلقاهُ أمرٌ آخر وهوَ أن الحكم لا يقدرُ من جهة الدليل الذي قدَّستموهُ على معرفة الله تعالى أنْ يثبت هذه الأحكام للذَّات مجرَّدةً فإذا أثبتَ كونَهُ قادراً لنفسه وقع الفعل أزلاً وهو مُحالٌ وإثباته

قادرٌ لنفسه مُحال فلم يبقَ إلاَّ أنْ يُعلمْ إنَّ الأسماء للذَّاتْ المقدَّسة هي أحكام ترجَع مِنَ المحدثاتْ إليها وهيَ قسمانْ: معلومة ومجهولة.

أمَّا المجهولة: فلا كلام فيها حتَّى تُعلَمْ.

وأما المعلومة: فهي على أقسام منها ما يدلُّ على عين الذاتْ المقدَّسة لإيقــاع التمييز للسَّامع مع من العبارة ويُسمَّى مرتجلاً أو جامِداً.

وهذا الإسم لولا نحنُ ما أطلق عليه ومنها ما يُعقلْ منهُ معنــى زائــد علــى الذَّاتْ المقدَّسة أم لا، ففيه توقُّفْ بالنظر إلى العقل فإنْ دلَّ على عين فهل هو عــين الذَّات المقدَّسة ومَنْ صائرٍ إلى إنَّه ذاتٌ زائدة وثمَّ إسمٌ يُعقل منه سلبْ مــا لا يليــق بالمسمَّى (كالقدُوسْ) وثمَّ إسمٌ يُعقل منه إضافةٌ ومسلوبْ مَعاً مثل (القيُّوم) ومعنى هذا كلُّهُ فمنّا نعقله لا منهُ.

تنبيه: في الفرق بين ورود الاسم بما يراد به المسمى وروده بما يراد به اللفظ الدال على المسمى

اعلم إنَّ الاسم قد يردُ ويُراد به المسمَّى ويَردُ ويُراد به اللفــظ الــدَّال علــى المسمَّى فالخلاف في هذه المسألة لفظيٌّ ليس بأيدينا على الحقائق أو "الحقيقــة" مِــنَ الحقُّ تعالى إلاَّ أسماؤه ولا يَعقلُ منه غيرها وبهذه النسبة سمَّيناه معروفــاً ومعلومــاً ومذكوراً ومسبَّحاً وممجَّداً وسمَّينا أنفسنا عــارفين، عــالمين، ذاكــرين، مســبَّحين، ممجِّدين، وهذا لا يقعُ التَّسبيح والتَّقديسْ إلاَّ على الإسمْ. قال تعالى "سبِّح اسم ربِّــك الأعلى وتباركَ اسم ربِّكَ ذو الجلال والإكرام والاسم ليس إلاَّ علامة للمسمَّى يُعرفُ به عند الغيب ما احتيجَ إلى الاسم إذ الإشارة تنتفي في الحضرة فكيفَ العبارة فــإنْ قيل المسمَّى لم يزل حاضراً ظاهراً لم يغبْ قط ولا يغيب. والعالم لم يظهر قــط ولا يظهر أبداً فمن أين حدَث الاسمْ؟ أهو أمرٌ حُدِثَ من الأثر؟ أو هو أمرٌ يكــونُ عنــد الأثر؟ أو كلاهما؟ قلنا إن أُريدَ بالاسم غير المسمَّى فالاسم يُحدث مــن الأثــر. وإن أُريد بالاسم المسمَّى وهو ما كان مركبًا تركيباً معنوياً أو حسّيّاً أو غير مركباً تركيباً معنوياً أو حسّياً كلفظ وجوده مثلاً "رحيم" أي ذات رحمةٍ فالمسمَّى بهذه التَّسمية هــو عين تلك النسبة..... بين ذات ورحمة حتى جعل عليها من هذه النسبة اســم فاعــل

وإن كانت التسمية جامدة لا يُعقل منها غير الذَّات فليست بمركَّبة تركيباً مثل "إنسان" تحت مركَّب حسِّي.

تنبيه: في الفرق بين الاسم والرسم

اعلم إنَّ الفرق بين الاسم والرسم حالٌ للعبد في الوقت من الأسماء الإلهيَّة عند الوصل وهو إدراك الغائب وإنَّ الرسم نعتٌ يجري في الأبد بما جرى في الأزل والفرق بين النعت والصِّفة، إنَّ النَّعتْ هو ما طلبَ النسبة المدعيَّة كالأوَّل والآخر وإنَّ الصِّفة هي ما طلبَ المعنى الوجوديّ كالعالم والعلمْ.

تنبيه: فيما نهى الله عنه

اعلم إنَّ الله سبحانه وتعالى من رأفته بعباده حذَّر نفسه فقال تعالى "ويحذِّركم الله نفسَهُ" فالله رؤوفٌ بالعباد معناه لا تتفكَّروا في ذاته وقال رسول الله "صلعم" تفكَّروا في آلاء الله ولا تتفكَّروا في ذات الله. وقال عليه السَّلام "كلُّنا في ذات الله حمقاء" وإنَّما نهانا وحذَّرنا عَنْ التفكير في ذات الله عزَّ وجلَّ لأنَّه غير ممكن وذلك لأنَّ الفكر في الشيئ مسبوقٌ بسبق تصوُّره وتصوُّركنه حقيقة الحقّ تعالى غير ممكنْ فالذكر فيه غير ممكن فعلى هذا لا يمكن الفكر إلاَّ في مخلوقاته تعالى وأمَّا في ذاته تعالى فمحالٌ فإنَّ الذات المقدَّسة من حيث هي هي لا تُعقل. أمَّا من حيث إنَّها منعوتة بالإلهيَّة فإنَّها تُعقل ولا تكتشفْ وإذا كان الحقُّ سبحانهُ فوق مقادير العقول ولا تقوم دلائل العقول عليه تعالى ولا سبيل لها إليه لأنَّ حضرة جمعُهُ هي أحديَّة يكون الموصوف بها وصفهُ في شهود الشاهد فالشاهد هو ليس غير المشهود هُنالكْ فالعقل معقولٌ عَنْ إدراك جمع الجمع فضلاً عَنْ إدراكْ أحديَّة الجمع فأدلَّة العقول إذاً لا تدركهُ ولا شكَّ إنَّ سبيل العقول هي التصرُّفْ في المقولات العشر بالكلِّيات الخمس وجميع العقول لا تتجاوز ذلكْ والمقولات بأسرها والكلِّيات بأجمعها هي مأخوذةٌ مِنْ تشبيه خفيٍّ في الأشخاص والأشخاص هي جميع ما يترتبْ عليها المحيط التَّاسع إلى مركز الأرض وهي شخص واحد من أشخاص أنواع غير متناهية في النَّوع فكيف في الشخص وهي من عالم الخلق وعالم الخلق لا يدرك عالم الأمر فضلاً عن إن يدرك الحقيقة الأحديّة الجامعة للعالمين.. قال سبحانه وتعالى " ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين " فإذاً لا دليل على الله إلاّ الله ولا سبيل إلى الله

إلاّ بالله بل يعرف الله على الحقيقة الا الله ولا يرى الله إلاّ الله ولا فاعل إلاّالله ولا في الوجود إلاّالله.. وأفعاله صفاته.. وصفاته لا تغايرْ ذاته.. فهو لا هو ولا هو إلاّ هو.. وأدرْ القول معه كيف شئتْ وإذ كان ذلك كذلك فاعلم إنّ سلك الطريق إلى الله عزّ وجلّ والفكر والنّظر والتعليمْ كما هو وأب الفلاسفة ومن نحا منحاهم من أهل النّظر من طريق قياس الشاهد على الغائبْ والإثباتْ إنْ شبّهوه وبالسلبْ إنْ نفوه والقطع في الطريق دون بلوغه إلى التّحقاقْ.. وبات بين مقام النقل والتقليدْ ولم يصل إلى مقام التجريْد والتّفريْد..

فضلاً عنْ الوصول إلى ما فوق مقامْ المعرفة والتّوحيْد ولا يصل أبداً إلى ما يثلج فيه الصور ولا إلى ما يحصل به اليقينْ والنّور.. وقد أخبر رئيس فلاسفة الإسلام"أحد هؤلاء الثلاثة: الفارابي – ابن سينا – نصير الدين الطوسي.. " عن انقطاعه فيْ عدم وصوله إلى التّحقيقْ فقال نظماً: " فيا عجباً"

فيا عجباً إنّ كلّ امرىءٍ طويل الجد إلى رقيقُ الكَلِمْ
يَموتُ ومَا حصَّلتْ نفسهُ سوى علمهُ إنَّه مَا عَلِمْ..

وقالَ أيضاً..

عديتُ مني بدَنا إن كِنتُ أدريْ من أنا..

وقال موفق الدين ابن الحديد البغداديُّ رحمَه الله نظماً..

فيك يا إغلوطة الفكر حار فكري وانقضى عمريْ
سافرَتْ فيكَ العقول فما ربَحتُ إلاّأذَى السَّفر
فلحى الله الأُلى زَعموا إنكَ المعروفُ بالنّظر
كذبوا إنّ الذي زعموا خارجٌ عن قوّة البشَر

وقالَ رئيس المتكلمين.. "فخر الدين الرازي":أنا أعرفُ الله تعالى بالنَّظر إليْه والفكر.. فلما دنت وفاته استغفر وقال: نهاية ما علمتْ بالنّظر والفكر إني علمتُ شيئاً وأكثرهم بل جميعهم اعترفوا إنّهم ما عرفوا شيئاً. وإنّما منعهم من الوصول إلى

الواحد الحقّ استناد علومهم إلى صور الأشياء وهي التعيّنات العدميّة المسمّاة بالفرق..

وهي ما تمتاز به الأشياء بعضها عن بعض ويمتاز الحق تعالى عنها.. وهي نِسَبٌ في الوجود..

وإلاّ لما كان عنها عبارةً إذ العبارةُ نفعٌ باعتبار الوجود إذ فيه التَّمايُز في العَدمْ.. فاعجبْ لها منْ متلازمينْ متقابلينْ فالتّمييْز في الوجود.. لا بالوجود وبالعَدم لا في العَدمْ.. والتعيُّناتْ هي عالمُ الخلق وهيَ البَرزخ.. ولكونها أعْداماً فلا نسبَةَ للعَدمْ إلى الله تعالى لأنَّه الوجود البحتْ الصِّرفْ المحضْ وما سواهُ عَدمْ صَرف وتفرقة محضَة.. وأمّا الجمع المقابل لهذا الفرقفهو ما به تشاركُ الموجودات وهو الوجود. وصِفَةَ استنادهم إلى صُوَر الأشياء كما مرَّ.. إنَّهم انتزعوا منَ المحسوسات صوراً ذهنيَّة هي تلك التعيُّناتْ. التي أشرنا إليها بعينها فوجدوا تلك الصُّوَر في أذهانهمْ متمايزة مُتعيِّنة فأضافوا الأشياء إلى أشباها وحصروها في كلّيات خمس وهي:

الجنس، والنوع، والفصل، والخاص. والعرض العام. وحصروا ما تتصرَّف في الكلّياتْ الخمس في مقولاتِ عشر وهي: الجوهر.. ولتسعة أعراض وهي: الكمّ، والكيفْ، والإضافة، والأين، والمتى، والوضع، والجدَّه، وأن يفعل وأنْ ينفعل.. وقد جمعَ بعضهم الجميع نظماً.. حيث قال:

سهلُ الطويل الأسوَد بن مالك في بيته بالأمس كانَ متكّي
بيدِهِ سَيفٌ لواهُ فالتوى فهذهِ العشرُ مقولاتِ سَوي

كلُ هذه صور الموجوداتْ ولذلك لا تحمل إلاّ على صوْرةِ صوْرةِ مثل قولهمْ كلٌ "ج. ب" أيّ كل صورة من صورة الجيم فهي صورة ما من صور الباء والصُّورةُ مجهلةٌ غرّارةٌ نعوذ بالله منها والشيئيَّاتْ هي الصُّور على اختلافها وعلى حقائق نسب متمايزة تحجبُ عنْ الحق تعالى ولا تدل على التوحيد بل تدلُ على الشركْ. فمن كثُرَتْ تعلُّقاته.. عسُرَ خلاصةُ من الحجابْ فحظٌ كل إنسان..

من الحجابْ لحظةَ من التَّعلُّق بالصُّور فإذا تجلى الحق بإنوار وحدانيتهُ على القوَّة الباهرة من حضرة الاسمْ الظَّاهرْ تعلَّق الإدراكْ بالأنوار اللاّمعـات والجـالي الظاهراتْ.. وروْيَ الحق الحق في جميع الممكناتْ فضلاً عـنْ صُـورَها وتفنـي الصُّور حال شهوده بل الأغيار والسِّوى بأسرها في نظر المتجلي لهُ لأنَّه إذا اظهـر من لم يَزلْ فهيَ منْ لم يكنْ وفناؤهُ بوجهٍ عجيب غريب عند الاسم وهو أن تصـير "هي.. هو.. " في شهود الشَّاهد فإن قيلَ من لم يكن لا يقال فيه يفنى..

لأنَّ الذي يفني في العرف فلا بُدَّ أن يكون لهُ تحقق ما.. وذلك كون ما كيـف يُقال في إنَّه لم يكن.. الجواب.. قلنا من عرف التَّعينات والنَّسب والإضافات المسمّاة بالأغيار وبالسِّوى والحرف وغيرها من أسماء الصُّوَر.. علِمَ أنَّ من لم يكنْ كيـف يغنى وذلك أنَّ الذي كان يراه قبل وصوله إلى شهود مقامٍ كان الله ولا شـيء معـه غيره صار في شهوده عيناً وإلاَّ فالحق تعالى لم يزل ظاهراً ولا يزال كذلك إذ مـا ظهر سواه ولا يظن غير ويلزم غابَ وظهر للقوى والأوهام ولا يلزم.. للحقيحة منها بشيء. وكيف يلزمها ومنها.. منشأها فالمعلوم لا يصير موجوداً أبداً كما إنَّ الواجب لا يصيرُ محالاً أبداً لأنَّ الحقائق لا تنقلبْ وإليه الإشارة في القرآن المجيـد بقولـه تعالى: "لا تبديل لكلمات الله ولا تبديلَ لخلق الله.. " فالإثبات راجع إلى المثبتْ لأنَّـه ما أثبت إلا ما هوعليه في نفسه والسَّلبْ راجع إلى العدم والعدم نفي محـض لأنَّـه عبارةً عن اللاّوجود وهو ولا يقال هو إلاّ.. لضرورة التفهيمْ.. اسمٌ ليسَ له مسـمّي وحقيقةً متَّصلة. بل هو ألفاظ دالةَ على لا شيء من كلٍّ وجه وهي "العين والـدلي.. والميمْ" وهذه الحروف التي تركَّب منها هذا الإسم هي موجودة ذهناً ولفظاً وخطاً لا عيناً ووجوداً وذاتاً وحقيقة محصلّة ومالا وجود له في الخارج والأعيان فهو باطـل من حيث معناه.

وحقٌ من حيث حروفه فإنها موجودة في ثلاث مراتب من مراتـب الوجـود أعني: ذهناً ولفظاً وخطّاً، لا عيناً وثبوتاً وحصولاً وغاية أحدهم الثبتـين والنفـاة إذ انتهى إلى نهاية مقامه أعني مقام العلم العرفي النظري الفكري أن يعتـرف بجهلـه ويدَّعي إنه علم أن ما علمْ وهذا طريق مُبعد ومُجهل لا مقرِّب ولا مُعرف فإنَّ العلم بالسَّلبْ سلبْ العلم وهذا العلم إلى الجهل أقربْ منه إلى العلم وإلى العمى والحجـاب أقرب منه إلى البصيرة والكشف والسلوب والإضافات والنُسـب والتعينـات كلهـا

عدميَّات فأين العلم بالله؟ هيهات ولا يحيطون به علماً فأنَّ للمقيَّد بمعرفـة المطلـق والمحدث بمعرفة القديم والممكن بمعرفة الواجب "ما للتراب وربُ الأرباب" ويدخل إلى الملوكْ بإذنْ حجَّابها، فمن سبحٍ في بحر الأفكار العقليَّة بالوسائط الخياليَّة فهـو الحائر الذي لا يهتدي أبداً فإنَّه يطلب من كل شيئ حقيقتَه فإنه إذا قال وجـدت وقـد حَصَّلتْ ما كنتُ طلبته فقد خسر وسقط في يده من حيث لا يشعر.

فالسَّعيد من أهل الفكر والقلبْ مَنْ لا يثبتُ له قدم ولا يستقرُ بـه منـزل ولا يتنفَسُ الصَّعداء ويقول انقضى العمرْ وما أنتج طلبي إلا الحيرة والقصور فذلك أسعد أهل الفكر ونعوذ بالله من ظلمة الأفكار.

جملة سارية في كتب الصوفيَّة لم أعرف قائلها وهي واضحة. فيما لا ينبغي أن نفكِّر فيه، فالعالم المحقق مَنْ أتى البيوت من أبوابها وطلب الحكمة من أربابهـا ولم يأتها مِنْ ظهورها فثمَّة علوم لا تحصل إلاَّ مـن طريـق المشـاهدة أو العـين وملازمة الذكر فلا تصلُ الأفكار إليها أبداً لمعرفة الذات المقدَّسة والنشـأة الآخـرة وأحكامها وشبه ذلكْ.

وأمَّا من سلك إلى الله عزَّ وجلَّ بطريق الذكر والتَّسليم واعتصم بالله وجاهـدَ في الله حقَّ جهادَهُ على يَدُ سالكِ عارفِ مرشدٍ كامل من حيث التعيُّناتُ لا من حيـث التيقنات ومما يتمايز به بل من حيثُ الشهود وصلة بالوجود كما هو دَأبْ الصـوفيَّة أهل الجمع والوجود والرزق والشهود والكشف الحقيقيُ والتجلِّي الكلِّي فإنَّـه يصـل ويعرفْ أن الحق تعالى لا يشهد إلاَّ بعينْ الجمعِ المقابل للفرق والجمع هو مـا بـه تشارك الموجودات وبه تجتمع المتفرقات وتأتلفُ المتباينات والتَّباين هو بالتعيُّنات مع العدميَّة فإنَّ إدراك الفرق صعبْ لأنَّه بحرٌ مغرق. غرِق فيه الأوَّلون والآخـرونْ إلاَّ أهل شهود الوجود لكنَّ الغريق في هذا البحر ناجٍ سَعيد وأمَّا النَّاظر إلى هذا البحـر من سيفه وساحله المشفق على نفسه من طوله فهو ناجٍ محروم ولقـد غـرق فـي غمرات الجهلْ مَنْ ليس له دليلْ ومرشد كما يغرق في بحر الدنيا من ليس له سـفينة ولا دليل وهم الأكثرون إذ الناس كثيرون والعلماء منهم قليلون والعلمـاء كثيـرون والعارفون منهم قليلون والعارفون كثيرون والواقفون منهم قليلون والواقفون كثيرون والرَّاؤون منهم قليلون والرَّاؤون كثيرون والجلساء منهم قليلون والجلساء كثيـرون وجليس العزيز منهم واحد فرد لإنفراده بالوجود عَنْ العدم وبالذات عن الأسماء حتى

عن الاسم العَلَم وله في هذا المعنى نظما وهُوَ جوابْ سائل سألني في مدينة الموصل عن مذهبي بطريق الإستهزاء فقلتُ له:

يا سـائلاً عنّـي ليعـرفَ مـذهبي هيهـات دونـك مـانع ومنيـع
أن كنتَ تنكرني أنـا الفـرد الـذي لا تـابع أبـداً ولا متبـوع
يا سـائلاً عنـي ليعـرف مـذهبي هيهـات دونـكَ مـانعٌ ومنيـعُ
إن كنتَ تنكرنـي أنـا الفـرد الـذي لا تـابعٌ أبـداً ولا متبـوعُ

فلمَّا سمع هذين البيتين أنكر عليَّ وكفَّرني وجرتْ لي معه وقائع لـيس هـذا موضع ذكرهُ وبالجملة قلتُ لهمْ اسمعوا معناهما ليزول عن نفوسكم الإنكار قالوا: قُل فقلتُ لهم اعلموا فتح الله أعيُن بصائركمْ إنَّه كما إنَّ الحقّ سـبحانه وتعـالى انفـرد بالوجود وليسَ معَهُ سواه حتى نطلقَ عليه "إنَّه تابعٌ" "أو متبوع" لأنَّه فرد في الوجود بل هو عينُ الوجود وما ليسَ بوجود فهوَ عَدمٌ مَحضٌ فلا يَتبَع المحقق في القـدم ولا يُتَّبع فكذلكَ الإنسان انفردَ بالعدمْ لرجوعه إلى أصله فإنَّ العدم وَصفَهُ المحقـق فـي القدم كما قال تعالى "هل أتى على الإنسان حينٌ منَ الدهرِ لم يكن شيئاً مـذكوْرا... " وقال عزَّ من قائل لزكريَّا عليه السَّلام "وقد خلقتك من قبل ولم تكن شيئاً... " أيْ ولم تكن موجوداً إذ الشيئ اسمْ للموجود وما ليس بموجود أصلاً فهـوَ معـدوم حقيقـةً والمعدوم لا يتبعُ الموجود ولا يتَّبعهُ الموجود فسلَّموا واستغفروا وشكروا بشيئ مـن الدّنيا فثبتَ إن الطريق المُوصل إلى الحق هو من حيث التعيُّنـات التـي هـي أوّل وجوده وفيض جودهُ وتجليات نوره في العالم في أطوار ظهوره فإذا اعتبـرتْ مـن حيث شهود الوجود كانت أنواراً فائضَة وأسراراً بادية من نور ظهـورهُ وأمـا إذا اعتبرتْ من حَيثْ التعيُّنات وهي الإمتيازاتِ العدميَّة والفروقْ العدميَّة كانـت ظلمـةً باديَةً منْ فَوتْ مرام الحق وإلى مرام الحقّ آبيَة. ولمَّا كان الحق سبحانه هُوَ الوجود المحضْ كانت المعلومات مثل مَنْ فاتهُ الوجود وفاته أيضاً أن يَروم الوجود فإنَّه لـو رامَ الوجود لكانَ له نصيبٌ منَ الوجود إذ لا يَطلبُ الشيئ نقيضَـهُ لأنَـه إذ ذاكَ لا يكون طالباً ما يطلبهُ فكأنَّه يكونْ على هذا التقديرْ ليسَ عَدماً إذ ذاكْ لا يكون طالباً ما يطلبهُ لأنْ ما يُطلبُ عدمهُ فهو وجود لكنَّ التقدير إنَّه عدم فدفات بهذه الجهة مـرام الوجود فتعيُّنها هوَ في مقام فوت الوجود وذلك هوَ العَدمِ ولمَّا كان الحـقُ سـبحانهُ

وجوداً محضاً وفوت الوجود هو العدمْ. فالظلمْ أعدام ومنشأها في فوتْ المرام ثم هي إلى فوتِ المرام آيبَةَ أيْ راجعَة فإنَّ العدمْ إنَّما يَرجع إلى العدم ولمَّا كان الوجــود لا يظهر إلاَّ جزئيَّاته كان العدم لا يظهر إلاَّ باعتبارات تقابل تلكَ الموجــودات وهــي أيضاً جزئيَّة ولمَّا كان حظ الوجود المحقَّق أن يكون في الخارج كان ما هو من الظلم فيما يقابل وهو الداخل ويعني به الذهنْ.

سؤال: لا يُقال إنَّ الذهنيَّات موجودات ذهنيَّة وأنت قلتْ إنَّ هذه أعدام فكيــفَ تفرضها في الذهن؟ وجواب: ذلك يقتضي لها السَّــبب الموجــود وإن كــان ذهنيَّــاً الجواب: لأنَّ نقول لا شكْ إنَّ في الذهنْ سلوباً وتصوُّراً السلوبْ هو وجودي والسَّلبْ نفسه عدميْ فالتصوُّر هو الذي أوهم أنْ يكونْ ذلكَ العدم الإضافيْ عن عدم إن كــان يُعدم فمعناه إنَّه لم يقع أخبار وحينئذٍ يبطل التفاهم بين المتخاطبين فاضطر الحال أنْ يُستعار لهذا النوع وجوداً أو أضعفْ الموجوداتْ هي الذهنيَّاتْ وكل ما يعتريه الذهن اعتباراً ولا وجود له في الخارج فإنَّهــا ظلــمْ ولــذلكَ لا يتحقــقْ إلاَّ باعتبــارات الموجودات والسلوبْ كلها من الظلم لأنَّ الموجود هو النور وهو الحق والعدم هو ما يقابلهُ وهيَ الظلمة وهي الباطل ولهذا مَنْ سلكَ إلى الله تعالى مِنْ حيــثْ التعيُّنــات العدميَّة لم يهتدِ إلى باب القدس ولم يصل إلى روح الإنس ولا إلى جنان القدس فمَنْ اقتصر مِنَ السَّالكينْ إلى الله تعالى على الموجود ووقفْ مــع الســلب أفلــح وقــال بالشهود وفاز بالخلود وظفر بالقصور ووصل إلى المعبود وأضاء بــأنوار الوجــود وظهر بفيض الجوْد لأنَّ الجود هو النور وهو ماهيَّتهْ وبه الظهور فهذا ما أردنا ذكره في هذه المقدّمة والله الهادي والمرشد وتمَّتْ الرسالتان في الحكمة المتغالية والفكــر الرُّوحي.

فهرس المحتويات